

تفسير الفاسي
المسكت

مخازن التلاويك

تأليف علامه الشكام

محمد جمال الدين الفاسي

ونف على طبعه وتصحيحه ، ورقه وخرج آياته وأحاديثه ، وعلق عليه

(تادم الكتاب والسنة)

بمجددنا عبد الباقا

كُتِبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ۖ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ
[٣٨ / ص / ٢٩]

تفسير الفاسمي

المسمى

محاسن التاويل

تأليف علامة الشكامة

محمد جمال الدين الفاسمي

١٢٨٣ - ١٣٣٢ هـ

١٨٦٦ - ١٩١٤ م

الجزء الثامن

وفيه تفسير سورتي : الأنفال والتوبة

وقف على طبعه وتصحيحه ، ورقمه وخرج آياته وأحاديثه ، وعلق عليه

(خدام الكتاب والسنة)

محمد فؤاد عبد الباقي

دار الحيلة العامة للتحقيق
ميسى البابى الجلبى وشركاه

٢١٢٠٠ / ٢١٢٠٠ / ٢١٢٠٠

الطبعة الأولى
جميع الحقوق محفوظة

كلمة

كاتب الشرق الأكبر، عطوفة أمير البيان

الأمير شكيب أرسلان

في مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »
للمؤلف ، رضى الله عنه

« وإنى لأوصي جميع الناشئة
الإسلامية ، التي تريد أن تفهم الشرع
فهماً ترتاح إليه ضمائرهما ، وتعمد عليه
خناصرها ، ألا تقدم شيئاً على قراءة
تصانيف المرحوم الشيخ جمال القاسمي »
جنيف . رجب الفرد ١٣٥٣

كلمة

مصلح العصر الإمام

المعبر محمد رشيد رضا

في مجلد المنار السابع عشر ، صفحة ٥٥٨

« هو علامة الشام ، ونادرة الأيتام ،
والمجدد لعلوم الإسلام ، محيي السنة
بالعلم والعمل والتعليم ، والتهذيب
والتأليف ، وأحد حلقات الاتصال
بين هدى السلف ، والارتقاء المدني
الذي يقتضيه الزمن »

كلمة

حضرة صاحب الفضيلة ، عالم الشام الأوحد

الشيخ محمد بهجة البيطار

في مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »
للمؤلف رضى الله عنه

« إن مما يقضى بالعجب من أمر أستاذنا المؤلف رحمه الله تعالى ، هو كونه خلف زهاء
مائة مصنف أو أكثر ، ولم يبلغ الخمسين من عمره . وندر جداً أن ترى كتاباً ، في خزائنه
الواسمة ، مخطوطاً كان أو مطبوعاً ، خالياً من التعليقات الكثيرة ، والتصحيح على الأصول
الخطية الصحيحة .

ولقد كان ، رحمه الله ، آية في المحافظة على الوقت ، والمواظبة على العمل .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٨ - سُورَةُ الْأَنْفَالِ ^(١)

مدنية ، أو ، إَلا (وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ...) الآيات السبع ، فكية . وآياتها خمس وسبعون آية .
سميت بالأنفال لأنها مبدأ هذه السورة ، ومنتهى ما ذكر فيها من أثر أمر الحروب .

(١) بدأت بحاسن تأويل هذه السورة بعد عودتي من مصر بعد فجر الاثنين ٢٩ ذى القعدة سنة ١٣٢١ (مؤلفه) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ، قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا

ذَاتَ بَيْنٍ كُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

« يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ، قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا

ذَاتَ بَيْنٍ كُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » .

روى البخارى ^(١) عن ابن عباس أن سورة الأنفال نزلت في بدر .

وروى الإمام أحمد ^(٢) عن عبادة بن الصامت قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه

وسلم ، فشهدت معه بدرأ . فالتقى الناس ، فهزم الله تعالى العدو ، فانطلقت طائفة في آثارهم يهزمون

ويقتلون : وأقبلت طائفة على العسكر يحوزونه ويجمعونه . وأحدثت طائفة برسول الله ﷺ

لا يصيب العدو منه غرة . حتى إذا كان الليل ، وفاء الناس بعضهم إلى بعض ، قال الذين

جمعوا الغنائم : نحن حويناها وجمعناها ، فليس لأحد فيها نصيب . وقال الذين خرجوا في طلب

العدو : لستم بأحق به منا ، نحن نفينا عنها العدو وهزمناهم . وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ

ﷺ : لستم بأحق بها منا . نحن أحدقنا برسول الله ﷺ وخفنا أن يصيب العدو منه غرة ،

واشتغلنا به - فنزلت : « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ . . . » الآية - فقسمها رسول الله ﷺ

على فُواقٍ ^(٣) من المسلمين .

(١) أخرجه البخارى في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٨ - سورة الأنفال ، - باب قوله :

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ، حديث رقم ١٨٦٩ . (٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة

رقم ٣٢٣ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) . (٣) قال ابن الأثير : أى قسمها في قدر

فُواقٍ ناقة ، وهو ما بين الحلبتين من الراحة . وتضم فاءه وتفتح .

وهذا الحديث رواه الترمذى^(١) أيضاً وحسنه ، ورواه ابن حبان فى صحيحه ، وصححه الحاكم . ولفظ ابن إسحق عن عبادة قال : فيها ، أصحاب بدر ، نزلت ، حين اختلفنا فى النفل ، وساءت فيه أخلاقنا ، فبزع الله من أيدينا ، فجعله إلى رسول الله ﷺ ، فقسمه رسول الله ﷺ بين المسلمين على السواء .

وروى أبو داود^(٢) والنسائى وابن حبان والحاكم عن ابن عباس قال : لما كان يوم بدر ، قال رسول الله ﷺ : من صنع كذا وكذا فله من النفل كذا وكذا . فتسارع فى ذلك شبان القوم ، وبقي الشيوخ تحت الرايات . فلما كانت المغانم ، جاؤوا يطلبون الذى جعل لهم . فقال الشيوخ : لا تستأثروا علينا ، فإننا كننا رداء لكم ، لو انكسفتهم ثبثتم علينا . فتنازعوا ، فأنزل الله تعالى : « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ . . . » الآية - وهذا مما يفيد أن التشاجر كان مقنوعاً ، وأن الآية نزلت لفصله .

والأنفال : هى المغانم ، جمع (نفل) محركة ، وهو الغنيمة . أى كل نيل ناله المسلمون من أموال أهل الحرب . قال ابن تيمية : سميت بذلك ، لأنها زيادة فى أموال المسلمين . أى لأن النفل يطلق على الزيادة - كما فى (التاج) . ومنه النافلة لصلاة التطوع لزيادتها على الفريضة .

وقوله تعالى : (قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ) - قال المهايى : أى ليست هى فى مقابلة الجهاد ، وإنما مقابلة الأجر الأخرى ، وهذه زائدة عليه ، خرجت عن ملك المشركين فصارت ملكاً خالصاً لله ولرسوله . والرسول خليفة يعطيها ، على ما أراه الله ، من يشاء . ولما أطلق له ﷺ الحكم فيها ، قسمها بينهم بالسوية ، ووهب من استوهبه . فروى الإمام أحمد^(٣) عن سعد بن أبى وقاص قال : لما كان يوم بدر قُتل

(١) لم أجد هذا الحديث فى سنن الترمذى . (٢) أخرجه أبو داود فى : ١٥ - كتاب الجهاد ، ١٤٤ - باب فى النفل ، حديث رقم ٢٧٣٧ . (٣) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ١٨٠ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث رقم ١٥٥٦ (طبعة المعارف) .

أخى عمير وقتلتُ سعيد بن العاص ، وأخذت سيفه ، وكان يسمى ذا الكتيفة ، فأتيت به النبي ﷺ فقال : اذهب فاطرحه في القُبْص . قال ، فرجعت ، وبى ما لا يعلمه إلا الله ، من قتل أخى ، وأخذ سلبى . قال ، فما جاوزت إلا يسيراً حتى نزلت سورة الأنفال . فقال لى رسول الله ﷺ : اذهب فخذ سلبك . وروى الإمام أحمد^(١) والترمذى - وصححه - عن سعد بن مالك قال : قلت : يا رسول الله ! قد شفى الله اليوم من المشركين ، فهب لى هذا السيف ، فقال : إن هذا السيف لا لك ولا لى ، ضمه . قال ، فوضعتة ثم رجعت ، فقلت : عسى أن يعطى هذا السيف اليوم من لا يبلى بلأى . قال ، إذا رجل يدعونى من ورأى . قال ، قلت : قد أنزل الله فى شيئاً . قال : كنت سألتنى السيف ، وليس هو لى ، وإنه قد وهب لى ، فهو لك . قال ، وأنزل الله هذه الآية (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ...) الآية .

تنبيهات

الأول - ذهب بعضهم إلى أن أنفال بدر قسمت من غير تخميس ، ثم نزلت بعد ذلك آية الخمس ، فنسخت الأولى .

قال ابن كثير : فيه نظر . ويرد عليه حديث على بن أبى طالب فى شأرفيه اللذين حصلا له ، من الخمس ، يوم بدر . فالصواب أنها مجملة محكمة ، بين مصارفها فى آية الخمس .

الثانى - روى عن عطاء أنه فسر (الأنفال) بما شذ من المشركين إلى المسلمين فى غير قتال من دابة أو أمة أو متاع . قال : فهو نفل للنبي ﷺ يصنع به ما يشاء . قال ابن كثير : وهذا يقتضى أنه فسر (الأنفال) بالفاء ، وهو ما أخذ من الكفار من غير قتال .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ١٧٨ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث رقم ١٥٣٨ (طبعة المعارف) .

قلت : صدقُ (النفل) عليه ، لا شك فيه ، وأما كونه المراد من الآية بخصوصه ، فلا يساعده سبب نزولها المار ذكره ، لاسيما قوله : (وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ) الشير إلى التنازع المتقدم .

ثم قال ابن كثير : واختار ابن جرير أنها الزيادة على القسم ، أى ما يدفع إلى الغاى زائداً على سهمه من المنعم ، والكلام الذى قلته قبل ، يجرى هنا أيضاً .

ونقل الرازى عن القاضى ؛ أن كل هذه الوجوه تحتمله الآية . قال : وليس فيها دليل على ترجيح بعضها على بعض ، وإن صح فى الأخبار ما يدل على التعمين ، قضى به . وإلا فالكل محتمل . وكما أن كل واحد منها جائز ، فكذلك إرادة الجميع جائزة ، فإنه لا تناقض بينها . أى لصدق (النفل) عليها .

الثالث - وقع عند الزخشري أن المسلمين اختلفوا فى غنائم بدر ، لمن الحكم فيها ألبهاجرين أم للأنصار ، أم لهم جميعاً ؟ فأجيبوا بأن الحاكم فيها الرسول ، وليس لأحد فيها حكم . وتأثر الزخشري أبو السمود فى سوقه لما ذكر ، وزاد عليه اعتماده له ، بتطويل ممل . ولا أدرى من أين سرت لهم هذه الرواية . فإن رواة الآثار لم يخرجوها فى صحاحهم ولا سننهم ، بل ولا أصحاب السير ، كابن إسحق وابن هشام . وهل يمكن للمسلمين أن يختلفوا للحكم على الغنائم ، ويتنازعوا ولايتها ، والرسول بين أظهرهم ؟ ومتى عهد ذلك من سيرتهم ؟ سبحانك هذا بهتان عظيم ! ولكن هو الراى (قاتله الله !) ونبد كتب السنة ، والتقليد البحت ، الذى لا يهتم صاحبه بحقائق الأشياء ، ولا يريد معرفتها ولا فحصها بالعقل يضع قدمه على القدم ، حيث يكون مطواعاً لآراء غيره ، منقاداً لها مصداقاً ما ينطق به فمه ، غناً كان أو سميئاً . اللهم نور بصيرتنا بفضلك .

وقوله تعالى (فَاتَّقُوا اللَّهَ) أى فى الاختلاف والتخاصم ، وكونوا متحدين متآخين فى الله .
وقوله تعالى (وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ) أى أحوال بينكم ، معنى ما بينكم من الأحوال ، حق تكون أحوال ألفة ومحبة واتفاق .

وقوله تعالى (وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ) أى فى قسمه بينكم ، على ما أراه الله تعالى .
وقوله تعالى (إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) متعلق بالأوامر الثلاثة .

قال الزمخشريّ : جعل التقوى ، وإصلاح ذات البين ، وطاعة الله ورسوله ، من لوازم الإيمان وموجباته ، ليعلمهم أن كمال الإيمان موقوف على التوفر عليها . فمعنى قوله (إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) أى كمالى الإيمان .

ثم بين تعالى من أريد بالـ (مؤمنين) بذكر أوصافهم الجليلة ، المستتبعة لما ذكر من الحصول الثلاث ، ترغيباً لهم فى الامتثال بالأوامر المذكورة ، فقال سبحانه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)

« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ » أى الكاملون المخلصون فيه « الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ » أى حقه أو وعيده « وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ » أى فزعت لذكره ، وانشمعت إشفاقاً ألا تكون قامت بحقه ، وتهيباً من جلاله وعزة سلطانه ، وبطشه بالمعصاة وعقابه .

قال الجشميّ : ومتى قيل : لِمَ جاز وصفهم هاهنا بالوجل والطمأنينة فى قوله (الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ)^(١) فجوابنا فيه وجوه :

منها : أنه تطمئن قلوبهم عند ذكر نعمه ، وتوجل لخوف عقابه بارتكاب معاصيه .

ومنها : أن قلوبهم تطمئن لمعرفه توحيده ، ووعده ، ووعيده ، فمند ذلك توجل لأوامره ونواهيه ، خوف التقصير فى الواجبات ، والإقدام على المعاصى ، والمستقبل بتغيير حاله . انتهى .
« وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ » أى حججه وهى القرآن « زَادَتْهُمْ إِيمَانًا » أى يقيناً وطمأنينة نفس ، إلى ما عندهم ؛ فإن تظاهر الأدلة أقوى المدلول عليه ، وأثبت لقدمه .

(١) / ١٣ / الرد / ٢٨] .

وقد استدل البخارى وغيره من الأئمة بهذه الآية وأشباهها ، على زيادة الإيمان وتفاضله في القلوب ، كما هو مذهب جمهور الأمة . بل قد حكى الإجماع عليه غير واحد ، كالشافعى وأحمد بن حنبل وأبى عبيد « وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ » أى لا يرجون سواه ، ولا يخشون غيره ، ولا يفوضون أمورهم إلى غيره .

ولما ذكر تعالى ، من أعمالهم الحسنة ، أعمال القلوب من الخشية والإخلاص والتوكل ، أعقبه بأعمال الجوارح من الصلاة والصدقة ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)

« الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ » أى المفروضة بمحدودها وأركانها ، فى أوقاتها . والموصول نعت للموصول الأول ، أو بيان له ، أو منصوب على المدح .
وقوله « وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ » عام فى الزكاة ، وأنواع البر والقربات .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا، لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ)

« أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا » أى لا شك فى إيمانهم . و (حَقًّا) صفة لمصدر محذوف ، أى إيماناً حقاً أو مصدر مؤكد للجمله ، أى حق ذلك حقاً ، كقولك . هو عبدالله حقاً . قال عمر بن مرة (فى هذه الآية) : إنما أنزل القرآن بلسان العرب ، كقولك : فلان سيّد حقاً ، وفى القوم سادة . وفلان تاجر حقاً ، وفى القوم تجار . وفلان شاعر حقاً ، وفى القوم شعراء . انتهى .

وكأنه أراد الرد على من زعم أن (حَقًّا) من صلة قوله (لَهُمْ دَرَجَاتٌ) بعد ، تأكيداً له وأن الكلام تم عند قوله (الْمُؤْمِنُونَ) ، فإن هذا الزعم يصاب عنه أسلوب التنزيل الحكيم .

وقد تطارف بعض المفسرين هنا لمسألة شهيرة . وهى : هل يجوز أن يقال : أنا مؤمن حقاً .

قال الطوسى فى (نقد المحصل) : المعتزلة ومن تبعهم يقولون : اليقين لا يحتمل الشك والزوال . فقول القائل : (أَنَا مُؤْمِنٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ) لا يصح إلا عند الشك ، أو خوف الزوال . وما يؤم أحدهما ؛ لا يجوز أن يقال للتبرك . انتهى .

والغزالي فى الإحياء ، بسط هذه المسألة ، وأجاب عن سوغ ذلك بأجوبة :

منها : التخوف من الخاتمة ، لأن الإيمان موقوف على سلامة الخاتمة .

ومنها : الاحتراز من تزكية النفس .

ومنها : غير ذلك . انظره بطوله .

وقال ابن حزم فى (الفصل) : القول عندنا فى هذه المسألة ؛ أن هذه صفة يعلمها المرء من نفسه ، فإن كان يدرى أنه مصدق بالله عز وجل ، وبمحمد ﷺ ، وبكل ما أنى به ، وأنه يقر بلسانه بكل ذلك ، فواجب عليه أن يعترف بذلك ، كما أمر تعالى فى قوله : (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ)^(٢) . ولا نعمة أو كد ولا أفضل ، ولا أولى بالشكر ، من نعمة الإسلام . فواجب عليه أن يقول : أنا مؤمن مسلم قطعاً عند الله تعالى ، فى وقتى هذا . ولا فرق بين قوله (أَنَا مُؤْمِنٌ مُسْلِمٌ) وبين قوله (أَنَا أَسْوَدُ أَوْ أَنَا أَبْيَضُ) وهكذا سائر صفاته التى لا يشك فيها . وليس هذا من باب الامتداح والعجب فى شىء ، لأنه فرض عليه أن يحقن دمه بشهادة التوحيد . وقول ابن مسعود : (أَنَا مُؤْمِنٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ) عندنا صحيح ، لأن الإسلام والإيمان اسمان منقولان عن موضوعهما فى اللغة ، إلى جميع البر والطاعات . فإنما منع ابن مسعود الجزم على معنى أنه مستوف لجميع الطاعات ، وهذا صحيح . ومن ادعى لنفسه هذا فقد كذب بلا شك . وما منع أن يقول المرء (إِنِّى مُؤْمِنٌ) بمعنى (مصدق) .

(١) [٩٣ / الضحى / ١١] .

وأما قول المانعين : (من قال أنا مؤمن ، فليقل إنه من أهل الجنة) فالجواب : إنا نقول إن مقنا على ما نحن عليه الآن ، فلا بد لنا من الجنة بلا شك . وبرهان ذلك أنه قد صح من نصوص القرآن والسنة والإجماع ، أن من آمن بالله ورسوله ﷺ ، وبكل ما جاء به ، ولم يأت بما هو كفر ، فإنه في الجنة إلا أننا لا ندرى ما يفعل بنا في الدنيا ، ولا نأمن مكر الله تعالى ، ولا إضلاله ، ولا كيد الشيطان ؛ ولا ندرى ما ذا نكسب غداً ، ونعوذ بالله من الخذلان . انتهى كلام ابن حزم رحمه الله ، ولقد أجاد فيما أفاد .

وقوله تعالى : « لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ » أى منازل ومقامات عاليات في الجنة « وَمَغْفِرَةٌ » أى تجاوز لسيئاتهم « وَرِزْقٌ كَرِيمٌ » وهو ما أعد لهم من نعم الجنة .

تنبيهه :

قال الجسّمى : تدل الآية على أشياء :

منها : أن الإيمان اسم شرعى لثلاث خصال : القول ، والاعتقاد ، والعمل . خلاف ما تقولوه المرجئة . لأن الوجع وزيادة التصديق من فعل القلب ، والتدبر والتفكر كذلك ، والصلاة والإنفاق من أعمال الجوارح ، والتوكل يشتمل على فعل القلب والجوارح . ثم بين في آخره أن من جمع هذه الخصال فهو المؤمن حقاً .

ومنها : أنها تدل على أن الإيمان يزيد وينقص ، لأن هذه الطاعات تزيد وتنقص ، وقد نص على ذلك في قوله (زَادَتْهُمْ إِيمَانًا) .

ومنها : أن الواجب عند تلاوة القرآن التدبر والتفكر فيما أمر ونهى ، ووعد وأوعد ، لينتجراً للرجمة والرغبة . وذلك حث على الطاعة ، وزجر عن المعاصي .

ومنها : وجوب التوكل عليه . والتوكل على ضربين : منها في الدنيا ، ومنها في الدين .

أما في الدنيا فلا بد من خصال :

منها : أن يطلب مصالح دنياه من الوجه الذى أتيح له ، ولا يطلب محرماً .

ومنها : إذا حرم الرزق الحلال لا يعدل إلى محرّم .
ومنها : ألا يظهر الجزع عند الضيق ، بل يسلك فيه طريق الصبر ، واعتقاد أن ما هو فيه مصلحة له .

ومنها : أن ما يرزق من النعم بمدها ، من جهته تعالى . إما بنفسه أو بواسطة .

ومنها : ألا يحبسّه عن حقوقه خشية الفقر .

ومنها : ألا يسرف في النفقة ولا يقتر .

فعند اجتماع هذه الخصال يصير متوكلاً .

فأما الذى يزعمه بعضهم : أن التوكل إهمال النفس ، وترك العمل - فليس بشيء . وقد أمر الله تعالى بالإتقان ، وبالعمل . وثبت عن الصحابة - وهم سادات الإسلام - التجارة والزراعة والأعمال . وكذلك التابعين . وبهذا أجرى الله العادة . وقد أمر النبي ^(١) ﷺ الأعرابي أن يعقل ناقته ويتوكل .

فأما التوكل فى الدين فخصال :

منها : أن يقوم بالواجبات ، ويجتنب المحارم ، لأنه بذلك يصل إلى الجنة والرحمة .

ومنها : أن يسأله التوفيق والعصمة .

ومنها : أن يرى جميع نعمه منه ، إذ حصل بهدايته وتمكينه ولطفه .

ومنها : أن لا يثق بطاعته جملة ، بل يطيع ويجتنب المعاصى ، ويرجو رحمة ربه ، ويخاف

عذابه . فعند ذلك يكون متوكلاً .

ثم قال الجشّمى : وتدل الآية على أن تارك الصلاة والزكاة لا يكون مؤمناً ، خلاف قول

المرجئة . انتهى .

وقوله تعالى :

(١) أخرجه الترمذى فى : ٣٥ - كتاب صفة القيامة والرفائق والورع ، ٦٠ - باب

حدثنا عمرو بن على .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَاذِبُونَ)

« كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَاذِبُونَ »
الكاف في (كَمَا) كاف التشبيه ، والعامل فيه يحتمل وجوها . فإما هو معنى الفعل الذي دل عليه (قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ) ، تقديره نزع الأنفال من أيديهم بالحق ، كما أخرجك بالحق . وإما هو معنى الحق ، يعني هذا الذكرك حق ، كما أخرجك بالحق . وإما أنه خبر مبتدأ محذوف هو المشبه ، أى حالهم هذه في كراهة تنفيل الغزاة ، كحال إخراجك من بيتك للحرب في كراهتهم له (كما سيأتى في تفصيل القصة) . وهذا هو قول الفراء ، فإنه قال : الكاف شبهت هذه القصة التي هي إخراجك من بيته ، بالقصة المقدمة ، التي هي سؤالهم عن الأنفال وكراهتهم لما وقع فيها ، مع أنها أولى بمخالهم .

وقوله تعالى : (مِنْ بَيْتِكَ) أراد به بالمدينة ، أو المدينة نفسها ، لأنها متوأة . أى إخراجك إلى بدر . وزعم بعض أن المراد إخراجك ﷺ من مكة إلى المدينة للهجرة . وهو ساقط ، برده سياق القصة البدرية في الآيات بعد . وملخصها^(١) أن أبا سفيان قدم بعير من الشام في تجارة عظيمة ، فخرج النبي ﷺ وأصحابه ليمنموها ، فعلت قريش . فخرج أبو جهل ومقاتلو مكة ليزدبوا عنها ، وهم النفير . وأخذ أبو سفيان بالعير طريق الساحل ، فنجت . ففيل لأبي جهل : ارجع ، فأبى وسار إلى بدر . فشاوّر ﷺ أصحابه وقال لهم : إن الله وعدني إحدى الطائفتين ، فوافقوه على قتال النفير ، وكره بعضهم ذلك ، وقالوا : لم نستعد له ، كما قال تعالى :

(١) انظر سيرة ابن هشام : الصفحة رقم ٢٥٧ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي)
والصفحة رقم ٤٢٧ و ٤٢٨ (طبعة جوتنجن) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ)

« يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ » وهو الجهاد وتلقى النفير « بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ » أى ظهر لهم أنهم يُنصرون فيه « كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ » أى يكرهون القتال كراهة من يساق إلى الموت ، وهو ناظر إلى أسبابه ، وكان ذلك لقلة عددهم ، وعدم تأهبهم . إذ روى أنهم كانوا ثلاثمائة وتسعة عشر رجلا ، فيهم فارسان ، المقداد والزبير . وقيل الأول فقط . والمشركون ألف ، وذوو عِدَّةٍ وَعِدَّةٍ وفيه تعريض بأنهم إنما يسار بهم إلى الظفر والغنيمة للوعد الحق .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ

الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ

دَابِرَ الْكَافِرِينَ)

« وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ » المير أو النفير « أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ » أى تحبون « أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ » وهو المير ، لآذات الشوكة ، وهى النفير . والشوكة : السلاح أو حديثه « وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ » أى يثبت به ويعليه ، وهو دعوة رسوله « بِكَلِمَاتِهِ » أى بآياته المنزلة ، وأوامره فى هذا الشأن « وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ » أى يستأصلهم ، فلا يبقى منهم أحداً .

ثم بين تعالى الحكمة فى اختيار ذات الشوكة لهم ونصرتهم عليها ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ)

« لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ » أى ليثبت الدين الحق ، ويمحق الدين الباطل ،

باستئصال أهله ، مع ظهور شوكتهم « وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ » أى المشركون ذلك .
ثم ذكرهم تعالى التجاءهم إليه ، واستمدادهم منه النصر يوم بدر ، وإمداده حينئذ
بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِئَةِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ)

« إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ » أى تطلبون منه العوث ، وهو التخلص من الشدة ،
والعون بالنصر عليهم « فَاسْتَجَبَ لَكُمْ » أى الدعاء « أَنِّي مُمِدُّكُمْ » أى معيكم
« بِالْفِئَةِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ » بكسر الدال ، أى متتابعين ، بعضهم على إثر بعض ،
أو مردفين غيرهم . وقرئ بفتحها على معنى أن الله أودع المسلمين بهم ، أو مردفين بغيرهم ،
أى من ملائكة آخرين . وقرئ (بآلاف) بالجمع ، كما يأتى .

روى مسلم^(١) عن ابن عباس قال : حدثنى عمر بن الخطاب قال : لما كان يوم بدر ؛ نظر
رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المشركين وهم ألف ، وأصحابه ثلاثمائة وبضعة عشر
رجلا ؛ فاستقبل نبي الله صلى الله عليه وسلم القبلة ؛ ثم مد يده ؛ فجعل يهتف بربه ويقول :
اللهم أنجز لى ما وعدتنى . اللهم أننى ما وعدتنى . اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل
الإسلام ؛ لا تعبد فى الأرض . فما زال يهتف بربه مادًّا يديه حتى سقط رداؤه عن منكبيه .
فأتاه أبو بكر ، فأخذ رداؤه ، فألقاه على منكبيه ، ثم التزمه من ورائه ، وقال : يا نبي الله !
كفالك مفاشدتك ربك ، فإنه سينجز لك ما وعدك . فأنزل الله عز وجل (إِذْ تَسْتَغِيثُونَ
رَبَّكُمْ) .

(١) أخرجه مسلم فى : ٣٢ - كتاب الجهاد والسير ، حديث رقم ٥٨ (طبعنا) .

وروى البخارى^(١) عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال يوم بدر : هذا جبريل آخذ برأس فرسه ، عليه أداة الحرب .

وروى البخارى^(٢) عن معاذ بن رفاءة ، عن رافع الزرقى ، عن أبيه - وكان ممن شهد بدرًا - قال : جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال : ما تمدون أهل بدر فيكم ؟ قال : من أفضل المسلمين - أو كلمة نحوها - قال : وكذلك من شهد بدرًا من الملائكة .

تنبيهات :

الأول - قال الجشمى : تدل الآية على أن الملك يجوز أن يتشبه بالآدمى ، ولا يخرج من كونه ملكاً ، بأن يغير أطرافهم دون الأجزاء التى صاروا بها أحياء والذى ينكر أن يقدر أحد على تغيير الصور ، بل نقول : إن الله هو الذى يقدر على ذلك . انتهى .

الثانى - قال الزمخشري : وعن السدى (بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ - على الجمع - ليوافق ما فى سورة آل عمران . فإن قلت : فيم يُعْتَذَرُ لمن قرأ على التوحيد ، ولم يفسر (المردفين) بإرداف الملائكة ملائكة آخرين ، و (المردفين) بارتدافهم غيرهم ؟ قلت : بأن المراد بالآلاف ، من قاتل منهم ، أو الوجوه منهم ، الذين من سواهم أتباع لهم . انتهى .

وقال شمس الدين ابن القيم فى (زاد المعاد) فى بحث غزوة بدر :

فإن قيل : ههنا ذكر أنه أمدهم بألف ، وفى سورة آل عمران قال^(٣) : (إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُعِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ * بَلَىٰ إِنْ تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُعِدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ) فكيف الجمع بينهما ؟

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٤ - كتاب المغازى ، ١١ - باب شهود الملائكة بدرًا ، حديث رقم ١٨٥٥ . (٢) أخرجه البخارى فى : ٦٤ - كتاب المغازى ، ١١ - باب شهود الملائكة بدرًا ، حديث رقم ١٨٥٣ . (٣) [٣ / آل عمران / ١٢٤ ، ١٢٥] .

قيل : اختلف في هذا الإمداد الذي بثلاثة آلاف ، والذي بخمسة ، على قولين :
أحدهما : أنه كان يوم (أُحُد)، وكان إمداداً معلقاً على شرط ، فلما فات شرطه ، فات الإمداد .
وهذا قول الضحاك ومقاتل . وإحدى الروایتين عن عكرمة .

والثاني : أنه كان يوم بدر ، وهذا قول ابن عباس ومجاهد وقتادة . والرواية الأخرى عن
عكرمة واختاره جماعة من المفسرين . وحجة هؤلاء ؛ أن السياق يدل على ذلك . فإنه سبحانه قال ^(١) :
(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ *) إِذْ يَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ
الَّذِينَ يَكْفِيهِمْ أَنْ يُبَدِّدَ كُفْرُكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزِلِينَ * أَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ الْيَوْمَ أَنْ يَنْصَبُوا
وَتَتَّقُوا) إلى أن قال : (وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ) أى هذا الإمداد (إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ) وَلِتَطْمَئِنَّ
قُلُوبُكُمْ بِهِ . قال هؤلاء : فلما استنذائوا ، أمدهم بألف ، ثم أمدهم بتمام ثلاثة آلاف ، ثم أمدهم
بتمام خمسة آلاف ، لما صبروا واتقوا . وكان هذا التدرج ، ومتابعة الإمداد ، أحسن موقفاً ،
وأقوى لتقويتهم وأسر لها من أن يأتي مرة واحدة ، وهو بمنزلة متابعة الوحي ، ونزوله مرة
بعد مرة .

وقالت الفرقة الأولى : القصة في سياق (أُحُد) وإنما أدخل ذكر (بدر) اعتراضاً في أثناءها ،
فإنه سبحانه قال ^(٢) : (وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ
عَلِيمٌ *) إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا ، وَوَعَى اللَّهُ فَلَئِمَتَا كَلِّ الْمُؤْمِنِينَ)
ثم قال ^(١) : (وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ) فذكره
نعمه عليهم ، لما نصرهم ببدر وهم أذلة ، ثم عاد إلى قصة (أُحُد) ، وأخبر عن قول رسوله لهم
(الَّذِينَ يَكْفِيهِمْ أَنْ يُبَدِّدَ كُفْرُكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزِلِينَ) ثم وعدهم
أنهم إن صبروا واتقوا أمدهم بخمسة آلاف . فهذا من قول رسوله ، والإمداد الذي ببدر من
قوله تعالى ، وهذا بخمسة آلاف ، وإمداد بدر بألف ، وهذا معلق على شرط ، وذلك مطلق .
والقصة في سورة آل عمران ، هي قصة (أُحُد) مستوفاة مطولة ، و (بدر) ذكرت فيها اعتراضاً .

(١) [٣ / آل عمران / ١٢٣-١٢٦] (٢) [٣ / آل عمران / ١٢١ و ١٢٢]

والقصة في سورة الأنفال قصة (بدر) مستوفاة مطولة ، فالسياق في آل عمران غير السياق في الأنفال . يوضح هذا أن قوله ^(١) (وَيَأْتُوكُم مِّنْ فَوْرِهِمْ هَذَا) قد قال مجاهد : هو يوم (أحد) ، وهذا يستلزم أن يكون الإمداد المذكور فيه ، فلا يصح قوله إن الإمداد بهذا العدد كان يوم بدر وإتيانهم من فورهم هذا يوم أحد ، والله أعلم . انتهى .
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ) ، وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

« وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ » أى هذا الإمداد « إِلَّا بُشْرَى » أى بشارة لكم بالنصر « وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ » ، وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ « أى من غير أن يكون فيه شركة لغيره « إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » قال بعض الحكماء : ذكر تعالى في هذه الآية حكمة إخبارهم بالنصر ، وأنه يريد بشرهم وطعاً نيتهم وتوكلهم عليه ، وهو أدعى إلى قوة العزيمة . فإن المامل إذا أيقن بأن معه قاهر الكون : رفعته تلك الفكرة ، وجعلته أقوى الناس ، وأقدرهم على صعب الأمور ، لا كما يظنه المتكسون الجاهلون الكسالى اليائسون من روح الله ، حيث جعلوا التوكل ذريعة إلى البطالة ، فباؤا بغضب على غضب . انتهى .
ثم ذكرهم سبحانه بنعم أخرى جعلها سبباً لنصرهم ، وللعناية بهم ، فقال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ)
« إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ » أى يلقى عليكم النوم للأمن الكائن منه تعالى ،

(١) [٣ / آل عمران / ١٢٥] .

مما حصل لكم من الخوف من كثرة عدوكم . وقد كان أمهرهم الخوف ، فأتى تعالى عليهم النوم فأمنوا واستراحوا . وكذلك فعل تعالى بهم يوم (أُحُد) ، كما قال جل ذكره ^(١) (ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً مَّا سَأَلَ يُغَشِّي طَائِفَةً مِّنْكُمْ وَقرئ (يُغَشِيكُمْ) من الإغشاء ، بمعنى التغطية . والفاعل في الوجهين هو الله تعالى . وقرئ (يَغْشَاكُمْ) على إسناد الفعل إلى النعاس . وفي الصحيح ^(٢) أن رسول الله ﷺ لما كان يوم (بدر) في العريش مع الصديق رضي الله عنه ، وهما يدعوان ، أخذت رسول الله ﷺ سنة من النوم ، ثم استيقظ متبسماً ، فقال : أبشر يا أبا بكر ، هذا جبريل ، على ثغايه النقع . ثم خرج من باب العريش ، وهو يتلوا ^(٣) (سَيَهْرُمُ الْجَمْعُ وَيَوَلُّونَ الدُّبُرَ) .

ثم ذكرهم تعالى مرة أخرى تدل على نصره إياهم بقوله سبحانه : «وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَ كُفْرَ بِي» أي : من الحدث الأصفر والأكبر ، وهو تطهير الظاهر «وَيَذْهَبَ عَنْكُم رِجْزَ الشَّيْطَانِ» أي وسوسته بأنكم على هذا الرمل لا تتمكنون من المحاربة ، ومع فقد الماء كيف تفعلون ؟ فأزال تعالى بإزاله ، ذلك . فكان لهم به طهارة باطنة ، فكملت لهم الطهارتان ، أي من وسوسة أو خاطر سيئ ، وهو تطهير الباطن «وَلِيَرَبِّطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ» أي يقويها بالثقة ، بالأمن وزوال الخوف «وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ» أي على الرمل . قال مجاهد : أنزل الله عليهم المطر ، فأطفأ به الغبار ، وتلبدت به الأرض ، وطابت نفوسهم ؛ وثبتت به أقدامهم .

قال الجشمي : قال القاضي : وهو أشبه بالظاهر . وقيل بالصبر وقوة القلب التي أفرغها عليهم ، حتى ثبتوا لعدوهم . وقوله (به) يرجع إلى الماء المنزل ، أو إلى ما تقدم من البشارة والنصر . ثم أشار تعالى إلى نعمة خفية أظهرها تعالى لهم ليذكروها عليها بقوله :

(١) [٣ / آل عمران / ١٥٤] (٢) لم أعتز على هذا الحديث بهذا النص ولكن وجدت حديثاً بهذا المعنى عن ابن عباس . أخرجه البخاري في : ٥٦ - كتاب الجهاد ، ٧٩ - باب ما قيل في درع النبي ﷺ والقميص في الحرب (٣) [٥٤ / القمر / ٤٥] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا ، سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ)

« إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ » أى الذين أمدّ بهم المسلمين « أَنِّي مَعَكُمْ » أى بالعون والنصر .

قال الجشمى : يحتمل مع الملائكة ، إذ أرسلهم رداءً للمسلمين ، ويحتمل مع المسلمين ، كأنه قيل : أوحى إلى الملائكة أنى مع المؤمنين ، فانصروهم وثبتوهم .

وقوله تعالى : « فَثَبَّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا » أى بدفع الوسواس وبالقتال معهم والحضور مدداً وعاوناً « سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ » أى الخوف .

ثم علمهم تعالى كيفية الضرب بقوله تعالى : « فَأَضْرِبُوا » أمر المؤمنين أو للملائكة . وعليه ، ففيه دليل على أنهم قاتلوا « فَوْقَ الْأَعْنَاقِ » أى أعلى الأعناق التى هى المذايح ، تطهيراً للرؤوس . أو أراد الرؤوس ، لأنها فوق الأعناق « وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ » أى أصابع . جمع (بنانة) قيل : المراد بالبنان ، مطلق الأطراف مجازاً ، تسمية لكل بالجزء ، لوقوعها فى مقابلة الأعناق والمقاتل . والمعنى : اضربوهم كيفما اتفق من المقاتل وغيرها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

« ذَٰلِكَ » أى الضرب أو الأمر به « بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ » أى خالفوها فيما شرعاً . وقوله تعالى : « وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ » تقرير

لما قبله ، إن أريد بالمعقاب ما وقع لهم في الدنيا ، أو وعيد بما أعد لهم في الآخرة ، بعد ما حاق بهم في الدنيا ، وبيان لخسرتهم في الدارين .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤] (ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ)

« ذَٰلِكُمْ » خطاب للكفرة على طريقة الالتفات « فَذُوقُوهُ » أى ذلك العذاب ، أيها الكفار ، في الدنيا « وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ » في الآخرة . ثم نهى تعالى عن الفرار من الزحف ، مبيناً وعيده بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمُ الْأُدْبَارَ

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمُ الْأُدْبَارَ » أى الظهور بالانهزام . و (الزحف) الجيش الكثير ، تسمية بالمصدر ، والجمع زحوف ، مثل فلس وفلوس . ويقال : زحف إليه ، أى مشى ، وزحف الصبي على استه قبل أن يقوم . شبه بزحف الصبيان مشى الجيش الكثير للقتال ، لأنه لكثرتهم يرى كأنه يزحف ، أى يدب ديباً قبل التدانى للضراب أو الطمان .

قال أبو السعود : (زَحَفًا) منصوب ، إما على أنه حال من مفعول (لَقِيتُمُ) أى : زاحفين نحوكم ، أو على أنه مصدر مؤكد لفعل مضمر ، هو الحال منه ، أى يزحفون زحفاً . وأما كونه حالاً من فاعله أو منه ، ومن مفعوله معاً كما قيل - فإياه قوله تعالى (فَلَا تُولُوهُمُ الْأُدْبَارَ) إذ لا معنى لتقييد النهى عن الإدبار بتوجههم السابق إلى العدو ، أو بكثرتهم . بل توجه العدو إليهم وكثرتهم هو الداعى إلى الإدبار عادة ، والمحوج إلى النهى عنه .

وحمله على الإشمار بما سيكون منهم يوم حنين ، حيث تولوا مدبرين ، وهم زحف من الزحوف اثنا عشر ألفاً - بعيداً .

والمعنى : إذا لقيتموهم للقتال ، وهم كثير جم ، وأنتم قليل ، فلا تولوهم أدباركم ، فضلاً عن الفرار ، بل قابلوهم وقاتلوهم ، فضلاً عن أن تدانوهم في العدد أو تساووهم .
قال الشهاب : عدل عن لفظ الظهور إلى الأدبار تقييحاً للانزهاض ، وتنفيراً عنه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦] (وَمَنْ يُؤْلِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

« وَمَنْ يُؤْلِهِمْ يَوْمَئِذٍ » أى يوم اللقاء « دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ » أى مائلاً له .
يقال : تحرف وانحرف واحرورف : مال وعدل . وهذا التحرف إما بالتوجه إلى قتال طائفة أخرى أهم من هؤلاء ، وإما بالفرار للسكر ، بأن يخيل عدوه أنه منهزم ليغره ، ويخرجه من بين أعوانه ، فيفرّ عنه ، ثم بكرت عليه وحده أو مع من فى الكمين من أصحابه ، وهو باب من مكاييد الحرب « أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ » أى متضمناً إلى جماعة أخرى من المسلمين يستعين بهم « فَقَدْ بَاءَ » أى رجع « بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ » أى ما صار إليه من عذاب النار .

تنبيهات :

الأول - دلت الآية على وجوب مصابرة العدو ، أى الثبات عند القتال ، وتحريم الفرار منه يوم الزحف ، وعلى أنه من الكبائر . لأنه توعد عليه وعيداً شديداً .

الثانى - ظاهر الآية العموم لـكل المؤمنين فى كل زمن ، وعلى كل حال ، إلا حالة التحرف أو التحيز ، وهو مروى عن ابن عباس ؛ واختاره أبو مسلم . قال الحاكم : وعليه أكثر الفقهاء .

وروى عن جماعة من السلف ؛ أن تحريم الفرار المذكور مختص بيوم (بدر) ، لقوله تعالى (وَمَنْ يُؤَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ) وأجيب بأن الإشارة في (يَوْمَئِذٍ) إلى يوم لقاء الزحف كما يفيد السياق ، لا إلى يوم بدر .

الثالث - ذهب جماعة من السلف إلى أن معنى قوله تعالى (أَوْ مُتَحِيزًا إِلَىٰ فِئَةٍ) أي جماعة أخرى من المسلمين ، سوى التي هو فيها ، سواء قربت تلك الفئة أو بعدت . وقد^(١) روى أن أبا عبيد قتل على الجسر بأرض فارس ، لكثرة الجيش من ناحية المجوس ، فقال عمر رضى الله عنه : لو تحيز إلى لكنت له فئة . وفي رواية عنه : أيها الناس ! أنا فئتكم . وقال الضحاك : المتحيز إلى فئة ، الفار إلى النبي وأصحابه . وكذلك من فرّ اليوم إلى أميره أو أصحابه . وجنح إلى هذا ابن كثير حيث قال : من فرّ من سرية إلى أميره ، أو إلى الإمام الأعظم ، دخل في هذه الرخصة . ثم أورد حديث عبد الله بن عمر المروى عند الإمام أحمد^(٢) وأبي داود^(٣) والترمذي^(٤) وغيرهم . قال : كنت في سرية من سرايا رسول الله ﷺ ، فخاص الناس حيصة ، فسكنت فيمن حاص ، فقلنا : كيف نصنع ؛ وقد فررنا من الزحف ، وبؤنا بالغضب ، ثم قلنا : لو دخلنا المدينة . فبتنا ! ثم قلنا : لو عرضنا أنفسنا على رسول الله ﷺ ، فإن كانت لنا توبة ، وإلا ذهبنا ! فأتيناه قبل صلاة الغداة ، فخرج فقال : من القوم ؟ فقلنا : نحن الفرارون . فقال : لا ، بل أنتم العكّارون ، أنا فئتكم وفئة المسلمين ، قال : فأتيناه حتى قبلنا يده . قال الترمذي : حديث حسن ، لا نعرفه إلا من حديث يزيد بن أبي زياد - انتهى - . أى وقد تسكلم فيه غير واحد من الأئمة . قال الحاكم في (مسألة الفرار) : إن

(١) انظر تفسير الطبري (طبعة الحلبي الثانية) الصفحة رقم ٢٠٢ و ٢٠٣ من الجزء التاسع والعكّارون : السكرّارون إلى الحرب . (٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة رقم ٧٠ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٥٣٨٤ (طبعة المعارف) .

(٣) أخرجه أبو داود في : ١٥ - كتاب الجهاد ، ٩٦ - باب في التولي يوم الزحف ، حديث ٢٦٤٧ (٤) أخرجه الترمذي في : ٢١ - كتاب الجهاد ، ٣٧ - باب ما جاء في الفرار من الزحف .

ذلك يرجع إلى ظن المقاتل واجتهاده . فإن ظن المقاومة لم يحلّ الفرار . وإن ظن الهلاك ، جاز الفرار إلى فئة وإن بعدت ، إذا لم يقصد الإقلاع عن الجهات . وحمل عليه حديث ابن عمر المذكور .

وعن الكرخي : أن الثبات والمصابرة واجب ، إذا لم يخش الاستئصال ، وعرف عدم نكايته للكفار ، والتجأ إلى مصر المسلمين ، أو جيش ، وهكذا أطلق في (شرح الإبانة) فلم يبيح الفرار إلا بهذه الشروط الثلاثة ، ولم يعتبر العدد الآتي بيانه .

الرابع - روى عن عطاء أن حكم هذه الآية منسوخ بقوله تعالى ^(١) : (الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ) قال الحاكم : إذا أمكن الجمع فلا نسخ وأقول : كنا أسلفنا أن السلف كثيراً ما يعنون بـ (النسخ) تقييد المطلق ، أو تخصيص العام ، فلا ينافي كونها محكمة إطلاقهم للنسخ عليها . قال بعض الأئمة : هذه الآية عامة تقضى بوجوب المصابرة ، وإن تضاعف عدد الشركين أضعافاً كثيرة . لكن هذا العموم مخصوص بقوله تعالى ^(٢) في السورة هذه : (إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا) فأوجب الله المصابرة على الواحد للعشرة . لأنه خبر معناه الأمر . فلما شق ذلك على المسلمين رحمهم الله تعالى ، وأوجب على الواحد مصابرة الاثنين ، فقال تعالى ^(٣) : (الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ، فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ، وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ) .

وعن ابن عباس : من فرّ من اثنين فقد فرّ ، ومن فرّ من ثلاثة فلم يفرّ . وبالجملة ، فلا منافاة بين هذه الآية وآية الضعف ، فإن هذه الآية مقيدة بها ، فيكون الفرار من الزحف محرماً بشرط ما بينه الله في آية الضعف .

وفي (المذهب) : إن زاد عددهم على مثلي عدد المسلمين ، جاز الفرار . لكن إن غلب على ظنهم أنهم لا يهلكون ، فالأفضل الثبات . وإن ظنوا الهلاك ، فوجهان : يلزم الانصراف

(١) [٨ / الأنفال / ٦٦] . (٢) [٨ / الأنفال / ٦٥] .

لقوله تعالى^(١) (وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ) . والثاني : يستحب ولا يجب ، لأنهم إن قتلوا فازوا. بالشهادة . وإن لم يزد عدد الكفار على مثلي عدد المسلمين ، فإن لم يظفوا الهلاك ، لم يجز الفرار . وإن ظفوه فوجهان : يجوز لقوله تعالى^(١) (وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ) ولا يجوز ، وصحوه لظاهر الآية .

ثم بين تعالى أن نصرهم يوم بدر ، مع قتلهم ، كان بحوله تعالى وقوته ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ، وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ

رَمَى ، وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا ، إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

« فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ » أى بقوتكم « وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ » أى سبب في قتلهم بنصرتكم وخذلانهم وألقى الرعب في قلوبهم ، وقوى قلوبكم ، وأمدكم بالملائكة ، وأذهب عنها الفزع والجزع « وَمَا رَمَيْتَ » أى أنت يا خاتم النبيين ، أى ما بلغت رمية الحصباء إلى وجوه المشركين « إِذْ رَمَيْتَ » أى بالحصباء ، لأن كفاً منها لا يعلأ عيون الجيش الكثير برمىة بشر « وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى » أى بلغ بإيصال ذلك إليهم ليقهرهم . وقال أبو مسلم (في معنى الآية): أى ما أصبت إذ رميت ، ولكن الله أصاب . والرمي لا يطلق إلا عند الإصابة ، وذلك ظاهر في أشعارهم .

وقد روى عن غير واحد : أنها نزلت^(٢) في شأن القبضة من التراب التي حصب بها النبي ﷺ وجوه المشركين يوم بدر ، حين خرج من العريش ، بعد دعائه وتضرعه واستكاثته . فرماهم بها وقال (شاهت الوجوه) . ثم أمر أصحابه أن يصدقوا الحملة إثرها ، ففعلوا ، فأوصل الله تلك الحصباء إلى أهين المشركين ، فلم يبق أحد منهم إلا ناله منها ما شغله عن حاله ، وانهزموا .

تذنيه :

قال الجشمي : تدل الآية أن فعل العبد يضاف إليه تعالى إذا كان بنصرته ومعوته

(١) [٢ / البقرة / ١٩٥] .

(٢) انظر تفسير الطبري (طبعة الحلبي الثانية) الصفحة رقم ٢٠٥ من الجزء التاسع .

وتمكنه . إذ معلوم أنهم قتلوا ، وأنه رمى ، ولذلك قال (إِذْ رَمَيْتَ) ولهذا يضاف إلى السيد ما يأتيه غلامه . وتدل على أن الإضافة بالعمونة والأمر ، صارت أقوى ، فلذلك قال (فَلَمْ يَقْتُلُوهُمْ) .

وقال في (العناية) : استدلل بهذه الآية والتي قبلها على أن أفعال العباد بخلقه تعالى ، حيث نفى القتل والرمى . والمعنى : إذ رميت أو باشرت صرف الآلات . والحاصل : ما رميت خلقاً إذ رميت كسباً . وأورد عليه أن المدعى ، وإن كان حقاً ، لكن لادلالة الآية عليه ، لأن التعارض بين النفي والإثبات الذي يترأى في بادئ النظر ، مدفوع بأن المراد ما رميت رمياً تقدر به على إيصاله إلى جميع الميئون ، وإن رميت حقيقة وصورة ، وهذا مراد من قال : (ما رميت حقيقة ، إذ رميت صورة) فالنفي هو الرمي الكامل ، والمثبت أصله ، وقدر منه . فالإثبات والنفي لم يردا على شيء واحد ، حتى يقال : (النفي على وجه الخلق ، والمثبت على وجه المباشرة) ولو كان المقصود هذا لما ثبت المطلوب بها ، الذي هو سبب النزول ، من أنه أثبت له الرمي ، لصدوره عنه ، ونفي عنه ، لأن أثره ليس في طاقة البشر ، ولذا عدت معجزة له ، حتى كأنه لا مدخل له فيها أصلاً . فبني الكلام على المبالغة ، ولا يلزم منه عدم مطابقته للواقع ، لأن معناه الحقيقي غير مقصود . هكذا ينبغي أن يفهم هذا المقام ، إذ لو كان المراد ما ذكر ، لم يكن مخصوصاً بهذا الرمي ، لأن جميع أفعال العباد كذلك بمباشرتهم وخلق الله . انتهى .

وهذا التحقيق جيد ، وقد نبه عليه أيضاً العلامة ابن القيم في (زاد المعاد) حيث قال : وقد ظنت طائفة أن الآية دلت على نفي الفعل عن العبد وإتيائه لله ، وأنه هو الفاعل حقيقة ، وهذا غلط منهم من وجوه عديدة ، مذكورة في غير هذا الموضع . ومعنى الآية : أن الله سبحانه أثبت لرسوله ابتداء الرمي ، ونفي عنه الإيصال الذي لم يحصل برميهِ ، فالرمي يراد به الحذف والإيصال ، فأثبت لنبيه الحذف ، ونفي عنه الإيصال . انتهى .

وقوله تعالى : « وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ » أى ليمنحهم من فضله « بَلَاءَ حَسَنًا »

أى منجاً جيلاً ، بالنصر والغنيمة والفتح ، ثم بالأجر والثوبة ، غير مشوب بمقاساة الشدائد والمكاره ، فيمروا حقه ويشكروه .

قال أبو السمود : واللام ، إما متعلقة بمحذوف متأخر ، قالوا واعتراضية ، أى وللإحسان إليهم بالنصر والغنيمة ، فعمل ما فعل ، لا لشيء غير ذلك ، مما لا يجديهم نفماً . وإما ، برى ، قالوا وللعطف على علة محذوفة ، أى ولكن الله رى ليمحق الكافرين وليبلى . . . الخ . وتفسير البلاء هنا بالمنحة هو ما اختاره المحققون من قولهم : (أبلأه الله ببلياة إبلاء حسناً) إذا صنع به صنماً جيلاً ، وأبلأه معروف ، قال زهير (فى قصيدته التى مطلعها .

صحا القلبُ عن سَلَمَى وقد كَادَ لَا يَسْلُو
وأقفر من سَلَمَى التَّمانيقُ والثَّقْلُ
والتَّمانيقُ والثَّقْلُ : مواضع) :

جزى الله بالإحسان ما فملاً بكم وأبلاهما خيراً البلاء الذى يَبْلُو (أى إحسان فملاً بكم . فأبلاهما خير البلاء ، أى صنع الله إليهما خير الصنيع الذى يبتلى به عباده . والإنسان يبلى بالخير والشر) أى صنع بهما خير الصنيع الذى يبلو به عباده . واستظهر الطيبي تفسيره بالإبلاء فى الحرب بدليل ما بعده . قال ابن الأعرابي : يقال : أبلى فلان إذا اجتهد فى صفة حرب أو كرم . ويقال : أبلى ذلك اليوم بلاء حسناً . « إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ » أى لدعائهم واستغاثتهم « عَلِيمٌ » أى بمن يستحق النصر والقلب وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدِ الْكَافِرِينَ)

« ذَٰلِكُمْ » إشارة إلى البلاء الحسن ، أو القتل ، أو الرمى . وحله الرفع . أى المقصود أو الأمر (ذلكم) . وقوله : « وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدِ الْكَافِرِينَ » معطوف عليه . أى

مضعف بأس الكافرين وحيالهم بنصركم وخذلانهم ، أى أن المقصود إبلاء المؤمنين ، وتوهمين كيد الكافرين .

قال ابن كثير : هذه بشارة أخرى . مع ما حصل من النصر ، فإنه أعلمهم بأنه مضعف كيد الكافرين فيما يستقبل ، مصغر أمرهم ، وأنه فى تبار ودمار . أى : وقد وجد الخبر على وفق الخبر ، فصار معجزة للنبي ﷺ ، والله الحمد والمنة .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ ، وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِي عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ ، وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ)

« إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ » خطاب للمشركين ، أى إن تطلبوا الفتح ، أى القضاء وأن يفصل بينكم وبين أعدائكم المؤمنين ، فقد جاءكم القضاء بما سألتهم .
روى الإمام أحمد^(١) والنسائى والحاكم ، وصححه ، عن عبد الله بن ثعلبة . أن أبا جهل قال ، حين التقى القوم : اللهم ! أقطعنا للرحيم . وآتانا بما لا نعرفه ، فَأَحْنَهُ - أى فأهلكه - الغداة . فكان المستفتح .

وعن السدى^(٢) : أن المشركين حين خرجوا من مكة إلى بدر : أخذوا بأستار الكعبة ، فاستنصروا الله وقالوا : اللهم ؟ انصر أعز الجفدين ، وأكرم الفئتين ، وخير القبيلتين . فقال تعالى (إِنْ تَسْتَفْتِحُوا . . .) الآية .

وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ؛ أن هذه الآية إخبار عنهم بما قالوا (اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٤٣١ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .

(٢) انظر تفسير الطبرى (طبعة الحلبي الثانية) الصفحة رقم ٢٠٨ من الجزء التاسع .

هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ ... (الآية - قيل : في هذا الخطاب تهكم بهم ، بمعنى في قوله تعالى (فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ) لأن الذي جاءهم الهلاك والذلة . كذا في (العناية) . وهو مبني على أن الفتح بمعنى النصر ، وله معنى آخر وهو الحكم بين الخصمين والقضاء . وبهما فُسرت الآية أيضاً . « وَإِنْ تَنْتَهُوا » أى عن الكفر وعداوة الرسول « فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ » أى في الدنيا والآخرة « وَإِنْ تَعُودُوا » أى لمحاربة الرسول « نَعُدْ » أى لنصره عليكم « وَلَنْ تُغْنِيَ » أى تدفع « عَنْكُمْ فِتْنَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ ، وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ » أى بالنصر . قرئ بكسر (إن) استثنافاً ، وفتحها ، على تقدير اللام .

تنبيه :

جَوِّزَ أن يكون الخطاب في قوله تعالى (إِنْ تَسْتَفْتِحُوا) للمؤمنين ، أى إن تطلبوا النصر باستغاثتكم ربكم ، فقد حصل لكم ذلك ، فاشكروا ربكم ، والزمو طاعته . وقوله تعالى (إِنْ تَنْتَهُوا) أى عن المنازعة في أمر الأنفال ، وعن طلب الفداء على الأسرى الذي عوتبوا عليه بقوله تعالى ^(١) (لَوْ لَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ) ، فقال تعالى : « وَإِنْ تَنْتَهُوا - عن مثله - فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ » ، « وَإِنْ تَعُودُوا إِلَى تِلْكَ الْمَنَازِعَاتِ نَعِدْ عَلَيْكُمْ بِالْإِنْكَارِ ، وَتَهْيِيجِ الْعَدُوَّ ؛ لِأَنَّ الْوَعْدَ بِنَصْرَتِكُمْ مَشْرُوطٌ بِشَرْطِ اسْتِمْرَارِكُمْ عَلَى الطَّاعَةِ ، وَتَرْكِ الْمَخَالَفَةِ ، ثُمَّ لَا تَنْفَعُكُمْ الْفِتْنَةُ وَالْكَثْرَةُ ، إِذَا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ مَعَكُمْ بِالنَّصْرِ ، فَإِنَّهُ مَعَ الْكَامِلِينَ فِي إِيمَانِهِمْ . وَهَذَا الْوَجْهُ قَرَّرَهُ الرَّازِيُّ وَنَقَلَهُ عَنِ الْقَاضِي .

قال البيضاوى : وبؤكده الآية بعدد ؛ فإن المراد بها الأمر بطاعة الرسول ؛ والنهي عن الإعراض عنه ؛ والله أعلم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ » أى تعرضوا عنه بمخالفة أمره « وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ » أى القرآن الناطق بوجوب طاعته ، والمواظب الزاجرة عن مخالفته .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ)

« وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا » أى ادعوا السماع « وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ » أى سماع تدبر واتعاظ ، وهم المنافقون أو المشركون . فالنفي سماع خاص ، لكنه أتى به مطلقاً للإشارة إلى أنهم نزلوا منزلة من لم يسمع أصلاً ، بجمل سماعهم بمنزلة العدم . وقيل : السماع مجاز عن التصديق .

قال الزمخشري : والمعنى أنكم تصدقون بالقرآن والنبوة ، فإذا توليتم عن طاعة الرسول في بعض الأمور ، من قسمة الغنائم وغيرها ، كان تصديقكم كلاً تصديقاً ، وأشبه سماعكم سماعاً من لا يؤمن .

ثم بين تعالى سوء حال المشبه بهم ، مبالغة في التحذير ، وتقريراً للنهي ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضَّمُّ إِلَيْكُمُ الَّذِينَ لَا يُعْقِلُونَ)

« إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ » أى ما يدب على الأرض ، أو شر البهائم « عِنْدَ اللَّهِ الضَّمُّ » أى عن سماع الحق « إِلَيْكُمُ » أى عن النطق به « الَّذِينَ لَا يُعْقِلُونَ » أى لا يفهمونه . جعلهم تعالى من جنس البهائم ، لصرفهم جوارحهم عما خلقت له ، ثم جعلهم شرّها لأنهم

عاندوا بعد الفهم، وكابروا بعد العقل، وفي ذكرهم في معرض التشبيه، بهذا الأسلوب، غاية في الذم . وقد كثر ، في التنزيل ، تشبيه الكافرين بنحو هذا ، كقوله تعالى (وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءٌ وَنِدَاءٌ) وقال تعالى ^(١) (أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ) ^(٢) .
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ ، وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ)
« وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ » أى فى هؤلاء الصم البكم « خَيْرًا » صدقاً ورغبة
« لَأَسْمَعَهُمْ » أى الحجج والمواظ ، سماع تفهم وتدبر ، أى لجمعهم سامعين حتى يسمعوا
سماع المصدقين . أى ولكن لم يعلم الله فيهم شيئاً من ذلك ، خلوتهم عنه بالمرّة ، فلم يسمعهم
كذلك ، لخلوه عن الفائدة وخروجه عن الحكمة ، وإليه أشير بقوله تعالى (وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ
لَتَوَلَّوْا) أى : ولو أسمعهم سماع تفهم ، وهم على هذه الحالة العارية عن الخير بالكلية ، لتولوا
عما سمعوه من الحق « وَهُمْ مُعْرِضُونَ » أى عن قبوله جحوداً وعناداً . قال الرازى : كل
ما كان حاصلاً ؛ فإنه يجب أن يعلمه الله ، فعدم علم الله بوجوده ، من لوازم عدمه ، فلا جرم
حَسَنَ التعبير عن عدمه فى نفسه بعدم علم الله بوجوده .

تنبيه :

قد يتوهم أن الشرطيتين فى الآية مقدمتا قياس اقترائى . هكذا : لو علم فيهم خيراً
لأسمعهم ، ولو أسمعهم لتولوا . ينتج : لو علم فيهم خيراً لتولوا . وفساده بين . وأجيب :
بأنه إنما يلزم النتيجة الفاسدة لو كانت الثانية كلية ، وهو ممنوع . واعترض بأن هذا المنع ،
وإن صح فى قانون النظر ، إلا أنه خطأ فى تفسير الآية ، لا بتفائه على أن المذكور قياس مفقود

(١) [٢ / البقرة / ١٧١] . (١) [٧ / الأعراف / ١٧٩] .

شرائط الإنتاج ، ولا مساع لحل كلام الله عليه . وأجيب : بأن المراد منع كون القصد إلى ترتيب قياس ، لانتفاء شرط ، لا أنه قياس فقد شرطه . كما أنه يمنع منه عدم تكرار الوسط أيضاً ، وإنما المقصود من المقدمة الثانية تأكيد الأولى ، إذ مآله إلى أنه انتفى الإسماع ، لعدم الخيرية فيهم ، ولو وقع الإسماع ، لا تحصل الخيرية فيهم ، لعدم قابلية المحل . كذا في (العناية) . وقد حاول بعضهم تصحيح كونها قياساً شرطياً ، متحد الوسط ، صحيح الإنتاج ، بتقدير : لو علم فيهم خيراً في وقت ، لتولوا بعده .
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تَحْشَرُونَ)
« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ »
الاستجابة : بمعنى الإجابة . قال :

وداعٍ دعا يا مَنْ يُجِيبُ إِلَى الدَّاءِ فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذَلِكَ مُجِيبٌ
(يريد : فلم يجبه . وقائله كعب بن سعد الغنوي . والقصيدة في الأصمعيات رقم ١٤) .
والمراد بها الطاعة والامتثال . وإنما وُحِدَ الضمير في قوله (دَعَاكُمْ) - أي الرسول -
لأنه هو المباشر للدعوة إلى الله تعالى .

وقال الزمخشري : لأن استجابته ﷺ ، كاستجابته تعالى ، وإنما يذكر أحدهما مع الآخر للتوكيد . وقوله (لِمَا يُحْيِيكُمْ) ، قال عروة بن الزبير - فيما رواه ابن إسحق - أي للحرب التي أعزكم الله تعالى بها بعد الذل ، وقواكم بها بعد الضعف ، ومنعكم من عدوكم بعد القهر منهم لكم . وإنما سمي الجهاد حياة ، لأن في وهن عدوهم بسببه حياة لهم وقوة ، أو لأنه سبب الشهادة الموجبة للحياة الدائمة ، أو سبب المثوبة الأخروية التي هي معدن الحياة ،

كما قال تعالى (وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ)^(١) أى الحياة الدائمة ، فيكون مجازاً مرسلاً ، بإطلاق السبب على السبب ، أو استعارة . وقيل : (لِمَا يُحْيِيكُمْ) أى من العلوم الدينية التى هى مناط حياة القلب ، كما أن الجهل موته .

قال الشهاب : وإطلاق الحياة على العلم ، والموت على الجهل ، استعارة معروفة ، ذكرها الأدباء ، وأهل المعاني . وأنشد الزمخشري لبعضهم :

لا تمجنن الجهول خلته فذاك ميت ، وثوبه كفن

وقد ألم فيه بقول أبى الطيب ، من قصيدته التى أولها :

أفاضل الناس أغراضٌ لذا الزمن يخلو من المم أخلاهم من الفطن

ومنها :

لا تمجنن مضيا حسن بزته وهل تروق دفيناً جودة السكفن

والأظهر أن يُعنى بـ (ما يحييكم) ما يصلحكم من أعمال البر والطاعة . فيدخل فيه ما تقدم وغيره .

تنبيه :

استدل النبي ﷺ بهذه الآية على وجوب إجابته إذا نادى أحداً وهو فى الصلاة . روى البخارى^(٢) عن أبى سعيد بن المولى رضى الله عنه قال : كنت أصلى ، فقرأ بى النبي ﷺ ، فدعانى ، فلم آته حتى صليت ، ثم أتيتة فقال : ما منعك أن تأتيني ؟ ألم يقل الله (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا .) الآية .

وقوله تعالى « وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ » يحتمل وجوهاً من المعانى .

(١) [٢٩ / المنكسوت / ٦٤] . (٢) أخرجه البخارى فى : ٦٥ - كتاب التفسير .

٨ - سورة الأنفال ، ٢ - باب : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ

لِمَا يُحْيِيكُمْ ، حديث رقم ١٩٦١ .

أحدهما : أنه تعالى يملك على المرء قلبه فيصرفه كيف يشاء ، فيحول بينه وبين الكفر ، إن أراد هدايته ، وبينه وبين الإيمان ، إن أراد ضلّالته . وهذا المعنى رواه الحاكم في مستدركه عن ابن عباس ، وصححه ، وقاله غير واحد من الساف . ويؤيده ما روى ؛ أن النبي ﷺ كان يكثر أن يقول : يا مقلب القلوب ، ثبت قلبي على دينك . فقيل : يا رسول الله ! آمنا بك ، وبما جئت به ، فهل تخاف علينا ؟ قال : نعم ، إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله تعالى ، يقلبها - رواه الإمام أحمد ^(١) والترمذي ^(٢) عن أنس - ولفظ مسلم ^(٣) : إن قلوب بني آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن ، كقلب واحد ، يصرفها كيف شاء ثم قال رسول الله ﷺ : اللهم ! مصرف القلوب ، صرف قلوبنا إلى طاعتك - انفرد مسلم عن البخاري بإخراجه عن عبد الله بن عمرو - . وفي رواية : إن قلب الآدمي بين إصبعين من أصابع الله ، فإذا شاء أزاغه ، وإذا شاء أقامه - رواه الإمام أحمد ^(٤) عن عائشة - . وروى أيضاً مثله عن جابر وبلال والنوّاس ^(٥) بن سمان وأم سلمة ، كما ساقه ابن كثير . وعلى هذا المعنى ، فالآية استعارة تمثيلية ، لتمكنه من قلوب العباد ، فيصرفها كيف يشاء ، بما لا يقدر عليه صاحبها . شبه بمن حال بين شخص ومقاعه ، فإنه يقدر على التصرف فيه دونه .

ثانيها : أنه حث على المبادرة إلى الطاعة ، قبل حلول المنية . فغنى (يحول بينه وبين قلبه) يعيظه فتفوته الفرصة التي هو واجدها ، وهي التمكن من إخلاص القلب ، ومعالجة أدوائه وعلله ، وردّه سليماً ، كما يريد الله ، فاعتنموا هذه الفرصة ، وأخلصوها لطاعة الله ورسوله . فشبه الموت بالحيولة بين المرء وقلبه ، الذي به يعقل ، في عدم التمكن من علم ما ينفعه علمه .

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة ١١٢ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) .

(٢) أخرجه الترمذي في : ٣٠ - كتاب القدر ، ٧ - باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي

الرحمن . (٣) أخرجه مسلم في : ٤٦ - كتاب القدر ، حديث رقم ١٧ (طبعتنا) .

(٤) أخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة رقم ٢٦١ من الجزء السادس (طبعة الحلبي) .

(٥) أخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة رقم ١٨٢ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

ثالثها : أنه مجاز عن غاية القرب من العبد ، لأن من فصل بين شيئين كان أقرب إلى كل منهما من الآخر ، لاتصاله بهما ، وانفصال أحدهما عن الآخر . و (يحول) إما استعارة تبعية معناه يقرب . أو استعارة تمثيلية . وهذا المعنى نقل عن قتادة حيث قال : الآية كقوله تعالى (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ) ^(١) وفيه تنبيه على أنه تعالى مطلع ، من مكنونات القلوب ، على ما عسى أن يغفل عنه صاحبها .

« وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ » أى فيجزىكم بأعمالكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

« وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً » الفتنة : إما بمعنى الذنب ، كما قرأ المفسر ، وافتراق الكلمة والتكاسل فى الجهاد وإما بمعنى العذاب . فإن أريد الذنب فأصابته بإصابته . وإن أريد العذاب ، فأصابته بنفسه . و (لَا تُصِيبَنَّ) جواب للأمر ، أى : إن إصابتكم لا تختص إصابتها بمن يباشر الظلم منكم ، بل تشملهم وغيرهم بشؤم صحتهم ، وتمدى رذيلتهم إلى من يخالطهم ، كقوله تعالى (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ) ^(٢) . قاله القاشانى .

وقد روى الإمام أحمد ^(٣) عن جرير أن رسول الله ﷺ قال : ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصى هم أعز وأكثر ممن يعملون ، ثم لم يغيروه ، إلا عمهم الله بعقاب . وروى نحوه عن عدى بن عميرة وحذيفة والنعمان وعائشة وأم سلمة .

(١) [٥٠ / ق ١٦] . (٢) [٣٠ / الروم ٤١] .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٣٦١ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

قال الكرخي : ولا يستشكل هذا بقوله تعالى (وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى) (١) ، لأن الناس ، إذا تظاهروا بالمنكر ، فالواجب على كل من رآه أن يغيره ، إذا كان قادراً على ذلك فإذا سكت فكلهم عصاة . هذا بفعله ، وهذا برضاه . وقد جعل تعالى ، بحكمته ، الراضى بمنزلة العامل ، فانتظم في العقوبة . انتهى .

وذكر القسطلاني أن علامة الرضا بالمنكر عدم التألم من الخلل الذي يقع في الدين بفعل المعاصي ، فلا يتحقق كون الإنسان كارهاً له ، إلا إذا تألم للخلل الذي يقع في الدين ، كما يتألم ويتوجع لفقد ماله أو ولده ، فكل من لم يكن بهذه الحالة فهو راض بالمنكر ، فتعمه العقوبة والمصيبة بهذا الاعتبار . انتهى .

وعن ابن عباس : أمر الله المؤمنين ألا يقرؤا المنكر بين أظهرهم ، فيمهمهم الله بالعذاب . « وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ » أي لن يخالف أوامره .

ثم نبه تعالى عباده المؤمنين السابقين الأولين على نعمه عليهم ، وإحسانه إليهم ، حيث كانوا قليلين فكثروا ، ومستضعفين خائفين فقواهم ونصرهم ، ورزقهم من الطيبات ، ليشكروهم بدوام الطاعة ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] « وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ »
« وَاذْكُرُوا » أي يا معشر المهاجرين « إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ » أي في العدد « مُسْتَضْعَفُونَ » في الأرض « تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ » أي متهودون في أرض مكة قبل الهجرة ، تستضعفكم قريش « تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ » أي أهل مكة . و (تخطفه) و (اختطفه) بمعنى استلبه وأخذه

(١) [٦ / الأنعام / ١٦٤] و [١٧ / الإسراء / ١٥] و [٣٩ / الزمر / ٧] .

بسرعة « فَأَوَّاكُم » أى إلى المدينة « وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ » يعنى أعانكم وقواكم يوم بدر بنصره ، وذلك بمظاهرة الأنصار ، وإمداد الملائكة ، والتثبيت الربانى « وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ » أى الغنائم لأنها لم تطب إلا لهم « لَعَلَّكُم تَشْكُرُونَ » أى المولى على ما تفضل به وأولى . وما ذكرنا من كون الخطاب فى الآية للمهاجرين خاصة ، هو أنسب بالمقام والسياق والسياق يشعر به . وقيل : الخطاب للعرب كافة ، وعليه قول قتادة بن دعامة السدوسى رحمه الله فى هذه الآية : كان هذا الحى من العرب أذل الناس وأشقاه عيشاً ، وأجوعه بطوناً ، وأعماه جلوداً ، وأثبتته ضللاً . والله ! ما نعلم قبيل من حاضر أهل الأرض يومئذ كانوا أشر منزلاً منهم ، حتى جاء الله بالإسلام ، فسكن به فى البلاد ، ووسع به فى الرزق ، وجعلهم به ملوكاً على رقاب الناس . وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم ، فاشكروا الله على نعمه ، فإن ربكم منعم يحب الشكر ، وأهل الشكر فى مزيد من الله . انتهى .

وأقول : الأمر فى العرب ، وإن كان كما ذكر ، لكن فى تنزيل بعض ألفاظ الآية عليه تكلف لا يخفى فالظاهر ما ذكرنا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ » لما ذكرهم تعالى بإسباغ نعمه عليهم ليذكروه ، وكان من شكره الوقوف عند حدوده ، بين لهم ما يحذر منها ، وهو الخيانة . ويدخل فى خيانة الله تعطيل فرائضه ، ومجاوزة حدوده . وفى خيانة رسوله رفض سنته ، وإفشاء سره للمشركين . وفى خيانة أمانتهم الغلول فى المغنم ، أى السرقة منها ، وخيانة كل ما يؤتمن عليه الناس من مال أو أهل أو سر ، وكل ما تعبدوا به .

وقد روى في نزول الآية شىء مما ذكرنا . ولمظ الآية مطلق يتناوله وغيره . ومن ذلك ^(١) ما رواه سعيد بن منصور عن عبد الله بن أبي قتادة قال : نزلت في أبي لبابة حين حاصر رسول الله ﷺ قريظة وأمرهم أن ينزلوا على حكم سعد ، فاستشار قريظة من أبي لبابة في النزول على حكم سعد ، وكان أهل أبي لبابة وأمواله فيهم ، فأشار إلى حلقه - أنه الذبح - قال أبو لبابة : ما زالت قدمائى حتى علمت أنى خذت الله ورسوله ، ثم حلف ألا يذوق ذواقاً حتى يموت ، أو بتوب الله عليه . وانطلق إلى المسجد ، فربط نفسه بسارية ، فكسك أياماً ، حتى كان يخرّ مغشياً عليه من الجهد ، ثم أنزل الله توبته ، وحلف لا يحله إلا رسول صلى الله عليه وسلم بيده ، فحله ، فقال ^(٢) : يا رسول الله ! إني كنت نذرت أن أنخلع من مالى صدقة ، فقال : يجزيك الثلث أن تصدق به .

قال بعض المفسرين : دل هذا السبب على جواز إظهار الجزع على المعصية ، وإتباع النفس وتوبيخها ، لأنه صلى الله عليه وسلم لم ينكر على أبي لبابة . ودل على أنه يستحب إتباع المعصية بالصدقة ، لأنه عليه السلام قال : يجزيك ثلث مالك ، وهذا سبيل قوله ^(٣) في هود (*إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ*) .

وفي قوله تعالى : (*وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ*) دلائل على أن ذنب العالم بالخطيئة أعظم منه من غيره ، لأن المعنى : وأنتم تعلمون تبعة ذلك ووباله .

قال الرازى : ثم إنه لما كان الداعى إلى الإقدام على الخيانة هو حب الأموال والأولاد ، نبه تعالى على أنه يجب على العاقل أن يحترز عن المضارة المتولدة من ذلك الحب فقال :

(١) انظر سيرة ابن هشام ، الصفحة رقم ٦٨٦ و ٦٨٧ (طبعة جوتنجن) والصفحة رقم ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، و ٢٤٨ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) .

(٢) انظر موطأ مالك : ٢٢ - كتاب النذور والأيمان ، حديث ١٦ (طبعتنا) .

(٣) [١١ / هود ١١٤] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ)

«وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ» أى محنة من الله ليبلوكم ، هل تقعون بهما فى الخيانة ، أو تتركون لها الاستجابة لله ورسوله ، أو لاتلهون بهما عن ذكره ، ولا تعاضون بهما منه . فسموا (فتنة) اعتبارا بما ينال الإنسان من الاختبار بهما . ويجوز أن يراد (بالفتنة) الإثم أو العذاب ، فإنهم سبب الوقوع فى ذلك .

قال الحاكم : قد أمر الله بالعلم بذلك ، وطريق العلم به التفكير فى أحوالهما وزوالهما ، وقلة الانتفاع بهما ، وكثرة الضرر ، وأنه قد يعصى الله بسببهما .

وقوله تعالى : «وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ» أى لمن آثر رضاه على جمع المال وحب الولد ، فلم يورط نفسه من أجلهما . وقد جاء التحذير من فتنتهما صراحة مع التهيب الشديد فى قوله تعالى : «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ»^(١) قيل : هذه الآية من جملة ما نزل فى أبى لبابة ، وما فرط منه لأجل ماله وولده .

ولما حذر تعالى ، فبم تقدم ، عن الفتنة بالأموال والأولاد ، بشر من اتقاه فى الافتتان بهما ، وفى غيره بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ

عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ

(١) [٦٣ / المنافقون / ٩] .

وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ » قال المهاييمى : أشار تعالى إلى أن من ترك الخيانة ، واستجاب لله ، فلا يخاف على أهله وماله وعرضه ، أى كما خاف أبو لبابة . فإن من اتقاه تعالى فلا يجترئ أحد على أهله وحوزته ، لأنه يؤتى فرقاناً يفارق به سائر الناس من المهابة والإعزاز . انتهى .

وقيل : « فرقاناً » أى نصرأ ، لأنه يفرق بين الحق والباطل ، وبين الكفر بإذلال حربه ، والإسلام بإعزاز أهله . ومنه قوله تعالى (يَوْمَ الْفُرْقَانِ) ^(١) . وقيل : بياناً وظهوراً يشهر أمركم ، ويبث صيتكم وآثاركم فى أقطار الأرض من قولهم : بت أفعل كذا حتى سطع الفرقان ، أى طلع الفجر . وقيل : فصلاً بين الحق والباطل ، ومخرجاً من الشبهات . كما قال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) ^(٢) . والفرقان (كالفرق) ، مصدر (فرَّق) ، أى فصل بين الشيئين ، سواء كان بما يدركه البصر ، أو بما تدركه البصيرة . إلا أن الفرقان أباغ ، لأنه يستعمل فى الفرق بين الحق والباطل ، والحجة والشبهة .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ، وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)

« وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ » لما ذكر الله تعالى المؤمنين نعمه عليهم بقوله تعالى :

(١) [٨ / الأنفال / ٤١] . (٢) [٥٧ / الحديد / ٢٨] .

(وَإِذْ كُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ) ذكر نبيه ﷺ نعمته عليه خاصة ، في حفظه من مكر قريش^(١) به ليشكره تعالى في نجاته من مكرهم ، واستيلائه عليهم . وذلك أن قريشاً ، لما أسلمت الأنصار ، وأخذ نور الإسلام في الانتشار ، فرقوا أن يتفاهم أمره ، فاجتمعوا في دار الندوة (وهي دار بناها قصي بن كلاب ليصلح فيها بين قريش . ثم صارت لمشاورتهم . وهي الآن مقام الحنفى . والندوة الجماعة من القوم ، وندا بالمسكان اجتمع فيه ، ومنه النادى) ليتشاوروا في أمره صلى الله عليه وسلم . فقال أبو البختري بن هشام : رأيت أن تحبسوه في بيت ، وتشدوا وثاقه ، وتسدوا بابه ، غير كوة ، تلقون إليه طعامه وشرابه منها ، وتربصوا به ريب المنون . وهذا ما أشير إليه بقوله تعالى : (لِيُثْبِتُوكَ) أى ليحبسوك ويوثقوك ، لأن كل من حبس شيئاً وربطه فقد جعله ثابتاً لا يقدر على الحركة منه . ثم اعترض هذا الراى شيخ نجدى دخل معهم ، فقال : بئس الراى ! يأتاكم من يقاتلكم من قومه ، ويخلصه من أيديكم ! ثم قال هشام بن عمرو : رأيت أن تحملوه على جبل ، وتخرجوه من بين أظهركم ، فلا يضركم ما صنع ، واسترحم . وهذا ما أشير إليه بقوله تعالى : (أَوْ يُخْرِجُوكَ) ، يعنى من مكة ، ثم اعترض النجدى أيضاً بقوله : بئس الراى ! يفسد قوماً غيركم ، ويقاتلكم بهم . فقال أبو جهل - لعنه الله - : أنا أرى أن تأخذوا من كل بطن غلاماً ، وتعطوه سيفاً ، فيضربوه ضربة رجل واحد ، فيتفرق دمه في القبائل ، فلا يقوى بنو هاشم على حرب قريش كلهم ، فإذا طلبوا العقل عقلاً واسترحنا . وهذا ما ذكره تعالى بقوله : (أَوْ يَقْتُلُوكَ) . ثم قال النجدى اللعين : صدق هذا الفتى ، هو أجودكم رأياً . ففترقوا على رأى أبى جهل ، مجمعين على قتله . فأخبر جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ : وأمره أن لا يبيت في مضجعه ، وأذن الله له في الهجرة . فأمر علياً ، فقام في مضجعه ، وقال له : اتشح ببردى ،

(١) انظر سيرة ابن هشام ، الصفحات رقم ٣٢٤ و ٣٢٥ و ٣٢٦ (طبعة جوتنجن) والصفحات رقم ١٢٤ و ١٢٥ و ١٢٦ و ١٢٧ و ١٢٨ من الجزء الثانى (طبعة الحلبي) .

فإنه لن يخلص إليك أمر تكبره . ثم خرج ﷺ ، وأخذ قبضة من تراب ، فأخذ الله بأبصارهم عنه ، وجعل ينثر التراب على رؤوسهم وهو يقرأ : (يَسْ وَالْقُرْءَانِ الْحَكِيمِ) إلى قوله (فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ)^(١) ومضى مع أبي بكر إلى الغار ، وبات المشركون يحرسون هلياً ، يحسبون أنه النبي . فلما أصبحوا ساروا إليه ليقتلوه ، فرأوا علياً ، فقالوا : أين صاحبك ؟ فقال : لا أدري ! فاتبعوا ، أثره فلما بلغوا الغار ، رأوا نسج العنكبوت على بابه ، فقالوا : لو دخله لم يبق لنسج العنكبوت أثر . وخيب الله سعيهم ، وأبطل مكرهم . ثم مكث ﷺ فيه ثلاثاً ، ثم خرج إلى المدينة .

روى ذلك عن ابن عباس من طرق عند ابن إسحاق والإمام أحمد والحاكم والبيهقي - دخلت روايات بعضهم في بعض - .

وقوله تعالى (وَيَمْكُرُ اللَّهُ) أى يدبر ما يبطل مكرهم . وقوله : (وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ) أى أعظمهم تأثيراً ، قاله المهايى وأفاد أيضاً في مناسبة هذه الآية مع ما قبلها : أن هذه تشير إلى أن المتق كماله الله له فرقاً يمنع من الاجترار على أهله وماله وعرضه ظاهراً ، يحفظه من مكر من مكر به ، بل يمكر له على ما كره . انتهى .

ثم أخبر تعالى عن كفر قريش وعتوتهم وتمردهم ودعواهم الباطل عند سماع آياته تعالى بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (وَإِذَا تَنَتَلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا إِن هَٰذَا إِلَّا أَصَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)

« وَإِذَا تَنَتَلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا » أى مثل هذا « لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا » أى التلو . وهذا غاية المكابرة ، ونهاية العناد . كيف لا ؟ ولو استطاعوا شيئاً من ذلك ،

(١) [٣٦ / يس / ٩ - ١] .

فما الذى كان بمنعهم من المشيئة ، وقد تُحَدِّثُوا غير ما مرة أن يأتوا بسورة من مثله ، وقُرِّعُوا على العجز ، وذافوا من ذلك الأمرين ، ثم قورعوا بالسيف ، فلم يعارضوا سواه ، مع فرط أنفهم ، واستنكافهم أن يغلبوا ، خصوصاً فى باب البيان الذى هم فرسانه ، المالكون لأزمته ، وغاية ابتهاجهم به .

وقوله تعالى : « إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ » أى ما سطوروه وكتبوه من القصص . قيل : (أساطير) لا واحد له ، وقيل : هو جمع أسطر وسطور وأسطار ، جموع سطر ، يسكون الطاء وفتحها ، فهو جمع الجمع . وقيل : هو جمع أسطورة ، كأحدونة وأحاديث . والأصل فى السطر الخط والكتابة . يقال : سطر : كتب ، ويطلق على الصف من الشئ . كالكتاب والشجر . كذا فى القاموس وشرحه .

وقد روى أن قائل هذا . النضر بن الحارث من كعدة ، وأنه كان ذهب إلى بلاد فارس ، وجاء منها بنسخة حديث رستم واسفنديار ، ولما قدم ووجد رسول الله ﷺ قد بعثه الله ، وهو يقلو على الناس ما قصه تعالى من أحاديث القرون . قال : لو شئت لقلت مثل هذا ، فزعم أنه مثل ما تلقفه . وكان عليه الصلاة والسلام إذا قام من مجلس ، جلس فيه النضر فحدثهم من متلفقاته ، ثم يقول : بالله ! أبنا أحسن قصصاً ، أنا أو محمد ؟ وقد أمكن الله تعالى منه يوم بدر ، وأمره المقداد ، ثم أمر ﷺ به ، فضربت عنقه . وإسناده قوله إلى الجميع ، إما لرضا الباقيين به أو لأن قائله كبير متبع . وقد كان اللعين قاصتهم الذى يعلمهم الباطل ويقودهم إليه ، ويفرهم بمثل هذه الجمعية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا

مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)

« وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ

أَوْ اثْنًا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ» هذا أسلوب من الجحود بليغ ، لأنهم عدوا حقيقة القرآن محالاً ، فلذا علّقوا عليه طلب العذاب الذى لا يطلبه عاقل ، ولو كان ممكناً لفرّوا من تمليقه عليه . والمعنى ، إن كان هذا القرآن حقاً منزلاً ، فعاقبنا على إنكاره بالسجّيل ، كما فعلت بأصحاب الفيل ، أو بعذاب آخر . وفى إطلاقهم (الحق) عليه ، وجمله من عند الله تهكم بمن يقول ذلك من النبى أو المؤمنين . وفائدة التعريف فيه الدلالة على أن المعلق به كونه حقاً على الوجه ، يدعيه ﷺ ، وهو تنزيله ، لا الحق مطلقاً ، لتجوزهم أن يكون مطابقاً للواقع ، غير منزل ، كالأساطير . فالتعريف للعهد . و(أَمْطِرُ) استعارة أو مجاز لـ (أَنْزِلُ) قال الزمخشري : وقد كثر الإمطار فى معنى العذاب . فإن قلت : ما فائدة قوله (من السماء) ، والإمطار لا يكون إلا منها ؟ قلت : كأنه أريد أن يقال : فأمطر علينا السجّيل ، وهى الحجارة المسوّمة للعذاب ، فوضع (حجارة من السماء) ، موضع (السجّيل) كما تقول : صبّ عليه مسرودة من حديد ، تريد درعاً . وقوله (بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) أى سوى الإمطار المذكور ، أو من عطف العام على الخاص . وعن معاوية ، أنه قال لرجل من سبأ : ما أجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة ! قال : أجهل من قوى قومك ! قالوا الرسول الله ﷺ حين دعاهم إلى الحق : إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة ، ولم يقولوا إن كان هذا هو الحق فاهدنا له . أى الذى هو الأصح لهم ، ولكن لشدة جهلهم وعتوهم وعنادهم استفتحوا على أنفسهم ، واستمعجلوا تقديم العقوبة ، كقوله تعالى (١) : (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْ لَأَجَلَ مُسَمًّى إِيَّاهُمْ الْعَذَابُ ، وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) (وَقَالُوا) (٢) رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْعًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ) وقوله (٣) : (سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ * مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ) وكذلك قال الجهملة من الأمم السالفة ، كما قال (٤) قوم شعيب له : (فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) .

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٥٣] .

(٢) [٣٨ / ص / ١٦] .

(٣) [٧٠ / المعارج / ١ - ٣] .

(٤) [٢٦ / الشعراء / ١٨٧] .

وعن عطاء ومجاهد وسعيد بن جبير أن قائل ذلك النضر بن الحارث ، صاحب القول السالف . قال عطاء : لقد أنزل في النضر بضع عشرة آية ، فحاق به ما سأل من العذاب يوم بدر . وروى البخاري^(١) عن أنس أن قائل ذلك أبو جهل . وروى ابن مردويه عن بريدة قال : رأيت عمرو بن العاص واقفاً يوم أحد على فرس وهو يقول : اللهم إن كان ما يقول محمد حقاً فاحسف بي وبفرسى . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ، وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)

« وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ » بيان للعوجب لإمهالهم ، وعدم إجابة دعائهم . واللام لتأكيد النفي ، والدلالة على أن تعذيبهم ، والنبي بين أظهرهم ، غير مستقيم في الحكمة ، لأن سنته تعالى ، وقضية حكمته ، ألا يعذب أمة ونبيها بين ظهرانيها ، لأنه لو نزل العذاب في مكانهم لأصاب كل من كان فيه . وفيه إشعار بأنهم مرصدون بالعذاب إذا هاجر عنهم . وقوله تعالى : « وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ » ذكروا فيه ثلاثة أوجه : الأول - أن المراد استغفار من بقي بين أظهرهم من المسلمين المستضعفين . قال الطيبي : وهذا الوجه أبلغ ، لدلالته على أن استغفار الغير مما يدفع به العذاب عن أمثال هؤلاء الكفرة .

(١) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٨ - سورة الأنفال ، ٣ - باب قوله : وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَاباً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ، حديث ٢٠٠٧ .

والثاني - أن المراد به دعاء الكفرة بالمغفرة ، وقولهم : (غفرانك) في طوافهم بالبيت ، كما رواه ابن أبي حاتم ، فيكون مجرد طلب المغفرة منه تعالى مانعاً من عذابه ، ولو من الكفرة .

والثالث أن المراد بالاستغفار التوبة ، والرجوع عن جميع ما هم عليه من الكفر وغيره ، فيكون القيد منفياً في هذا ، ثابتاً في الوجهين الأولين .

قال القاشاني : العذاب سورة الغضب وأثره ، فلا يكون إلا من غضب النبي ، أو من غضب الله المسبب من ذنوب الأمة . والنبي عليه الصلاة والسلام كان صورة الرحمة ، لقوله تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ)^(١) ولهذا لما كسروا رباعيته قال (اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون) ولم يغضب كما غضب نوح عليه السلام وقال (رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِن السَّكَارَةِ دَبَّارًا)^(٢) فوجوده فيهم مانع من نزول العذاب ، وكذا وجود الاستغفار ، فإن السبب الأولي للعذاب لما كان وجود الذنب ، والاستغفار مانع من تراكم الذنب وثباته ، بل يوجب زواله ، فلا يتسبب لغضب الله ، فما دام الاستغفار فيهم فهم لا يعذبون . انتهى .

روى الترمذي^(٣) عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : أنزل الله على أمانين لأمتي (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ . . .) الآية . فإذا مضيت تركت فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة .

قال ابن كثير : ويشهد لهذا ما رواه الإمام أحمد^(٤) والحاكم وصححه ، عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال : إن إبليس قال لربه : بمزتك وجلالك ، لا أبرح أغوى بني آدم مادامت الأرواح فيهم ، فقال الله : فبمزتي وجلالي لا أبرح أغفر لهم ما استغفروني .

(١) [٢١ / الأنبياء / ١٠٧] . (٢) [٧١ / نوح / ٢٦] . (٣) أخرجه الترمذي

في ٤٤ - كتاب التفسير ، ٨ - سورة الأنفال ، ٤ - باب حدثنا سفيان بن وكيع .

(٤) أخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة ٢٩ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) .

وروى الإمام أحمد^(١) عن فضالة بن عبيد عن النبي ﷺ أنه قال : العبد آمن من عذاب الله عز وجل ما استغفر الله عز وجل .

ثم بين تعالى أنهم أهل للعذاب لولا المانع المتقدم بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يُصَدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ، إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الَّذِينَ اتَّقَوْا أَلَا كُنْتُمْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

« وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يُصَدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ » أى وأى شئ لهم فى انتفاء العذاب عنهم ، وحلهم الصد عن المسجد الحرام ، كما صدوا رسول الله ﷺ عام الحديبية . ومن صدحهم عنه إلقاء رسول الله ﷺ والمؤمنين إلى الهجرة .

قال القاشانى : أى ليس عدم نزول العذاب لعدم استحقاقهم لذلك بحسب أنفسهم ، بل إنهم مستحقون بذواتهم ، لصدودهم ، وصدحهم المستعدين ، وعدم بقاء الخيرية فيهم . ولكن يمنعه وجودك ووجود المؤمنين المستغفرين معك فيهم . ثم قال : واعلم أن الوجود الإمكانى يتبع الخير الغالب ، لأن الوجود الواجبى هو الخير المحض . فما رجع خيره على شره فهو موجود بوجوده بالمناسبة الخيرية ، وإذا غلب الشر لم تبق المناسبة ، فلزم استنصاله وإعدامه . فهم ما داموا على الصورة الاجتماعية كان الخير فيهم غالباً ، فلم يستحقوا الدمار بالعذاب . وأما إذا تفرقوا فما بقى إلا شرهم خالصاً فوجب تدميرهم ، كما وقع فى وقعة بدر . ومن هذا يظهر تحقيق المعنى الثانى فى قوله (وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً)^(٢) لغلبة الشرع على المجموع حينئذ . انتهى .

وقوله تعالى « وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ » رد لما كانوا يقولون : نحن ولاية البيت والحرم ،

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٢٠ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي)

(٢) [٨ / الأنفال / ٢٥] .

نَصَدْتُمْ مِنْ نِشَاءٍ ، وَنَدْخُلُ مِنْ نِشَاءٍ . أَيْ مَا كَانُوا مُسْتَحَقِّينَ وَلَايَةِ أَمْرِهِ ، لَشُرْكَهُمْ « إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْأُمِّيَّةُونَ » أَيْ مِنَ الشَّرِكِ ، فَلَهُمْ أَنْ يَصْدُوا الْمَفْسِدِينَ « وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » أَيْ أَنَّهُمْ لَا وَلَايَةَ لَهُمْ عَلَيْهِ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً ، فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ)

« وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً » أَيْ تَصْفِيراً « وَتَصَدِيَةً » أَيْ تَصْفِيْقًا بِالْأَكْفِ .

روى ابن أبي حاتم أن ابن عمر رضى الله عنهما حكى فعلهم ، فصفر ، وأمال خده ، وصفق بيديه

وعن ابن عمر أيضاً قال : إنهم كانوا يضمنون خدودهم على الأرض ويصفرون ويصفرون . وقد روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة ، يصفرون ويصفقون .

وعن مجاهد أنهم كانوا يصنعون ذلك ليخلطوا على النبي صلى الله عليه وسلم صلاته . وقال الزهري : يستهزئون بالمؤمنين .

وهذه الجملة إما مطوَّفة على (وَهُمْ يَصُدُّونَ) ، فيكون التقرير استحقاقهم للعذاب ، أو على قوله (وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ) ، فيكون تقريراً لعدم استحقاقهم لولايته .

قال الزمخشري : فإن قلت : ما وجه هذا الكلام ؟ قلت : هو نحو من قوله (أَيْ الْفِرْزْدَقِ) :

وما كنت أخشى أن يكون عطاؤه أَدَاهِمَ سوداً أو مُجْدَرَجَةً سُمراً

والمعنى أنه وضع القيود والسياط موضع العطاء . ووضعوا السكاء والتصدية موضع الصلاة .

وذلك أنهم كانوا يطوفون بالبيت عرلة ، الرجال والنساء ، وهم مشبكون بين أصابعهم ، يصفرون فيها ويصفقون . وكانوا يفعلون ذلك إذا قرأ رسول الله ﷺ في صلاته ، يخلطون عليه . ما كنت أخشى ، أى : ما كنت أعلم . وأدام : جمع (أدم) وهو الأسود من الحيات . والعرب تذكروا (الأدم) وتريد به (القيد) كما في قصة القيعثرى . والمدرجة : السياط . انتهى .

« فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ » أى اعتقاداً وعملاً ، وفيه إشعار بأن هذا الفعل المبطل لحرمة البيت ، كفر ، للإستهانة بشعائره تعالى والسخرية بها . والعذاب المذكور هو ما أصابهم يوم بدر من القتل والسبي ، كما قاله غير واحد من الساف ، واختاره ابن جرير .

تنبيه :

قال ابن القيم في (إغاثة اللهمان) : المتقربون إلى الله بالصغير والتصفيق ، والمخلطون به على أهل الصلاة والذكر والقراءة ، أشباه هؤلاء المشركين قال ابن عرفة وابن الأنبارى : المكاء والتصدية أيضاً بصلاة ، ولكن الله تعالى . أخبر أنهم جعلوا ، مكان الصلاة التى أمروا بها ، المكاء والتصدية . فالزمهم ذلك عظيم الأوزار . وهذا كقولك : زرتك فجعل جفائى صلتى ، أى أقام الجفاء مقام الصلاة . والمقصود أن المصفيق والصفايرين فى يراع أو مزمار ، ونحوه ، فيهم شبه من هؤلاء ، ولو أنه مجرد الشبه الظاهر ، فلم يمس من الذم ، بحسب تشبههم بهم ، وإن لم يتشبهوا بهم فى جميع مكائهم وتصديتهم . والله سبحانه لم يشرع التصفيق^(١) للرجال وقت الحاجة إليه فى الصلاة إذا نابههم أمر ، بل أمروا بالعدول عنه إلى التسبيح ، لئلا يتشبهوا بالنساء . فكيف إذا فعلوه ، لا حاجة ، وقرنوا به أنواعاً من المعاصى قولاً وفعلًا . انتهى .

(١) يشير إلى الحديث الشريف الذى رواه البخارى فى : ١٠ - كتاب الأذان ٤٨ - باب من دخل ليؤم الناس فجاء الإمام الأول ، فتأخر الآخر أو لم يتأخر جازت صلاته ، والحديث رقم ٤٢٩ عن سهل بن سعد الساعدى وهو حديث طويل ، وفيه قوله صلى الله عليه وسلم « من رابه شئ فى صلاته فليستج . فإنه إذا سبج النُفَتَ إليه . وإنما التصفيق للنساء » .

وقال قبله : ومن مكائد عدو الله ومصايدته التي كاد بها من قلّ نصيبه من العلم والعقل والدين ، وصاد بها قلوب الجاهلين والمبطلين ، سماع المسكاء والتصدية ، والغناء بالآلات المحرمة الذي يصدّ القلوب عن القرآن ، ويحملها عاكفة على الفسوق والمعصيان .

وقال شيخه تقي الدين بن تيمية رحمه الله تعالى ، في بعض فتاويه : وأما اتخاذ التصفيق والغناء والضرب بالدفوف والنفخ بالشبابات والاجتماع على ذلك ، ديناً وطريقاً إلى الله وقربة ، فهذا ليس من دين الإسلام ، وليس مما شرعه لهم نبيهم محمد ﷺ ، ولا أحد من خلفائه ، ولا استحسن ذلك أحد من أئمة المسلمين . بل ولم يكن أحد من أهل الدين يفعل ذلك على عهد رسول الله ﷺ ، ولا عهد أصحابه ، ولا تابعيهم بإحسان ، ولا تابعي التابعين . بل لم يكن أحد من أهل الدين من الأعصار الثلاثة ، لا بالحجاز ولا بالشام ولا باليمن ولا العراق ولا بخراسان ولا المغرب ولا مصر يجتمع على مثل هذا السماع ، وإنما ابتدع في الإسلام بعد القرون الثلاثة ، ولهذا قال الشافعي - لا رأى ذلك - : خلفت ببغداد شيئاً أحدثته الزنادقة يسمونه (الغبير) ، يصدون به الناس عن القرآن . وسئل عنه أحمد فقال : أكرهه ، هو محدث . قيل ، أتجلس معهم ؟ قال : لا ! وكذلك كرهه سائر أئمة الدين ، وأكابر الشيوخ الصالحين لم يحضروه . فلم يحضره مثل إبراهيم بن أدهم ، ولا الفضيل ابن عياض ، ولا معروف الكرخي ، ولا أبو سليمان الداراني ولا أحمد بن أبي الحواري ، ولا السري السقطي ، وأمثالهم . والذين حضروه من الشيوخ من المحمودين ، تركوه في آخر أمرهم . وأعيان المشايخ عابوا أهله ، كما ذكر ذلك الشيخ عبد القادر ، والشيخ أبو البيان وغيرهما من الشيوخ : وما ذكره الإمام الشافعي رضي الله عنه أنه من إحداث الزنادقة ، من كلام إمام خبير بأصول الإسلام . فإن هذا السماع لم يرغب فيه ، ويدعو إليه في الأصل ، إلا من هو متهم بالزندقة ، كابن الراوندي والفارابي وابن سينا وأمثالهم .

ثم قال رحمه الله : نعم ! قد حضره أقوام من أهل الإرادة والمحبة ، ومن له نصيب في المحبة ، لما فيه من التحريك لهم ، ولم يعلموا غائلته ، ولا عرفوا منبته . كما دخل قوم من الفقهاء في أنواع من كلام الفلاسفة المخاف لدين الإسلام ظناً منهم أنه حق موافق ، ولم يعلموا غائلته . ولا عرفوا منبته ، فإن القيام بحقائق الدين علماً وقولاً وعملاً وذوقاً وخبرة لا يستقل به أكثر الناس ، ولكن الدلائل الجامع هو الاعتصام بالكتاب والسنة .

ثم قال رحمه الله : ومن كان له خبرة بحقائق الدين ، وأحوال القلوب ، ومعارفهم وأذواقها ، عرف أن سماع المكاء والتصدية لا يجلب للقلب منفعة ولا مصلحة ، إلا وفي ضمن ذلك من المفسدة ما هو أعظم منه . فهو للروح ، كالجر للجسد ، يفعل في النفوس ، أعظم ما تفعله حمياً السكّوس .

ثم قال : وبالجملية فعلى المؤمن أن يعلم أن النبي ﷺ لم يترك شيئاً يقرب إلى الجنة ، إلا وقد حدث به ، ولا شيئاً يبعد عن النار ، إلا وقد حدث به . وإن هذا السماع ، لو كان مصلحة ، لشرعه الله ورسوله ، فإن الله يقول (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ) (١) الآية . وإذا وجد السامع به منفعة لقلبه ، ولم يجد شاهد ذلك من كتاب الله ولا من سنة رسوله ، لم يلتفت إليه . كما أن الفقيه إذا رأى قياساً لا يشهد له الكتاب والسنة ، لم يلتفت إليه انتهى . وقد سلف لنا شيء من هذا البحث عند قوله تعالى (فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ) (٢) فليراجع .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، فَسَيَنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ) « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيَنْفِقُونَهَا ثُمَّ

(١) [٥ / المائة / ٣] . (٢) انظر الصفحة رقم ٣١٠ من الجزء الثاني من هذا التفسير .

تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ » نزلت فيمن ينفق على حرب النبي ﷺ من المشركين ، وبيان سوء مغبة هذا الإنفاق . وقد ذهب الضحاك إلى أنه عني بها المطمعون منهم يوم بدر ، وكانوا اثني عشر رجلاً من قريش ، يطعم كل واحد منهم ، كل يوم عشرة جزر .

وروى عن مجاهد وسعيد بن جبير وقناة وغيرهم أنها نزلت في أبي سفيان ، ونفقة الأموال في (أحد) لقتال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وروى^(١) محمد بن إسحاق عن الزهري أنه لما أصيبت قريش يوم بدر ، ورجع فلهم إلى مكة ، ورجع أبو سفيان بعيره ، مشى رجال من قريش أصيب آبؤهم وأبنائهم وإخوانهم ببدر ، فسكلموا أبا سفيان ، ومن كانت له في تلك العير تجارة ، فقالوا : يا معشر قريش إن محمداً قد وتركم ، وقتل خياركم ، فأعينونا بهذا المال على حربيه ، لعلنا أن ندرك منه ثاراً بن أصيب منا ، ففعلوا . قال : ففهم ، كما ذكر عن ابن عباس ، أنزلت الآية .

ولا يخفى شمول الآية لجميع ذلك . واللام في (ليصدوا) لام الصيرورة ، ويصح أن تكون للتعميل ، لأن غرضهم الصد عما هو سبيل الله بحسب الواقع ، وإن لم يكن كذلك في اعتقادهم . وسبيل الله طريقه وهو دينه ، واتباع رسوله . ولما تضمن الوصول معنى الشرط ، والخبر بمنزلة الجزاء ، وهو (فَسَيُنْفِقُونَهَا) اقترن بالفاء . و (ينفقون) إما حال ، أو بدل من (كفروا) وفي تضمن الجزاء من معنى الإعلام والإخبار ، التوبيخ على الإنفاق ، والإنكار عليه ، كما في قوله : (وَمَا يَكُمُ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ)^(٢) . وفي تكرير الإنفاق في شبه الشرط والجزاء ، الدلالة على كمال سوء الإنفاق ، كما في قوله^(٣) : (إِنَّكَ مَنْ تَدْخُلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ) وقولهم^(٤) : من أدرك الصَّمانَ فقد أدرك المرعى . والمعنى : الذين ينفقون أموالهم لإطفاء نور الله ، والصد عن اتباع رسوله صلى الله عليه وسلم ، سيملمون عن قريب سوء

(١) انظر سيرة ابن هشام صفحة ٥٥٥ و ٥٥٦ (طبعة جوتنجن) و صفحة ٦٤ وما بعدها من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) . (٢) [١٦ / النحل / ٥٣] . (٣) [٣ / آل عمران / ١٩٢] . (٤) الصمان : أرض فيها غلظ وارتفاع وفيها قيعان واسعة ورياض معشبة . وإذا أخضبت رتعت العرب جميعها .

مغبة ذلك الإنفاق ، وانتقلا به إلى أشد الخسران ، من القتل والأسر في الدنيا ، والنكال في
العقبى : قال المتنبي :

إذا الجودُ لم يُرزَقْ خلاصاً من الأذى فلا الحمد مكسوباً ولا المالُ باقياً
(والأذى هنا المنّ)

وفي جعل ذات الأموال تصير (حسارة) أى ندماً وتأسفاً - وهى عاقبة أمرها - مبالغة .
والمراد بالغلبة فى قوله : (ثم يغلبون) الغلبة التى استقر عليها الأمر ، وإن كانت الحرب بينهم
سجّالا قبل ذلك . فإن قلت : غلبة المسلمين متقدمة على تحسّرهم ، بالزمان ، فلم أخرت بالذكر ؟
قلت : المراد أنهم يغلبون فى مواطن آخر بعد ذلك . كذا فى (العناية) .

تنبيه :

قال بعضهم ثمرة الآية خطر المعاونة على معصية الله تعالى ، وأن الإنفاق فى ذلك معصية ،
فيدخل فى هذا معاونة الظلمة على حركاتهم فى البغى والظلم ، وكذلك بيع السلاح والكرّاع ،
ممن يستعين بذلك على حرب المسلمين .

« وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُخْشَرُونَ »

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ

فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ ، أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

« لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ » أى الكافر من المؤمن ، أو الفساد من الصلاح ،
واللام متعلقة بـ (يحشرون) أو (يغلبون) . أو ما أنفقه المشركون فى عداوة رسول الله ﷺ ،
مما أنفقه المسلمون فى نصرته ، واللام متعلقة بقوله (ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً) « وَيَجْعَلَ
الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ » أى : فيجتمعه
ويضم بعضه إلى بعض ، حتى يتراكبوا لفرط ازدحامهم ، أو يضم إلى الكافر ما أنفقه ،

ليزيد به عذابه ، كمال الكافرين « أُولَئِكَ » إشارة إلى الخبيث ، لأنه مقدر بالفريق الخبيث ، أو إلى المفقين « هُمُ الْخَامِرُونَ » لخسرانهم أنفسهم وأموالهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ)

« قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا » يعنى أبا سفيان وأصحابه . فالتعريف فيه للمهد أو للجنس ، فيدخل هؤلاء فيهم دخولا أولياً « إِنْ يَنْتَهُوا » أى عن الكفر وقتال النبي صلى الله عليه وسلم « يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ » أى من الكفر والمعاصي « وَإِنْ يَعُودُوا » إلى قتاله « فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ » أى الذين تحزبوا على الأنبياء بالتدمير ، أو الذين حاق بهم مكربهم يوم بدر . وقوله (فقد مضت) الخ دلائل الجزاء . والتقدير : انتقمنا منهم فقد مضت الخ .

تفسيه :

استدل بالآية على أن الإسلام يجب ما قبله ، كما جاء في الحديث^(١) ، وأن الكافر إذا أسلم ، لا يخاطب بقضاء ما فاتته من صلاة أو زكاة أو صوم أو إنفاق مال أو نفس . وأجرى المالكية ذلك كله في المرتد إذا تاب ، لعموم الآية ، واستدلوا بها على إسقاط ما على الذمى من جزية وجبت عليه قبل إسلامه . وأخرج ابن أبي حاتم عن طريق ابن وهب عن مالك : لا يؤخذ كافر بشيء صنمه في كفره إذا أسلم ، ولم يعد طلاقهم شيئاً ، لأن الله تعالى قال (إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ) كذا في (الإكليل) .

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ، بالصفحة رقم ١٩٩ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

من حديث طويل ، عن عمرو بن العاص .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلَّهُ لِلَّهِ ، فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

«وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ» أى شرك أو إضلال لغيرهم ، وفتن منهم للمؤمنين عن دينهم «وَيَكُونَ الدِّينُ كُلَّهُ لِلَّهِ» أى يخلص التوحيد لله ، فلا يعبد غيره «فَإِنْ انْتَهَوْا» أى عن الكفر والمعاصى ظاهراً فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ «أى ببواطنهم «بَصِيرٌ» أى فيجازيهم ، وعليه حسابهم ، فكفوا عنهم ، وإن لم تعلموا ببواطنهم . كقوله تعالى (فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ...)^(١) الآية وفى الآية الأخرى (فَابْخَرُوا نَفْسَكُمْ فِي الدِّينِ)^(٢) . وفى الصحيحين^(٣) عن رسول الله ﷺ أنه قال : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله عز وجل . وفى الصحيح^(٤) أن رسول الله ﷺ قال لأسامة : لما علا ذلك الرجل بالسيف ، فقال : لا إله إلا الله ، فضربه فقتله ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ ، فقال لأسامة : أقتلته بعد ما قال : لا إله إلا الله ، فكيف تصنع بـ (لا إله إلا الله) يوم القيامة ؟ فقال : يا رسول الله ! إنما قالها تعوذاً ، فقال : هلا شققت عن قلبه ؟ وجعل يقول ويكرر عليه : مَنْ لَكَ بـ (لا إله إلا الله) يوم القيامة ؟ قال أسامة : حتى تميت أنى لم أكن أسلمت إلا يومئذ .

(١) [٩ / التوبة / ٥] . (٢) [٣٣ / الأحزاب / ٥] .

(٣) أخرجه البخارى فى : ٢ - كتاب الإيمان ، ١٧ - باب فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ، حديث رقم ٢٤ ، عن ابن عمر .

وأخرجه مسلم فى : ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ٣٦ (طبعتنا) .

(٤) أخرجه البخارى فى : ٦٤ - كتاب المغازى : ٤٥ - باب بَمَثَلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وسلم أسامة بن زيد إلى الحُرقات من جهينة ، حديث رقم ١٩٢٠ .

وأخرجه مسلم فى : ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ١٥٨ (طبعتنا) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ ، نِعِمَّ الْمَوْلَىٰ وَنِعَمَ النَّصِيرُ) « وَإِنْ تَوَلَّوْا » أى اعرضوا عن الإيمان ولم ينتهوا « فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ » أى ناصركم ومعينكم ، فتقوا بولايته ونصرته « نِعِمَّ الْمَوْلَىٰ » فلا يضيع من تولاه « وَنِعَمَ النَّصِيرُ » فلا يُغلب من نصره .

ثم بين تعالى مصرف ما أحله لهذه الأمة وخصها به ، وهو الغنائم ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤١] (وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّلَاقِ الْجُمُعَانِ ، وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) « وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ » أى قل أو أكثر من الكفار « فَإِنَّ لِلَّهِ » أى الذى منه النصر المقفرع عليه الغنيمة « خُمُسَهُ » شكراً له على نصره وإعطائه الغنيمة « وَلِلرَّسُولِ » أى الذى هو الأصل فى أسباب النصر « وَلِذِي الْقُرْبَىٰ » وهم بنو هاشم والمطلب « وَالْيَتَامَىٰ » أى من مات آباؤهم ولم يبلغوا ، لأنهم ضعفاء « وَالْمَسَاكِينِ » لأنهم أيضاً ضعفاء كاليتامى « وَابْنِ السَّبِيلِ » وهو المسافر الذى قطع عليه الطريق ويريد الرجوع إلى بلده ، ولا يجد ما يتبلغ به .

وفى هذه الآية مسائل :

الأولى - قال الفقهاء : (الغنيمة) المال المأخوذ من الكفار بإيجاف الخيل والركاب ، أى ما ظهر عليه المسلمون بالقتال . وهل هى والفيء والنفل شئ واحد أولاً ؟ وسنفصله فى آخر المسائل .

الثانية - « ما » في (إنما) بمعنى الذي ، والمائد محذوف ، وكان حقها ، على أصولهم ، أن تكتب مفصولة . قال الشهاب : وقد أجزى في (ما) هذه أن تكون شرطية .

الثالثة - قوله تعالى : (مِنْ شَيْءٍ) ، بيان للموصول ، محله النصب ، على أنه حال من عائد الموصول ، قصد به الاعتناء بشأن الغنيمة ، وألا يشذ عنها شيء ، أي ما غنمتموه كأنما كان يقع عليه اسم الشيء ، حتى الحيط والمحيط .

الرابعة - (الخمس) بضم الميم ، وسكونها ، لغتان قد قرئ بهما .

الخامسة - أفادت الآية أن الواجب في المغنم تخميسه ، وصرف الخمس إلى من ذكره الله تعالى ، وقسمة الباقي بين الفاتحين بالعدل ، للفرس سهم ، وللأرجل سهم ، وللأول سهم ، وسهمان لفرسه . هكذا قسم النبي ﷺ عام خيبر . ومن الفقهاء من يقول : للفرس سهمان . والأول هو الذي دلت عليه السنة الصحيحة ، ولأن الفرس يحتاج إلى مثونة نفسه وسائسه ، ومنفعة الفارس به أكثر من منفعة رجلين . ومنهم من يقول : يسوى بين الفرس العربي والهجين في هذا . والهجين يسمى البرذون والأكديش . ويجب قسمتها بينهم بالعدل ، فلا يجازي أحد ، لا لرياسته ولا لنسبه ولا لفضله ، كما كان النبي صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه يقسمونها .

وفي صحيح البخاري^(١) أن سعد بن أبي وقاص رأى أن له فضلاً على من دونه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم ؟

وفي مسند أحمد^(٢) أن سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه قال : قلت : يا رسول الله الرجل يكون حامية القوم ، يكون سهمه وأسهم غيره سواء ؟ قال : ثكلتك أمك ابن أم

(١) أخرجه البخاري في : ٥٦ - كتاب الجهاد ، ٧٦ - باب من استعان بالضعفاء والصالحين في الحرب ، حديث رقم ١٣٨٤ . (٢) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ١٧٣ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث رقم ١٤٩٣ (طبعة المعارف) .

سعد ! وهل ترزقون وتنصرون إلا بضعفائكم . كذا في (السياسة الشرعية) لابن تيمية .

وفي (زاد المعاد) لابن القيم : كان ﷺ إذا ظفر بمدوّه ، أمر منادياً بجمع الغنائم كلها ، فبدأ بالأسلاب فأعطاهم لأهلها ، ثم أخرج خمس الباقي فوضعه حيث أراه الله وأمره به من مصالح الإسلام ، ثم يرضخ من الباقي لمن لا سهم له من النساء والصبيان والعبيد ، ثم قسم الباقي بالسوية بين الجيش : للفارس ثلاثة أسهم ، وللراجل سهم . وكان ينفل من صلب الغنيمة بحسب ما يراه من المصلحة . وقيل : بل كان النفل من الخمس . وجمع لسلمة بن الأكوخ ، في بعض مغازيه ، بين سهم الرجل والفارس ، فأعطاه خمسة أسهم ، أعظم غنائه في تلك الغزوة .

قال ابن تيمية : وما زالت الغنائم تقسم بين الفاتحين في دولة بني أمية وبني العباس ، لما كان المسلمون يغزون الروم والترك والبربر .

السادسة - ذهب الجمهور إلى أن ذكر الله تعالى في قوله : (فَأَنَّ لِلَّهِ) للتعظيم ، أي تعظيم الرسول ، كما في قوله تعالى (وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ)^(١) أو لبيان أنه لا بد في الخمسة من إخلاصها لله تعالى ، وأن المراد قسمة الخمس على المطوفين عليه . وتمسك بعضهم بظاهر ذلك ، فأوجب سهماً سادساً لله تعالى ، يصرف في وجوه الخير ، أو يؤخذ للكمبة قال : لأن كلام الحكيم لا يُعَرَّى عن الفائدة ، ولأنه ثبت اختصاصه في آية الصدقات في قوله تعالى : (وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ)^(٢) ، فكذا هنا . وهذا مروى عن أبي العالمة ، والربيع والقاسم وأصحابه . ويؤيد مال للجمهور ، ما رواه البيهقي بإسناد صحيح عن عبد الله بن شقيق عن رجل قال : أتيت النبي ﷺ ، وهو بوادي القرى ، وهو معترض فرساً ، فقلت : يا رسول الله ! ما تقول في الغنيمة ؟ فقال : لله خمسها وأربعة أخماسها للجيش . قلت : فما أحد أولى به

(١) [٩ / التوبة / ٦٢] . (٢) [٩ / التوبة / ٦٠] .

من أحد؟ قال : لا ، ولا السهم تستخرجه من جيبيك ، ليس أنت أحق به من أخيك المسلم .
ومن لطائف الحسن أنه أوصى بالخمس من ماله وقال : ألا أرضى من مالى بما رضى الله
لنفسه ؟

السابعة - خمس النبي ﷺ الذى جعله الله له ، كان أمره فى حياته مفضلاً إليه ، يقصر فى
فيه بما شاء ، ويرده فى أمته كيف شاء .

روى الإمام أحمد^(١) أن أبا الدرداء قال لعبادة بن الصامت : يا عبادة ! كلمات رسول الله
ﷺ فى غزوة كذا وكذا فى شأن الأخماس ؟ فقال عبادة : إن رسول الله ﷺ صلى بهم فى
غزؤهم إلى بغير من القسم . فلما سلم قام رسول الله ﷺ ، فتناول وبرة بين أمتيّه فقال :
إن هذه من غنائمكم ، وإنه ليس لى فيها إلا نصيبى معكم إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم ،
فأدوا الخيط والمخييط ، وأكبر من ذلك وأصغر ، ولا تغفلوا فإن الغلول نار وعار على أصحابه
فى الدنيا والآخرة ، واجهدوا الناس ، فى الله تبارك وتعالى ، القريب والبعيد ، ولا تبالوا فى الله
لومة لائم ، وأقيموا حدود الله فى الحضر والسفر ، واجهدوا فى سبيل الله ، فإن الجهاد باب
من أبواب الجنة . ينجى الله تبارك وتعالى به من الغم والحلم .

قال ابن كثير : هذا حديث حسن عظيم .

وروى أبو داود^(٢) والنسائى عن عمرو بن عبسة ، أن رسول الله ﷺ صلى بهم إلى
بغير من المغنم ، فلما سلم أخذ وبرة من جنب البعير ثم قال : ولا يحل لى من غنائمكم
مثل هذا إلا الخمس والخمس مردود عليكم - واستدل به على أنه عليه الصلاة والسلام كان يصرفه
لمصالح المسلمين .

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٣١٦ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ١٥ - كتاب الجهاد ، ١٤٩ - باب فى الإمام يستأثر بشئ .

من النية لنفسه ، حديث رقم ٢٧٥٥ .

وكان له صلى الله عليه وسلم من الغنائم شيء يصطفيه لنفسه ، عبد أو أمة أو فرس أو سيف أو نحو ذلك ، رواه أبو داود^(١) عن محمد بن سيرين والشعبيّ مرسلًا ، وأحمد والترمذيّ عن ابن عباس .

والعلماء فيما يصنع بخمسه صلى الله عليه وسلم من بعده مذاهب : فمن قائل : يكون لمن يلي الأمر من بعده . قال ابن كثير : روى هذا عن أبي بكر وعليّ وقتادة وجماعة . وجاء فيه حديث مرفوع . ومن قائل : يصرف في مصالح المسلمين . قال الأعمش عن إبراهيم : كان أبو بكر وعمر يجملان سهم النبيّ صلى الله عليه وسلم في السكراع والسلاح . ومن قائل : بأنه يصرف لقربته صلى الله عليه وسلم . ومن قائل : بأنه مردود على بقية الأصناف : ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل . واختاره ابن جرير . والمسألة حظ من النظر .

الثانية - أجمعوا على أن المراد بـ (ذَوِ الْقُرْبَى) قربته صلى الله عليه وسلم . وذهب الجمهور إلى أن سهم ذوى القربى يصرف إلى بنى هاشم وبنى المطلب خاصة . لأن بنى المطلب وازروا بنى هاشم في الجاهلية ، وفي أول الإسلام ودخلوا معهم في الشعب غضباً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحماية له . مسلمهم طاعة الله ورسوله ، وكافرهم حمية للعشيرة ، وأنفة وطاعة لأبي طالب عمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأما بنو عبد شمس وبنو نوفل ، وإن كانوا ابني عمهم ، فلم يوافقوهم ، بل حاربوهم وناذبوهم ، ومالوا بطن قريش على حرب الرسول ، ولهذا كان ذمهم أبو طالب^(٢) في قصيدته بقوله منها :

أخرجه أبو داود في : ١٩ - كتاب الخراج والإمارة والنفى ، ٢١ - باب ما جاء في سهم الصفيّ ، الحديث رقم ٢٩٩١ عن عامر الشعبيّ ، والحديث رقم ٢٩٩٢ عن محمد ، بما يقارب هذا اللفظ . (٢) انظر القصيدة بتامها وعدتها ٩٤ بيتاً في ابن هشام بالصفحات ١٧٢ - ١٧٦ (طبعة جوتنجن) والصفحات ٢٩١ - ٢٩٩ من الجزء الأول (طبعة الحلبيّ)

جَزَى اللَّهُ عَذَابًا عَبْدَ شَيْمٍ وَنَوْفَلًا عَقُوبَةً شَرًّا عَاجِلًا غَيْرَ آجِلٍ

(نوفل : هو ابن خويلد . كان من شياطين قريش . قتله علي بن أبي طالب يوم بدر) .

بِمِيزَانٍ قِسْطٍ لَا يَخْجِسُ شَعِيرَةً لَهُ شَاهِدٌ مِنْ نَفْسِهِ غَيْرُ عَائِلٍ

(لا يخيس ، من قولهم : خاس بالعمد إذا نقضه وأفسده . والعائل : الحائر) .

لَقَدْ سَفِهَتْ أَهْلَامُ قَوْمٍ تَبَدَّلُوا بَنِي خَلَفٍ قَيْضًا بَنًا وَالْفَيَاطِلَ

(قيضا : عوضا . والفياطل : بنو سهم) :

وَنَحْنُ الصَّمِيمُ مِنْ ذُوَابَةِ هَاشِمٍ وَآلِ فُصَيٍّ فِي الْخُطُوبِ الْأَوَائِلِ

(الصميم : الخالص من كل شيء . والذوابة : الجماعة العالية ، وأصله الخصلة من شعر الرأس) .

وقال جبير بن مطعم بن عدى بن نوفل : مشيت أنا وعثمان بن عفان ، إلى النبي صلى الله

عليه وسلم ، فقلنا : أعطيت بني المطلب من خمس خيبر ، وتركنا ، ونحن وهم بمنزلة واحدة

منك ؟ فقال : إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد - رواه مسلم ^(١) - ،

وفي رواية : أنهم لم يفارقوني في جاهلية ولا إسلام - أفاده ابن كثير .

وقد روى عن ابن عباس وزين العابدين والباقر أنه يسوِّي في العطاء بين غنيمهم وفقيرهم ،

ذكورهم وإناثهم ، لأن اسم القرابة يشملهم ، ولأنهم عُوْضوه لما حرمت عليهم الزكاة ،

وقياساً على المال المقر به لبني فلان . واعتبر الشافعي أن سهمهم استحق بالقرابة ، فأشبهه

الميراث . قال : فلذلك منه مثل حظ الأنثيين . انتهى .

وقال في (العناية) : إنه كان لعبد مناف ، جد النبي ﷺ خمس بنين : هاشم وعبدشمس

ونوفل والمطلب وأبو عمرو ، وكلهم أعقبوا إلا أبا عمرو .

التاسعة - سهم اليتامى : قيل يخص به فقاوهم ، وقيل : يعم الأغنياء والفقراء .

(١) هذا الحديث لم يخرجهم مسلم وإنما هو من أفراد البخاري ، أخرجه في : ٦٤ - كتاب

حكاه ابن كثير . والأظهر الثاني . والسرّ فيه ما قدمناه في سورة البقرة ، فتذكره فإنه مهم .
العاشرة - الساكنين : المحاوِج الذين لا يجدون ما يسدّ خلّتهم ويكفيهم . وابن السبيل :
ذكرنا معناه أولاً .

الحادية عشرة - قال بعضهم : يقتضى ما ذكر في هذه الآية ، وما في صدر هذه السورة
من الأنفال ، وما في سورة الحشر من قوله تعالى ^(١) (مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ) الآية - أن
القسمة في الأموال المظفور بها ثلاثية : نفل : وغنيمة ، وفيء . ويقتضى إطلاق جمل النفل
لله ولرسوله ، والغنيمة لمن ذكر خمسة ، والفيء لمن ذكر بلا قيد التخميس - أن لكل من
الثلاثة حكماً يخالف الآخر ، وإن النفل ما يعطى لمن له من العناية والمقاتلة ما ليس لغيره ،
وفاء لِمَدَتِهِ بذلك ، قبل إحراز الغنيمة كالسلب . وإن الغنيمة ما أحرز بالقتال ، سوى
ما شرط التنفيل به ، لأنه لا بخمس . والفيء ما أخذ من الكفار بغير قتال ، كالأموال التي
يصالحون عليها ، والجزية والخراج ، ونحو ذلك . وإلى هذا التفصيل ذهب الجمهور . وذهب
بعضهم إلى اتحاد الثلاثة ، وعدم التفرقة بينها ، وإلى دخولها في الغنيمة ، وقال : ما أطلق
في آية الأنفال ، وآية الحشر ، مقيد بآية الغنيمة هذه . وهذا هو مراد قول بعضهم : إنهما
منسوختان بهذه ، بمعنى أن إطلاقهما مقيد بهذه . والله أعلم .

وقوله تعالى : « إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ » أى فاعملوا بما ذكر ، وارضوا بهذه القسمة
فالإيمان يوجب العمل بالعلم ، والرضا بالحكم :

وقد جاء في الصحيحين ^(٢) من حديث عبد الله بن عباس ، في حديث وفد عبد القيس :
أن رسول الله ﷺ قال لهم : وأمركم بأربع ، وأنها كم عن أربع : أمركم بالإيمان بالله .

(١) [٥٩ / الحشر / ٧٦] . (٢) أخرجه البخارى في : ٢ - كتاب الإيمان ،

٤٠ - باب أداء الخمس من الإيمان ، حديث رقم ٤٨ .

وأخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث ٢٣ و ٢٤ و ٢٥ (طبعنا) .

ثم قال : هل تدرون ما الإيمان بالله ؟ شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وأن تؤدوا الخمس من الغنم . الحديث - فجعل أداء الخمس من جملة الإيمان . وقد بَوَّب البخاري ^(١) على ذلك في باب الإيمان من صحيحه ، فقال : (باب أداء الخمس من الإيمان) وساق الحديث المذكور .

وقوله تعالى « وَمَا أُنْزِلْنَا » معطوف على (بالله) أى إن كنتم آمنتم بالله وبالمثل « عَلَى عَبْدِنَا » أى محمد عليه الصلاة والسلام ، أى من الآيات والملائكة والنصر « يَوْمَ الْفُرْقَانِ » أى يوم بدر ، فإنه فرق فيه بين الحق والباطل . و (الفرقان) بمعناه اللغوي ، والإضافة فيه للمهد « يَوْمَ اتَّخَذَ الْجَمْعَانِ » بمعنى جمع المؤمنين وجمع الكافرين . فالتعريف للمهد . وكان التقاؤهما يوم الجمعة . لسبع عشرة مضت من رمضان ، والمؤمنون يومئذ ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً ، والشركون ما بين الألف والتسمائة ، فهزم الله المشركين ، وقتل منهم زيادة على سبعمين ، وأسر منهم مثل ذلك « وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » فيقدر على نصر القليل على الكثير ، كما فعل بكم يوم بدر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتِلَافِ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ)

« إِذْ أَنْتُمْ » بدل من (يَوْمَ الْفُرْقَانِ) ، أو ظرف لحدوث ، أى : إذ كنتم إذ أنتم بامعشر المؤمنين « بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا » بمعنى بشفير الوادى الأدنى من المدينة « وَهُمْ » أى : « كَانِ مَفْعُولًا » انظر الباب رقم ٤٠ من كتاب الإيمان .

المشركين أبا جهل وأصحابه « بِالْمُدْوَةِ الْقُصْوَى » أى البُعدَى عن المدينة ، مما بلى مكة « وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ » أى المير التى فيها أبو سفيان ، بما معه من التجارة التى كان الخروج لأجلها ، أسفل من موضع المؤمنين إلى ساحل البحر على ثلاثة أميال من (بدر) .
اطيفة:

قال الزمخشريّ : فإن قلت : ما فائدة هذا التوقيت ، وذكر مراكز الفريقين ، وأن المير كانت أسفل منهم ؟ قلت : الفائدة فيه الإخبار عن الحال الدالة على قوة شأن العدو وشوكته وتكامل عدته ، وتمتد أسباب الغاية له ، وضعف شأن المسلمين ، والتيات أمرهم ، وأن غلبتهم فى مثل هذه الحال ، ليست إلا صنفاً من الله سبحانه ، ودليلاً على أن ذلك أمر لم يتيسر إلا بحوله وقوته ، وباهر قدرته . وذلك أن المدوة القصوى التى أناخ بها المشركون ، كان فيها الماء ، وكانت أرضاً لا بأس بها . ولا ماء بالمدوة الدنيا ، وهى خَبَارٌ (ما لان من الأرض واسترخى) تسوخ فيه الأرجل ، ولا يمشى فيها إلا بقعب ومشقة . وكانت المير وراء ظهور العدو ، مع كثرة عددهم ، فكانت الحماية دونها تضاعف حميتهم ، وتشجذ فى المقاتلة عنها نياتهم ؛ ولهذا كانت العرب تخرج إلى الحرب بظمنهم وأموالهم ، ليمسهم الذب عن الحريم ، والغيرة على الحرب ، على بذل جهيداًهم فى القتال ، وألا يتركوا وراءهم ما يحدثون أنفسهم بالانحياز إليه ، فيجمع ذلك قلوبهم ، ويضبط همومهم ، ويوطن نفوسهم ، على ألا يبرحوا موطنهم ، ولا يُخلُّوا مراكزهم ، ويبذلوا منتهى نجدتهم ، وقصارى شدتهم . وفيه تصوير ما دبر سبحانه من أمر وقعة بدر ، ليقضى أمراً كان مفعولاً ، من إعزاز دينه ، وإعلاء كلمته ، حين وعد المسلمين إحدى الطائفتين ، بمهمة غير مبيّنة ، حتى خرجوا ليأخذوا المير ، راغبين فى الخروج ، وشخص بقريش مرعوبين مما بلغهم من تعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم لأموالهم ، حتى نفروا لينموا غيرهم ، وسبب الأسباب حتى أناخ هؤلاء بالمدوة الدنيا ، وهؤلاء بالمدوة القصوى ، ووراءهم المير يحامون عليها ، حتى قامت الحرب على ساق ، وكان ما كان . انتهى .

قال الناصر في (الاتصاف) : وهذا الفصل من خواص حسنات الزمخشري ، وتنقيبه عن أسرار الكتاب العزيز .

وقوله تعالى « وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَا خِمَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ » أى ولو تواعدتم أنتم وأهل مكة على موعد تلتقون فيه للقتال ، لخالف بعضهم بعضاً ، فثبطكم فلتسكم وكثرتهم ، على الوفاء بالموعد ، وثبطهم ما فى قلوبهم من تهيب رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، فلم يتفق لكم من الغلاقي ما وفقه الله وسبب له . قاله الزمخشري .

وفى حديث كعب بن مالك^(١) قال : إنما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون يريدون غير قریش ، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد .

وروى ابن جرير^(٢) عن عمير بن إسحاق قال : أقبل أبو سفيان فى الركب من الشام ، وخرج أبو جهل ليمينه من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فالتقوا ببدر ، ولا يشمر هؤلاء بهؤلاء ولا هؤلاء بهؤلاء ، حتى التقى السقاة ، وشهد الناس بعضهم إلى بعض .

« وَلَئِنْ لَيَقْضَىٰ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا » أى ولكن جمع بينكم على هذه الحال على غير ميعاد ، ليقضى ما أراد من إعزاز الإسلام وأهله ، وإذلال الشرك وأهله ، من غير ملائمتكم . وقوله « كَانَ مَفْعُولًا » أى حقيقة بأن يفعل . وقيل : (كان) بمعنى (صار) أى صار مفعولاً ، بعد أن لم يكن . وقيل : إنه عبر به عنه لتحقيقه حتى كأنه مضى .

وقوله تعالى « لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ » أى إنما جمعكم مع عدوكم فى مكان واحد على غير ميعاد ، لينصركم عليهم ، ويرفع حجة الحق على الباطل ، ليصير الأمر ظاهراً ، والحجة قاطعة ، والبراهين ساطعة ، ولا يبقى لأحد حجة ولا شبهة ، فحينئذ يهلك من هلك ، أى يستمر فى الكفر من استمر فيه على بصيرة من أمره ، أنه مبطل لقيام الحجة عليه . ويؤمن من آمن عن حجة وبصيرة ويقين ، بأنه دين الحق ، الذى يجب

(١) انظر تفسير الطبري (طبعة الحلبي الثانية) بالصفحة رقم ١١ من الجزء العاشر .

الدخول فيه ، والتمسك به . وذلك أن ما كان من وقعة (بدر) ، من الآيات الغرّ المحجّلة ، التي من كفر بعدها ، كان مكابراً لنفسه ، مغالطاً لها .

لطائف :

الأولى - قوله تعالى (لِيَهْلِكَ) بدل من (لِيَقْضَى) أو متعلق بـ (مَفْعُولاً) .
الثانية - الحياة والهلاك استعارة للكفر والإسلام ، وقرئ (لِيَهْلِكَ) بفتح اللام .
الثالثة - (حَى) يقرأ بتشديد الياء ، وهو الأصل ، لأن الحرفين متماثلان متحركان ، فهو مثل شدّ ومدّ . ومنه قول عبيد بن الأبرص :

عَيُّوا بِأَمْرِهِمْ كَمَا عَيَّتْ بِبَيْضَتِهَا الْحَامَةَ

ويقرأ بالإظهار ، وفيه وجهان :

أحدهما - أن الماضي حمل على المستقبل ، وهو (يحيا) فكما لم يدغم في المستقبل ، لم يدغم في الماضي ، وليس كذلك شدّ ومدّ ، فإنه يدغم فيهما جميعاً .

والوجه الثاني - أن حركة الحرفين مختلفة ، فالأولى مكسورة ، والثانية مفتوحة ، واختلاف الحركتين ، كاختلاف الحرفين ، ولذلك أجازوا في الاختيار : لحجت عليه ، وضنب البلد ، إذاكثر ضنبه . ويقوى ذلك أن الحركة الثانية عارضة ، فكأن الياء الثانية ساكنة ، ولو سكنت لم يلزم الإدغام ، وكذلك إذا كانت في تقدير الساكن ، واليا أن أصل ، وليست الثانية بدلاً من (واو) . فأما الحيوان ، فد (الواو) فيه بدل من (الياء) . وأما الحواء ، فليس من لفظ (الحية) ، بل من (حوى يحوى) إذا جمع - قاله أبو البقاء - . « وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ » أى بكفر من كفر وعقابه ، وإيمان من آمن وثوابه . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٣] إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكُمْ كَثِيرًا لَفَسِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَالْكِينَ اللَّهُ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ

« إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلًا » منصوب بـ (اذ كر) ، أو بدل آخر من (يوم الفرقان) . وذلك أن الله عز وجل أراه إياهم في رؤياه قليلاً ، فأخبر بذلك أصحابه ، فكان تثبيتاً لهم وتشجيعاً على عدوهم « وَلَوْ أَرَاكُمْ كَثِيرًا لَفَسِلْتُمْ » أى لجنتم وهبتم الإقدام « وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ » أى أمر الإقدام والإحجام ، فتفرقت كلمتكم « وَالْكِينَ اللَّهُ سَلَّمَ » أى عصم وأنعم بالسلامة من الفشل والتنازع بتأييده وعصمته « إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ » أى يعلم ما سيكون فيها من الجراءة والجهن والصبر والجزع . ولذلك دبر ما دبر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (وَلَا يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّفَقُّتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ)

« وَلَا يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّفَقُّتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا » وذلك تصديقاً لرؤيا رسول الله ﷺ ، ولما بينوا ما أخبرهم به ، فیزداد يقينهم ، ويحمدوا ، ويشبّحوا .

قال ابن مسعود رضى الله عنه : لقد قللوا في أعيننا حتى قلت لرجل إلى جنبي : أراهم سبعمين ؟ قال : أراهم مائة ! فأمرنا رجلاً منهم ، فقلنا له : كم كنتم ؟ قال : ألفاً ! - رواه ابن أبي حاتم وابن جرير^(١) (وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ) أى في اليقظة ، حتى قال أبو جهل : إن محمداً وأصحابه أكلة جزور . مثل في القلة ، كـ (أكلة رأس) أى أنهم لقلتهم يكفهم ذلك . و (أكلة) بوزن (كتبة) ، جمع آكل ، بوزن فاعل ، والجذور الباقية . كذا في (العناية) . « لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا » أى من إظهار الخوارق الدالة على صدق دين الإسلام ، وكذب دين الكفر « كَانَ مَفْعُولًا » أى كالواجب فعله على الحكيم ، لما فيه من الخير الكثير . قاله المهايى .

(١) انظر الصفحة رقم ١٣ من الجزء العاشر من تفسير الطبرى (طبعة الحلبي الثانية) .

لطائف :

الأولى - قال الزمخشري : فإن قلت : الغرض في تقليل الكفار في أعين المؤمنين ظاهر ، فما الغرض في تقليل المؤمنين في أعينهم ؟ قلت : قد قللهم في أعينهم قبل اللقاء ، ثم كثرهم فيها بعده ، ليجترأوا عليهم ، فلة مبالاة بهم ، ثم تفجؤهم الكثرة ، فيبهتوا ويهابوا ، وتقل شوكتهم ، حين يرون ما لم يكن في حسابهم وتقديرهم ، وذلك قوله ^(١) (يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَى الْعَيْنِ) ولئلا يستعدوا لهم ، وليعظم الاحتجاج عليهم باستيضاح الآية البينة من قللهم أولاً وكثرتهم آخراً .

الثانية - قال الزمخشري أيضاً : فإن قلت : بأي طريق يبصرون الكثير قليلاً ؟ قلت : بأن يستر الله عنهم بعضه بسائر ، أو يحدث في عيونهم ما يستقلون به الكثير ، كما أحدث في أعين الحول ما يرون به الواحد اثنين . قيل لبعضهم : إن الأحوال يرى الواحد اثنين - وكان بين يديه ديك واحد - فقال : ما لي لا أرى هذين الديكين أربعة ؟ انتهى .

قال الناصر في (الانتصاف) : وفي هذا - يعني كلام الزمخشري - دلائل بين على أن الله تعالى هو الذي يخلق الإدراك في الحاسة ، غير موقوف على سبب من مقابلة ، أو قرب ، أو ارتفاع حجب ، أو غير ذلك . إذ لو كانت هذه الأسباب موجبة للرؤية عقلاً ، لما أمكن أن يستر عنهم البعض ، وقد أدركوا البعض ، والسبب الموجب مشترك . فعلى هذا يجوز أن يخلق الله الإدراك مع اجتماعها ، فلا ربط إذن بين الرؤية ونقيضها في مقدرة الله تعالى ؟ وهي رادة على القدرة المنكرين لرؤية الله تعالى ، بناء على اعتبار هذه الأسباب في حصول الإدراك عقلاً ، وأنها تستلزم الجسمية ، إذ المقابلة والقرب وارتفاع الحجب إنما تتأتى في جسم . فهذه الآية حسبهم في إبطال زعمهم ، ولكنهم يرون عليها وهم عنها معضون ، والله الموفق .

الثالثة - لا يقال : إن قوله تعالى (لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا) مكرر مع ما سبق .

(١) [٣ / آل عمران / ١٣] .

لأننا نقول : إن المقصود من ذكره أولاً هو اجتماعهم بلا ميعاد ليحصل استيلاء المؤمنين على المشركين ، على وجه يكون معجزة دالة على صدقه ﷺ ، والمقصود منه هاهنا بيان خارق آخر ، وهو تقليلهم في أعين المشركين ، ثم تكثيرهم للحكمة المتقدمة .
وفي قوله تعالى : « وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ » تنبيه على أن أحوال الدنيا غير مقصودة لذواتها ، وإنما المراد منها ما يصلح أن يكون زاداً ليوم المعاد .
ثم أرشد تعالى عباده المؤمنين إلى آداب اللقاء في ميدان الوغى ، ومبارزة الأعداء ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا » أى إذا حاربتم جماعة فاثبتوا للقاءهم واصبروا على مبارزتهم ، فلا تفروا ولا تجنبوا ولا تنكسوا . وتفسير (اللقاء) بـ (الحرب) لغلبة عليه ، كالنزاع ولم يصف الفئـة بأنها كافرة ، لأنه معلوم غير محتاج إليه « وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا » أى فى مواطن الحرب ، مستظهريـن بذكره مستنصرين به ، داعين له على عدوكم « لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » أى تظفرون بمرادكم من النصرة والمثوبة .

وقد ثبت فى الصحيحين^(١) عن عبد الله بن أبى أوفى أن رسول الله ﷺ فى بعض أيامه ، التى لقي فيها العدو انتظر حتى مالت الشمس . ثم قام فى الناس فقال : أيها الناس ! لا تتمنوا لقاء العدو ، وسلوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا ، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف .

(١) أخرجه البخارى فى : ٥٦ - كتاب الجهاد ، ١١٢ - باب كان النبى ﷺ إذا

لم يقاتل أول النهار أخر القتال حتى تزول الشمس ، حديث رقم ١٣٤٦ .

وأخرجه مسلم فى : ٣٢ - كتاب الجهاد والسير ، حديث رقم ٢٠ (طبعنا) .

ثم قال : اللهم ! منزل الكتاب ، ومُجْرِي السحاب ، وهازم الأحزاب ، اهزمهم وانصرنا عليهم .

وفي الآية إسماعيل بأن على العبد ألا يَفْتَرَّ عن ذكر ربه ، أشغل ما يكون قلباً ، وأكثر ما يكون همّاً ، وأن يلتجئ إليه عند الشدائد ، ويقبل إليه بكليته ، فارغ البال ، واثقاً بأن لطفه لا ينفك عنه في حال من الأحوال .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا ، إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)

« وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ » أى فى كل ما يأمران به وينهيان ، وهذا عام ، والتخصيص بالذكر هنا فيه تأكيد « وَلَا تَنَازَعُوا » أى باختلاف الآراء ، أو فيما أمرتم به « فَتَفْشَلُوا » أى تَجِبِنُوا ، إذ لا يقوى بمضكم بيمض . « وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ » أى قوتكم وغلبتكم ، ونصرتكم ودواتكم . شبه ما ذكر فى نفوذ الأمر وعشيقته ، بالريح وهبوبها . ويقال : هبت رياح فلان ، إذا دالت له الدولة وتقد أمره ، قال :

إذا هبت رياحك فاعتمها

ولا تغفل عن الإحسان فيها

فإن لكل خافقة سكون

فما تدرى السكون متى يسكون

« وَاصْبِرُوا » أى على شدائد الحرب ، وعلى مخالفة أهويتكم الداعية إلى التنازع ، فالصبر مستلزم للنصر « إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ » أى بالنصر .

قال ابن كثير رحمه الله : وقد كان للصحابه رضى الله عنهم ، فى باب الشجاعة والاثبات بما أمرهم الله ورسوله ، وامثال ما أرشدهم إليه ، ما لم يكن لأحد من الأمم ، والقرون قبلهم ولا يكون لأحد من بعدهم . فإنهم ببركة الرسول ﷺ وطاعته فيما أمرهم ، فتحوا القلوب والأقاليم شرقاً وغرباً ، فى المدة اليسيرة ، مع قلة عددهم بالنسبة إلى جيوش سائر الأقاليم ،

من الروم والفرس والترك والصقالبة والبربر والحبوش وأصناف السودان والقبط وطوائف
بني آدم . قهروا الجميع حتى علت كلمة الله وظهر دينه على سائر الأديان ، وامتدت الممالك
الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها ، في أقل من ثلاثين سنة ، فرضى الله عنهم وأرضاهم أجمعين .
تنبيه :

قال بعض المفسرين في قوله تعالى (وَلَا تَنَازَعُوا) ، أى لا تختلفوا فيما أمركم به من
الجهاد ، بل ليعتفق رأيكم . قال : ولقائل أن يقول : استثمر من هذا وجوب نصب أمير على
الجيش ليدبر أمرهم . ويقطع اختلافهم ، فإن بلزوم طاعته ، ينقطع الاختلاف . وقد فعله صلى
الله عليه وسلم في السرايا ، وقال ^(١) : اسمعوا وأطيعوا ، وإن أمر عليكم عبد حبشي . انتهى .
ولما أمر تعالى المؤمنين بالثبات والصبر عند اللقاء ، أمرهم بالإخلاص فيه ، بنهيهم
عن التشبه بالمشركين ، في انبعاثهم للرياء ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ
عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ)

« وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا » أى نفروا بالشجاعة « وَرِئَاءَ
النَّاسِ » أى طلباً للثناء بالسماحة والشجاعة « وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا
يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ » أى لا تكونوا كأبي جهل وأصحابه ، وقد أتاهم رسول أبي سفيان ، وهم
بالجحفة : أن ارجعوا ، فقد سلمت غيركم . فأبوا وقالوا : لا نرجع حتى نأتى بدرا ، فننحر
بها الجزر ، ونسقى بها الخمر ، وتمزق علينا فيه القيان ، وتسمع بنا العرب . فذلك بطرهم
ورئاءهم الناس بإطعامهم . فوافوها ، فسقوا كؤوس المنايا مكان الخمر ، وناحت عليهم النوايح
مكان القيان . أى : لا يكن أمركم رياء ولا سمعة ولا التماس ما عند الناس ، وأخلصوا لله

(١) أخرجه البخارى في : ٩٣ - كتاب الأحكام ، ٤ - باب السمع والطاعة للإمام مالم
تكن معصية ، الحديث رقم ٤٣٤ عن أنس . وفيه (اسْمَعُوا) عوضاً عن (أَمَرُوا) .

النية والحسبة ، في نصر دينكم ، ومؤازرة نبيكم ، لا تعملوا إلا لذلك ، ولا تطلبوا غيره .
(الرتاء) مصدر (رأى) ، إذا أظهر العمل للناس ليروه غفلة عن الخالق . وقد يقال راياه
مرايأة ورياء ، على القلب . و (بطراً ورتاء) إما مفعول من أجله ، أو مصدر في موضع
الحال . و (يصدون) إما حال ، بتأويل اسم الفاعل ، أو بجملة مصدر فعل هو حال ، وإما
مستأنف . ونكتة التعبير بالاسم أولاً ثم الفعل ، الإعلام بأن البطر والرياء دأبهم ، بخلاف
الصدق فإنه تجدد لهم في زمن النبوة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٨] وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ
وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ ، فَلَمَّا تَرَآتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي
بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ ، وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ

« وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ » أى في معاداة الرسول والمؤمنين ، بأن وسوس
إليهم « وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ » أى من النبي صلى الله عليه وسلم
وأصحابه « وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ » أى مجير ومعين لكم « فَلَمَّا تَرَآتِ الْفِئَتَانِ » أى تلاقنا ،
وترأت كل واحدة صاحبتها ، فرأى الملائكة نازلة من السماء لإمداد المؤمنين « نَكَصَ عَلَى
عَقَبَيْهِ » أى ولّى هارباً على قفاه « وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ » أى من عهد جواركم « إِنِّي
أَرَىٰ » أى من الملائكة النازلة لإمداد المؤمنين « مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ » أى أن
يذهبني قبل يوم القيامة « وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ » أى فلا يبعد مع إمهالي إلى القيامة ، أن
يذهبني لشدة عقابه .

تنبيه :

ذكروا في التزيين وجهين :

أحدهما : أن الشيطان وسوس لهم من غير تمثيل ، في صورة إنسان ، وهو مروى عن

الحسن والأصم . فالقول على هذا مجاز عن الوسوسة . والنكوص وهو الرجوع استمارة لبطلان كيدته :

وثانيهما : أنه ظهر في صورة إنسان ، لأنهم لما أرادوا المسير إلى بدر ، خافوا من بنى كنفانة ، لأنهم كانوا قتلوا رجلا ، وهم يطلبون دمه ، فلم يأمنوا أن يأتوهم من ورائهم ، فتمثل إبليس اللعين في صورة سرافة الكنفاني ، وقال : أنا جاركم من بنى كنفانة ، فلا يصل إليكم مكروه منهم . فقوله (إني جار لكم) على الحقيقة . وقال الإمام : معنى (الجار) هنا الدافع للضرر عن صاحبه ، كما يدفع الجار عن جاره . والعرب تقول : أنا جار لك من فلان ، أى حافظ لك ، مانع منه . وهذا القول الثانى ذهب إلى جمهور المفسرين .

روى مالك^(١) فى الموطأ عن طلحة بن عبيد الله بن كريب ، مرسلًا : أن رسول الله ﷺ قال : ما روى الشيطان يوما هو فيه أصفر ولا أحمر ولا أبيض ، منه فى يوم عرفة . وما ذاك إلا لما يرى من تنزل الرحمة ، وتجاوز الله عن الذنوب المظالم . إلا ما رأى يوم بدر ، فإنه قد رأى جبريل يزعم الملائكة .

قال الإمام : وكان فى تغيير صورة (إبليس) إلى صورة (سرافة) معجزة عظيمة للرسول ﷺ ، وذلك لأن كفار قريش لما رجعوا إلى مكة قالوا : هزم الناس سرافة ، فبلغ ذلك سرافة فقال : والله ما شمرت بمسيركم ، حتى بلغتني هزيمتكم . فعند ذلك تبين للقوم أن ذلك الشخص ما كان سرافة ، بل كان شيطانًا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ مُّغْرِبٌ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ ، وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

« إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ » أى بالمدينة . و (إِذْ) منصوب بـ (إذ كر) مقدراً ، أو

(١) أخرجه فى الموطأ فى : ٢٠ - كتاب الحج ، حديث ٢٤٥ (طبعتمنا) ،

بـ (زين) « وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ » يجوز أن يكون من صفة المنافقين ، وتوسطت والواو لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف ، لأن هذه صفة للمنافقين ، لا تنفك عنهم . قال تعالى^(١) (فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ) . أو تكون الواو داخلة بين المفسر والمفسر نحو : أعجبني زيد وكرمه . ويجوز أن يراد : الذين هم على حرف ، ليسوا بشاقي الأقدام في الإسلام . وعن الحسن : هم المشركون . « غَرَّ هَؤُلَاءِ » يمعنون المؤمنين « دِينُهُمْ » فظنوا أنهم ينصرونهم به على أضعافهم « وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » أى من يعتمد عليه سبحانه وتعالى فإنه ينصره على أضعافه ، بالعين ما بلغوا ، لأنه عزيز غالب على ما أراد ، وهو يريد نصر أوليائه ؛ حكيم ، وحكمته تقتضى نصرهم . وهو جواب لهم من جهة تعالى ، وردلقاتهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْ بَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ)

« وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا » أى يقبض أرواحهم « الْمَلَائِكَةُ » أى ملائكة القهر والعذاب مما يناسب هيات نفوسهم « يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ » لإعراضهم عن الحق ، ولهيات الكبر والمعجب والنخوة فيها « وَأَذْ بَارَهُمْ » ليلهم إلى الباطل ، وشدة انجذابهم إليه ، ولهيات الشهوة والحرص والشره « وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ » عطف على (يضر بون) بإضمار القول . أى : ويقولون ذوقوا بشارة لهم بعذاب الآخرة . وجواب (لو) محذوف ، اتفطيع الأمر وتهويله .

وقال ابن كثير : وهذا السياق ، وإن كان سببه وقعة بدر ، ولكنه عام فى حق كل كافر . وفى سورة القتال مثل هذه الآية . وتقدم فى الأنعام نحوها ، وهو قوله تعالى^(٢) : (وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ الْمُجْرِمُونَ فِي عَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ) أى بالضرب فيهم بأمر ربهم .

(١) [٢ / البقرة / ١٠] . (٢) [٦ / الأنعام / ٩٣] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥١] (ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)

« ذَلِكَ » إشارة إلى ما ذكر من الضرب والمذاب « بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ » أى ما كسبتم من الكفر والمعاصي « وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ » أى بأن يأخذهم بلا جرم .
فإن قيل : ما المراد بالتعبير بـ (ظلام) بالمبالغة ، مع أن نفى نفس الظلم أبلغ من نفى كثرته ، ونفى الكثرة لا ينفي أصله ، بل ربما يشعر بوجوده ، ورجوع النفي للقيد ؟
وأجيب بأجوبة :

منها : أنه نفى لأصل الظلم وكثرته ، باعتبار آحاد من ظلم ، كأنه قيل : ظالم لفلان ولفلان وهم جراً . فلما جمع هؤلاء عدل إلى (ظلام) لذلك ، أى لكثرة الكمية فيه .
ومنها : أنه إذا انتفى الظلم الكثير ، انتفى الظلم القليل ، لأن من يظلم ، يظلم للارتفاع بالظلم . فإذا ترك كثيره ، مع زيادة نفعه في حق من يجوز عليه النفع والضرر ، كان لقليله مع قلة نفعه أكثر تركاً .

ومنها : أن (ظلاماً) للنسب ، كـ (مطار) ، أى لا ينسب إليه الظلم أصلاً .
ومنها : أن كل صفة له تعالى في أكمل المراتب ، فلو كان تعالى ظالماً ، كان ظلاماً ، فنفى اللازم ، لنفى المزموم .

ومنها : أن نفى (الظلام) لنفى الظالم ، ضرورة أنه إذا انتفى الظلم انتفى كماله ، فجعل نفى المبالغة كناية عن نفى أصله ، انتقالاً من اللازم إلى المزموم .
ومنها : أن المذاب من العظيم بحيث ، لولا الاستحقاق ، لكان المذاب بمثله ظلاماً بليغ الظلم متفاقه . فالمراد تنزيهه تعالى ، وهو جدير بالمبالغة .

وأيضاً : لو عذب تعالى عبده بدون استحقاق وسبب ، لكان ظالماً عظيماً ، لصدوره عن العدل الرحيم . كذا في (المفاتيح) .

وفي صحيح مسلم^(١) عن أبي ذرّ رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أن الله تعالى يقول :
إني حرمت الظلم على نفسي ، وجعلته بينكم محرماً ، فلا تظالموا . يا عبادي ! إنما هي أعمالكم
أحصيها لكم ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه .
والحديث طويل جليل . معروف ، عند المحدثين ، بالحديث المسلسل بالدمشقيين .
ثم بين تعالى أن سير المشركين المستمر ، وعادتهم الدائمة ، مع ما أرسل به النبي ﷺ ،
كسير الأمم السالفة مع رسلهم ، بقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (كَذَّابِ ۚ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ
اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

« كَذَّابِ ۚ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » خبر لقدر ، أي داب هؤلاء ، كذاب
آل فرعون ومن تقدمهم من الأمم ، كقوم نوح ، وهو علمهم الذي دأبوا ، أي استمروا
عليه ، ثم فسره فقال : « كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ » أي قبل يوم القيامة
« بِذُنُوبِهِمْ » أي كما أخذ هؤلاء ، لأنهم اجتروا على معاصيه بما رأوا لأنفسهم من القوة .
فضعّفهم ، إظهاراً لقوته « إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ » قال المهايمي : تأخير العذاب إنما
يكون للرحمة ، لكنه لما اشتد عنادهم ، اشتد غضبه ، لأنه شديد العقاب لمن اشتد عناده
ممه ، فلا يكون في حقه رحمة .

(١) من حديث طويل نفيس ، قد أفردّه شيخ الإسلام بشرح قيم . أخرجه مسلم في :
٤٥ - كتاب البرّ والصلة والآداب ، حديث رقم ٥٥ (طبعنا) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

« ذَلِكَ » أى التعذيب الذى علم كونه مؤاخذة بالذنوب « بِأَنَّ اللَّهَ » أى بسبب أنه تعالى « لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ » بتبديله إياها بالنعمة « حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ » من موجبات تلك النعم من اعتقاد أو قول أو عمل . وهذا إخبار عن تمام عدله وقسطه فى حكمه ، بأنه تعالى لا يغير نعمة أنعمها على أحد إلا بسبب ذنب ارتكبه ، كقوله تعالى ^(١) : (إِنْ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) .

قال القاشانى . كل ما يصل إلى الإنسان هو الذى يقتضيه استعداده ، ويسأله بدعاء الحال ، وسؤال الاستحقاق . فإذا أنعم على أحد النعمة الظاهرة أو الباطنة لسلامة الاستعداد ، وبقاء الخيرية فيه لم يغيرها حتى أفسد استعداده ، وغير قبوله للصالح ، بالاحتجاب وانقلاب الخير الذى فيه بالقوة إلى الشر ، لحصول الرين وارتكام الظلمة فيه ، بحيث لم يبق له مناسبة للخير ، ولا إمكان لصدوره منه ، فيغيرها إلى النعمة عدلا منه وجودا ، وطلباً من ذلك الاستعداد إياها بجاذبة الجنسية والمناسبة ، لا ظاهراً وجوراً . انتهى .

« وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » أى فيغير إذا غيروا ، غضباً عليهم بما يسمع منهم أو يعلم

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (كَذَّابٌ ۖ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ ۖ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ، كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا ۖ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ ، وَكُلًّا كَانُوا ظَالِمِينَ)
« كَذَّابٌ ۖ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ ۖ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ » فكان مبدأ تغييرهم أنهم « كَذَّبُوا

(١) [١٣ / الرعد / ١١] .

بِآيَاتِ رَبِّهِمْ» أى الذى رباهم بالنعمة ، فصرفوها إلى غير ما خلقت له بمقتضى تلك الآيات ، فكانت ذنوباً « فَأَهْلَكْنَاهُمْ » أى زيادة على سلبه النعمة « يَذُنُو بِهِمْ » أى بما صرفوا بها النعمة إلى غير ما خلقت له « وَأَغْرَقْنَاهُ آلَ فِرْعَوْنَ » لإغراقهم النعمة فى بحر الإنكار بنسبتها إلى فرعون حيث أقروا بإلهيته « وَكُلُّ » أى من الفرق المكذبة الكافرة ، أو من آل فرعون، ومن قبلهم ، وكفار قريش : « كَانُوا ظَالِمِينَ » أى بصرف النعمة إلى غير ما خلقت له ، وهو نوع من الإغراق لها فى بحر الإنكار لأنه مرجع التغيير لها . كذا أول المهايى .
وفيه إشارة إلى دفع ما يتوهم من التكرار فى الآيتين ، بتغاير التشبيهين فيهما ، فلا يحتاج إلى دعوى التأكيد . فمعنى الأول : حال هؤلاء كحال آل فرعون فى الكفر ، فأخذهم وآناهم العذاب . ومعنى الثانى : حال هؤلاء كحال آل فرعون فى تغييرهم النعمة ، وتغيير الله حالهم بسبب ذلك التغيير ، وهو أنه أغرقهم . وقيل : إن النظم يأباه ، لأن وجه التشبيه فى الأول كفرهم المترتب عليه العقاب ، فينبغى أن يكون وجهه فى الثانى قوله (كذبوا) لأنه مثله ، إذ كل منهما جملة مبتدأة بعد تشبيهه ، صالحة لأن تكون وجه الشبه ، فتحمل عليه ، كقوله تعالى (١) :
(إِنْ مَثَلٌ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ) وأما قوله : (ذلك بأن الله لم يك مغفرا نعمة . . .) فكان التعليل لحلول النكال ، معترض بين التشبيهين ، غير مختص بقوم ، فجعله وجهاً للتشبيه بعمد عن الفصاحة . كذا فى (العناية) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (إِنْ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

« إِنْ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا » أى أصرّوا على كفرهم ورسخوا فيه
فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ « أى فلا يتوقع منهم إيمان .

(١) [٣ / آل عمران ٥٩] .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٥٦] (الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ)
 « الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ » أى
 لا يخافون عاقبة العذر ، ولا يباليون بما فيه من العار والنار .

تنبيهات :

الأول - قال المهايى : أشار تعالى إلى أنه كيف يترك نعمه على من غير أحواله التى كانت
 أسباب النعم ، وقد كان بها إنسانيته ، فبتغييرها لحق بالدواب ، وبإنكار المنعم صار شرًّا
 منها . والنعم تسلب ممن لا يعرف قدرها ، فكيف لا تسلب ممن ينكر المنعم ؟ .
 الثانى - دات الآية على جواز تحقير المصاة ، والاستخفاف بهم ، حيث سماهم تعالى
 (دواب) وأخبر أنهم (شرّ الدواب) .

الثالث - قالوا : نزلت الآية فى يهود بنى قريظة ، رهط كعب بن الأشرف ، فإن رسول
 الله ﷺ ، كان عاهدكم ألا يحاربوه ، ولا يعاونوا عليه ، فنقضوا العهد ، وأعانوا مشركى
 مكة بالسلاح على قتال رسول الله ﷺ وأصحابه ، ثم قالوا : نسينا وأخطأنا . فماهدم الثانية
 فنقضوا العهد أيضا . وما لأوا الكفار على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الخندق .
 وركب كعب بن الأشرف إلى مكة ، فوافقهم على مخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الرابع - (الذين) بدل من الموصول الأول ، أو عطف بيان له ، أو نصب له على الذم .
 وضمن (عاهدت) معنى الأخذ ، حتى عدّى بـ (من) أى أخذت منهم عهدهم . وقيل :
 (من) صلة ، وقال أبو حيان : هى للتبعيض ، لأن المباشر بالذات للمعاهدة بمض القوم ،
 وهم الرؤساء والأشراف .

الخامس - قوله : (وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ) ، حال من فاعل (ينقضون) ، أى يستمرون على
 النقض ، والحال أنهم لا يتقون العار فيه ، لأن عادة من يرجع إلى دين وعقل وحزم أن يتق

نقض العهد ، حتى يسكن الناس إلى قوله ، ويشقون بكلامه . فبين الله عز وجل أن من جمع بين الكفر ونقض العهد ، فهو شر من الدواب .

ثم شرع تعالى في بيان أحكام الناقضين ، بعد تفصيل أحوالهم ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى:

[٥٧] (فَأَمَّا تَتَقَفَّنَهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَّدَ بِهِمْ مَن خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَدَّكُرُونَ)
 « فَأَمَّا تَتَقَفَّنَهُمْ فِي الْحَرْبِ » أى فإما تصادفهم وتظفرون بهم « فَشَرَّدَ بِهِمْ مَن خَلَفَهُمْ » أى فرق بهم من وراءهم من المحاربين . يعنى : بأن تفعل بهم من النكال وتغليظ العقوبة ، ما يشرد غيرهم خوفاً ، فيصيروا لهم عبرة . كما قال : « لَعَلَّهُمْ يَدَّكُرُونَ » أى لعل المشردين يمتظون بما شاهدوا ما نزل بالناقضين ، فيرتدعوا عن النقض أو عن الكفر . قال في (التاج) : وقيل : معنى (فشرد بهم) فسمع بهم ، وقيل : فرع بهم ولا يخفى أن هذه المعاني متقاربة . وأصل التشريد الطرد والتفريق . ويقال . شرد به تشريداً ، سَمِعَ الناس بعبوبه . قال :

أُطَوِّفُ بِالْأَبَاطِحِ كُلِّ يَوْمٍ مَخَافَةَ أَنْ يُشَرَّدَ بِي حَكِيمٌ
 معناه أَنْ يَسْمَعَ بِي (حَكِيمٌ) رجل من بنى سُلَيْمٍ كانت قريش وَلَّعَهُ الْأَخْذُ عَلَى أَيْدِي السُّفَهَاءِ .

استشهد به في اللسان في مادة (ش ر د) .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى:

[٥٨] (وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ)

« وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً » بيان لأحكام المشركين إلى نقض العهد ، إثر بيان

الناقضين له بالفعل . و (الخوف) مستعار للعلم . أى : وإما تعلمن من قوم من المعاهدين نقضَ عهد فيما سيأتى ، بما لاح لك منهم من دلائل الغدر ، ومخايل الشرِّ « فَأَنْبِذْ إِلَيْهِمْ » أى فاطرح إليهم عهدهم « عَلَى سَوَاءٍ » أى على طريق مستوٍ قصدٍ ، بأن تظهر لهم النقض ، وتجبرهم إخباراً مكشوفاً بأنك قد قطعت ما بينك وبينهم من الوصلة ، ولا تنأجزم الحرب وهم على توهم بقاء العهد ، كي لا يكون من قِيلِكَ شائبة خيانة أصلاً ، وإن كانت فى مقابلة خيانتهم .

وقوله « إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ » تعليل للأمر بالقبذ ، إما باعتبار استلزامه النهى عن مناجزة القتال ، لكونها خيانة ، فيكون تحذيراً له ﷺ منها ، وإما باعتبار استتباعه للقتال ، فيكون حثاً له ﷺ على النبذ أولاً ، وعلى قتالهم ثانياً ، كأنه قيل . وإما تعلمن من قوم خيانة فانبذ إليهم ، ثم قاتلهم ، إن الله لا يحب الخائنين ، وهم من جملتهم ، لما علمت من حالهم . أفاده أبو السمود .
تنبيه :

دات الآية على جواز معاهدة الكفار لمصلحة ، ووجوب الوفاء بالعهد إذا لم يظمر منهم أمانة الخيانة ، وتدل على إباحة نبذ العهد لمن توقع منهم غائلة مكر ، وأن يعلمهم بذلك ، لئلا يعميوا علينا بنصب الحرب مع العهد .

روى أصحاب السنن^(١) أنه كان بين معاوية وبين الروم عهد ، وكان يسير نحو بلادهم ليقرب ، حتى إذا انقضى العهد غزاهم . فجاء رجل على فرس أو برذون وهو يقول : الله أكبر !

(١) أخرجه أبو داود فى : ١٥ - كتاب الجهاد ، ١٥٢ - باب فى الإمام يكون بينه

وبين المدّة عهد فيسير إليه ، حديث رقم ٢٧٥٩ .

وأخرجه الترمذى فى : ١٩ - كتاب السير ، ٢٧ - باب ما جاء فى الغدر .

الله أكبر ! وفاء لا غدر . فإذا هو عمرو بن عَبَسَةَ^(١) ، فأرسل إليه معاوية فسأله ، فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : من كان بينه وبين قوم عهد ، فلا يشد عقدة ولا يحلها حتى ينقضى أمدها ، أو ينبذ إليهم على سواء : فرجع معاوية .

وروى الإمام أحمد^(٢) عن سلمان الفارسي أنه انتهى إلى حصن أو مدينة ، فقال لأصحابه : دعوني أَدْعُوهم كما رأيت رسول الله ﷺ يدعوهم ، فقال : إنما كنت رجلاً منكم فهداني الله عز وجل للإسلام ، فإن أسلمتم فلنكن مائناً ، وعليكم ما علينا ، وإن أنتم أبيتم ، فأدوا الجزية وأنتم صاغرون ، فإن أبيتم نابذناكم على سواء ، إن الله لا يحب الخائنين . يفعل ذلك بهم ثلاثة أيام ، فلما كان اليوم الرابع غدا الناس إليها ففتحوها .

هذا ، وما ذكر من وجوب إعلامهم ، إنما هو عند خوف الخيانة منهم وتوقعها ، كما هو منطوق الآية . وأما إذا ظهر نقض العهد ظهوراً مقطوعاً به فلا حاجة للإمام إلى نبذ العهد ، بل يفعل كما فعل رسول الله ﷺ^(٣) بأهل مكة لما نقضوا العهد بقتل خزاعة ، وهم في ذمة رسول الله ﷺ ، فلم يرعهم إلا وجيش رسول الله ﷺ بمر الظهران ، وذلك على أربعة فراسخ من مكة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا ، إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ)

« وَلَا يَحْسَبَنَّ » قرئ بالياء والتاء « الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا » أى فاتوا وأفلتوا من

(١) يوجد في كثير من نسخ التفاسير «عنبسة» بزيادة نون قبل الباء ، وهو تحريف ، ويفلظ به من لا علم له بأسماء الرجال . اهـ مؤلفه .

(٢) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٤٤٠ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .

(٣) انظر سيرة ابن هشام ، الصفحة رقم ٨٠٢ (طبعة جوتنجن) والصفحة رقم ٣١

وما بعدها من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

أن يظفر بهم « إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ » أى لا يفوتون الله من الانتقام منهم ، إما فى الدنيا بالقتل ، وإما فى الآخرة بعذاب النار . وقرئ بفتح (أن) على تقديم لام التعليل ، وهذا كقوله تعالى (١) : (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا ، سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ) وقوله تعالى (٢) : (لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ، وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ، وَلَيْئْسَ الْمَصِيرُ) وقوله تعالى (٣) (لَا يَغْرِبُكَ نَقْلُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْمِلَادِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ، وَبِئْسَ الْمِهَادُ)
وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَغْطَمُونَ)

« وَأَعِدُّوا لَهُمْ » أى لقتال ناقضى العهد السابق ذكرهم ، أو الكفار مطلقاً ، وهو الأنسب بسياق الفظم الكريم « مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ » أى من كل ما يتقوى به فى الحرب من عددها ، أطلق عليه القوة مبالغة .

قال الشهاب : وإنما ذكر لأنه لم يكن لهم فى (بدر) استعداد تام ، فنبهوا على أن النصر من غير استعداد لا يتأتى فى كل زمان .

« وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ » (الرباط) فى الأصل مصدر ربط ، أى شد ، ويطلق بمعنى المربوط مطلقاً ، وكثر استعماله فى الخيل التى تربط فى سبيل الله . فالإضافة ، إما باعتبار عموم المفهوم الأصلي ، أو بملاحظة كون الرباط مشتركاً بين ممان آخر ، كانتظار الصلاة ، وملازمة

(١) [٢٩ / المنكحوت / ٤] . (٢) [٢٤ / النور / ٥٧] .

(٣) [٣ / آل عمران / ١٩٦ و ١٩٧] .

تفر العدو ، والمواظبة على الأمر ، بإضافته لأحد معانيه للبيان ، كـ (مين الشمس) ومنه يعلم أنه يجوز إضافة الشيء لنفسه إذا كان مشتركاً . وإذا كان من إضافة المطلق للعقيد ، فهو على معنى (من) التبميزية . وقد يكون (الرباط) جمع ربيط ، كـفصيل وفصال . قال في (القاج) : يقال : نعم الربيط هذا ، لما يرتبط من الخيل . ثم إن عطفها على (القوة) مع كونها من جملة الإيذان بفضلها على بقية أفرادها ، كمطف جبريل وميكائيل على الملائكة « تَرْهَبُونَ بِهِ » أى تخوفون بذلك الإعداد « عَدُوَّ اللَّهِ » وهو المثلث له شريكاً ، المبطل لـسكلمته « وَعَدُوَّكُمْ » أى الذى يظهر عداوتكم ، فتخوفونهم لثلاثي يحاربوكم باعتقاد القوة فى أنفسهم دونكم .

تنبيه :

دلت هذه الآية على وجوب إعداد القوة الحربية ، إتقاء بأس العدو وهجومه . ولما عمل الأمراء بمقتضى هذه الآية ، أيام حضارة الإسلام ، كان الإسلام عزيزاً ، عظيماً ، أبى الضيم ، قوى القنا ، جليل الجاه ، وفير السنا ، إذ نشر لواء سلطته على منبسط الأرض ، فقبض على ناصية الأنظار والأمصار ، وخضد شوكة المستبدين الكافرين ، وزحزح سجون الظلم والاستعباد ، وعاش بنوه أحقاباً متقالية . وهم سادة الأمم ، وقادة مشعوب ، وزمام الحول والطول وقطب روى المز والمجد ، لا يستقيمون لقوة ، ولا يرهبون لسطوة . وأما اليوم ، فقد ترك المسلمون العمل بهذه الآية السكرية ، ومالوا إلى النعيم والترف فأهملوا فرضاً من فروض السكفاية ، فأصبحت جميع الأمة آئمة بترك هذا الفرض . ولذا تمنى اليوم من غصته ماتمانى . وكيف لا يطمع العدو بالممالك الإسلامية ، ولا ترى فيها معامل للأسلحة ، وذخائر الحرب ، بل كلها مما يشتري من بلاد العدو ؟ أما أن لها أن تنبه من غفلتها ، وتنشئ معامل لصفع المدافع والبنادق والقذائف والذخائر الحربية ؟ فلقد أتى عليها تنقص العدو بلادها من أطرافها درساً يجب أن تدبره ، وتلافى ما فرطت به . قبل أن يداهم ما بقى منها بخيله ورجله ،

فيقضى - والعياذ بالله - على الإسلام وممالك المسلمين ، لاستعمار الأمصار ، واستعباد الأحرار ، ونزع الاستقلال المؤذن بالدمار . وبالله الهداية .

وقوله تعالى « آخِرِينَ » أى وترهبون قوماً آخرين « مِنْ دُونِهِمْ » أى من دون من يظهر عداوتكم ، وهم المنافقون « لَا تَعْلَمُونَهُمْ » أى أنهم يعادونكم « اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ » أى أنهم أعداؤكم ، يظهرون عداوتهم إذا رأوا ضعفكم . ثم شجعهم سبحانه على إنفاق المال فى إعداد القوة ، ورباط الخيل ، مبشراً لهم بتوفية جزائه كاملاً ، بقوله تعالى « وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » أى الذى أوضحه الجهاد « يُوفَّ إِلَيْكُمْ » أى فى الدنيا من النفع والغنيمة والجزية والحراج ، وفى الآخرة بالثواب المقيم « وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » أى بترك الإجابة .
تنبيهات :

الأول - هذه الآية أصل فى كل ما يلزم إعداده للجهاد من الأدوات .

الثانى - فى قوله تعالى (تُرْهِبُونَ بِهِ) إشارة إلى التجافى عن أن يكون الإعداد لغير الإرهاب كالخيلاء . وفى حديث الإمام مالك^(٢) عن أبى هريرة عن النبي ﷺ : الخيل ثلاثة : لرجل أجر ، ولرجل ستر ولرجل وزر . فأما الذى له أجر ، فرجل ربطها فى سبيل الله ، ورجل ربطها تغنياً وتمففاً ، ولم ينس حق الله فى رقابها ولا ظهورها ، فهى له ستر . ورجل ربطها نخراً ورياءً ونواءً لأهل الإسلام ، فهى على ذلك وزر .

الثالث - ما ذكرناه فى تأويل (الآخِرِينَ) من أنهم المنافقون ، يشهد له قوله تعالى^(٢) (وَمِمَّنْ حَاكَكُمُ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ ، وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النَّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ، نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ) .

ثم بين تعالى جواز مصالحة الكفار بقوله :

(١) أخرجه الإمام مالك فى الموطأ فى : ٢١ - كتاب الجهاد ، حديث رقم ٣ (طبعتنا)

من حديث طويل . (٢) [٩ / التوبة / ١٠١] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦١] (وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) «وَإِنْ جَنَحُوا» أى مالوا وانقادوا «لِلسَّلْمِ» بكسر السين وفتحها ، لفتان ، وقد قرئ بهما . أى الصلح والاستسلام ، بوقوع الرهبة فى قلوبهم ، بمشاهدة ما بهم من الاستعداد ، وإعتاد العتاد «فَاجْنَحْ لَهَا» أى قل إلى موافقتهم وصالحهم وعاهدهم ، وإن قدرت على محاربتهم ، لأن الموافقة أدعى لهم إلى الإيمان . ولهذا لما طلب المشركون عام الحديبية الصلح ، ووضع الحرب بينهم وبين رسول الله ﷺ تسع سنين ، أجابهم إلى ذلك ، مع ما اشترطوا من الشروط الأخر . و (السلام) يذكر ويؤنث - كما فى القاموس - .

قال الزخشرى : (السلام) تؤنث تأنيث تقيضها ، وهى الحرب . قال العباس بن مرداس :

السَّلْمُ تَأْخُذُ مِنْهَا مَا رَضِيتَ بِهِ والحربُ يَسْكُفِيكَ مِنْ أَنْفَاسِهَا جُرْعُ
«وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ» أى لا تخف فى الصلح مكرهم ، فإنه يعصمك من مكرهم
«إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» لأقوالهم «العلیم» أى بأحوالهم ، فيؤاخذهم بما يستحقون ، ويرد كيدهم فى نحركم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ ، هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ)

«وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ» أى بالصلح لتسكف عنهم ظاهراً ، وفى نيتهم الغدر «فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ» أى كافيك بنصره ومعاونته . قال مجاهد : يريد قريظة . ثم علل كفايته له ، بما أنعم عليه من تأييده ﷺ بنصره وبالمؤمنين ، فقال تعالى : «هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ» أى يوم بدر بعد الضعف ، من غير إعداد قوة ولا رباط «وَبِالْمُؤْمِنِينَ» .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ، لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ، إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

« وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ » أى جمع بين قلوبهم وكلمتهم ، بالهدى الذى بميثك الله به إليهم ، بعد ما كان فيها المصيبة والضعيفة « لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا » أى من الذهب والفضة « مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ » إذ لا يدخل ذلك تحت قدرة البشر ، لكونه من عالم الغيب « وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ » أى بين قلوبهم وبدنه الذى جمعهم إليه « إِنَّهُ عَزِيزٌ » أى غالب فى ملكه وسلطانه على كل ظاهر وباطن « حَكِيمٌ » أى فاقبضت حكمته ذلك ، لما فيه من تأييد دينه ، وإعلاء كلمته .

قال الزمخشري رحمه الله تعالى : التأليف بين قلوب من بعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من الآيات الباهرة . لأن العرب ، لما فيهم من الحمية والعصبية ، والانطواء على الضعيفة ، فى أدنى شيء ، وإلقائه بين أعينهم ، إلى أن ينتقموا ، لا يكاد يأنف منهم قبايا . ثم ائلفت قلوبهم على اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واتحدوا وأنشأوا يرمون عن قوس واحدة ، وذلك لما نظم الله من ألفتهم ، وجمع من كلمتهم ، وأحدث بينهم من التحاب والتواد ، وأماط عنهم من التباغض والتماقت ، وكلفهم من الحب فى الله ، والبهض فى الله . ولا يقدر على ذلك إلا من يملك القلوب ، فهو بقلبها كما شاء ، ويصنع فيها ما أراد . وقيل : هم الأوس والخزرج ، كان بينهم من الحروب والوقائع ما أهلك ساداتهم ورؤساءهم ، ودق جاجهم . ولم يكن لبغضائهم أمد ومنتهى . وبينهما التجاور الذى يهيج الضغائن ، ويدب التحاسد والتنافس . وعادة كل طائفتين كانتا بهذه الثابة أن تتجنب هذه ، ما آثرته . أخذها ، وتكرهه وتففر عنه ، فأنساهم الله تعالى ذلك كله ، حتى اتفقوا على الطاعة ، وتضافوا وصاروا أنصارا وعادوا أعوانا ، وما ذاك إلا بلطيف صنعه ، ويليغ قدرته . انتهى .

وإنما ضعف القول الثاني لأنه ليس في السياق قرينة عليه . كذا في (الغناية) .
أقول : اسكن شهرة ما كان بين هذين الباطنيين من التعادى الذى تطاول أمده ، واستحال
قبل البعثة نضوب مائه ، يصلح أن يكون قرينة . ونقل علماء السيرة^(١) أن النبي صلى الله
عليه وسلم ، لما لقي في الموسم الرهط من الخزرج ، ودعاهم إلى الله تعالى . فأجابوه وصدقوه ،
قالوا له : إنا قد تركنا قومنا ، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، وعسى أن يجممهم
الله بك ، فسندم عليهم فندعوهم إلى أمرك ، ونعرض عليهم الذى أجبتك إليه من هذا
الدين ، فإن يجممهم الله عليه فلا رجل أعز منك . رواه ابن إسحاق وغيره .
وفي الصحيحين^(٢) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خطب الأنصار في شأن غنائم
(حنين) قال لهم يا معشر الأنصار ! ألم أجدكم ضلّالاً فهداكم الله بي ؟ وعالة فأنقذكم الله بي
وكنتم متفرقين فأنفلكم الله بي ؟ كلما قال شيئاً قالوا : الله ورسوله أمّن .
لطيفة :

روى الحاكم أن ابن عباس كان يقول : إن الرحم لتقطع ، وإن النعمة لتكفر ، وإن الله
إذا قارب بين القلوب لم يرحزها شيء . ثم يقرأ : (لَوْ أَنْفَقْتُ مَا فِي الْأَرْضِ . . .) الآية .
وعند البيهقي نحوه . وقال : ذلك موجود في الشعر :

إذا بتّ ذو قربى إليك بركة فغشك واستغنى فليس بذى رُحمٍ
ولكنّ ذا القربى الذى إن دعوتَه أجاب ، وأنّ يرى العدو الذى ترى

(١) انظر سيرة ابن هشام بالصفحة رقم ٢٨٦ و ٢٨٧ (طبعة جوتنجن) والصفحة
رقم ٧١ و ٧٠ من الجزء الثمانى (طبعة الحلبي) . (٢) أخرجه البخارى في : ٦٤ - كتاب
المغازى ، ٥٦ - باب غزوة الطائف في شوال سنة ثمان ، الحديث رقم ١٩٣١ عن عبد الله
ابن زيد بن عاصم .
وأخرجه مسلم في : ١٢ - كتاب الزكاة ، حديث رقم ١٣٩ (طبعة مقنا) .

قال : ومن ذلك قول القائل :

ولقد صحبتُ الناسَ ثم سبَّتهم وبلوتُ ما وصلوا من الأسبابِ
فإذا القرابة لا تقرب قاطعاً وإذا المودة أقرب الأسبابِ

قال البيهقي : لا أدري هذا موصولاً بكلام ابن عباس ، أو هو قول من دونه من الرواة .
قال الرازي : احتج أصحابنا بهذه الآية ، على أن أحوال القلوب من العقائد والإرادات ،
كلها من خلق الله تعالى . وذلك لأن الألفة والمودة والمحبة الشديدة إنما حصلت بسبب الإيمان
ومتابعة الرسول عليه الصلاة والسلام . انتهى .

ولما بين تعالى كفايته لنبيه صلى الله عليه وسلم عند مخادعة الأعداء ، في الآية المقدمة ،
أعلمه بكفايته له في جميع أموره مطلقاً ، فقال تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » قال العلامة ابن القيم
في مقدمة (زاد المعاد) في تفسير هذه الآية : أي الله وحده كافيك ، وكافي أتباعك ،
فلا يحتاجون معه إلى أحد . ثم قال : وهاهنا تقديران :

أحدهما - أن تكون الواو عاطفة لـ (مَنْ) على الكاف المجرورة ، وبجوز العطف على الضمير
المجرور بدون إعادة الجار ، علىذهب المختار ، وشواهد كثيرة ، وشبه المنع منه واهية .
والثاني - أن تكون الواو واو (مع) ، وتكون (مَنْ) في محل نصب عطفاً على الموضع
فإن (حسبك) في معنى كافيك ، أي الله يكفيك ، ويكفي من اتبعك ، كما يقول العرب :

حسبك وزيداً درهم ، قال الشاعر :

إذا كانت الهيجة وانشقت العصا فحسبك والضحاك سيفٌ مهتدٌ

وهذا أصح التقديرين . وفيها تقدير ثالث ، أن تكون (مَنْ) في موضع رفع بالابتداء ،

أى ومن اتبعك من المؤمنين ، فحسبهم الله ؛ وفيها تقدير رابع ، وهو خطأ من جهة المعنى ، وهو أن يكون (من) فى موضع رفع عطفاً على اسم الله ، ويكون المعنى : حسبك الله وأتباعك . وهذا ، وإن قال به بعض الناس ، فهو خطأ محض ، لا يجوز حمل الآية عليه ، فإن الحسب والكفاية لله وحده ، كالتوكل والتقوى والعبادة . قال الله تعالى^(١) : (وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنْ حَسِبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ) ففرق بين الحسب والتأييد ، فجعل الحسب له وحده ، وجعل التأييد له بنصره وبعباده . وأنى الله سبحانه على أهل التوحيد والتوكل من عباده ، حيث أفردوه بالحسب ، فقال تعالى^(٢) : (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) ولم يقولوا : حسبنا الله ورسوله . فإذا كان هذا قولهم ، ومدح الرب تعالى لهم بذلك ، فكيف يقول لرسوله : الله وأتباعك حسبك ؟ وأتباعه ، قد أفردوا الرب تعالى بالحسب ، ولم يشركوا بينه وبين رسوله فيه ، فكيف يشرك بينهم وبينه فى حسب رسوله ؟ هذا من أمحل المحال ، وأبطل الباطل . ونظير هذا قوله^(٣) : (وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ) فتأمل كيف جعل الإيتاء لله ولرسوله ؛ كما قال تعالى^(٤) : (وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ) وجعل الحسب له وحده ، فلم يقل : وقالوا حسبنا الله ورسوله ، بل جعله خالص حقه ، كما قال^(٥) : (إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ) ولم يقل وإلى رسوله ، بل جعل الرغبة إليه وحده . كما قال تعالى^(٥) : (فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ * وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ) فالرغبة والتوكل والإنابة والحسب ، لله وحده . كما أن العبادة والتقوى والسجود ، لله وحده . والنذر والхلف لا يكون إلا لله سبحانه وتعالى ونظير هذا قوله تعالى^(٦) : (أَلَيْسَ اللَّهُ

(١) [٨ / الأنفال / ٦٢] . (٢) [٣ / آل عمران / ١٧٣] .

(٣) [٩ / التوبة / ٥٩] . (٤) [٥٩ / الحشر / ٧] .

(٥) [٩٤ / الشرح / ٧] . (٦) [٣٩ / الزمر / ٣٦] :

يَكْفِي عَبْدُهُ) فد (الحسب) هو (الكافي) ، فأخبر سبحانه وتعالى أنه وحده كافٍ عبده ، فكيف يحمل أتباعه مع الله في هذه الكفاية ؟ والأدلة الدالة على بطلان هذا التأويل الفاسد ، أكثر من أن تذكرها هنا . انتهى .

قال الخفاجي (في المنية) : وتضعيفه الرفع لا وجه له ، فإن الفراء والكسائي رجحاه ، وما قبله وما بعده يؤيده . انتهى .

وأقول : هذا من الخفاجي من الواع بالناقشة ، كما هو دأبه ، ولو أمعن النظر فيما برهن عليه ابن القيم وأيده بما لا يبق معه وقفة ، لما ضعفه . والفراء والكسائي من علماء العربية ، ولأعنة التأويل فقه آخر . فتبصر ، ولا تكن أسير التقليد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ، إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ، وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ)

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ » أى حثهم « عَلَى الْقِتَالِ » ، إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ، وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ، فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ، وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ)

« الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ، فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ، وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ . »

في الآية مسائل .

الأولى - مشروعية الحضر على القتال ، والمبالغة في الحث عليه . وقد كان النبي ﷺ يحرض أصحابه عند صفهم ، ومواجهة العدو ، كما قال لهم ^(١) يوم بدر ، حين أقبل المشركون في عددهم وعددهم : قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض ، فقال عمير بن الحمام : عرضها السموات والأرض ؟ فقال رسول الله ﷺ : نعم ! فقال : بخ . بخ . فقال : ما يملكك على قولك بخ بخ ؟ قال : رجا أن أكون من أهلها . قال : فإنك من أهلها . فتقدم الرجل ، ففكسر جفن سيفه ، وأخرج عرات فجعل يأكل منهن ، ثم ألقى بقيتين من يده ، وقال : لئن أنا حييت حتى آكلهن ، إنها لحياة طويلة ؛ ثم تقدم فقاتل حتى قتل رضى الله عنه .

الثانية - ذهب الأكثرون إلى أن قوله تعالى (إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا) شرط في معنى الأمر بوجود مصابرة الواحد للعشرة . أى بالألّا يفرّ منهم .

روى البخارى ^(٢) عن ابن عباس قال : لما نزلت (إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ) كتب عليهم ألا يفر واحد من عشرة ، ولا عشرون من مائتين . ثم نزلت (الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ ...) الآية - فكتب أن لا يفر مائة من مائتين .

وفي رواية أخرى ^(٣) عنه قال : لما نزلت (إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ) شق ذلك على المسلمين ، فنزلت (الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ ...) الآية - فلما خفف الله عنهم من العدة ، نقص عنهم من الصبر ، بقدر ما خفف عنهم .

(١) يشير إلى الحديث الذى أخرجه مسلم فى : ٣٣ كتاب الإمارة ، حديث ١٤٥ (طبعنا) عن أنس بن مالك . (٢) أخرجه البخارى فى : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٨ - سورة الأنفال ، ٦ - باب يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرَضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ، و ٧ - باب الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ، الحديث رقم ٢٠٠٨ .

قال في (الباب) : فظاهر هذا أن قوله تعالى : (الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ) ناسخ لما تقدم في الآية الأولى ، وكان هذا الأمر يوم بدر . فرض الله سبحانه وتعالى على الرجل الواحد من المسلمين قتال عشرة من الكافرين ، فثقل ذلك على المؤمنين ، فنزلت (الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ) - أيها المؤمنون - وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا) بمعنى في قتال الواحد للعشرة ، فإن تكن منكم مائة صابرة محتسبة بغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله . فردّ العشرة إلى الاثنين . فإذا كان المسلمون على قدر النصف من عدوهم لا يجوز لهم أن يفروا . فأبما رجل فرّ من ثلاثة فلم يفر ، ومن فر من اثنين فقد فرّ . انتهى .

قال في (العناية) : وذهب مكيّ إلى أنها مخففة لا ناسخة ، كتخفيف الفطر للمسافر . ونمرة الخلاف أنه لو قاتل واحد عشرة ، فقتل ، هل يآثم أو لا ؟ فعلى الأول يآثم ، وعلى الثاني لا يآثم .

وقال الرازي : أنكر أبو مسلم الأصفهاني دعوى النسخ في الآية ، وقال : الأمر الذي فهم من الآية مشروط بكون العشرين قادرين على الصبر ، أي إن حصل منكم عشرون موصوفون بالصبر على مقاومة المائتين ، فليشتغلوا بمقاومتهم . ثم دل قوله تعالى : (الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ) على أن ذلك الشرط غير حاصل منهم ، فلم يكن التكليف لازماً عليهم . وبالجملة ، فالآية الأولى دلت على ثبوت حكم عند شرط مخصوص ، والثانية دلت على أن ذلك الشرط مفقود في حق هؤلاء الجماعة ، فلم يثبت ذلك الحكم . وعلى هذا فلا نسخ . ولا يقال إن قوله تعالى (الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ) مشعر بأن هذا التكليف كان متوجهاً عليهم قبله ، لأن لفظ التخفيف لا يستلزم الدلالة على حصول التثقيب قبله ، لأن عادة العرب الرخصة بمثل هذا الكلام ، كقوله تعالى ^(١) في ترخيصه للحرّ في نكاح الأمة « يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ » وليس هناك نسخ ، وإنما هو إطلاق نكاح الأمة لمن لا يستطيع نكاح الحرّ . فكذاها هنا .

(١) [٤ / النساء / ٢٨] .

ومما يدل على عدم النسخ ذكر هذه الآية مقارنة للأولى . وجملُ الناسخ مقارنا المنسوخ ، لا يجوز إلا بدليل قاهر .

قال الرازى ، بعد تقرير كلام أبى مسلم : إن ثبت إجماع الأمة قبل أبى مسلم على حصول النسخ فى الآية ، فلا كلام عليه ، وإلا فقول أبى مسلم صحيح حسن . انتهى .

الثالثة فى قوله تعالى (بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ) إشارة إلى علة غلبة المؤمنين عشرة أمثالهم من الكفار ، فالظرف متعلق بـ (يَنْغَلِبُوا) أى بسبب أنهم قوم جهلة بالله تعالى واليوم الآخر ، لا يقاتلون احتساباً وامتناعاً لأمر الله تعالى ، وإعلاء لكلمته ، وإتقاء لرضوانه ، كما يفعله المؤمنون ، وإنما يقاتلون للحمية الجاهلية ، واتباع خطوات الشيطان ، وإثارة نائرة البغى والمدوان ، فلا يستحقون إلا القهر والخذلان . أفاده أبو السعود .

الرابعة - قال الرازى : احتج هشام على قوله (إن الله تعالى لا يعلم الجزئيات إلا عند وقوعها) بقوله : (الْآنَ خَفَّ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فَيْكُمْ ضَعْفًا) إذ يقضى أن علمه بضعفهم ما حصل إلا فى هذا الوقت . وأجاب المتكلمون بأن معناه : الآن حصل العلم بوقوعه وحصوله . وأما قبل ذلك فقد كان الحاصل العلم بأنه سيقع أو سيحدث . انتهى .

وقال الطيبي رحمه الله : معناه الآن خفف الله عنكم لما ظهر متعلق علمه تعالى ، أى كثرتكم الموجبة لضعفكم بعد ظهور قلتكم وقوتكم .

الخامسة - فى (الضعف) لغتان : الفتح والضم ، وبهما قرئ . وهو يؤكّد كونهما بمعنى فيكونان فى رأى والبدن . وقيل : (الفتح) فى رأى والعقل ، (والضم) فى البدن . وهو منقول عن الخليل . وقرئ (ضعفاء) بصيغة الجمع .

السادسة - إن قيل : إن كفاية عشرين لماثنتين تغنى عن كفاية مائة لألف وكفاية مائة للاثنتين تغنى عن كفاية ألف لاثنتين ، لما تقرر من وجوب ثبات الواحد للمشرة فى الأولى ، وثبات الواحد للثنتين فى الثانية ، فما سر هذا التكرير ؟ أجيب : بأن سره كون كل عدة بتأييد القليل

على الكثير لزيادة التكرير المفيد لزيادة الاطمئنان ، والدلالة على أن الحال مع القلة والكثرة واحدة ، لانتفاوت ، فإن العشرين قد لا تغلب المائتين . وتغلب المائة الألف . وأما الترتيب في المكرر فعلى ذكر الأقل ثم الأكثر على الترتيب الطبيعي .

قال في (الفتح) : وقد قيل ، في سر ذلك ، إنه بشارة للمسلمين بأن جنود الإسلام سيجاوز عددها العشرات والمئات إلى الألوف .

السابعة - قال في (البحر) : انظر إلى فصاحة هذا الكلام ، حيث أثبت في الشرطية الأولى قيد الصبر ، وحذف نظيره من الثانية ، وأثبت في الثانية قيد كونهم من الكفرة وحذفه من الأولى . ولما كان الصبر شديد المطلوبة أثبت في جملة التخفيف وحذف من الثانية ، لدلالة السابقة عليه ، ثم ختمت بقوله : (وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ) مبالغة في شدة المطلوبة . ولم يأت في جملة التخفيف بقيد الكفر ، اكتفاء بما قبله .

قال الشهاب : هذا نوع من البديع يسمى الاحتباك ، وبقي عليه أنه ذكر في التخفيف (بِإِذْنِ اللَّهِ) وهو قيد لهما . وقوله : (وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ) إشارة إلى تأييدهم ، وأنهم منصورون حتماً لأن من كان الله معه لا يغلب . وبقي فيها لطائف . فلهذا درّ التنزيل ما أحلى ماء فصاحته ! وأنضر رونق بلاغته !

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُفْخِنَ فِي الْأَرْضِ ، تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

« مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُفْخِنَ فِي الْأَرْضِ » روى الإمام (١)

أحمد عن أنس قال : استشار النبي ﷺ في الأسارى يوم بدر فقال : إن الله قد أمكنكم منهم

(١) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٢٤٣ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي)

فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله ! اضرب أعناقهم ، فأعرض عنه النبي ﷺ . ثم عاد رسول الله ﷺ لمقاتته وقال : إنما هم إخوانكم بالأمس ، وعاد عمر لمقاتته ، فأعرض عنه ﷺ . فقام أبو بكر الصديق فقال : يا رسول الله ! نرى أن تعفو عنهم ، وأن تقبل منهم الفداء . قال فذهب عن وجه رسول الله ﷺ ما كان فيه من الغم ، فعفا عنهم ، وقبل منهم الفداء .

وأخرج مسلم^(١) في (أفراده) من حديث عمر بن الخطاب ؛ قال ابن عباس : لما أسروا الأسارى . قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر : ما ترون في هؤلاء الأسارى ؟ فقال أبو بكر : يا رسول الله ! هم بنو العم والعشيرة ، أرى أن تأخذ منهم فدية تكون لنا قوة على الكفار ، فمضى الله أن يهديهم إلى الإسلام . فقال رسول الله ﷺ : ما ترى يا ابن الخطاب ؟ قال : قلت لا ، والله ! يا رسول الله ! ما أرى الذي رأى أبو بكر . ولكني أرى أن تمكننا فنضرب أعناقهم ، فتمكن علينا من عقيل فيضرب عنقه ، وتمكن حمزة من العباس فيضرب عنقه ، وتمكني من فلان - نسيب لعمر - فأضرب عنقه ، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديده . فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ، ولم يهو ما قلت . فلما كان من الغد جئت ، فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر يبكيان ، فقلت : يا رسول الله ! أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك ، فإن وجدت بكاء بكيت ، وإن لم أجد بكاء تبأ كيت لبكائكما . فقال رسول الله ﷺ أبكي على أصحابك - من أخذهم الفداء ، لقد عرض على عذابهم أدنى من هذه الشجرة - شجرة قريبة من نبي الله ﷺ - فأنزل الله عز وجل (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ ...) الآية . ذكره الحميدى في (مسنده) عن عمر بن الخطاب ، من أفراد مسلم بزيادة فيه .

ومعنى (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ) ماصح له وما استقام . وقرئ (للنبي) على العهد . والمراد

(١) أخرجه في : ٣٢ - كتاب الجهاد والسير ، حديث رقم ٥٨ (طبعتمنا) وهو بعض من حديث طويل . فانظره .

على كلِّ ، نبينا ﷺ ، وإنما نكّر تطفأه ، حتى لا يواجه بالعتاب . وقرئ (أُسَارَى) .
ومعنى (يُثَخِّنُ فِي الْأَرْضِ) يكثر القتل ويبالغ فيه ، حتى يذل الكفر ، ويقل عزبه ، ويعز
الإسلام ، ويستولى أهله . يقال : أثخن في العدو ، بالغ في قتلهم . كافي (الأساس) وأثخن
في الأرض قتلاً إذا بالغ . وقال ابن الأعرابي : أثخن إذا غلب وقهر .

قال الرازي : وإنما حله الأكثرون على القتل ، لأن الدولة إنما تقوى به . قال المتنبي :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراقَ على جواربيه الدم

ولأنه يوجب قوة العرب ، وشدة المهابة ، فلذلك أمر تعالى به .

وقوله تعالى « تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا » أي متاعها الزائل ، بفداء أسارى بدر .
(العرض) ما لا ثبات له ولو جسماً . ومنه استعمار المكامون (المرض) المقابل (للجواهر) ،
قاله الشهاب . « وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ » أي يريد لكم نوابها « وَاللَّهُ عَزِيزٌ » أي غالب على
ما أراد « حَكِيمٌ » أي فيما يأمر به عباده .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٨] لَوْ لَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ

« لَوْ لَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ » أي لأصابكم « فِيمَا أَخَذْتُمْ » أي بسببه ،
وهو الفداء « عَذَابٌ عَظِيمٌ » أي شديد ، بقدر إبطائكم الحكمة العظيمة ، وهي قتلهم ،
الذي هو أعز للإسلام ، وأهيب لمن وراءهم ، وأفل لشوكيتهم . والمراد بـ (الكتاب)
الحكم ، وإنما أطلق عليه لأنه مكتوب في اللوح . ولأنه التفسير أقوال في تفسيره . فقيل :
هو أنه لا يمدب قوماً إلا بمد تقديم الفهي ، ولم يتقدم نهى عن ذلك . وقيل : هو أنه لا
يمدب الخطي في اجتهاده . وقيل : هو كون أهل بدر مغفوراً لهم . وقيل : هو حل المغنم .
وللرازي مناقشة في هذه الأقوال . واختار أن (الكتاب) هو حكمه في الأزل بالمفو
عن هذه الواقعة ، لأنه كتب على نفسه الرحمة ، وسبقت رحمته غضبه .

أقول : لعل الأُمسّ في تهويل ما اكتسبوه ، تفسير (الكتاب) بما في قوله تعالى ^(١) : « وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ » . والله أعلم .

تنبيهات :

الأول - قال الرازى : قال ابن عباس : هذا الحكم إنما كان يوم بدر ، لأن المسلمين كانوا قليلين . فلما كثروا وقوى سلطانهم ، أنزل الله بمد ذلك في الأسارى ^(٢) (حَتَّى إِذَا أَتَخَفْتُمْهُمْ فَشُدُّوا الْوُكُوفَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا) . وأقول : هذا الكلام يوم أن قوله (فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً) يريد حكم الآية التى نحن فى تفسيرها . وليس الأمر كذلك ، لأن الآيتين متوافقتان ، فإن كليهما تدلّ على أنه لا بد من تقديم الإثخان ، ثم بعده أخذ الفداء . انتهى .

وقال بعضهم : لا تظهر دعوى النسخ من أصلها ، إذ النهى الضمنى ، كما هنا ، مقيد ومُعَيَّنٌ بالإثخان . أى كثرة القتال اللازمة لها قوة الإسلام وعزته . وما فى سورة القتال من التخيير ، محله بعد ظهور شوكة الإسلام بكثرة القتال ، فلا تعارض بين الآيتين ، إذا ما هناك بيان للغاية التى هنا . نقله فى (الفتح) .

الثانى - قال القاضى : فى الآية دليل على أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يجتهدون ، وأنه قد يكون خطأً ، ولكن لا يقرّون عليه .

الثالث - قال ابن كثير : وقد استمرّ الحكم فى الأسرى عند جمهور العلماء ؛ أن الإمام يخير فيهم ، إن شاء قتل ، كما فعل ببنى قريظة ، وإن شاء فادى بمال ، كما فعل بأسرى بدر ، وعن أسرى من المسلمين ، كما فعل رسول الله ﷺ فى تلك الجارية وابنتها اللتين كانتا فى سبي سلمة بن الأكوع ، حيث ردها وأخذ فى مقابلتهما من المسلمين الذين كانوا عند المشركين .

(١) [٨ / الأنفال / ٣٣] . (٢) [٤٧ / محمد عليه السلام / ٤] .

وإن شاء استرق من أسر . هذا مذهب الإمام الشافعي وطائفة - وفي المسألة خلاف آخر بين الأئمة ، مقرر في موضعه .

الرابع - قال بعض مفسري الزيدية : في هذه الآية سؤال وهو أن يقال : إن كان فعلهم اجتهداً وخطأً ، فلم عوتبوا ؟ ويلزم أن لا معصية . وإن تمكنوا من العلم وقصروا ، فكيف أقرتهم الرسول ﷺ ؟ وجواب ذلك من وجهين :

الأول - عن أبي علي : أن ذلك كان معصية صغيرة . قال الحاكم : وكانوا متمكنين من العلم ، إذا ما عاتبهم .

وقيل : كان خطأً وقصروا فموتبوا على التقصير انتهى .
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

« فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا » أي كلوا بضمه ، بعد إخراج الخمس حلالاً ، أي مطلقاً عن العقاب والعقاب ، من (حل المقال) . (طيباً) أي لذيداً هنيئاً . أو حلالاً بالشرع ، طيباً بالطبع . قيل : هذا الأمر تأكيد لحل الغنائم ، لأنه علم مما تقدم من قوله (وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ) . الآية - وإشارة لاندرج مال الفداء في عمومها ، ف(مَا غَنِمْتُمْ) هنا ، إما الفدية ، لأنها غنيمة ، أو مطلق الغنائم . والمراد بيان حكم ما اندرج فيها من الفدية . وجملُ الفاء عاطفة على سبب مقدر ، أي أبحث لكم الغنائم ، فكلوا - قد يستغنى عنه بملطفه على ما قبله لأنه بمنزلة ما لا يؤخذكم بما أخذ من الفداء فكلوه . كذا في (العناية) . قال أبو السموذ : والأظهر أنها للمطف على مقدر يقتضيه المقام ، أي دعوهم فكلوا مما غنمتم . ثم قال : وقيل (ما) عبارة عن الفدية ، فإنها من جملة الغنائم ، ويأباه انساق النظم الكريم وسياقه . انتهى . وهو متجه .

« وَاتَّقُوا اللَّهَ » أى فى مخالفة أمره ونهيّه « إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » فيغفر لكم ويرحمكم إذا اتقيتموه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّمَن فِي أَيْدِيكُمْ مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُّؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)
« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّمَن فِي أَيْدِيكُمْ مِّنَ الْأَسْرَىٰ » أى لمن فى ملكتكم ، كأن أيدىكم قابضة عليهم وذلك تخليصاً لهم من أسر الضلال بضعف الإيمان « إِنَّ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا » أى قوة إيمان وإخلاصاً فيه « يُّؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ » أى من الفداء ، إما أن يخلفكم فى الدنيا أضغاثه ، أو يثيبكم فى الآخرة « وَيَغْفِرَ لَكُمْ » وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧١] (وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

« وَإِنْ يُرِيدُوا » أى الأسرى « خِيَانَتَكَ » أى نكث ما بايعوك عليه من الإسلام بالردة ، أو منع ما ضمنوا من الفداء « فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ » أى من قبل (بدر) بالكفر به « فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ » أى فامكنك منهم ، أى اظفرك بهم ققلا وأسرا ، كما رأيتم يوم بدر ، فسيتمكن منهم إن عادوا إلى الخيانة « وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » أى عليم بما فى بواطنهم من إيمان وتصديق ، أو خيانة ونقض عهد . حكيم يجازى كلا بعمله ، الخير بالثواب ، والشر بالعقاب .

روى ابن هشام في (السيرة) أن فداء المشركين يوم بدر كان أربعة آلاف درهم بالرجل إلى ألف درهم ، إلا من لا شيء له . فمن رسول الله ﷺ عليه .
وقال ابن إسحاق : كان أكثر الأسارى يوم بدر فداء العباس ، وذلك أنه كان رجلاً موسراً ، فافتدى نفسه بمائة أوقية ذهباً .

وفي صحيح البخاري^(١) عن أنس أن رجلاً من الأنصار قالوا : يا رسول الله ! ائذن لنا ، فلنترك لابن أختنا عباس فداءه . قال : لا والله ! لا تدرؤن منه درهماً .
وروى ابن إسحاق^(٢) أن العباس قال : يا رسول الله ! قد كنت مسلماً . فقال رسول الله ﷺ : الله أعلم بإسلامك ، فإن يكن كما تقول ، فإن الله يجزيك . وأما ظاهره فقد كان علينا ، فافتد نفسك وابني أخيك نوفل وعقيل وحليفك عتبة . قال : ما ذاك عندي يا رسول الله ! قال : فإن المال الذي دفنته أنت وأم الفضل ، فقلت لها : إن أصبت في سفري هذا ، فهذا المال الذي دفنته لبنى : الفضل وعبد الله وقثم ؟ قال : والله ! يا رسول الله ، إنى لأعلم أنك رسول الله ، إن هذا شيء ما علمه أحد غيري وغير أم الفضل ، فاحسب لي ، يا رسول الله ، ما أصبتم من عشرين أوقية من مال كان معي . فقال رسول الله ﷺ : لا . ذاك شيء أعطانا الله تعالى منك .

فقدى نفسه وابني أخويه وحليفه ، فأنزله الله عز وجل فيه : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ ...) الآية .

قال العباس : فأعطاني الله مكان العشرين الأوقية في الإسلام ، عشرين عبداً كلهم في يده مال ، يضرب به . مع ما أرجو من مغفرة الله عز وجل .

(١) أخرجه في : ٦٤ - كتاب المغازي ، ١٢ - باب حدثني خليفة ، حديث رقم ١٢٤٥

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة رقم ٣٥٣ من الجزء الأول (طبعة الحلبي)

والحديث رقم ٣٣١٠ (طبعة المعارف) .

وروى ابن إسحاق أيضاً أن العباس كان يقول : في نزات ، والله ! حين ذكرت لرسول الله ﷺ إسلامي .

وروى ابن جريج عن عطاء ابن عباس ؛ أن عباساً وأصحابه قالوا للنبي ﷺ : آمنا بما جئت به ، ونشهد أنك رسول الله ، فنصحنا لك على قومنا ، فأنزل الله تعالى (١) (إِنْ يَمْلِكِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ . . .) الآية . قال ، فكان العباس يقول : ما أحب أن هذه الآية لم تنزل فينا ، وأن لي الدنيا ، لقد قال : (يُوَدِّعُكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ) فقد أعطاني خيراً مما أخذ مني مائة ضعف . وقال : (وَيَغْفِرْ لَكُمْ) وأرجو أن يكون قد غفر لي .

وروى البيهقي عن أنس (٢) قال : أتى رسول الله ﷺ بمال من البحرين ، فقال : انثروه في مسجدى . قال ، وكان أكثر مال أتى به رسول الله ﷺ ، فخرج إلى الصلاة ، ولم يلتفت إليهم ، فلما قضى الصلاة جاء فجلس إليه ، فما كان يرى أحداً إلا أعطاه ، إذ جاءه العباس فقال : يا رسول الله ! أعطني ، فاديت نفسي ، وفاديت عقيلي ، فقال رسول الله ﷺ : خذ ! فحذا في ثوبه ، ثم ذهب يلقاه ، فلم يستطع . فقال : مرّ بعضهم يرفعه إلى ، قال : لا ، قال : فارفمه أنت على ، قال : لا ! فنثر منه ، ثم احتمله على كاهله ، ثم انطلق ، فما زال رسول الله ﷺ يتبعه بصره حتى خفي عنه ، عجباً من حرصه .

فما قام رسول الله ﷺ وثمّ منها درهم . وفي رواية : وما بعث إلى أهله بدرهم . ورواه البخاري (٣) تعليقا .

وفي رواية : فحمل العباس يقول وهو منطلق : أما إحدى اللتين وعدنا الله فقد أنجزنا ، وما ندرى ما يصنع في الأخرى !

ثم ذكر تعالى أصناف المؤمنين ، وقسمهم إلى مهاجرين وأنصار فقال :

(١) [٨ / أنفال / ٧٠] . (٢) أخرجه البخاري في : ٥٨ - كتاب الجزية والموادعة

٤ - باب ما أقطع النبي ﷺ من البحرين وما وعد من مال البحرين ، حديث رقم ٢٧٧ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٢] (إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، وَالَّذِينَ ءَامَنُوا لَمْ يَهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِّنْ وَلَا يَتِيمٍ مِّنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا ، وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ يَبِينَكُمْ وَيَبِينُهُمْ مِّثَاقٌ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)
« إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا » أى من مكة إلى المدينة لنصر الله ورسوله « وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » أى طاعته « وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا » أى وطنوا المهاجرين وأتزلوهم منازلهم وبذلوا إليهم أموالهم ، وآثروهم على أنفسهم ، ونصروهم على أعدائهم « أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ » أى يتولى بعضهم بعضاً فى النصرة والمظاهرة ، ويقوم مقام أهله ونفسه ، ويكون أحق به من كل أحد . ولهذا آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار .

قال ابن إسحاق^(١) : وآخى رسول الله ﷺ بين أصحابه من المهاجرين والأنصار ، فقال فيما بلغنا : تأخوا أخوين أخوين ثم أخذ بيد علي بن أبى طالب فقال : هذا أخى . وكان حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله وعمّ النبي ﷺ ، وزيد بن حارثة مولى النبي ﷺ أخوين . وإليه أوصى حمزة يوم (أُحُد) حين حضره القتال إن حدث به حادث الموت . وجعفر ذو الجناحين الطيار فى الجنة ومعاذ بن جبل أخوين . وأبو بكر الصديق وخارجة بن زيد أخوين . وعمر بن الخطاب وعثمان بن مالك أخوين . وأبو عبيدة بن الجراح وسعد بن معاذ أخوين . وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع أخوين . والزبير بن العوام وسلمة

(١) انظر سيرة ابن هشام بالصفحة رقم ٣٤٤ (طبعة جوتنجن) والمصفحة رقم ١٥٠

من الجزء الثانى (طبعة الحلبي) .

ابن سلامة أخوين ، أو عبدالله بن مسمود وعثمان بن عفان وأوس بن ثابت أخوين وطلحة ابن عبيد الله وكعب بن مالك أخوين . وسعيد بن زيد وأبي كعب أخوين . ومصعب ابن عمير وأبو أيوب الأنصارى أخوين . وأبو حذيفة وعباد بن بشر أخوين . وعمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان أخوين . وأبو ذر الغفارى والمزهر بن عمرو أخوين . وسلمان الفارسى وأبو الدرداء أخوين . وحاطب بن أبى بلتمه وعويم بن ساعدة أخوين . وبلال الحبشى وأبو رويحة الخثعمى أخوين :

ولما خرج بلال إلى الشام ، وأقام فيها مجاهداً ، قال له عمر : إلى من نجعل ديوانك ؟ قال : مع أبى رويحة ، لا أفارقه أبداً ، للأخوة التى كان رسول الله ﷺ عقد بينه وبينى . فضم إليه ، وضم ديوان الحبشة إلى خثعم ، لمكان بلال منهم . قال ابن إسحاق . فهؤلاء من سعى لنا ممن كان رسول الله ﷺ آخى بينهم من أصحابه .
تنبه :

نقل الواحدى عن ابن عباس وغيره ، أن المراد من هذه الولاية ، هى الولاية فى الميراث . قال ابن كثير : لما تآخوا كانوا يتوارثون بذلك إراثاً مقدماً على القرابة ، حتى نسخ الله ذلك بالموارث . ثبت ذلك فى صحيح البخارى عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة والحسن وقتادة وغير واحد .

قال الخفاجى : فكان المهاجرى يرثه أخوه الأنصارى ، إذا لم يكن له بالمدينة ولى مهاجرى ، ولا توارث بينه وبين قريبه المسلم غير المهاجرى . واستمر أمرهم على ذلك إلى فتح مكة ، ثم توارثوا بالنسب بعدد ، إذا لم تكن هجرة . و(الولى) القريب والناصر . لأن أصله القرب السكانى ، ثم جعل للمعنوى ، كالنسب والدين والنصرة . فقد جعل ﷺ ، فى أول الإسلام ، العناصر الدينى أخوة ، وأثبت لها أحكام الأخوة الحقيقية من التوارث ، فلا وجه لما قيل إن هذا التفسير لا تساعد اللغة ، فالولاية على هذا ، الورثة المسببة عن القرابة الحكمة . انتهى .

ومراد به (ما قيل) ما ذكره الرازي في تضييف تفسير الولاية بالوراثة ، حيث قال :
واعلم أن لفظ الولاية غير مشعر بهذا المعنى ، لأن هذا اللفظ مشعر بالقرب على ما قررناه
في مواضع من هذا الكتاب . ويقال : السلطان ولي من لا ولي له ، ولا يفيد الإرث . وقال
تعالى ^(١) : (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) ولا يفيد الإرث ،
بل الولاية تفيد القرب ، فيمكن حمله على غير الإرث ، وهو كون بعضهم معظماً للبعض ،
مهما بشأنه ، مخصوصاً بعاوته ومناصرته . والمقصود أن يكونوا بديلاً واحدة على الأعداء ،
وأن يكون حب كل واحد لغيره جارياً مجرى حبه لنفسه . وإذا كان اللفظ محتماً لهذا المعنى ،
كان حمله على الإرث بعيداً عن دلالة اللفظ ، لاسيما وهم يقولون : إن ذلك الحكم صار منسوخاً
بقوله تعالى في آخر الآية : (وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ) ^(٢) وأي حاجة تحملنا
على حمل اللفظ على معنى لا إشعار لذلك اللفظ به ، ثم الحكم بأنه صار منسوخاً بآية أخرى
مذكورة منه ؟ هذا في غاية البعد ، اللهم إلا إذا حصل إجماع المفسرين على أن المراد بذلك ،
حينئذ يجب المصير إليه . إلا أن دعوى الإجماع بعيدة . انتهى .

وأقول : لعموم هذا الخطاب ونظمه وجه في إثبات التوارث ، لا سيما وقد نفى تعالى
ولاية من لم يهاجر تقياً استغرق أقرب الأقارب حيث قال : (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا)
أي بأن أقاموا في بواديهم « مَا لَكُمْ مِنْ وَلَا يَتَهُمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا » أي إلى
المدينة . وقوله تعالى : (وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ) أي إذا استنصركم
هؤلاء الأعراب الذين لم يهاجروا في قتال ديني ، فيجب عليكم أن تنصروهم على أعدائهم
المشركين ، لأنهم إخوانكم في الدين « إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِثَاقٌ » أي عهد
ومهادنة إلى مدة ، فلا تعينوهم عليهم ، لئلا تحفروا ذمتكم ، وثنقضوا عهدهم « وَاللَّهُ
بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » أي فلا تخالفوا أمره .

(١) [١٠ / يونس / ٦٢] . (٢) [٨ / الأنفال / ٧٥] .

تنبيهات :

الأول - احتج من ذهب إلى أن المراد من قوله تعالى : (مَا لَكُمْ مِنْ وَلَا يَتَمِمُّ مِنْ) أى من توليتهم في الميراث ، وأنه هو المراد في الآية السابقة أيضاً ، بقوله تعالى : (وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ) فإن هذا موالاة في الدين ، فحينئذ لا يجوز حمل الموالاة المنفية ، على النصرة والمظاهرة ، لأنها لازمة لكل حال السكلا الفريقين . وأجاب الرازي بما معناه : إن الولاية هنا ليس المراد بها مطلق التولى حتى يرد ما ذكره ، بل عنى بها معنى خاص ، وهو علاقة شديدة ، ومحبة أكيدة ، وإيثار قوى ، وأخوة وثيقة . ولا يلزم من النصر التولى . فقد ينصر المرء ذمياً لأمر ما ولا يتولاه ، ويدافع عن عبده أو أمته وبعينهما ولا يتولاهما - والله أعلم -

الثاني - يظهر أن هذه الآية كسوابقها مما نزل إثر واقعة بدر ، وطلب من كل من آمن من البادين أن يهاجر ، ليكثر سواد المسلمين ، ويظهر اجتماعهم ، وإعانة بعضهم لبعض ، فقتلوا بألفهم شوكتهم ، ولم يزل طلب الهجرة إلا بفتح مكة ، لقوله ﷺ : لا هجرة بعد فتح مكة . رواه البخاري^(١) عن مجاشع بن مسعود .

الثالث - شمل نفى الموالاة عن الذين لم يهاجروا وقتئذ ، حرمانهم من المغانم والفيء . روى الإمام أحمد^(٢) عن بريدة بن الحَصِيب الأسلمي رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ

(١) حديث مجاشع بن مسعود أخرجه البخاري في : ٥٦ - كتاب الجهاد ، ١١٠ - باب البيعة في الحرب ألا يفرّوا ، حديث رقم ١٤١٣ ورقم ١٤١٤ .

وأخرجه مسلم في : ٣٣ - كتاب الإمارة ، حديث ٨٤ و ٨٣ (طبعنا) . ونصه : قال : أتيت النبي ﷺ أبايه على الهجرة فقال « إن الهجرة قد مضت لأهلها » . وأما حديث « لا هجرة بعد الفتح » فقد رواه البخاري عن ابن عباس في : ٥٦ - كتاب الجهاد ، ١ - باب فضل الجهاد والسير ، حديث ٧١٠ .

(٢) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٣٥٨ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .

إذا بعت أميراً على سرية أو جيش أو صاه في خاصة نفسه بتقوى الله وبعن معه من المسلمين خيراً .
وقال : اغزوا بسم الله في سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله . إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال أو خلال ، فأيها ما أجابوك إليها فاقبل منهم ، وكف عنهم ادعهم إلى الإسلام ، فإن أجابوك فاقبل منهم ، وكف عنهم . ثم ادعهم من التحول من دارهم إلى دار المهاجرين ، وأعلمهم إن فعلوا ذلك ، أن لهم ما للمهاجرين ، وأن عليهم ما على المهاجرين ، فإن أبوا واختاروا دارهم ، فأعلمهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين ، يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين ، ولا يكون لهم في الفئ والغنيمة نصيب ، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين ، فإن هم أبوا فادعهم إلى إعطاء الجزية ، فإن أجابوا فاقبل منهم ، وكف عنهم ، فإن أبوا فاستمن بالله وقاتلهم .

قال ابن كثير : انفرد به مسلم ^(١) ، وعنده زيادات أخر .

الرابع - قرأ حمزة (ولايتهم) بكسر الواو ، والباقون بفتحها .

قال الشهاب : جاء في اللغة : (الولاية) مصدراً بالفتح والكسر ، فقيل : هما لغتان فيه بمعنى واحد ، وهو القرب الحسى والمعنوى ، وقيل : بينهما فرق ، فالفتح ولاية مولى النسب ونحوه . والكسر ولاية السلطان . قاله أبو عبيدة . وقيل الفتح من النصرة والنسب . والكسر من الإمارة . قاله الزجاج . وخطأ الأصمى قراءة الكسر ، وهو الخطأ لتواترها . واختلفوا في ترجيح إحدى القراءتين . ولما قال المحققون من أهل اللغة : إن (فعالة) بالكسر في الأسماء لا يحيط بشيء ، ويجمل فيه كاللفافة والهمزة . وفي المصادر يكون في الصناعات وما يزاو بالأعمال ، كالكتابة والخياطة - ذهب الزجاج وتبعه غيره إلى أن الولاية لاحتياجها إلى تمرن وتدريب شبهت بالصناعة ، لهذا جاء فيها الكسر ، كالإمارة . وهذا يحتمل أن الواضع حين وضعها شبهها بذلك ، فتكون حقيقة . ويحتمل - كما في بعض شروح الكشاف - أن تكون استعارة ، كما سموها الطب صناعة . انتهى .

وقوله تعالى :

(١) أخرجه في : ٣٢ - كتاب الجهاد والسير ، حديث رقم ٣ (طبعنا) .

القول في تأويل قوله تعالى:

[٧٣] (وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةً فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ)

« وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ » أى فلا يتولاهم إلا من كان منهم ، ففيه إشارة إلى نهى المسلمين عن موالاتهم . وإيجاب مبادعتهم ومصارمتهم ، وإن كانوا أقارب وقد استدل به على أنه لا توارث بين المسلمين والكفار .

روى الحاكم في (مستدركه) عن أسامة عن النبي ﷺ قال : لا يتوارث أهل ملتين ، ولا يرث مسلم كافراً ولا كافر مسلماً ، ثم قرأ (وَالَّذِينَ كَفَرُوا . . .) الآية رواه الشيخان عنه ^(١) بلفظ : لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم .

وقوله تعالى : « إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةً فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ » أى إلا تفعلوا ما أمرتكم به من التواصل ، وتولى بعضهم بعضاً ، ومن قطع العلائق بينكم وبين الكفار ، تحصل فتنة في الأرض ومفسدة عظيمة ، لأن المسلمين مالم يصيروا يداً واحدة على الشرك ، كان الشرك ظاهراً ، والفساد زائداً ، في الاعتقادات والأعمال .

وقيل : الضمير المنصوب للميثاق أو حفظه أو النصر أو الإنبات . وقيل إنه للإستنصار المفهوم من الفعل . والفتنة : إهمال المؤمنين المستنصرين بنا ، حتى يسلط علينا الكفار . إذ فيه وهن للدين .

قال الشهاب : وفيه تكلف ، أى فالأوجه عوده للتولى والتواصل - كما بينا - .

قال الرازى : بيان هذه الفتنة والفساد عن وجوه :

الأول - أن المسلمين لو اختلطوا بالكفار في زمان ضضع المسلمين ، وقلة عددهم ، وزمان قوة الكفار ، وكثرة عددهم ، فربما صارت تلك المخالطة سبباً لالتحاق المسلم بالكفار .

(١) الحديث رواه مسلم عن أسامة بن زيد في : ٢٣ - كتاب الفرائض ، حديث رقم ١ (طبعنا) ولم يخرج البخارى .

الثاني - أن المسلمين لو كانوا متفرقين لم يظهر منهم جمع عظيم ، فيصير ذلك سبباً لجرأة الكفار عليهم .

الثالث أنه إذا كان جمع المسلمين كل يوم في الزيادة والمدد والمدد صار ذلك سبباً لمزيد رغبتهم فيما هم فيه ، ورغبة المخالف في الالتحاق بهم . انتهى .
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٤] (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ، لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ)

« وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ » عودٌ لذكر المهاجرين والأنصار ، للثناء عليهم ، والشهادة لهم ، مع الموعد الكريم . فلا تكرر ، لما أن مساق الأول لإيجاب التواصل بينهم ، فذكرهم هاهنا لبيان تعظيم شأنهم ، وعلو درجتهم .
قال الرازي : وبيانه من وجهين :

الأول - أن الإعادة تدل على مزيد الاهتمام بحالهم ، وذلك يدل على الشرف والتعظيم .

والثاني - وهو أنه تعالى أثنى عليهم هاهنا من ثلاثة أوجه :

أولها - قوله « أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا » فقوله (أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ) يفيد الحصر ، وقوله (حَقًّا) يفيد المبالغة في وصفهم بكونهم محقين محققين في طريق الدين ، وقد كانوا كذلك ، لأن من لم يكن محققاً في دينه ، لم يتحمل ترك الأديان السالفة ، ولم يفارق الأهل والوطن ، ولم يبذل النفس والمال ، ولم يكن في هذه الأحوال من المتسارعين المتساقطين .
وثانيها - قوله (لَهُمْ مَغْفِرَةٌ) والتذكير يدل على السكال ، أي مغفرة تامة كاملة .

وثالثها - قوله (وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) والمراد منه الثواب الرفيع الشريف . انتهى .

وقد أثنى تعالى على المهاجرين والأنصار في غير ما آية في كتابه الكريم .
والله أعلم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ ، وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)
« وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ » أى من جملتكم ،
أى المهاجرون والأنصار ، فى استحقاق ما استحققتهم من الموالاة والمناصرة ، وكال الإيمان
والمغفرة والرزق الكريم .

وهل المراد من قوله (مِن بَعْدُ) هو من بعد الهجرة الأولى ، أو من بعد الحديبية .
وهى الهجرة الثانية ، أو من بعد نزول هذه الآية ، أو من بعد يوم بدر ؟ أقوال - واللفظ
الكريم يعمها كلها ، والتخصيص بأحدها تخصيص بلا مخصص . « وَأُولُوا الْأَرْحَامِ
بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ » أى فى حكمته وقسمته ، أو فى اللوح ، أو فى القرآن ،
لأن (كتاب الله) يطلق على كل منها « إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » فيقضى بين عباده بما
شاء من أحكامه التى هى منتهى الصواب والحكمة والصلاح .

تنبيهات :

الأول إن هذه الآية ناسخة للميراث بالمولات والمناصرة عند من فسر ما تقدم من قوله
(بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ) وما بعده بالتوارث .

أخرج أبو داود^(١) من حديث ابن عباس قال : كان الرجل يحالف الرجل ، ليس بينهما

(١) أخرجه أبو داود فى : ١٨ - كتاب الفرائض ، ١٦ - باب نسخ ميراث العقد

بميراث الأرحام ، حديث رتم ٢٩٢١ .

نسب ، فيرث أحدهما من الآخر، فنسخ ذلك آية الأنفال فقال : (وَأُولُوا الْأَرْحَامِ ...) الخ إلا أن في إسناده من فيه مقال .

وأما من فسر الموالاة المتقدمة بالنصرة والمعونة والتمظيم ، فيجعل هذه الآية إخباراً منه سبحانه وتعالى بأن القرابات بعضهم أولى ببعض . وذلك أن تلك الآية ، لما كانت محتملة للولاية بسبب الميراث ، بين الله تعالى في هذه الآية أن ولاية الإرث إنما تحصل بسبب القرابة ، إلا ما خصه الدليل ، فيكون المقصود من الآية إزالة هذا الوهم .

قال الرازي : وهذا أولى . لأن تكثير النسخ ، من غير ضرورة وحاجة ، لا يجوز .

الثاني - استدل بالآية من ورث ذوى الأرحام ، وهم من ليسوا بعصبات ، ولا ذوى سهام . قال : ويمضه حديث^(١) : (الخال وارث من لا وارث له) . وأجاب من منع توريتهم بأن المراد من الآية من ذكر الله من ذوى السهام والعصبات . ومن الحديث : (من كان وارثه الخال فلا وارث له) . ورد بأنها عامة فلا موجب للتخصيص ، وبأن معنى الحديث : من كان لا وارث له غيره ، لحديث : (أنا عماد من لا عماد له) .

ثم إن الذين أثبتوا ميراثهم اختلفوا في أنهم هل يرثون بالقرب ، أو بالتزويل ، وهل يرث القرب مع البعيد ، وهل يفضل الذكر على الأنثى أو لا ؟ والآية محتملة . أفاده بعض مفسرى الزيدية .

قال ابن كثير : ليس المراد بقوله : (وَأُولُوا الْأَرْحَامِ) خصوصية ما يطلقه علماء الفرائض على القرابة الذين لا فرض لهم ولا عصبية ، بل يدلون بوارث كالخال والخالة ، والعممة وأولاد البنات وأولاد الأخوات ونحوهم ، كما يزعم بعضهم ، ويحتج بالآية ، ويعتقد ذلك صريحاً في المسألة . بل الحق أن الآية عامة ، تشمل جميع القرابات ؛ كما نص عليه ابن عباس

(١) أخرجه أبو داود في : ١٨ - كتاب الفرائض ، ٨ - باب في ميراث ذوى الأرحام ،

حديث رقم ٢٨٩٩ و ٢٩٠٠ عن المقدم السكندى .

ومجاهد وعكرمة والحسن وقتادة وغير واحد وعلى هذا فتشمل ذوى الأرحام بالاسم الخاص، ومن لم يورثهم يحتمل بأدلة، من أقواها حديث^(٢) : (إن الله قد أعطى كل ذى حق حقه فلا وصية لوارث) قالوا : فلو كان ذا حق لكان ذا فرض في كتاب الله مسمى ، فلما لم يكن كذلك ، لم يكن وارثاً . انتهى .

ولا يخفى ضعف هذا الاستدلال ، إذ لا يلزم من ثبوت الحق تعيين الفرض . على أن معنى الحديث ، أعطى كل ذى حق حقه مفصلاً ومجملًا ، وقد أعطاهم حق الأولوية العامة ، ووكل بيان ما يفهم من إجمال الإرث بعمومها لاستنباط الراسخين وفهمهم على قاعدة عمومات التنزيل .

وقد رأيت في هذه المسألة مقالة بديعة أوردها الحسن الصابى في (تاريخ الوزراء) في أخبار وزارة أبى الحسن بن الفرات ، نأثرها هنا ، لأنها جمعت فأوعت ، قال رحمه الله : ونسخة ما كتب به أبو خازم إلى بدر المعتضدى جواب كتابه إليه في أمر الموارث : وصل كتاب الأمير ، يذكر أنه احتجج إلى كتابى بالذى أراه واجبا من مال الموارث ليت المال ، ومالا أراه واجبا منه ، وتلخيص ذلك وتبيينه - وأنا أذكر للأمير الذى حضرنى من الجواب في هذه المسألة والحجة فيما سأل عنه ليقف على ذلك إن شاء الله .

الناس مختلفون في توريث الأقارب ، فروى عن زيد بن ثابت أنه جعل التركة - إذا لم يكن للمتوفى من يرثه من عصبه وذى سهم - لجماعة من المسلمين وبيت مالهم . وكذلك يقول في الفصل بعد الشَّهْمَانِ المسماة ، إذا لم تكن عصبية . ولم يرو ذلك عن أحد من الصحابة سوى زيد بن ثابت . وقد خالفه عمر بن الخطاب ، وعلى بن أبى طالب ، وعبد الله ابن مسعود ، وجعلوا ما يفضل من الشَّهْمَانِ ردا على أصحاب السهام من القرابة ، وجعلوا

(١) أخرجه أبو داود في : ١٧ - كتاب الوصايا ، ٦ - باب ما جاء في الوصية للوارث ،

حديث رقم ٢٨٧٠ .

المال لدى الرحم إذا لم يكن وارث سواء . والسنة تماضد ما روى عنهم ، وتخالف ما روى عن زيد بن ثابت وتأويل القرآن يوجب ما ذهبوا إليه . وليس لأحد أن يقول في خلاف السنة والتزويل بالرأى . قال الله تعالى^(١) : (وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بِمَوَازِينِ أُولَىٰ بِمِثْلِ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) فصيّر القريب أولى من البعيد . وإلى هذا ذهب عمر وعلى وعبد الله رضى الله عنهم ومن تابعهم من الأئمة ، وعليه اعتمدوا ، وبه تمسكوا - والله أعلم .

ولو كان في هذه المسألة ما يدل عليه شاهد من الكتاب والسنة ، لكان الواجب تقليد الأفضل والأكثر من السابقين الأولين ، وترك قبول من سواهم ممن لا يلحق بدرجتهم بسابقتهم . وإذا رد أمر الناس إلى التخيير من أقاويل الساف فهل يحل أو يشكل على أحد أن زيدا لا يبقى علمه بلم عمر وعلى وعبد الله ؟ وإذا فضّلوا في السابقة والمهجرة ، فمن أين وجب أن يؤخذ بما روى عن زيد بن ثابت ، وأطراح ما روى عنهم ، وقد استدلوا مع ذلك بالكتاب فيما ذهبوا إليه ، وبالسنة فيما أفتوا به ؟ والرواية ثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم بتوريت من لا فرض له في الكتاب من القرابة . فمن ذلك ما ذكر لنا عن معاوية بن صالح عن راشد بن سعد عن أبي عاصم الهروى عن المقدم بن معدى كرب عن النبي صلى الله عليه وسلم^(٢) أنه قال : الخال وارث من لا وارث له يرث ماله ، ويمقل عنه . وكذلك بلغنا عن شريك ابن عبد الله عن ليث عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم مثله . وعن ابن جريج عن عمر بن سلم عن طاوس عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال مثل ذلك . وذكر عن عبادة بن أبي عباد عن محمد بن إسحاق عن يعقوب بن عتبة عن محمد بن يحيى بن حبان عن عمه واسع ابن حبان قال : توفي ثابت بن أبي الدحداح ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعاصم بن عدى : أله فيكم نسب ؟

(١) [٨ / سورة الأنفال / ٧٥] . (٢) أخرجه أبو داود في : ١٨ - كتاب الفرائض ،

٨ -- باب في ميراث ذوى الأرحام ، حديث رقم ٢٨٩٩ و ٢٩٠٠ .

قال : فدفع تركته إلى ابن أخته . فقد أوجب عليه السلام ، بما نقلته عنه هذه الرواية ، توريث من لا سهم له من القرابة مع عدم أصحاب الشَّهْمَانِ المبيّنة في الكتاب . وأعطى الجدة السدس من الميراث ، ولا فرض لها ، وفي ذلك الاتفاق ، وفيما صير لها من السدس ، دليل على أن مَنْ لا سهم له من القرابة في معناها ؟ إذا بطلت السهام ، ولم يكن من أهلها ، وأنه أولى بالميراث من الأجنبي .

والمرئى عن زيد بن ثابت أنه جعل الفضل عن سهام الفرائض ، وكل المال ، إذا سقطت السهام بعد أهلها ، للجماعة المسلمين . فجعلهم كلهم وارثا ، وجعل ما يصير لهم من ذلك - في خلاف مال النِّءِ المصروف إلى الشحنة وأرزاق المقاتلة وإلى المصالح إذا كان ذلك - يكون فيما روى عنه للناس كافة ، وعددهم لا يحصى ، فغير ممكن أن يقسم ذلك فيهم وهم متفرقون في أقطار الأرض ، مشارقها ومغاربها . وإذا امتنع ذلك وخرج إلى ما ليس بممكن ، فسد وثبت ما قلناه من قول أكبر الأئمة . وقد تأول بعض المتأولين قول الله تعالى (١) : (وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ) فقال فيه : كان الناس يتوارثون بالخلف دون القرابة . فلما أوجب الله الموارث لأهلها من الأقارب ، مُنِعَ الخليف بما فرض من السهمان فملطوا وصرفوا حكم الآية إلى الخصوص ، فذلك غير واجب مع عدم الدليل ، لأن مخرجها في السمع مخرج العموم .

وبعد ، فلو كان تأويلها ما ذهبوا إليه ، وكانت السهام التي نسخت ما يرثه الخليف قبل نزول الفرائض ، لوجب في بدء ، وما قالوا إذا كان لا وارث الميت من أصحاب السهام أن يكون الخليفان في التوارث على أول فرضهما ، وعلى المقدم من حكمهما ، لأن الذي منعهما إذا ثبت هذا التأويل (من له سهم) دون (من لا سهم له) ، فإذا ارتفع المانع ، رجع الحكم إلى بدئه . ولا اختلاف بين الفريقين أن الخليف لا يرث الخليف اليوم ، وإن كان لا وارث سواء ، وهذا يدل على فساد تأويلهم ، وعلى أن المراد في الآية التي أوجبت الحق للأقارب غير الذي ذهبوا إليه ، فإن الله سبحانه إنما أراد بمعناها اختصاص القريب بالإرث دون البعيد .

(١) [٨ / الأنفال / ٧٥] .

وقد يلزم من ذهب إلى الرواية عن زيد ، وترك الرواية عن عمر وعلى وعبد الله عليهم السلام جانباً ، وأسقط التعاقل بين الأجنبي والقريب ، أن يحمل ذا الرحم أولى ، لأنه لا يفضل الأجنبي بالقربة . وترتيب الموارث في الأصل يجري على من تقدمه من فضل غيره في المناسبة ، كالأخ للأب والأم ، والأخ للأب ، وابن العم للأب والأم ، وابن العم للأب ، واختصاصهما قرابة أولاهما بالميراث عند جمع الجميع . قال الله تعالى ^(١) : (يُوَصِّيْكُمْ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ) وولد الولد ، من سفلى منهم ومن ارتفع ، بمنهم هذا الاسم ، إلا أن الأقرب منهم ، في معنى الآية ، أحق من الأبعد . فإذا كان ذلك كذلك ، كان القريب أولى من الأجنبي بالتركة للرحم التي تقرب بها دونه .

وبعد ، فإن العلماء نفر يسير لا يعرفون الصواب في هذه المسألة ، إلا فيمارى عن الخليفتين عمر وعلى صلوات الله عليهما ، وماروى عن ابن مسعود ، ثم لم يقتصرُوا في المبالغة والدليل في توريث ذى الرحم ، إلا على ما روى عن عبد الله بن العباس ، جد أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ، وترجمان القرآن ، وبحر العلم ، ومن كان إذا تسكلم سكت الناس ، ومن دعا له النبي ﷺ فقال ^(٢) : اللهم ! فقهه في الدين وعلمه التأويل . ودعوة النبي ﷺ مستجابة . ومن كان أعلم بتأويل القرآن فاتباعه فيه أوجب . وقد روى عن ابن عباس مثل ذلك من قول عمر وعلى

(١) [٤ / النساء / ١١] . (٢) أخرجه البخارى في : ٣ - كتاب العلم ، ١٧ - باب

قول النبي ﷺ « اللهم ! علمه الكتاب » ، ونصه : اللهم ! علمه الكتاب .

وفي : ٤ - كتاب الوضوء ، ١٠ - باب وضع الماء عند الخلاء ، ونصه : اللهم فقهه في الدين .

وفي : ٦٢ - كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ ، ٢٤ - باب ذكر ابن عباس ، ونصه :

اللهم ! علمه الحكمة .

وفي : ٩٦ - كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، ونصه : اللهم ! علمه الكتاب ،

والحديث رقم ٦٥ . أما النص الذى أورده المؤلف فلم أعثر عليه .

وعبد الله والجماعة . وما زالت الخلفاء من أجداد أمير المؤمنين ، أعزه الله ، يستقضون الحكماء ، فيقضون برد الموارث على الأقارب ، ولا ينكرون ذلك على مَنْ قضى به مِنْ قضائهم ، ولا تردونه متجاوزاً للحق فيه ، وما عرفت الجماعة بغير هذا الاسم إلا منذ نحو عشرين سنة . وأمير المؤمنين أولى من اتبع آثار السلف ، واقتدى بخلفاء الله ، ومال إلى أفضل المذهبين ، وإلى الله الرغبة في عصمة الأمير ، وتسديده ، والحمد لله رب العالمين . انتهى .

ونقل أبو الحسن الصابي قبل نسخة أبي الحسن محمد بن جعفر بن ثوابة في الموارث ، وفيها نقل ما كتبه عبد الحميد في كتاب موارث أهل الملة ، وأنه حكى فيه أن عمر بن الخطاب وعلى بن أبي طالب وعبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود رضوان الله عليهم ومن اتبهم من الأئمة الهادين رحمة الله عليهم ، رأوا أن يردّ على أصحاب السهام من القرابة ما يفضل عن السهام المفترضة في كتاب الله تبارك وتعالى من الموارث ، إذا لم يكن للمتوفى عَصَبَةٌ يحوز باقي ميراثه ، وجعلوا ، رضى الله عنهم ، تركه من يتوفى ولا عَصَبَةٌ له لذوى رحمه ، إن لم يكن له وارث سواهم ، ممثلين في ذلك أمر الله سبحانه إذ يقول ^(١) : (وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » . وسنة رسول الله ﷺ في توريثه من لا فرض له في كتاب الله تعالى من الخال وابن الأخت والجدّة . انتهى .

الثالث - استدلال بالآية الإمامية ، على تقديم الإمام على كرم الله وجهه على غيره في الإمامة ، لاندراجها في عموم الأولوية . والجواب - على فرض صحة هذه الدلالة - أن العباس رضى الله عنه كان أولى بالإمامة ، لأنه كان أقرب إلى رسول الله ﷺ من على رضى الله عنه .

سُورَةُ التَّوْبَةِ

٩ - سورة التوبة

هي مدنية بإجماعهم . قيل : سوى آيتين في آخرها^(١) (لَفَذَ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ . . .) فإنهما نزلتا بمكة . وفيه نظر . فقد روى البخاري^(٢) عن البراء أنها آخر سورة نزلت ، واستثنى بعضهم (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ . . .)^(٣) الآية - لما ورد أنها نزلت في قوله عليه الصلاة والسلام لأبي طالب : لأسئغنك لك مالم أنه عنك . وهي مائة وتسع وعشرون آية وهذه السورة عشرة أسماء :

- ١ - براءة : سميت بها لافتتاحها بها ، ومرجع أكثر ما ذكر فيها إليها .
- ٢ - التوبة : لتكرارها فيها ، كقوله تعالى^(٤) (فَإِنْ تَبُتُمْ فَبَرَاءَةٌ لَّكُمْ) (فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ)^(٥) وقوله^(٦) (ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ) وقوله^(٧) (فَإِنْ يَتُوبُوا بِكَ خَيْرًا لَهُمْ) وقوله^(٨) : (عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ) وقوله^(٩) : (لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ) ، وقوله^(١٠) : (أَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ الْآيَاتُ أَنْ اللَّهُ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ) وقوله^(١١) : (الْقَائِلُونَ الْمَآبِدُونَ) وهما أشهر أسمائها .

٣ - الفاضحة : أخرج البخاري^(١٢) عن سميد بن جبير قال : قلت لابن عباس : سورة

- (١) [٩ / التوبة / ١٢٨] . (٢) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٩ - سورة التوبة ، ١ - باب قوله براءة من الله ورَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، حديث ١٩٤١ . (٣) [٩ / التوبة / ١١٣] . (٤) [٩ / التوبة / ٣] . (٥) [٩ / التوبة / ١١٥] . (٦) [٩ / التوبة / ٢٧] . (٧) [٩ / التوبة / ٧٤] . (٨) [٩ / التوبة / ١٠٢] . (٩) [٩ / التوبة / ١١٧] . (١٠) [٩ / التوبة / ١٠٤] . (١١) [٩ / التوبة / ١١٢] . (١٢) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٥٩ - سورة الحشر ، ١ - حدثنا محمد بن عبد الرحيم ، حديث رقم ١٨٦٩ .

التوبة ، قال : التوبة هي الفاضحة ، ما زالت تنزل : ومنهم ومنهم ، حتى ظنوا أنها لم تُنقِ أحداً منهم إلا ذكر فيها .

٤ - سورة العذاب : رواه الحاكم عن حذيفة ، وذلك لتكرره فيها .

٥ - المفسقشة : رواه أبو الشيخ عن ابن عمر ، والمفسقشة معناها التبرئة ، وهي مبرئة

من النفاق .

٦ - المقرة : أخرجه أبو الشيخ عن عبيد بن عمير لأنها نقرت عما في قلوب المشركين .

أى بحثت .

٧ - البجوت : يفتح الباء ، صيغة مبالغة ، رواه الحاكم عن المقداد

٨ - الحافرة : ذكره ابن الغرس ، لأنها حفرت عن قلوب المنافقين ، أى بحثت عنها ، مجازاً

٩ - الثيرة : رواه ابن أبي حاتم عن قتادة لأنها أثارته مثالبهم وعوراتهم أى أخرجتها

من الخفاء إلى الظهور .

١٠ - الميمرة : لأنها بعثت أسرارهم أى أظهرتها .

١١ - الدمدمة : أى المهلكة لهم .

١٢ - المخزية .

١٣ - المنككة : أى المعاقبة لهم .

١٤ - المشردة : أى الطاردة لهم والمفرقة جمعهم .

وليس في السور أكثر أسماء منها ومن الفاتحة .

تفصيله :

للسلف في وجه ترك كتابة البسملة في هذه السورة والتلفظ بها أقوال :

١ - روى الحاكم في (المستدرك) عن ابن عباس قال : سألت علي بن أبي طالب : لم

لم تكتب في (براءة) البسملة ؟ قال : لأنها أمان . وبراءة نزلت بالسيف . أى فتزولها لرفع

الأمان الذى يأبى مقامه التصدير بما يشمر ببقائه من ذكر اسمه تعالى، مشفوعاً بوصف الرحمة. ولذا قال ابن عيينة: اسم الله سلام وأمان، فلا يكتب فى النبذ والمحاربة. قال الله تعالى (١): (وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا) قيل له: فإن النبي ﷺ قد كتب إلى أهل الحرب البسملة. قال: إنما ذلك ابتداء منه يدعوهم، ولم ينبذ إليهم. ألا تراه يقول: سلام على من اتبع الهدى؟ فن دعى إلى الله عز وجل فأجاب، ودعى إلى الجزية فأجاب، فقد اتبع الهدى، فظهر الفرق. وكذا قال المبرد: إن التسمية افتتاح للخير، وأول هذه السورة وعيد وتقض عهود، فلذلك لم تفتتح بالتسمية.

٢ - عن ابن عباس قال: قلت لعثمان: ما حملكم على أن عمدتم إلى الأتقال، وهى من الثانى، وإلى براءة وهى من المثني، فقرنتم بينهما، ولم تكتبوا سطر البسملة، ووضعتموها فى السبع الطوال، ما حملكم على ذلك؟ قال عثمان: كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يأتى عليه الزمان وهو ينزل عليه السور ذوات العدد، وكان إذا نزل عليه شئ، دعا بمض من كان يكتب فيقول: ضموا هؤلاء الآيات فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا، وإذا نزلت عليه الآية يقول: ضموا هذه الآية فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا، وكانت (الأتقال) من أوائل ما نزل بالمدينة، وكانت (براءة) من آخر القرآن نزولاً، وكانت قصتها شبيهة بقصتها، وظننت أنها منها. وقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها أو من غيرها، من أجل ذلك قرن بينهما، ولم أكتب البسملة، ووضعتما فى السبع الطوال. أخرجه أبو داود (٢) والترمذى (٣) وقال: حديث حسن. ورواه الإمام أحمد (٤) والنسائى وابن حبان فى صحيحه، والحاكم وصححه.

(١) [٤ / النساء / ٩٤]. (٢) أخرجه أبو داود فى: ٢ - كتاب الصلاة،

١٢٢ - باب من لم يحجر بيسم الله الرحمن الرحيم، باب من جهر بها، حديث رقم ٧٨٦.

(٣) أخرجه الترمذى فى: ٤٤ - كتاب التفسير، ٩ - سورة التوبة، ١ - حدثنا محمد بن بشار.

(٤) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٥٧ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) حديث ٣٩٩ (طبعة

المعارف) وعلى هذا الحديث تمليق بقلم شيخنا الأستاذ أحمد شاكر فى الكلام على رجال

سند هذا الحديث وفى تضعيفه. فانظره فإن البحث جليل جداً.

قال الزجاج : والشبه الذى بينهما أن فى (الأنفال) ذكر المهود ، وفى (براءة) نقضها .
٣ - أخرج أبو الشيخ عن أبي روق قال : (الأنفال) و (براءة) سورة واحدة . ونقل
مثله عن مجاهد ، وأخرجه ابن أبي حاتم عن سفيان . وقال ابن لهيعة : يقولون إن (براءة) من
(الأنفال) ، ولذلك لم تكتب البسملة فى (براءة) ، وشبهتهم اشتباه الطرفين ، وعدم
البسملة . ويردّه تسمية النبى ﷺ كلا منهما .

وقال الحاكم : استفاض النقل أنهما سورتان .

وقال أبو السمود : اشتهارها بهذه الأسماء - بمعنى الأربعة عشر اسماً المتقدمة - يقضى
بأنها سورة مستقلة ، وليست بمضاً من سورة الأنفال ، وادعاء اختصاص الاشتهار بالقائلين
باستقلالها ، خلاف الظاهر . انتهى .

ونقل صاحب (الإقناع) أن البسملة ثابتة (لبراءة) فى مصحف ابن مسعود ، قال :
ولا يؤخذ بهذا .

وعن مالك : أن أولها لما سقط ، سقط معه البسملة ، فقد ثبت أنها كانت تعدل البقرة
لطولها . كذا فى (الإقناع) .

ثم اعلم أن القراء أجمعوا على ترك قراءة البسملة فى أول هذه السورة اتباعاً لسقوطها فى
فى الرسم من مصحف الإمام ، إلا ابن منادر ، فإنه يسمى فى أولها ، كما فى مصحف ابن
مسعود .

وقال السخاوى فى (جمال القراء) : إنه اشتهر تركها فى أول براءة .

وروى عن عاصم التسمية فى أولها ، وهو القياس . لأن إسقاطها ، إما لأنها نزلت
بالسيف أو لأنهم لم يقطعوا بأنها سورة مستقلة ، بل من الأنفال . ولا يتم الأول ، لأنه
مخصوص بمن نزلت فيه ، ونحن إنما نسمى للتبرك . وأما الابتداء بما بعد أول براءة ، فلا
نص للمتقدمين من أئمة القراء فيه ، وظاهر إطلاق كثير التخيير فيها ، واختار السخاوى

الجواز ، وقال : ألا ترى أنه يجوز بغير خلاف أن يقول : (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ)^(١) وإلى منمها ذهب الجعبري ، وتعقبه السخاوي فقال : إن كان نقلاً فمسلّم ، وإلا فردّ عليه ، لأنه تفريع على غير أصل .

وقال ابن الجزري في (النشر) : من اعتبر بقاء أثر العلة التي من أجلها حذفت البسملة أولها ، وهي نزولها بالسيف ، لم يسمل . ومن لم يعتبر ذلك ، أو لم يرها ، بسمل بلا نظر . والله أعلم .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ)

براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين « خبر المحذوف ، وتنوينه للتفخيم . أي هذه براءة . أو مبتدأ مخصص بصفة ، وخبره (إلى الذين) . و (البراءة) في اللغة انقطاع العصمة ، يقال : برئت من فلان براءة ، أي انقطعت بيننا العصمة ، ولم يبق بيننا علة .

فإن قيل : حق البراءة أن تنسب إلى المآهد ، فلم لم تنسب إليهم ، ونسبت إلى الله ورسوله ؟ أجيب : بأن (عاهدتم) إخبار عن سابق صدر من الرسول ﷺ والجماعة ، فنسب إلى الكل ، كما هو الواقع ، وإن كان بإذن الله أيضاً .

وأما البراءة فهي إخبار عن متجدد ؛ فكيف ينسب إليهم ، وهم لم يحدثوه بعد ، وإنما يسند إلى من أحدثه ؟ وقال الناصر : إن سر ذلك أن نسبة العهد إلى الله ورسوله ﷺ في مقام نسب فيه النبذ إلى المشركين ، لا يحسن أدباً . ألا ترى إلى وصية رسول الله ﷺ

(١) [٩ / التوبة / ٣٦] .

لأمراء السرايا حيث يقول لهم^(١) : إذا نزلت بحصن فطلبوا النزول على حكم الله ، فأنزلهم على حكمك ، فإنك لا تدري أصادفت حكم الله فيهم أو لا ! وإن طلبوا ذمة الله ، فأنزلهم على ذمتك . فَلَا تَنْ تَخْفَرُ ذِمَّتَكَ ، خير من أن تخفر ذمة الله !

فانظر إلى أمره عليه الصلاة والسلام بتوفير ذمة الله ، مخافة أن تخفر ، وإن كان لم يحصل بعد ذلك الأمر المتوقع ، فتوفير عهد الله ، وقد تحقق من المشركين النكث ، وقد تبرأ منه الله ورسوله بالألا ينسب العهد المنبوذ إلى الله - أخرى وأجدر . فلذلك نسب العهد إلى المسلمين دون البراءة منه .

وقال الشهاب : ولك أن تقول : إنما أضاف العهد إلى المسلمين ، لأن الله علم أن لا عهد لهم ، فلذا لم يصف العهد إليه ، لبراءته منهم ، ومن عهدهم في الأزل . وهذا نكتة الإتيان بالجملة اسمية خبرية . وإن قيل : إنها إنشائية للبراءة منهم ، ولذا دلت على التجدد . انتهى . قال ابن إسحاق^(٢) . نزلت براءة في نقض ما بين رسول الله ﷺ وبين المشركين من العهد الذي كانوا عليه فيما بينه وبينهم ، ألا يصدّ عن البيت أحد جاءه ، ولا يخاف أحد في الشهر الحرام . وكان ذلك عهداً عاماً بينه وبين الناس من أهل الشرك . وكانت بين ذلك عمود بين رسول الله ﷺ وبين قبائل من العرب خصائص إلى آجال مسماة ، فنزلت فيه وفيمن تخلف من المنافقين عنه في (تبوك) ، وفي قول من قال منهم ، فكشف الله تعالى سراير أقوام كانوا يَسْتَخْفُونَ بغير ما يظهرون .

- (١) أخرجه مسلم في : ٣٢ - كتاب الجهاد ، حديث رقم ٣ (طبعنا) .
وأخرجه أبو داود في : ١٥ - كتاب الجهاد ، ٨٢ - باب في دعاء المشركين ، حديث رقم ٢٦١٢
وأخرجه الترمذی في : ١٩ - كتاب السير ، ٤٧ - باب ماجاء في وصية النبي ﷺ في القتال .
وأخرجه ابن ماجه في : ٢٤ - كتاب الجهاد ، ٣٨ - باب وصية الإمام ، حديث رقم ٢٨٥٨ (طبعنا)
(٢) انظر سيرة ابن هشام ، الصفحة رقم ٩١٩ و ٩٢٠ (طبعة جوتنجن) والصفحة رقم ١٨٨ و ١٨٩ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

وقال ابن كثير : وأول هذه السورة نزل على رسول الله ﷺ لما رجع من غزوة (تبوك) ، وهم بالحج . ثم ذكر أن المشركين يحضرون عامهم هذا الموسم على عادتهم في ذلك ، وأنهم يطوفون بالبيت عمرة ، فسكره مخالطهم ، وبعث أبا بكر الصديق رضي الله عنه أميراً على الحج تلك السنة ، ليقم للناس مناسكهم ، ويعلم المشركون ألا يحجوا بعد عامهم هذا ، وأن ينادى بالناس (براءة من الله ورسوله) ، فلما قفل ، أتبعه بعل بن أبي طالب ، ليكون مبلغاً عنه ﷺ ، لكونه عصبته له ، كما سيأتي .
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْمَلُوا أَنْفُسَكُمْ غَيْرَ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ يُخْزِي الْكَافِرِينَ)

« فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ » أي فقولوا لهم : سيروا في الأرض بعد نبذنا العهد آمين من القتل والقتال مدة أربعة أشهر ، وذلك من يوم النحر إلى عشر يخلون من ربيع الآخر . والمقصود تأمينهم من القتل ، وتفكرهم واحتياطهم ، ليعلموا أنهم ليس لهم بعدها إلا السيف ، وليعلموا قوة المسلمين إذ لم يخشوا استمدادهم لهم . وهذه الأربعة الأشهر كانت عهداً لمن له عهد دون الأربعة الأشهر ، فأنتم له . فأما من كان له عهد موقت ، فأجله إلى مدته ، مهما كانت ، لقوله تعالى ^(١) : (فَأَتَتْهُوَ إِلَيْهِمْ عَهْدُهُمْ إِلَىٰ مَدَّتِهِمْ) كما يأتي .
روى هذا عن غير واحد ، واختاره ابن جرير ^(٢) . وقال مجاهد : هذا تأجيل للمشركين مطلقاً ، فمن كانت مدة عهده أقل من أربعة أشهر رفع إليها ، ومن كانت أكثر حط إليها ،

(١) [٩ / التوبة / ٤] . (٢) انظر تفسير الطبري بالصفحة رقم ٦٢ من الجزء العاشر

(طبعة الحلبي الثانية) .

ومن كان عهده بغير أجل خُذَّ بها . ثم هو بعد ذلك حرب لله وارسوله ، يقتل حيث أدرك . ويؤسر ، إلا أن يتوب ويؤمن .

أقول : ولا يرد عليه إطلاق قوله تعالى (إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ) ، لأن له أن يجيب بأن الإضافة للمهد ، أى المدة المعهودة وهى الأربعة الأشهر . والله أعلم .

« وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ » يعنى أن هذا الإمهال ليس لمعجز عنكم ، ولكن لحكمة ولطف بكم . أى فلا تفوتونه . وإن أمهلكم « وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ » أى مُذِلُّهُمْ بالقتل فى الدنيا ، والعذاب فى الآخرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ، فَإِنْ تُبْتِغُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ، وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ ، وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)

«وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ » (الأذان) بمعنى الإيذان ، وهو الإعلام ، كما أن الأمان والمطاء بمعنى الإيمان والإعطاء . وارتفاعه كارتفاع (براءة) وهذه الجملة معطوفة على مثلها ، والفرق بين معنى الجملة الأولى والثانية أن تلك إخبار بثبوت البراءة ، وهذه إخبار بوجوب الإعلام بما ثبت ، وإنما عُلقت البراءة بالذين عاهدوا من المشركين ، وعلق الأذان بالناس ، لأن البراءة مختصة بالمعاهدين والناكثين منهم ، وأما الأذان فعام لجميع الناس ، من عاهد ومن لم يعاهد ، ومن نكث من المعاهدين ومن لم ينكث . كذا فى (الكشاف) .

ويوم الحج الأكبر : قيل يوم عرفة ، وقيل يوم النحر .

قال ابن القيم : وهو الصواب ، لأنه ثبت في الصحيحين^(١) أن أبا بكر وعلياً رضي الله عنهما ، أذاً بذلك يوم النحر ، لا يوم عرفة .

وفي سنن أبي داود^(٢) بأصح إسناد أن رسول الله ﷺ قال : يوم الحج الأكبر يوم النحر ، وكذلك قال أبو هريرة وجماعة من الصحابة .

ويوم عرفة مقدمة ليوم النحر بين يديه ، فإن فيه يكون الوقوف والتضرع والتوبة والابتهاال والاستقالة . ثم يوم النحر تكون الوفادة والزيارة ، ولهذا سمي طوافه طواف الزيارة ، لأنهم قد طهروا هن ذنوبهم يوم عرفة ، ثم أذن لهم يوم النحر في زيارته ، والدخول عليه إلى بيته ، ولهذا كان فيه ذبح القرابين ، وحلق الرؤوس ، ورمى الجمار ، ومعظم أعمال الحج وعمل يوم عرفة ، كالظهور والاعتسال بين يدي هذا اليوم . انتهى .

تنبيه .

روى الأئمة هاهنا آثاراً كثيرة ، نأتى منها على جوامعها :

قال ابن أبي نجيم عن مجاهد : قدم رسول الله ﷺ من (تبوك) حين فرغ ، فأراد الحج ثم قال : إنما يحضر المشركون فيطوفون عراً فلا أحب أن أحج . حتى لا يكون ذلك : فأرسل أبا بكر وعلياً فطافا بالناس في (ذي الحجاز) وبأمكنهم التي كانوا يتبايعون بها ، وبالمواسم كلها ، فأذنوا أصحاب العهد بأن يؤمنوا أربعة أشهر ، فهي الأشهر المتواليات ،

(١) أخرجه البخاري في . ٦٥ - كتاب التفسير ، ٩ - سورة التوبة ، ٢ - باب قوله :

فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ، و ٣ - باب قوله : وَأُذِّنْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ ، حديث رقم ٢٤٥ .

وأخرجه مسلم في : ١٥ - كتاب الحج ، حديث رقم ٤٣٥ (طبعنا) .

(٢) أخرجه أبو داود في : ١١ - كتاب المناسك ، ٦٦ - باب يوم الحج الأكبر ،

حديث رقم ١٩٤٥ و ١٩٤٦ .

عشرون من ذى الحجة ، إلى عشر يخلون من ربيع الآخر ، ثم لا عهد لهم ، وأذن الناس كلهم بالقتال ، إلى أن يؤمنوا .

وروى ^(١) ابن إسحاق بسنده عن أبي جعفر محمد بن علي رضوان الله عليه قال : لما نزلت (براءة) على رسول الله ﷺ ، وقد كان بعث أبا بكر الصديق رضي الله عنه ليقيم للناس الحج ، قيل له : يا رسول الله ! لو بعث بها إلى أبي بكر ؟ فقال : لا يؤذى عني إلا رجل من أهل بيتي . ثم دعا علي بن أبي طالب رضوان الله عليه ، فقال له : اخرج بهذه القصة من صدر براءة ، وأذن في الناس يوم الفجر إذا اجتمعوا بمنى ، أنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان . ومن كان له عند رسول الله ﷺ عهد فهو له إلى مدته . فخرج علي بن أبي طالب على ناقة رسول الله ﷺ (العضباء) حتى أدرك أبا بكر الصديق . فلما رآه أبو بكر بالطريق قال : أمير أو مأمور ؟ فقال : بل مأمور . ثم مضيا ، فأقام أبو بكر للناس الحج ، والعرب إذ ذاك في تلك السنة على منازلهم من الحج التي كانوا عليها في الجاهلية . حتى إذا كان يوم الفجر قام علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فأذن في الناس بالذي أمره به رسول الله ﷺ ، فقال : أيها الناس ! إنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان . ومن كان له عند رسول الله ﷺ عهد فهو له إلى مدته . وأجل الناس أربعة أشهر من يوم أذن فيهم ، ليرجع كل قوم إلى ما منهم وبلادهم ، ثم لا عهد لمشرك ولا ذمة . إلا أحد كان له عند رسول الله ﷺ عهد إلى مدة ، فهو له إلى مدته . فلم يحج بعد ذلك العام مشرك ، ولم يطاف بالبيت عريان . ثم قدما على رسول الله ﷺ .

قال ابن إسحاق ^(٢) : فكان هذا من أمر (براءة) فيمن كان من أهل الشرك من أهل

(١) انظر سيرة ابن هشام ، الصفحة رقم ٩٢١ (طبعة جوتنجن) ورقم ١٩٠ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) . (٢) انظر سيرة ابن هشام ، الصفحة رقم ٩٢٢ (طبعة جوتنجن) ورقم ١٩١ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

العهد العام ، وأهل المدة إلى الأجل المسمى .

وروى البخاري^(١) عن أبي هريرة قال : بعثني أبو بكر رضي الله عنه في تلك الحجة في المؤذنين . بمشهم يوم النحر يؤذنون بمعى : ألا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان .

قال حميد : ثم أردف النبي ﷺ بعلى بن أبي طالب ، فأمره أن يؤذن ببراءة . قال أبو هريرة : فأذن معنًا على في أهل منى يوم النحر ببراءة ، وألا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان .

وفي رواية أخرى للبخاري^(٢) ، قال أبو هريرة : بعثني أبو بكر فيمن يؤذن يوم النحر بمعى : لا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان . ويوم الحج الأكبر يوم النحر . وإنما قيل (الأكبر) من أجل قول الناس - للعمرة - الحج الأصغر . فنبذ أبو بكر إلى الناس في ذلك العام ، فلم يحج عام حجة الوداع الذي حج فيه رسول الله ﷺ مشرك . هذا لفظ البخاري في (كتاب الجهاد) .

وروى الإمام أحمد^(٣) عن أبي هريرة قال : كنت مع على بن أبي طالب حين بعثه رسول الله ﷺ إلى أهل مكة بـ (براءة) فقال : ما كنتم تفادون ؟ قال : كنا ننادى : أنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فإن أجله - أو أمده - إلى أربعة أشهر ، فإذا مضت الأربعة الأشهر ، فإن الله يرى من المشركين ورسوله ، ولا يحج هذا البيت بعد العام مشرك . قال : فكنت أنا نادى حتى تحيل صوتي (تحيل الرجلُ وتحيلُ صوتهُ : يحجُّ) .

(١) أخرجه البخاري في : ٢٥ - كتاب الحج ، ٦٧ - باب لا يطوف بالبيت عريان ولا يحج مشرك ، حديث رقم ٢٤٥ . (٢) أخرجه البخاري في : ٥٨ - كتاب الجزية والموادعة ، ١٦ - باب كيف ينبذ إلى أهل العهد ، حديث رقم ٢٤٥ . (٣) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٢٩٩ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٧٩٦٤ (طبعة المعارف) .

وقوله تعالى « فَإِنْ تَبُتُمْ فَبَرٌّ لَكُمْ » أى فإن تبتم أيها المشركون ، من كفرتم ورجعتم إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له دون الآلهة والأنداد ، فهو خير لكم من الإقامة على الشرك رأس الضلال والفساد « وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ » أى عن الإيمان وأيتم إلا الإقامة على ضلالكم وشرككم « فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ » أى غير فائتين أخذه وعقابه « وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا » أى جحدوا نبوتك وخالفوا أمر ربهم « بِمَذَابٍ أَلِيمٍ » أى موجع يحل بهم . وفيه من التهمك والتهديد ما فيه ، كيلا يظن أن عذاب الدنيا ، لوفات وزال خلصوا من العذاب . بل العذاب الشديد ممدد لهم يوم القيامة .

ثم استثنى تعالى من ضرب مدة التأجيل ، لمن له عهد مطلق بأربعة أشهر ، من له عهد مؤقت بتأجيله إلى مدته المضروبة التى عوهد عليها ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ) « إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا » أى من شروط الميثاق فلم يقتلوا منكم أحدا ولم يضرركم قط . قال أبو السعود : وقرئ بالمعجمة ، أى لم ينقصوا عهدكم شيئا ، من (النقص) ، وكلمة (ثم) الدلالة على ثباتهم على عهدهم مع تمادى المدة « وَلَمْ يُظَاهِرُوا » أى لم يعاونوا « عَلَيْكُمْ أَحَدًا » أى عدوا من أعدائكم « فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ » ثم حرض تعالى على الوفاء بذلك ، منبهاً على أنه من باب التقوى بقوله سبحانه « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ » أى فائقوه فى ذلك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ
وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ، فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا
الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« فَإِذَا انسَلَخَ » أى انقضى « الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ » أى التى أُمِرَ للذين عاهدوا فيها
أن يسيحوا فى الأرض وحرم فيها قتالهم « فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ » أى
من حِلٍّ أو حَرَمٍ - كذا قاله غير واحد - قال ابن كثير : هذا عام ، والمشهور تخصيصه بغير
الحرم ، لتحريم القتال فيه ، لقوله تعالى ^(١) (وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى
يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُواكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ) « وَخُذُوهُمْ » أى انسروهم « وَاحْصُرُوهُمْ »
أى احبسوهم فى المكان الذى هم فيه ، لئلا يتبسطوا فى سائر البلاد « وَاقْعُدُوا لَهُمْ » أى لقتالهم
« كُلَّ مَرْصَدٍ » أى طريق وممر « فَإِنْ تَابُوا » أى عن الكفر « وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا
الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ » أى فتركوا التعرض لهم « إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » أى يغفر لهم
ما سلف من الكفر والفدر .

تنبيهات :

الأول - ما ذكرناه من أن المراد (بالأشهر الحرم) أشهر العهد ، هو الذى اختاره
الأكثر . سماها (حرما) لتحريم قتال المشركين فيها ودمائهم . فالألف واللام للعهد .
ووضع المظهر موضع المضمحل ليكون ذريعة إلى وصفها بالحرمية ، تأكيذا لما ينبىء عنه إباحة
السياحة من حرمة التعرض لهم ، مع ما فيه من مزيد الاعتناء بشأنها . وقيل : المراد
(بالأشهر الحرم) : رجب ، وذو القعدة ، وذو الحجة ، والحرم ؛ روى ذلك عن ابن عباس
(١) [٢ / البقرة / ١٩١] .

والضحاك والباقر ، واختاره ابن جرير . وضمف بأنه لا يساعده النظم الكريم ، لأنه يأباه ترتيبه عليه (بالفاء) فهو يخالف للسياق الذى يقتضى توالى هذه الأشهر .

قال ابن القيم : (الحرم) هاهنا هى أشهر التسيير ، أولها يوم الأذان ، وهو اليوم العاشر من ذى الحجة ، وهو يوم الحج الأكبر ، الذى وقع فيه التأذين بذلك ، وآخرها العاشر من ربيع الآخر . وابست هى الأربعة المذكورة فى قوله ^(١) (إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ) فإن تلك واحد فرد هو رجب ، وثلاثة سرد وهى ذو القعدة وتالياه . ولم يستر المشركون فى هذه الأربعة ، فإن هذا لا يمكن ، لأنها غير متوالية ، وهو إنما أجلبهم أربعة أشهر ، ثم أمره بعد انسلاخها أن يقاتلهم . انتهى .

وقالوا : يلزم على هذا بقاء حرمة تلك الأشهر . وتكلف الجواب بنسخها ، إما بانعقاد الإجماع عليه ، أو بما صح من أنه ﷺ حاصر الطائف لعشر بقين من الحرم ، مع أن فى هذا الإجماع كلاماً ، وقد خالف بعضهم فى بقاء حرمتها ، إلا أنهم لم يعمدوا به كما قاله فى (العناية) . وفيها : إن لك أن تقول : منع القتال فى الأشهر الحرم فى تلك السنة ، لا يقتضى منعه فى كل ما شابهها ، بل هو مسكوت عنه ، فلا يخالف الإجماع ، ويكون حله معلوماً من دليل آخر .

وأقول : يظهر لى ترجيح هذا الثانى وأن المراد بالأربعة الأشهر هى المعروفة ، وأن قوله تعالى : (فَإِذَا أَنْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ) هى هذه الأربعة ، لأنها حينما أطلقت فى التنزيل لا تنصرف إلا إليها ، فصرها إلى غيرها يحتاج إلى برهان قاطع .

قال فى (فتح البيان) ومعنى الآية على هذا وجوب الإمساك عن قتال من لا عهد له من المشركين فى هذه الأشهر الحرم . وقد وقع الفداء والنهذ إلى المشركين بمهدم يوم

النجر ، فكان الباقي من الأشهر الحرم ، التي هي الثلاثة المسرودة ، خمسين يوماً ، تنقضى بانقضاء شهر الحرم ، فأمرهم الله بقتل المشركين حيث يوجدون ، وبه قال جماعة من أهل العلم . انتهى .

ولا يقال : إن الباقي من الأشهر الحرم ثمانون يوماً ، إذ الحج في تلك السنة كان في العاشر من ذي القعدة ، بسبب النسيء ، ثم صار في السنة المقبلة في العاشر من ذي الحجة ، وفيها حج رسول الله ﷺ وقال ^(١) : إن الزمان قد استدار . . . الحديث - لأننا نقول : كان ذو القعدة عامئذ هو ذا الحجة بحسابهم ، لا في الواقع ، وكذلك ذو الحجة ، المحرم ، فعملوا بحسابهم .

الثاني - قال السيوطي في (الإكليل) في قوله تعالى (فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ) : هذه آية السيف الناسخة لآيات العفو والصفح والإعراض والمسالمة . انتهى .

وروى عن الضحاك أنها منسوخة بقوله تعالى في سورة محمد ^(٢) : (فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً) وردّه الحاكم بأنه لا شبهة في أن براءة نزلت بعد سورة محمد ؛ ومقتضى كلام الحاكم أنها لا ناسخة ولا منسوخة . قال : لأن الجمع ، من غير منافاة ، ممكن فحيث ورد في القرآن ذكر الإعراض ، فالمراد به إعراض إنكار ، لا تقرير . وأما الأسر والفداء ، فالمراد به أنه خير بين ذلك ، لا أن القتل حتم ، إذ لو كان حتماً ، لم يكن للأخذ معنى بعد القتل . انتهى .

ويشمل عمومها مشركي العرب وغيرهم ، واستدل بقوله تعالى : (وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ) على جواز حصارهم والإغارة عليهم وبياتهم .

- (١) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٩ - سورة التوبة ، ٨ - باب قوله
إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا ، حديث رقم ٥٩ عن أبي بكر .
(٢) [٤٧ / محمد عليه السلام / ٤] .

الثالث - فهو من قوله تعالى : (فَإِنْ تَابُوا . . .) الآية أن الأمر بتخليئة السبيل معلق على شروط ثلاثة : التوبة ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، فحيث لم تحصل جاز ماتقدم من القتل والأخذ والحصر . ولهذا اعتمد الصديق رضي الله عنه ، في قتال مانعي الزكاة ، على هذه الآية الكريمة وأمثالها .

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يرحم الله أبا بكر ، ما كان أفقهه !
وفي الصحيحين^(١) عن ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال : أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويسيئوا الصلاة ويؤتوا الزكاة :
وروى الإمام أحمد^(٢) عن أنس أن رسول الله ﷺ قال : أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، فإذا شهدوا ، واستقبلوا قبلتنا ، وأكادوا ذبيحتنا ، وصلوا صلاتنا ، فقد حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها ، لهم ما للمسلمين ، وعليهم ما عليهم . ورواه البخاري وغيره .

الرابع - ذكر ابن القيم خلاصة بديعة في سياق ترتيب هديه ﷺ مع الكفار والمنافقين ، من حين بعث ، إلى حين لقي الله عز وجل ، مما يؤيد فهم ما تشير إليه هذه السورة ، قال رحمه الله :

أول ما أوحى إليه ربه تبارك وتعالى أن يقرأ باسم ربه الذي خلق ، وذلك أول نبوته ، فأمره أن يقرأ في نفسه ، ولم يأمره إذ ذاك بتبليغ ، ثم أنزل عليه (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ)^(٣) فنبأه بقوله^(٤) (اقْرَأْ) وأرسله بـ (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ) ثم أمره أن ينذر عشيرته

(١) أخرجه البخاري في : ٢ - كتاب الإيمان ، ١٧ - باب فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ، حديث رقم ٢٤ .

وأخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ٣٦ (طبعنا) .

(٢) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ١٩٩ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) .

(٣) [٧٤ / الدر / ٢٤١] . (٤) [٩٦ / الملق / ١] .

الأقربين ، ثم أنذر قومه ، ثم أنذر من حولهم من العرب ، ثم أنذر العرب قاطبة ، ثم أنذر العالمين ، فأقام بضعة عشرة سنة بعد نبوته ينذر بالدعوة بغير قتال ولا جزية ، ويؤمر بالكف والصبر والصفح ، ثم أذن له في الهجرة ، وأذن له في القتال ثم أمره أن يقاتل من قاتله ، ويكفّ عن من لم يقاتله . ثم أمره بقتال المشركين حتى يكون الدين كله لله . ثم كان الكفار معه بعد الأمر بالجهاد ثلاثة أقسام : أهل صلح وهدنة ، وأهل حرب ، وأهل ذمة . فأمر بأن يتم لأهل العهد والصلح عهدهم ، وأن يوفى لهم به ما استقاموا على العهد ، فإن خاف منهم خيانة نبذ إليهم عهدهم ، ولم يقاتلهم حتى يعلمهم بنقض العهد . وأمر أن يقاتل من نقض عهده . ولما نزلت سورة (براءة) نزلت ببيان حكم هذه الأقسام كلها ، فأمره فيها أن يقاتل عدوه من أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية ، أو يدخلوا في الإسلام . وأمره فيها بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم ، فجاهد الكفار بالسيف والسنان ، والمنافقين بالحجة واللسان ، وأمره فيها بالبراءة من عهود الكفار ، ونبذ عهودهم إليهم ، وجعل أهل العهد في ذلك ثلاثة أقسام :

قسماً أمره بقتالهم ، وهم الذين نقضوا عهده ، ولم يستقيموا له ، فخاربهم وظهر عليهم . وقسماً لهم عهد موقت لم ينقضوه ، ولم يظاهروا عليه ، فأمره أن يتم لهم عهدهم إلى مدتهم .

وقسماً لم يكن لهم عهد ، ولم يحاربوه ، أو كان لهم عهد مطلق ، فأمره أن يؤجلهم أربعة أشهر ، ثم أمره بعد انسلاخها أن يقاتلهم . فقتل المنافق لعده ، وأجل من لا عهد له أوله عهد مطلق ، أربعة أشهر ، وأمره أن يتم للموفى بعده إلى مدته ، فأسلم هؤلاء كلهم ، ولم يقيموا على كفرهم إلى مدتهم . وضرب على أهل الذمة الجزية . فاستقر أمر الكفار معه بعد نزول (براءة) على ثلاثة أقسام : محاربين له ، وأهل عهد ، وأهل ذمة . ثم آلت حال أهل العهد والصلح إلى الإسلام ، فصاروا معه قسمين : محاربين ، وأهل ذمة . والمحاربون له

خائفون منه ، فصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام : مسلم مؤمن به ، ومسلم له آمن ، وخائف محارب .

وأما سيرته في المنافقين فإنه أمر أن يقبل منهم علانيتهم ، ويكِل سرائرهم إلى الله ، وأن يجاهدوا بالعلم والحجة ، وأمر أن يمرض عنهم ، ويغلظ عليهم ، وأن يبلغ بالقول البليغ إلى نفوسهم ، ونهى أن يصلى عليهم وأن يقوم على قبورهم ، وأخبره أنه إن استغفر لهم أولم يستغفر لهم ، فلن يغفر الله لهم . فهذه سيرته في أعدائه من الكفار والمنافقين . انتهى . وقوله تعالى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ)

«وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ» : أى وإن استجارك أحد من المشركين الذين أمرت بقتلهم ، أى استأمنك بعد انقضاء أشهر العهد ، فأجبه إلى طلبته حتى يسمع كلام الله ، أى القرآن الذى تقرأه عليه ، وبقدرك ، ويطلع على حقيقة الأمر ، وتقوم عليه حجة الله به ، فإن أسلم ثبت له ماله للمسلمين ، وإن أبى فإنه يرد إلى مأمنه وداره التى يأمن فيها ، ثم قاتله إن شئت . وقوله تعالى (ذَلِكَ) يعنى الأمر بالإجارة وإبلاغ المأمن ، بسبب أنهم قوم لا يعلمون ، أى جهلة ، فلا بد من إعطائهم الأمان حتى يسمعوا ويفهموا الحق ، ولا يبق لهم معذرة .

تنبيهات :

الأول - دلت الآية على أن المستأمن لا يؤذى ، وأنه يمكن من العود من غير غدر به ولا خيانة . ولذا ورد في الترهيب من عدم الوفاء بالعهد والغدر ما يزجر أشد الزجر .

فروى البخارى في (تاريخه) والنسائى عن النبي ﷺ قال : من آمن رجلاً على دمه فقتله ، فأتانا برىء من القاتل وإن كان المقتول كافراً .

وروى أحمد والشيخان^(١) عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : لكل غادر لواء يعرف به يوم القيامة .

قال ابن كثير : من قدم من دار الحرب إلى دار الإسلام ، في أداء رسالة أو تجارة ، أو طلب صلح أو مهادنة ، أو حمل جزية ، أو نحو ذلك من الأسباب ، وطلب من الإمام أو نائبه أماناً أعطى ، ما دام متردداً في دار الإسلام ، إلى أن يرجع إلى مأمنه ووطنه .

قال الحاكم : وإنما يجاز ويؤمن إذا لم يعلم أنه يطلب الخداع والسكر ، لأنه تعالى علل لزوم الإجارة بقوله (حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ) .

الثاني - قال الحاكم : تدل الآية على أنه يجوز للكافر دخول المسجد لسماع كلام الله .

الثالث - استدلل بهذه الآية من ذهب إلى أن كلام الله بحرف وصوت قديمين ، وهم الحنابلة ، ومن وافقهم كالمضد . قالوا : لأن منطوق الآية يدل على أن كلام الله يسمعه الكافر والمؤمن والزنديق والصديق ، والذي يسمعه جمهور الخلق ليس إلا هذه الحروف والأصوات . فدل ذلك على أن كلام الله ليس هذه الحروف والأصوات . والقول بأن كلام الله شيء مغاير لها باطل . لأن رسول الله ﷺ ما كان يشير بقوله (كلام الله) إلا لها ، وقد اعترف الرازى بقوة هذا ، لإلزام من خالف فيه ، وقد مضى لنا في قوله تعالى^(٢) (وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا) في آخر سورة النساء ، بسط لهذا فارجع إليه .

(١) أخرجه البخارى في : ٥٨ - كتاب الجزية والموادعة ، ٢٢ - باب إثم الغادر للبر

والفاجر ، حديث رقم ١٥٠٤ .

وأخرجه مسلم في : ٣٢ - كتاب الجهاد والسير ، حديث رقم ١٤ (طبعنا) .

(٢) [٤ / النساء / ١٦٤] .

الرابع - قال الرازى : دلت الآية على أن التقليد غير كاف في الدين ، وأنه لابد من النظر والاستدلال ، وذلك لأنه لو كان التقليد كافياً ، لوجب أن لا يعمل هذا الكافر ، بل يقال له : إما أن تؤمن ، وإما أن تقتلك . فلما لم يُقَلَّ له ذلك ، بل أمهل وأزيل الخوف عنه ، ووجب تبليغه مأمنه - علم أن ذلك لأجل عدم كفاية التقليد في الدين ، وأنه لابد من الحجة والدليل ، فلذا أمهل ليحصل له النظر والاستدلال .

ثم بين تعالى حكمته في البراءة من المشركين ونَظَرَتهُ إياهم أربعة أشهر، ثم بعدها السيف المرفف بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ)

« كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ » أى أمان « عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ » أى وهم كافرون بهما ، فالاستفهام بمعنى الإنكار ، والاستبعاد لأن يكون لهم عهد « إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ » يعنى أهل مكة الذين عاهدكم رسول الله ﷺ يوم الحديبية على ترك الحرب معهم عشر سنين « فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ » أى فسادوا مستقيمين على عهدكم ، مراعين لحقوقكم ، فاستقيموا لهم على عهدكم « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ » أى فاتقوه في نقض عهد المستقيمين على عهدكم .

قال ابن كثير : وقد فعل رسول الله ﷺ ذلك والمسلمون ، استمر العقد والهدنة مع أهل مكة من ذى القعدة سنة ست إلى أن نقضت قريش العهد ، ومالوا حلفاءهم ، وهم بنو بكر ، على خزاعة ، أحلاف رسول الله ﷺ ، فقتلهم معهم في الحرم أيضاً . فعند ذلك غزاهم رسول الله ﷺ في رمضان سنة ثمان ، ففتح الله عليه البلد الحرام ، ومكنه من نواصيهم ، ولله الحمد والمنة . فأطلق من أسلم منهم ، بعد القهر والغلبة عليهم ، فسموا المطلقاء ، وكانوا

قريباً من ألفين . ومن استمر على كفره ، وفر من رسول الله ﷺ ، بعث إليه بالآمان والتيسير في أربعة أشهر ، يذهب حيث شاء . ومنهم صفوان بن أمية . وعكرمة بن أبي جهل وغيرهما ، ثم هدام الله الإسلام .
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨] (كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً ، يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَهِهِمْ وَتَأْتِي قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ)

« كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُ عَلَيْكُمْ » أى يظفروا بكم بعد ما سبق لهم من تأكيد الأيمان والمواثيق « لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا » أى قرابة ويميناً « وَلَا ذِمَّةً » أى عهداً . وهذه الجملة مردودة على الآية الأولى ، أى كيف يكون لهم عهد ، وحالهم ما ذكر ؟ وفيه تحريض للمؤمنين على التبرؤ منهم ، لأن من كان أسير الفرصة ، مترقباً لها ، لا يرجى منه دوام العهد . قال الناصر : ولما طال الكلام باستثناء الباقين على العهد ، أعيدت (كيف) تطرية للذكر ، وليأخذ بعض الكلام بحجزة بعض . انتهى .

ثم استأنف تعالى بيان حالهم المنافيه لثباتهم على العهد بقوله « يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَهِهِمْ وَتَأْتِي قُلُوبُهُمْ » أى ما تقفوه به أفواههم « وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ » أى متمردون ، لاعقيدة زعمهم ، ولا مروءة تردعهم . وتخصيص الأكثر ، لما في بعض الكفرة من التفادى عن القدر ، والتعفف عما يجزى إلى أحدوثة السوء .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (اشْتَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« اشْتَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ » أى استبدلوا بها « ثَمَنًا قَلِيلًا » أى من متاع الدنيا . يعنى

أَهْوَيْتَهُمُ الْفَاسِدَةُ « فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ » أَيْ فَعْدَلُوا عَنْهُ أَوْ صَرَفُوا عَنْهُمْ « إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ)
« لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ » أَيْ الْمَجَاوِزُونَ
الغاية في الظلم والمساوىء .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ، وَنُفَصِّلُ
الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

« فَإِنْ تَابُوا » أَيْ عَمَّا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ « وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ
فِي الدِّينِ » أَيْ فَهُمْ إِخْوَانُكُمْ ، لَكُمْ مَا لَكُمْ ، وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَيْكُمْ ، فَعَامِلُوهُمْ مَعَاملة الإِخْوَانِ .
وفيه من استمالهم واستجلاب قلوبهم ما لا مزيد عليه .
وقوله « وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » جملة ممتحنة للبحث على تأمل ما فصل
من أحكام المشركين المعاهدين وعلى المحافظة عليها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] (وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَتِمَّةَ
الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ)

« وَإِنْ نَكَثُوا » أَيْ نَقَضُوا « أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ
فَقَاتِلُوا أَتِمَّةَ الْكُفْرِ » أَيْ فَقَاتِلُوهُمْ . وَإِنَّمَا أُوتِرَ مَا عَلَيْهِ النِّظَمُ الْكَرِيمُ ، الإِذْنَانِ بِأَنَّهُمْ صَارُوا

بذلك ذوى رياسة وتقدم فى الكفر ، أحقاء بالقتل والقتال . وقيل : المراد بالآئمة رؤسائهم وصناديدهم وتخصيصهم بالذكر إما لأهمية قتلهم ، أو للمنع من مرافقتهم ، لسكونهم مظنة لها أو للدلالة على استئصالهم ، فإن قتلهم غالبا يكون بعد قتل من دونهم أفاده أبو السعود . « إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ » جمع يمين أى لا عهود لهم على الحقيقة ، حيث لا يراعونها ولا يمدون نقضها محذورا . فهم ، وإن تفوهوا بها ، لا عبرة بها . وقرئ* (لا إيمان) بكسر الهمزة ، أى لا إسلام ولا تصديق لهم ، حتى يتردعوا عن النقض والطمع « لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ » أى عن الكفر والطمع ويرجعون إلى الإيمان .

تنبيه :

قال السيوطى فى (الإكمال) : استدل بهذه الآية من قال إن الذمى يقتل إذا طعن فى الإسلام أو القرآن أو ذكر النبي ﷺ بسوء ، سواء شرط انتقاض العهد به أم لا . واستدل من قال بقبول توبته بقوله (لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ) . انتهى . ثم حض على قتالهم بتهميج قلوب المؤمنين وإغرائهم بقوله سبحانه .

[١٣] (أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، أَتَخْشَوْنَهُمْ ، فَلَهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) « أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ » أى التى حلفوها فى المأهدة « وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ » يعنى من مكة حين اجتمعوا فى دار الندوة ، حسبما ذكر فى قوله تعالى (١) : (وَإِذْ يُمَكِّرُكَ الَّذِينَ كَفَرُوا) فىكون نعيماً عليهم جنائيتهم القديمة « وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ » أى بالقتال يوم بدر ، حين خرجوا لنصر عيرهم فلما نجت وعلموا بذلك ، استمروا على وجوههم طلبا للقتال ، بغياً ونكراً . وقيل : بنقضهم العهد ، وقتالهم مع حلفائهم

(١) [٨ / الأنفال / ٣٠]

بنى بكر الخراعة ، أحلاف رسول الله ﷺ ، حتى سار إليهم رسول الله ﷺ عام الفتح وكان ما كان . قاله ابن كثير .

وقال الزمخشري : أى وهم الذين كانت منهم البداءة بالمقاتلة ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءهم أولاً بالكتاب المنير ، وتحداهم به ، فمدلوا عن المعارضة ، لعجزهم عنها ، إلى القتال ، فهم البادئون بالقتال ، والبادئ أظلم . فما يمنعمكم من أن تقتلواهم بمثله ، وأن تصدموهم بالشر كما صدموكم « أَتَخْشَوْنَهُمْ » أى أتخافون أن ينالكم منهم مكروه حتى تتركوا قتالهم « قَالَهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ » بمخالفة أمره وترك قتالهم « إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » يعنى أن قضية الإيمان الصحيح أن لا يخشى المؤمن إلا ربه ، ولا يبالي بمن سواه ، كقوله تعالى ^(١) : (وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ) - قاله الزمخشري - وفيه من التشديد ما لا يخفى .

ثم عزم تعالى على المؤمنين الأمر بالقتال مبيناً لحكمته بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ لَكُمْ أَسْرَهُمْ وَيُعْزِزْكُمْ بِقُوَّةٍ يَأْتِيهِم مِّنْ يُغْلَبُونَ وَيُهْزِلْ غَلَبَهُمْ وَيَخَذَلْهُمْ)

« قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ » أى بالآلام الجراحات والموت « بِأَيْدِيكُمْ » أى تغليبكم عليهم « وَيُخْزِيهِمْ » أى بالأسر والاسترقاق ، فيجتمع في حقهم العذاب الحسى والمعنوى « وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ لَكُمْ أَسْرَهُمْ » أى : ممن لم يشهد القتال .

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٣٩] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ، وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) « وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ » أى بما كابدوا من الكاره والمكائد « وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ » أى فيحصل لكم أجرهم « وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » أى فى أفعاله وأوامره . وقد أنجز الله سبحانه لهم هذه المواعيد كلها ، فكان إخباره ﷺ بذلك قبل وقوعه معجزة عظيمة دالة على صدقه وصحة نبوته .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦] (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ، وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) « أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا » أى على ما أنتم عليه، ولا تؤمروا بالجهاد « وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ » أى بطانة يفشون إليهم أسرارهم . والواو فى (ولما) حالية ، و (لا) للنفي مع التوقع ، والمراد من نفي العلم نفي المعلوم بالطريق البرهاني ، إذ لو شتم رائحة الوجود ، لعلم قطعاً . فلما لم يعلم لهم عدمه قطعاً . (ولم يَتَّخِذُوا) عطف على (جاهدوا) داخل فى حيز الصلة . والمعنى : أنكم لا تتركون على ما أنتم عليه، والحال أنه لم يتبين المخلص من المجاهدين منكم من غيرهم ، بل لابد أن تختبروا ، حتى يظهر المخلصون منكم ، وهم الذين جاهدوا فى سبيل الله ، لوجه الله ، ولم يتخذوا وليجة ، أى بطانة من الذين يضادون رسول الله ﷺ ، والمؤمنين رضوان الله عليهم . ودلت (لا) على أن تبين ذلك وإيضاحه متوقع كائن ، وإن الذين لم يخلصوا دينهم لله يميز بينهم وبين المخلصين . وفى الآية اكتماء بأحد القسمين ، حيث لم يمرض للمقصرين ، وذلك لأنه بمنزلة من الاندراج تحت إرادة أكرم الأكرمين ، وهذا كما قال (١) :

وَمَا أَدْرِى إِذَا يَمَّمْتُ أَرْضاً أُرِيدُ الْخَيْرَ أَيُّهُمَا يَلِيْنِ

(١) فائله المُنْتَبِئُ المبدئ ، فى مفضليته السادسة والسبعين .

وقد قال الله تعالى في الآية الأخرى^(١) : (أَلَمْ * أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامِنًا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ) . وقال تعالى^(٢) (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ ...) الآية - قال تعالى^(٣) (مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِمْ ...) الآية - وكلها تفيد أن مشروعية الجهاد اختبار الطيع من غيره .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ ، أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ)

« مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ » أى ما صح لهم وما استقام « أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ » أى التى بنيت على اسمه وحده لا شريك له ، أى يعمرها شيئاً منها ، فهو جمع مضاف فى سياق النفي ، ويدخل فيه المسجد الحرام دخولاً أولياً ، إذ نفى الجمع يدل على النفي عن كل فرد ، فيلزم نفيه عن الفرد الممتن بطريق الكفاية . وقرئ (مسجد الله) بالتوحيد ، تصريحاً بالمقصود ، وهو المسجد الحرام ، أشرف المساجد فى الأرض ، الذى بنى من أول يوم على عبادة الله وحده ، لا شريك له ، وأسسها خليل الرحمن .

قال فى (البصائر) : (يعمر) إما من العمارة التى هى حفظ البناء ، أو من العمرة التى هى الزيارة ، أو من قولهم : عمرت بمكان كذا أى أقمت به . انتهى .

« شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ » أى بحالهم وقالهم ، وهو حال من الضمير فى

(١) [٢٩ / العنكبوت / ١ - ٣] . (٢) [٢ / البقرة / ٢١٤] و [٣ / آل عمران / ١٤٢] .

(٣) [٣ / آل عمران / ١٧٩] .

(يَعْمُرُوا) « أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ » وهذا كقوله تعالى (١) :
(وَمَا أَمَهُمْ إِلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ،
إِنْ أَوْلِيَائِهِ إِلَّا الْمُتَّقُونَ) ولهذا قال تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨] (إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ ءَامِنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ
وَأَتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُتَّحِدِينَ)

« إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ ءَامِنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَأَتَى الزَّكَاةَ
وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ » أى لم يعبد إلا الله « فَعَسَىٰ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُتَّحِدِينَ »
أى إلى الجنة . وإبراز اهتدائهم مع ما بهم من الصفات السنية ، فى معرض التوقع ، لقطع
أطماع الكفرة عن الوصول إلى مواقف الاهتداء ، والانتفاع بأعمالهم التى يحسبون أنهم فى
ذلك محسنون ، ولتوبيخهم بقطعهم أنهم مهتدون . فإن المؤمنين ، ما بهم من هذه الكمالات ،
إذا كان أمرهم دائراً بين (لعل وعسى) ، فما بال الكفرة وهم هم ، وأعمالهم أعمالهم ! وفيه لطف
للمؤمنين ، وترغيب لهم فى ترجيح جانب الخوف على جانب الرجاء ، ورفض الاعتراض بالله
تعالى - كذا حرره أبو السعود - .

وقال الناصر : وأكثرهم يقول : إن (عسى) من الله واجبة ، بناء منهم على أن
استعملها غير مصروفة للمخاطبين . والحق أن الخطاب مصروف إليهم ، كما قال الزمخشري .
أى فحال هؤلاء المؤمنين حال مرجوة ، والمعاينة عند الله معلومة ، والله عاقبة الأمور .

تنبيهات :

الأول - قال الزخشرى : (العماره) تتناول رمّ ما استرمّ منها وقمّها وتزطيفها وتنويرها بالمصابيح وتعظيمها واعتقادها للعبادة والذكّر . ومن الذكّر درس العلم ، بل هو أجلّه وأعظمه . وصيانتها مما لم تبّن له المساجد من أحاديث الدنيا ، فضلاً عن فضول الحديث .

روى البخارى^(١) ومسلم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : من غدا إلى المسجد أو راح ، أعدّ الله له في الجنة نزلاً كلما غدا أو راح .

وروي^(٢) أيضاً عن عثمان بن عفان قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : من بنى لله مسجداً يبتغى به وجه الله تعالى ، بنى الله له بيتاً في الجنة .

وأخرج الترمذى^(٣) عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال : إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد ، فاشهدوا له بالإيمان ، قال الله تعالى (إِنَّمَا يَتَمَرُّ مَسَاجِدَ اللَّهِ ...) الآية .

الثانى - إنما لم يذكر الإيمان بالرسول ﷺ لدخوله في الإيمان بالله . فترك للمبالغة في ذكر الإيمان بالرسالة ، دلالة على أنهما كشىء واحد . إذا ذكر أحدهما فهم الآخر . على أنه أشير بذكر المبدأ والمعاد إلى الإيمان بكل ما يجب الإيمان به ، ومن جملته رسالة ﷺ كما في قوله تعالى^(٤) (آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ) . كذا في (المعناية) .

(١) أخرجه البخارى في : ١٠ - كتاب الأذان ، ٣٧ - باب فضل من غدا إلى المسجد ومن راح ، حديث ٤١٧ .

أخرجه مسلم في : ٥ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث رقم ٢٨٥ (طبعنا) .

(٢) أخرجه البخارى في : ٨ - كتاب الصلاة ، ٦٥ - باب من بنى مسجداً ، حديث ٢٩٧ .

وأخرجه مسلم في : ٥ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث رقم ٢٥٣ و ٢٥٤ (طبعنا) .

(٣) أخرجه الترمذى في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٩ - سورة التوبة ، ٨ - حديث أبو كريب .

(٤) [٢ / البقرة / ٨] .

الثالث - في تخصيص الصلاة والزكاة بالذكر ، تفخيم ل شأنهما وحث على التنبه لهما .

الرابع - دلت الآيتان على أن عمل الكفار محبط لا ثواب فيه .

وقوله تعالى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] (أَجْمَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ

الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

« أَجْمَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ

وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » روى العوفي

في (تفسيره) عن ابن عباس أن المشركين قالوا : عمارة بيت الله ، وقيام على السقاية ، خير

من آمن وجاهد . وكانوا يفخرون بالحرم ، ويستكبرون به ، من أجل أنهم أهل وعماره .

نخير الله الإيمان والجهاد مع رسوله ، على عمارة المشركين البيت ، وقيامهم على السقاية ،

وبين أن ذلك لا ينفعهم مع الشرك ، وأنهم ظالمون بشركهم ، لا تغني عمارتهم شيئاً .

قال اللغويون : (السقاية) بالكسر والضم موضع السقى . وفي (التهذيب) : هو الموضع

المتخذ فيه الشراب في المواسم وغيرها . انتهى .

وفي (التاج) : سقاية الحاج ما كانت قريش تسقيه للحجاج من الزيب المنبوذ في الماء ،

وكان يلها العباس رضي الله عنه في الجاهلية والإسلام . انتهى .

وروى الإمام مسلم^(١) عن النعمان بن بشير قال : كنت عند منبر النبي ﷺ فقال رجل :

ما أبالي ألا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أعمر المسجد الحرام ؛ وقال الآخر : الجهاد في

سبيل الله أفضل مما قلتم ؛ فزجرهم عمر وقال : لا ترفعوا أصواتكم عند منبر النبي ﷺ وهو

(١) أخرجه مسلم في : ٣٣ - كتاب الإمارة ، حديث رقم ١١١ (طبعنا) .

يوم الجمعة . ولكن إذا صليتُ الجمعة دخلت فاستغفرتيه فيما اختلفتم فيه . فأنزل الله عز وجل
(أَجْمَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ ...) الآية .

ورواه عبد الرزاق في (مصنفه) ولفظه : إن رجلاً قال : ما أبالي ألا أعمل عملاً بعد
الإسلام إلا أن أسقى الحاج . وقال آخر : ما أبالي ألا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أعمار
المسجد الحرام ... الحديث .

قال بعضهم : فظاهر هذه الرواية أن المفاضلة كانت بين بعض المسلمين المؤثرين للسقاية
والعمارة على الهجرة والجهاد ونظائرهما ، ونزت الآية في ذلك ، مع أن الرواية السالفة عن
ابن عباس تنافيها . وكذا تخصيص ذكر الإيمان بجانب المشبه به ، وكذا وصفهم بالظلم
لأجل تسويتهم المذكورة .

وأقول : لا منافاة . وظاهر النظم الكريم فيما قاله ابن عباس لا يرتاب فيه ، وقول النعمان
(فأنزل الله) بمعنى أن مثل هذا التحاور نزل فيه فيحصل متقدماً ، وهو هذه الآية ، لا بمعنى
أنه كان سبباً لنزولها كما يبناه غير ما مرة . وهذا الاستعمال شائع بين السلف ، ومن لم يتفطن
له تتناقض عنده الروايات ، ويحار في الحرج ، فافهم ذلك وتفطن له .

وتأييد أبي السعود نزولها في المسلمين بما أطال فيه ، ذهول عن سباق الآية وعن سياقها ،
فيما صدعت فيه من شديد التهويل ، وعن لاحقها في درجات التفضيل ، وقصر الفوز والرحمة
والرضوان على المشبه به .

لطيفة :

لا يخفى أن السقاية والعمارة مصدران لا يتصور تشبيههما بالأعيان ، فلا بد من تقدير
مضاف في أحد الجانبين . أي أجملتم أهلها كمن آمن بالله ... الخ ويؤيده قراءة من قرأ
سقااة الحاج وعمرة المسجد الحرام (أو : أجملتموها كإيمان من آمن ... الخ .

قال أبو البقاء : الجمهور على (سقاية) بالياء ، وصحت الياء لما كانت بعدها تاء التأنيث .
ثم بين تعالى مراتب فضل المؤمنين ، إثر بيان عدم الاستواء وضلال المشركين وظلمهم ،
بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ ، وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ)

« الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ » أى من أهل السقاية والعمارة ، وهم ، وإن لم يكن لهم درجة عند الله ، جاء على زعمهم ومدعاهم . قاله في (العناية) . « وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ » أى لائتم . أى المختصون بالفوز دونكم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] (يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ)

« يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ، إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ)

« خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ » .

ثم نهاهم تعالى عن موالاة المشركين ، وإن كانوا أقرب الأقربين ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءِآبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا

الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَاُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءِآبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ » أى بطانة وأصدقاء ، تفشون إليهم أسراركم ، وتدعونهم وتذبون عنهم « إِنِ اسْتَحَبُّوا » أى اختاروا « الْكُفْرَ »

عَلَى الْإِيمَانِ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ » أى نوصفهم الموالاة في غير موضعها ، ولتعدّهم وتجاوزهم عما أمر الله به .

ثم أشار تعالى إلى أن مقتضى الإيمان ترك الميل الطبيعيّ إذا كان مانعاً من محبة الله ، ومحبة واسطة الوصول إليه ، ومحبة ما يعلى دينه بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

« قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ » أى أقاربكم الأذنون ، أو قبيلتكم . قال أهل اللغة : عشيرة الرجل بنو أبيه الأذنون ، أو قبيلته ، كالعشير - بلاهاء - مأخوذة من (العشرة) أى المعاشرة ، لأنها من شأنهم ، أو من (العشرة) الذى هو العدد لأكملهم ، لأنها عدد كامل « وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا » أى اكتسبتموها « وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا » أى فوات وقت نفادها بفرافكم لها « وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا » أى منازل تعجبكم الإقامة فيها من الدور والبساتين « أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ » أى المنعم بالكل « وَرَسُولِهِ » وهو واسطة نعمه « وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ » أى مما يعلى دينه « فَتَرَبَّصُوا » أى انتظروا « حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ » أى بقضائه ، وهو عذاب عاجل ، أو عقاب آجل ، أو فتح مكة . وهذا أمر تهديد وتخويف . أى فارتقبوا قهر الله بدعوى محبته بالإيمان ، وتكذيبها بترجيح محبة غيره « وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ » أى الخارجين عن الطاعة في موالاة المشركين والمؤثرين لما ذكر على رضا تعالى .

تنبيهات :

الأول - قال بعضهم : ثمرة الآيتين تحريم موالاة الكفار ، ولو كانوا أقباء ، وأنها كبيرة لوصف متواليهم بالظلم ، ووجوب الجهاد ، وإيثاره على كل هذه المشتبهات المعدودة طاعة لله ورسوله .

الثاني - قال الرازي : الآية الثانية تدل على أنه إذا وقع التعارض بين مصلحة واحدة من مصالح الدين ، وبين جميع مهمات الدنيا . وجب على المسلم ترجيح الدين على الدنيا .
الثالث - في هذه الآية وعيد وتشديد ، لأن كل أحد قلما يخلص منها ، فلذا قيل إنها أشد آية نمت على الناس كما فصله في (الكشاف) بقوله :

وهذه آية شديدة لا ترى أشد منها . كأنها تسمى على الناس ما هم عليه من رخاوة عقد الدين ، واضطراب جبل اليقين . فلينصف أورعُ الناس وأتقاهم من نفسه ، هل يجد عنده من التصلب في ذات الله ، والثبات على دين الله ، ما يستحب له دينه على الآباء والأبناء والأخوات والعشائر والمال والمساكن وجميع حظوظ الدنيا ، ويتجرد منها لأجله ؟ أم يزوى الله عنه أحقر شيء منها لمصلحته فلا يدرى أى طرفيه أطول ؟ ويغويه الشيطان عن أجلّ حظ من حظوظ الدين ، فلا يبالي كأنما وقع على أنفه ذباب فطيره ؟
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَصَافَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَاءٍ رَحِيْبٍ ثُمَّ لَيِّنَتْكُمْ مَدَبِرِينَ)

« لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ » أى في مواقف حروب كثيرة ، ووقعات شهيرة ، كغزوة بدر وقريظة والنضير والحديبية وخيبر وفتح مكة . وكانت غزوات رسول الله ﷺ

— على ما ذكر في الصحيحين^(١) — من حديث زيد بن أرقم ، تسع عشرة غزوة . زاد بريدة في حديثه : قاتل في ثمان منهن ويقال : إن جميع غزواته وسراياه وبعوثه سبعون ، وقيل ثمانون . « وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ » أى فاعتمدتم عليها ، حيث قلتم : لن نغلب اليوم من قلة « قَلِمَ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا » أى من أمر العدو ، مع قلتهم « وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ » أى برحبها وسمتها . والباء للملابسة والمصاحبة . أى ضاقت ، مع سمها ، عليكم . وهو استعمارة تبعية ، إما لعدم وجدان مكان يقرّون به آمنين مطمئنين من شدة الرعب ، أو أنهم لا يجلسون فى مكان ، كما لا يجلس فى المكان الضيق « ثُمَّ وَلَّيْتُمُ مُدَبِّرِينَ » أى منهزمين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ)

« ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ » أى ما تسكنون به ، وتثبتون من رحمته ونصره ، وانهمزام الكفار ، واطمئنان قلوبهم للسكر بعد الفرة « عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ » أى الذين انهزموا . وإعادة الجار للتنبية على اختلاف حالهما . أو الذين ثبتوا مع رسول الله ﷺ ولم يفروا : أو على الكل ، وهو الأنسب . ولاضير فى تحقق أصل السكينة فى الثابتين من قبل ، والتعرض لوصف الإيمان للإشعار بملية الإنزال . أفاده أبو السعود . « وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا » يعنى الملائكة « وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا » أى بالقتل والأسر والسبي « وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ » لكفرهم فى الدنيا .

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٤ — كتاب المغازى ، ١ — باب غزوة العشيرة أو العسيرة

حديث رقم ١٨٣٩ .

ومسلم فى : ٣٢ — كتاب الجهاد والسير ، حديث رقم ١٤٣ (طبعنا) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ » أى منهم ، لحكمة تقتضيه . أى يوفقه للإسلام « وَاللَّهُ غَفُورٌ » أى يتجاوز عما سلف منهم من الكفر والمعاصي « رَحِيمٌ » أى يفضل عليهم ويثيبهم .

تنبيهات :

الأول - فيما نقل في غزوة^(١) (حنين) ، وتسمى غزوة (أوطاس) ، وهما موضعان بين مكة والطائف ، فسميت الغزوة باسم مكانها ، وتسمى غزوة (هوازن) ، لأنهم الذين أتوا لقتال رسول الله ﷺ وكانت هذه الوقعة بعد فتح مكة ، في شوال سنة ثمان من الهجرة ، فإن الفتح كان لعشر بقين من رمضان ، وبعده أقام رسول الله ﷺ بمكة خمس عشرة ليلة ، وهو يقصر الصلاة ، فبلغه أن هوازن وثقيف جمعوا له ، وهم عائدون إلى مكة ، وقد نزلوا (حنيناً) . وكانوا ، حين سمعوا بمخرج رسول الله ﷺ بالمدينة ، يظنون أنه إنما يريدهم . فاجتمعت هوازن إلى مالك بن عوف من بنى نصر ، وقد أوعب معه بنى نصر بن معاوية ابن بكر بن هوازن وبنى جُشم بن معاوية وبنى سعد بن بكر ، وناساً من بنى هلال بن عامر ابن صعصعة بن معاوية والأحلاف وبنى مالك بن ثقيف بن بكر . وفي جشم دريد بن الصمة رئيسهم وكبيرهم . شيخ كبير ، ليس فيه إلا رأيه ومعرفته بالحرب ، وكان شجاعاً مجرباً ، وجميع أمر الناس إلى مالك بن عوف . فلما أتاهم أن رسول الله ﷺ فتح مكة ، أقبلوا عامدين إليه ، فأجمع السير إلى رسول الله ﷺ ، وساق مع الناس أموالهم ونساءهم وأبنائهم ، يرى أنه أثبت لموقفهم . فلما نزل بأوطاس ، اجتمع إليه الناس ، فقال دريد :

(١) انظر سيرة ابن هشام ، الصفحة رقم ٨٤٠ وما بعدها (طبعة جوتنجن) والصفحة رقم ٨٠ وما بعدها من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

بأى وادٍ أنتم ؟ قالوا : بأوطاس . قال : نعمَ بحال الخيل ، لا حَزَنٌ خِرسٌ ، ولا سهلٌ دَهْسٌ . مالى أسمع رغاء البعير ، ونهْاقَ الحَير ، ويُعَارُ الشاء وبكاء الصغير ؟ قالوا : ساق مالك مع الناس نساءهم وأموالهم وأبناءهم ليقاتلوا عنها ، فقال : راعى ضأن والله أوهل يرد المنهزم شيء ؟ إنها إن كانت لك لم ينفكك إلا رجل بسلاحه . وإن كانت عليك فُصِحتَ في أهلك ومالك ! ثم قال : ما فعلت كعب وكلاب ؟ قالوا : لم يشهدا أحدهُ منهم . قال : غاب الحد والجدة ، أو كان يوم علاء ورفعة لم ينب عنهم كعب ولا كلاب ، ولوددت أنكم فعلتم ما فعلنا . فمن شهدا منكم ؟ قالوا : عمرو وعوف ابنا عامر . قال : ذاك الجدعان ، لا ينفغان ولا يضران ! ثم أنكر على مالك رايه في ذلك وقال له : لم تصنع بتقديم بيضة هوازن إلى نحور الخيل شيئاً ، أرفعهم إلى ممتنع بلادهم ، وعليها قومهم ، ثم ألق الصبيان على متون الخيل شيئاً ، فإن كانت لك ، لحق بك من ورائك ، وإن كانت لغيرك ، كنت قد أحرزت أهلك ومالك . قال : لا ، والله لا أفعل ذلك ، إنك قد كبرت ، وكبر عقلك . والله لتطيعننى يا معشر هوازن ، أو لاتكنن على هذا السيف حتى يخرج من ظهري ! وكره أن يكون لدريد ابن الصمة فيها ذكر أو رأى . قالوا أطعناك . فقال دريد : هذا يوم لم أشهده ، ولم يفتنى . ثم قال مالك للناس : إذا رأيتموهم فأكسروا جفون سيموفكم ، ثم شدوا شدة رجل واحد . وبعت عيوناً من رجاله فأتوه ، وقد تفرقت أوصالهم ، فقال : ويلكم ! ما شأنكم ؟ قالوا : رأينا رجالاً بيضاً ، على خيل بُلق : والله ما تماسكنا أن أصابنا ما ترى . فوالله ما رده ذلك عن وجهه أن مضى على ما يريد .

فلما سمع بهم نبي الله ﷺ ، بعث عبد الله بن أبي حذرد الأسلمى يستعلم خبرهم ، فجاءه وأطلعه على جليلة الخبر ، وأنهم قاصدون إليه ، فاستعمار رسول الله ﷺ من صفوان بن أمية مائة درع - وقيل أربع مائة - وخرج في اثني عشر ألفاً من المسلمين : عشرة آلاف الذين يحبوه من المدينة ، وألفان من مسلمة الفتح ، واستعمل على مكة عتاب بن أسيد بن أبي العيص بن أمية ، ومضى لوجهه ، وفي جملة من اتبعه عباس بن مرداس والضحاك بن سفيان

الكلابيّ ، وجموع من عبس وذبيان ، ومزينة ، وبنى أسد . ومرت في طريقه بشجرة سدر خضراء ، وكان لهم في الجاهلية مثلها ، يطوف بها الأعراب ويعظمونها ، ويسمونها ذات أنواط . فقالوا : ^(١) يا رسول الله ! اجعل لنا ذات أنواط ، كما لهم ذات أنواط ، فقال لهم : قلتم كما قال قوم موسى ^(٢) (اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ) والذي نفسى بيده ! لتركبن سنن من كان قبلكم . ثم نهض حتى أتى وادى حنين من أودية تهامة ، وهو واد حزن فتوسطوه في غبش الصبح ، وقد كمنت هوازن في جانبه ، فحملوا على المسلمين حملة رجل واحد فولى المسلمون لا يولوى أحد على أحد ، وناداهم ﷺ فلم يرجعوا ، وثبت معه أبو بكر وعمر وعلى والعباس وأبو سفيان بن الحرث وابنه جعفر ، والفضل وقتب ابن العباس ، وجماعة سوام ، والنبي ﷺ على بغلته البيضاء (دليل) والعباس أخذ بشكائهم ، وكان جهير الصوت ، فأمره رسول الله ﷺ أن ينادى بالأنصار وأصحاب الشجرة ، (قيل : وبالمهاجرين) فلما سمعوا الصوت وذهبوا يرجعوا ، صدم ازدحام الناس عن أن يثنوا وراجلهم ، فاستقاموا وتناولوا سيوفهم وتراسهم ، وافتحهم عن الرواحل راجعين إلى النبي ﷺ ، وقد اجتمع منهم حواليه نحو المائة ، فاستقبلوا هوازن ، والناس متلاحقون ، واشتدت الحرب ، وحى الوطيس . ولما غَشَوْا رسول الله ﷺ نزل عن بغلته ، ثم قبض قبضة من تراب الأرض ، ثم استقبل به وجوههم وقال : شامت الوجوه ! فابقى إنسان منهم إلا أصابه منها في عينيه وفه ، ثم صدق المسلمون الجملة عليهم ، وقذف الله في قلوب هوازن الرعب . فلم يملكوا أنفسهم ، فولوا منهزمين ، ولحق آخر الناس ، وأسرى هوازن مغولة بين يديه ، وغنم المسلمون عيالهم وأموالهم ، واستحرقوا القتل في بنى مالك من ثقيف ، فقتل منهم يومئذ سبعون رجلاً ، وانحازت طوائف هوازن إلى أوطاس ، واتبعهم طائفة من خيل

(١) أخرجه الترمذى في : ٣١ - كتاب الفتن ، ١٨ - ما جاء : لتركبن سنن من كان

قبلكم ، عن أبي واقد الليثي . (٢) [٧ / الأعراف / ١٣٨] .

المسلمين الذين توجهوا من (نخلة) ، فأدركوا فيهم دريد بن الصمة فقتلوه. وبعث ﷺ إلى من اجتمع بأوطاس من هوازن ، أبا عامر الأشعريّ عمّ أبي موسى ، فقاتلهم ، وقتل بسهم رماه به سلمة بن دريد بن الصمة ، فأخذ أبو موسى الراية ، وشدّ على قاتل عمه ، فقتله ، وأهزم المشركون ، وانقضّت جموع أهل هوازن كلها ، واستشهد من المسلمين يومئذ أربعة . ثم جُمِعَت إلى رسول الله ﷺ سبايا حنين وأموالها ، فأمر بها ، فحبست (بالجرانة) بنظر مسمود بن عمرو الغفاريّ . وسار ﷺ من فوره إلى الطائف ، فحاصرها (تقيف) خمس عشرة ليلة ، وقاتلوا من وراء الحصون ، وأسلم من كان حولهم من الناس ، وجاءت وفودهم إليه . ثم انصرف صلى الله عليه وسلم عن الطائف ، ونزل الجرانة فيمن معه من الناس وأتاه هناك وفد هوازن ، مسلمين راغبين ، فخيرهم بين العيال والأبناء والأموال ، فاختاروا العيال والأبناء ، وكلّموا المسلمين في ذلك بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال ﷺ : ما كان لي ولبنى عبد المطلب فهو لكم . وقال المهاجرون والأنصار : ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ ومن لم تطب نفسه عوّضه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نصيبه ، ورد عليهم نساءهم وأبناءهم بأجمعهم . وكان عدد سبي هوازن ستة آلاف بين ذكر وأنثى ، والإبل أربعة وعشرون ألفاً ، والغنم أكثر من أربعين ألف شاة ، وأربعة آلاف أوقية فضة ، وقسم صلى الله عليه وسلم الأموال بين المسلمين ، وتقل كثيرا من الطلقاء (وهم الذين منّ عليهم النبي صلى الله عليه وسلم بالإطلاق يوم فتح مكة من الأمر ونحوه) يتألفهم على الإسلام ، مائة مائة من الإبل ، ومنهم مالك بن عوف النصريّ . فقال حين أسلم^(١) :

| | |
|-----------------------------|---------------------------|
| ما إن رأيتُ ولا سمعتُ بمثله | في الناس كلهم بمثل محمد |
| أوفى وأعطى للجزيل إذا اجتدي | ومتى يشأ يخبرك عما في غدٍ |
| وإذا السكتية عرّدت أنيابها | بالسمهريّ وضرب كل مهفدٍ |
| فكانه ليث على أشباله | وسط الهباءة خادر في مرصدٍ |

(١) السيرة ص ٨٧٩ (طبعة جوتنجن) وج ٤ ص ١٣٤ (طبعة الحلبي).

الثاني - قال الإمام ابن القيم في (زاد المعاد) في فصل جود فيه :

الإشارة إلى بعض ما تضمنته هذه الفزوة من المسائل الفقهية والنسك الحكيمة

ما نصه :

كان الله عز وجل قد وعد رسوله ، وهو صادق الوعد ، أنه إذا فتح مكة ، دخل الناس في دينه أفواجا ، ودانت له العرب بأسرها ، فلما تم له الفتح المبين ، اقتضت حكمته تعالى أن أمسك قلوب هوازن ومن تبعها عن الإسلام ، وأن يجمموا ويقابلوا لحرب رسول الله ﷺ والمسلمين ، ليظهر أمر الله ، وتعام إعزازه لرسوله ، ونصره لدينه ، ولتكون غنائمهم شكرا نأ لأهل الفتح ، وليظهر الله سبحانه لرسوله وعباده ، قهره لهذه الشوكة العظيمة ، التي لم يلق المسلمون مثلها ، فلا يقاومهم بعدُ أحدٌ من العرب ، وغير ذلك من الحكم الباهرة التي تلوح للمتأملين ، وتبدو للمتوسمين . فاقتضت حكمته سبحانه أن أذاق المسلمين أولاً مرارة الهزيمة والكسرة ، مع كثرة عددهم وعددهم ، وقوة شوكتهم ، ليطامن رؤوساً رفعت بالفتح ، ولم تدخل بلده وحرمة ، كما دخله رسول الله ﷺ ، واضعاً رأسه ، منحنياً على فرسه ؛ حتى إن ذقنه تكاد أن تمس سرجه ، تواضعاً لربه ، وخضوعاً لمظلمته ، واستكانة لعزته أن أحل له حرمة وبلده ، ولم يحل لأحد قبله ، ولا لأحد بعده ، وليبين الله لمن قال : (لن نغلب اليوم عن قلة) ، أن النصر إنما هو من عنده ، وأنه من ينصره فلا غاب له ، ومن يخذله فلا ناصر له غيره ، وأنه سبحانه هو الذي تولى نصر رسوله ودينه ، لا كثرتكم التي أعجبتكم ، فإنها لم تغن عنكم شيئاً ، فوليتهم مدبرين . فلما انكسرت قلوبهم أرسلت إليها خلع الجبر مع برز النصر^(١) (ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا) وقد اقتضت حكمته أن خلع النصر وجوائزه إنما تفيض على أهل الانكسار^(٢) . (وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُكَسِّنَ

(١) [٩ / التوبة / ٢٦] . (٢) [٢٨ / القصص / ٦٥] .

لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ . ومنها أن الله سبحانه لما منع الجيش غنائم أهل مكة ، فلم يغنموا منها ذهباً ولا فضة ولا متاعاً ولا سبيّاً ولا أرضاً ، كما روى أبو داود^(١) عن وهب بن منبه قال : سألت جابرّاً : هل غنموا يوم الفتح شيئاً ؟ قال : لا !

وكانوا قد فتحوها بإيجاف الخيل والركب ، وهم عشرة آلاف ، وفيهم حاجة إلى ما يحتاج إليه الجيش من أصحاب القوة ، فحرك سبحانه قلوب المشركين لغزوهم ، وقذف في قلوبهم إخراج أموالهم ونعمهم وشياهم ، وسبيهم معهم نزلاً وضيافة ، وكرامة لحزبه وجنده ، وتم تقديره سبحانه بأن أطمعهم في الظفر ، والاح لهم مبادئ النصر ، ليقضى الله أمراً كان مفعولاً .

فلما أنزل الله نصره على رسوله وأوليائه ، وبرزت الغنائم لأهلها ، وجرت فيها سهام الله ورسوله ، قيل : لا حاجة لنا في دمائكم ، ولا في نسائكم وذرائتكم . فأوحى الله سبحانه إلى قلوبهم التوبة والإنابة ، فجاءوا مسلمين ، فقيل : إن من شكران إسلامكم ، وإتيانكم ، أن ردّ عليكم نساءكم وأبناءكم وسبيكم^(٢) (إِنْ يَعلَمِ اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِيَكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

ومنها : أن الله سبحانه افتتح غزوات العرب بغزوة بدر ، وختم غزوه بغزوة حنين ، ولهذا ، يقرن بين هاتين الغزاتين بالذكر ، فيقال : بدر وحنين ، وإن كان بينهما سبع سنين ، والملائكة قاتلت بأنفسها مع المسلمين في هاتين الغزاتين ، والنبى ﷺ رمى في وجوه المشركين بالحصباء فيهما ، وهاتين الغزاتين طفئت جرة العرب لغزو رسول الله ﷺ والمسلمين ، فالأولى خوفهم وكسرت من حدتهم ، والثانية استغفرت قواهم ، واستغفدت سهامهم ، وأذات جميعهم ، حتى لم يجدوا بدا من الدخول في دين الله .

(١) أخرجه أبو داود في : ١٩ - كتاب الخراج والإمارة والنفى ، ٢٥ - باب ما جاء في خبر مكة ، حديث ٣٠٢٣ . (٢) [٨ / الأتفال / ٧٠] .

ومنها : أن الله سبحانه جبر بها أهل مكة ، وفرحهم بما نالوه من النصر والمغنم ، وكانت كالدواء لما نالهم من كسرهم ، وإن كان عين جبرهم ، وعرفهم تمام نعمه عليهم ، بما صرف عنهم من شر هوازن ، فإنه لم يكن لهم بهم طاقة ، وإنما نصرُوا عليهم بالمسلمين ، ولو أفردوا عنهم لأكلهم عدوهم . إلى غير ذلك من الحسكس التي لا يحيط بها إلا الله تعالى . انتهى .

الثالث - قال بعضهم : دلت الآية على أنه يجب الانقطاع إلى الله تعالى ، والاتكال عليه . ودل ما حكى في القصة على جواز ماورد حسنه من جواز التأليف ، وملاطفة المؤمنين والرمى بالحصا حالة الحرب ، والأصوات التي يهرب بها . انتهى .

ولابن القيم في (زاد المعاد) فصول حسنة في فقه هذه الرقعة . فليُنظر .

الرابع - قرله : (ويوم حنين) ، قيل : منصوب بمضمر معطوف على (نصركم) أى ونصركم يوم حنين . واستظهر عطفه على محل (فى مواطن) بحذف المضاف فى أحدهما ، أى ومواطن يوم حنين . أو فى أيام مواطن كثيرة ويوم حنين .

قال أبو مسعود : ولعل التغير للإيحاء إلى ما وقع فيه من قلة الثبات من أول الأمر . انتهى .

قال الشهاب . فيكون عطف (يوم حنين) على منوال (ملائكتك وجبريل) كأنه قيل : نصركم الله فى أوقات كثيرة ، وفى وقت إعجابكم بكثرتكم . ولا يرد عليه ما قيل إن المقام لا يساعد عليه ، لأنه غير وارد ، لتفضيل بعض الوقائع على بعض . ولم يذكر المواطن توطئة ليوم حنين كالملائكة ، إذ ليس يوم حنين بأفضل من يوم بدر ، وهو فتح الفتوح ، وسيد الوقعات ، وبه نالوا القدرح المعلى ، والدرجات المعلى ، لأن القصد فى مثله إلى أن ذلك الفرد فيه من المزية ما صيرّه مغايراً لجنسه . لأن المزية ليس المراد بها الشرف ، وكثرة الثواب فقط ، حتى يتوهم هذا . بل ما يشمل كون شأنه عجبياً ، وما وقع فيه غريباً ، للظفر بعد اليأس ، والفرج بعد الشدة ، إلى غير ذلك من المزايا . انتهى .

ثم أشار تعالى إلى أن موالاته المشركين ، مع عدم إفاذتها التقوية المحصلة للنصر ، تضر
بسرطان نجاسة بواطنهم إلى بواطن المؤمنين الطاهرة ، فقال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ
بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ، وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ
شَاءَ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا » أى الطاهرة بواطنهم بالإيمان « إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ » أى
ذوو نجس ، لأن معهم الشرك الذى هو بمنزلة النجس ، فهو مجاز عن خبث الباطن ، وفساد
العقيدة ، مستعار لذلك . أو هو حقيقة ، لأنهم لا يتطهرون ولا يغتسلون ، ولا يجتنبون
النجاسات ، فهى ملائسة لهم ، أو جعلوا كأنهم النجاسة بعينها ، مبالغة فى وصفهم بها .
« فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ » أى لحج أو عمرة كما كانوا يفعلون فى الجاهلية .
قال المهايمى : لأن المسجد الحرام يجتمع فيه المتفرقون فى الأرض ، ليسرى صفاء القلوب من
بعض إلى بعض ، وهاهنا يخاف سرعان الظلمات فى العموم « بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا » أى بعد
حج عامهم هذا ، وهو عام تسع من الهجرة ، حين أمر أبو بكر على الموسم . وتقدم لنا أن
النبي ﷺ أنبع أبا بكر بملى رضى الله عنهما ، ليفادى فى المشركين : ألا يحج بعد هذا
العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان . فأنتم الله ذلك ، وحكم به شرعاً وقدرأ « وَإِنْ خِفْتُمْ
عَيْلَةً » أى فقراً بسبب مفهمهم من الحرم ، لانقطاع أرفاق كانت لكم من قدومهم « فَسَوْفَ
يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ » أى من فتح البلاد ، وحصول المغانم ، وأخذ
الجزية ، وتوجه الناس من أقطار الأرض . قال ابن إسحاق : إن الناس قالوا : لنقطعن عنا
الأسواق ، فلتهلكن التجارة ، وليذهبن ما كننا نصيب فيها من المرافق ، فقال الله تعالى

(وَإِنْ خِفْتُمْ عِيْلَةً . . .) إلى قوله (وَهُمْ صَاغِرُونَ) أى هذا عوض ما تخوفتم من قطع تلك الأسواق ، فموضحهم الله مما قطع عنهم بأمر الشرك ، ما أعطاهم من أعتاق أهل الكتاب من الجزية . انتهى . « إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ » أى بما يصلحكم « حَكِيمٌ » أى فيما يأمر به وينهى عنه .

تنبيهات :

الأول - دلت الآية على نجاسة المشرك ، كما فى الصحيح ^(٢) (المؤمن لا ينجس) وأما نجاسة بدنه ، فالجمهور على أنه ليس ينجس البدن واللذات ، لأن الله تعالى أحل طعام أهل الكتاب . وذهب بعض الظاهرية إلى نجاسة أبدانهم . وقال أشعث عن الحسن : من صافهم فليتوضأ ، رواه ابن جرير ، ونقله ابن كثير .

وأقول : الاستدلال بكونه تعالى أحل طعام أهل الكتاب غير ناهض ، لأن البحث فى المشركين وقاعدة الغزيريل الكريم ، التفارقة بينهم وبين أهل الكتاب ، فلا يتناول أحدهما الآخر فيه .

وقال بعض المفسرين الميمين : مذهب القاسم والهادي وغيرها ؛ أن الكافر نجس المين ، أخذاً بظاهر الآية ، لأنه الحقيقة . ويؤيد ذلك حديث ^(١) أبى ثعلبة الخشنى فإنه قال للنبي ﷺ إنا نأتى أرض أهل الكتاب فنسألهم آيتهم ، فقال ﷺ : اغسلوها ثم اطبخوا فيها .

(١) أخرجه البخارى فى : ٥ - كتاب الفسل ، ٢٤ - باب الجنب يخرج ويمشى فى السوق وغيره ، حديث رقم ٢٠٤ ، عن أبى هريرة .

وأخرجه مسلم فى : ٣ - كتاب الحيض ، حديث رقم ١١٥ م (طبعنا) .

(٢) أخرجه البخارى فى : ٧٢ - كتاب الذبائح والصيد ، ٤ - باب صيد القرس ،

حديث رقم ٢١٩٨ .

وأخرجه مسلم فى : ٣٤ - كتاب الصيد والذبائح ، حديث رقم ٨ (طبعنا) .

وقال زيد والمؤيد بالله والحنفية والشافعية : إن المشرك ليس نجس العين ، لأنه ﷺ تَوْضاً من مزادة مشرك ، واستمرار من صفوان دروعاً ولم يفسلها ، وكانت القصاع تختلف من بيوت أزواج النبي ﷺ إلى الأسارى ولا تفسل ، وكان أصحاب النبي ﷺ يطبخون في أواني المشركين ولا تفسل . وأولوا الآية بما تقدم من الوجوه ، وكلُّ متأولٍ ما احتج به الآخر . انتهى :

الثاني - قال السيوطي في (الإكمال) في قوله تعالى ^(١) « فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَمَلِهِمْ هَذَا » : إن الكافر يمنع من دخول الحرم ، وإنه لا يؤذن له في دخوله ، لا للتجارة ولا لغيرها ، وإن كان مصلحة لنا ، لأن المسجد الحرام حيث أطلق في القرآن ، فالمراد به الحرم كله ، كما أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس وابن جبير ومجاهد وعطاء وغيرهم . واستدل بظاهر الآية من أباح دخوله الحرم سوى المسجد ، لقصره في الآية عليه . واستدل الشافعي بظاهر الآية على أنهم لا يمنعون من دخول سائر المساجد ، لقوله (الْحَرَامُ) . وقاس عليه غيره سائر المساجد . واستدل أبو حنيفة بظاهرها أيضاً على أن الكتائب لا يمنع من دخوله لتخصيصه بالمشرك . انتهى . وهو المتجّه .

قال الشهاب : وبالظاهر أخذ أبو حنيفة رحمه الله تعالى ، إذ صرف المنع عن دخول الحرم للحج والعمرة ، بدليل قوله تعالى (وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً) ، فإنه إنما يكون إذا منعوا من دخول الحرم ، وهو ظاهر ، أي لأن موضع التجارات ليس عين المسجد . ونداء على كرم الله وجهه بقوله : ألا لا يحج بعد عامنا هذا مشرك ، بأمر النبي ﷺ ، يعينه . فلا يقال إن منطوق الآية يخالفه . انتهى .

الثالث - قال الناصر : قد يستدل بقوله تعالى (فَلَا يَقْرَبُوا . . .) الآية - من يقول إن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة ، وخصوصاً بالمناهي ، فإن ظاهر الآية توجه الفهي

إلى المشركين ، إلا أنه بعيد ، لأن المعلوم من المشركين أنهم لا ينزجرون بهذا النهي ، والمقصود تطهير المسجد الحرام بإبعادهم عنه ، فلا يحصل هذا المقصود إلا بنهي المسلمين عن تمسكهم من قربانه . ويرشد إلى أن المخاطب في الحقيقة المسلمون ، تصدير الكلام بخطابهم في قوله (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا) وتضمينه نصاً بخطابهم بقوله (وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً) ، وكثيراً ما يتوجه النهي على من المراد خلافه ، وعلى ما المراد خلافه ، إذا كانت ثم ملازمة كقوله : لا أرينك هاهنا (وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)^(١) . انتهى .

الرابع - (العيلة) مصدر من (عال) بمعنى افتقر . وقرئ (هائلة) . وهو إما مصدر بوزن فاعلة ، أو اسم فاعل صفة لموصوف مؤنت مقدر ، أي حالاً عائلة ، أي مفقرة .

قال ابن جني : هذه من المصادر التي جاءت على فاعلة ، كالماقبة والماقية . ومنه قوله تعالى^(٢) (لَا تَسْمَعُ فِيهَا لِأَغِيَّةً) ، أي لغوا . ومنه قولهم : مررت به خاصة ، أي خصوصاً وأما قوله تعالى^(٣) (وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ) فيجوز أن يكون مصدراً ، أي خيانة ، وأن يكون على تقدير : نية أو عقيدة خائنة . وكذا هاهنا يقدر : إن خفتم حالاً عائلة انتهى .
الخامس - إن قيل : ما وجه التعليل بالمشيئة في قوله تعالى (إِنْ شَاءَ) مع أن المقام

وسبب النزول ، وهو خوفهم الفقر ، يقتضي دفعه بالوعد بإغنائهم من غير تردد ؟ فالجواب : أن الشرط لم يذكر للتردد ، بل لبيان أنه بإرادته لا سبب له غيرها ، فانهطموا إليه ، واقطعوا النظر عن غيره . وإينبه على أنه متفضل به ، لا واجب عليه ، لأنه لو كان بالإيجاب لم يוכל إلى الإرادة ، فلا يقال إن هذا لا حاجة إلى أخذه من الشرط ، مع قوله تعالى (مِنْ فَضْلِهِ) لأن قوله (مِنْ فَضْلِهِ) يفيد أنه عطاء وإحسان ، وهذا يفيد أنه بغير إيجاب ، وشتان بينهما ، وقيل إنه للتنبيه على أنه بإرادته ، لا بسمى المرء وحيلته :

لَوْ كَانَ بِالْإِحْيَالِ الْغِنَى لَوَجَدْتَنِي بِنُجُومِ أَقْطَارِ السَّمَاءِ تَعَلَّقِي كَذَا فِي (العنانية) .

(١) [٢ / البقرة / ١٣٢] . (٢) [٨٨ / الفاشية / ١١] (٣) [٥ / المائدة / ١٣] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُرْمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ

« قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُرْمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ » اعلم انه لما ذكر تعالى حكم المشركين في إظهار البراءة من عهدهم ، وفي إظهار البراءة منهم في أنفسهم ، وفي وجوب مقاتلتهم ، وفي تبعيدهم عن المسجد الحرام ، وعدم الخوف من الفاقة المتوهمه من انقطاعهم - ذكر بعده حكم أهل الكتاب . هو أن يقاتلوا إلى أن يسلموا أو يعطوا الجزية ، منها في تضاعيف ذلك على بعض طرق الإغناء الموعود على الوجه السككي ، مرشداً إلى سلوكه ابتغاء لفضله ، واستنجازاً لوعده .

قال مجاهد : نزلت الآية حين أمر النبي ﷺ بقتال الروم ، فزبا بعد نزولها غزوة تبوك . وقال السككي : نزلت في قريظة والنضير من اليهود ، فصالحهم ، فكانت أول جزية أصابها أهل الإسلام ، وأول ذل أصاب أهل الكتاب بأيدي المسلمين . انتهى .

ولا يخفى شمول الآية لكل ذلك بلا تخصيص .

قال ابن كثير : هذه الآية أول أمر نزل بقتال أهل الكتاب - اليهود والنصارى - وكان ذلك في سنة تسع ، ولهذا تجهز رسول الله ﷺ لقتال الروم ، ودعا الناس إلى ذلك ، وأظهره لهم ، وبعث إلى أحياء العرب حول المدينة ، فندبهم ، فأوعبوا معه ، واجتمع من المقاتلة نحو من ثلاثين ألفاً ، وتخلف بعض الناس من أهل المدينة ، ومن حولها من المنافقين وغيرهم ، وكان ذلك في عام جدب ، ووقت قيمظ وحر . وخرج رسول الله ﷺ يريد الشام

لقتال الروم ، فبلغ تبوك ، ونزل بها ، وأقام بها قريباً من عشرين يوماً ، ثم استخار الله في الرجوع ، فرجع عامه ذلك لضيق الحال ، وضعف الناس ، كما سيأتي بيانه بعد إن شاء الله تعالى . انتهى .

والتعبير عن (أهل الكتاب) بالموصول المذكور ، الإيذان بعلمية ما في حيز الصلة للأمر بالقتال ، فإنهم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، كما أمر تعالى ، إذ لديهم من فساد العقيدة ، فيما يجب له تعالى ، وفي البعث ، أعظم ضلال وزيف ، (وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ) ، يعني ما ثبت تحريمه في الكتاب والسنة . وقيل : المراد برسوله الرسول الذي يزعمون اتباعه ، فالعنى أنهم يخالفون أصل دينهم المنسوخ اعتقاداً وعملاً ، إذ غيروا وبدلوا اتباعاً لأهوائهم .

قال الشهاب : فيكون المراد : لا يتبعون شريعتنا ولا شريعتهم ، ومجموع الأميين سبب لقتالهم . وقوله تعالى (دِينَ الْحَقِّ) من إضافة الموصوف للصفة ، أو المراد بـ (الْحَقِّ) ، الله تعالى . وقوله تعالى (حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ) أى ما تقرر عليهم أن يعطوه . قال ابن الأثير : الجزية المال الذى يعقد عليه الكتابى الذمة ، وهى (فِعْلَةٌ) من الجزاء كأنها جَزَتْ عن قتله .

وقال الراغب : سميت بذلك للاجترأ بها عن حقن دمهم ^(١) . وقال الشهاب : قيل مأخذها من (الجزاء) بمعنى القضاء . يقال : جزيته بما فعل ، أى جازيته . أو أصلها الهمز من (الجزء والتجزئة) ، لأنها طائفة من المال يعطى . وقيل : إنها مررب (كزيت) وهو الجزية . بالفارسية . انتهى . وقوله تعالى (عَنْ يَدٍ) حال من فاعل (يُعْطُوا) و (اليد) هنا إما بمعنى الاستسلام والانتقاد ، يقال : هذه يدي لك ، أى استسلمت إليك ، وانقدت لك ، وأعطى يده أى انتقاد . كما يقال فى خلافه : نزع يده من الطاعة . لأن من أبى وامتنع ، لم يعط يده ، بخلاف المطيع ^(١) عبارة النهاية ولسان العرب : « كأنها جزت عن قتله » وهى أوضح من عبارة الراغب .

المنقاد ، وإما بمعنى النقد ، أى حتى يعطوها نقداً غير نسيئة ، فيكون كـ (اليد) فى قوله ﷺ^(١) : لا تبيعوا الذهب والفضة . . . إلى قوله (بدأ بيد) . وإما بمعنى الجارحة الحقيقية ، و (عن) بمعنى الباء ، أى لا يبعثون بها عن يد أحد ، ولكن عن يد المعطى إلى يد الآخذ . وإما بمعنى : عن طيبة نفس ؛ قال أبو عبيدة : كل من انطاع لقاها بشيء أعطاه ، من غير طيب نفس به وقهر له ، من يد فى يد ، فقد أعطاه عن يد (مجاز القرآن ج ١ ص ٢٥٦) . وإما بمعنى الجماعة ، أنشد ابن الأعرابي :

أعطى فأعطاني بدأ ودَارَا وباحَةً حوَّ لها عَقَارَا

(الأساس ج ٢ ص ٥٦٠ واللسان ج ١٥ ص ٤٢٥ ، بيروت) .

ومنه الحديث^(٢) (وهم يَدُّ على من سواهم) أى هم مجتمعون على أعدائهم ، يماون بمضهم بمضاً - قاله أبو عبيد - وإما بمعنى الذل - نقله ابن الأعرابي وحكاها وجهاً فى الآية - . هذا إن أريد باليد يد المعطى . وإن أريد بها يد الآخذ ، فاليد إما بمعنى القوة ، أى من يد قاهرة مستولية ويقولون : مالى به يد أى قوة . وإما بمعنى السلطان ، وهو كالذى قبله ، ومنه يد الريح سلطانها . قال لبيد :

* نِطَافٌ أَمْرُهَا يَبِيدُ الشَّمَالُ *

(اللسان ج ١٥ ص ٤٢٢ . وصدره كما جاء فى الأساس ج ٢ ص ٥٦٠ :

* أَضَلَّ صِوَارَهُ وَتَضَيَّفَتْهُ * وفيه : نُطُوفٌ) .

لما ملكت الريح تصريف السحاب ، جعل لها سلطان عليه . وإما بمعنى النعمة ، أى عن إنعام عليهم بذلك ، لأن قبول الجزية ، وترك أنفسهم عليهم ، نعمة عليهم .

(١) أخرجه البخارى فى : ٣٤ - كتاب البيوع ، ٧٨ - باب بيع الفضة بالفضة و٧٩ -

باب بيع الدينار بالدينار نساً ، حديث رقم ١٠٩٧ عن أبي سعيد الخدرى .

وأخرجه مسلم فى : ٢٢ - كتاب المساقاة ، حديث ٧٦ (طبعنا) وانفرد مسلم بقوله (إلا

بدأ بيد) . (٢) أخرجه ابن ماجه فى : ٢١ - كتاب الديات ، ٣١ - باب المسهلون تمسكاً فادماؤهم ، حديث رقم ٢٦٨٣ (طبعنا) عن ابن عباس .

قال الناصر في (الانتصاف) : وهذا الوجه أُملي بالفائدة .
 وإما بمعنى الغنى ، حكاه في (العناية) ، ونقله (التاج) من معاني اليد .
 وقوله تعالى (وَهُمْ صَاغِرُونَ) أى أذلاء .

تنبيهات :

الأول - قوله تعالى (عَنْ يَدٍ) إما حال من الضمير في (يُعْطُوا) أو من الجزية أى مقرونة بالانقياد ، ومسلمة بأيديهم ، وصادرة عن غنى ، ومقرونة بالدالة ، وكائنة عن إنعام عليهم . كذا في (العناية) .

الثاني - قال السيوطى في (الإكمال) : هذه الآية أصل قبول الجزية من أهل الكتاب .
الثالث - قال أيضاً : استدل من قال بأن معنى اليد فيما تقدم ، الغنى ، أنها لا تجب على مُعسر . ومن قال بأنه لا يرسل بها ، على أنه لا يجوز توكيل مسلم بها ، ولا أن يضمها عنه ، ولا أن يحيل بها عليه .

الرابع - قال السيوطى أيضاً : استدل بقوله تعالى (وَهُمْ صَاغِرُونَ) من قال إنها تؤخذ بإهانة ، فيجلس الآخذ ، ويقوم الذى يوطأ رأسه ، ويحنى ظهره ، ويضعها في الميزان ، ويقبض الآخذ لحية ، ويضرب لمزمتيه . قال : ويردّ به على النووي حيث قال : إن هذه سيئة باطلة . انتهى .

قلت : ولقد : صدق النووي عليه الرحمة والرضوان ، فإنها سيئة قبيحة ، تأبها سماحة الدين ، والرفق المعلوم منه . ولولا قصد الرد على من قالها لما شوهت بنقلها ديباجة الصحيفة .
 ثم رأيت ابن القيم رد ذلك بقوله : هذا كله مما لا دليل عليه ، ولا هو من مقتضى الآية ، ولا نقل عن رسول الله ﷺ ، ولا عن أصحابه . قال : والصواب في الآية أن الصغار هو التزامهم بجرىان أحكام الله تعالى عليهم ، وإعطاء الجزية ، فإن ذلك هو الصغار ، وبه قال الشافعى . انتهى .

ثم قال السيوطي : واستدل بالآية من قال : إن أهل الذمة يتركون في بلد أهل الإسلام ، لأن مفهومها السكف عنهم عند أدائها ، ومن السكف ألا يجلبوا . ومن قال لاحد لأفلها ، ومن قال هي عوض حقن الدم لا أجره الدار . انتهى .

الخامس - روى أبو عبيد في كتاب (الأموال) عن ابن شهاب قال : أول من أعطى الجزية من أهل الكتاب ، أهل نجران ، وكانوا نصارى .

السادس - قال أبو عبيد : ثبتت الجزية على اليهود والنصارى بالكتاب ، وعلى المجوس بالسنة .

وقال ابن القيم : لما نزلت آية الجزية أخذها ﷺ من ثلاث طوائف : من المجوس واليهود والنصارى ، ولم يأخذها من عباد الأصنام . فقيل : لا يجوز أخذها من كافر غير هؤلاء ، ومن دان بدينهم اقتداءً بأخذه وتركه ، وقيل : بل تؤخذ من أهل الكتاب وغيرهم من الكفار وهم كمدة الأصنام من المعجم ، دون العرب والأول قول الشافعي وأحمد (في إحدى روايتيه) ، والثاني قول أبي حنيفة وأحمد في الرواية الأخرى . وأصحاب القول الثاني يقولون : إنما لم يأخذها من مشركي العرب لأنها إنما نزلت فرضيتها بعد أن أسلمت دارة العرب ، ولم يبق فيها مشرك ، فإنها نزلت بعد فتح مكة ، ودخول العرب في دين الله أفواجاً ، فلم يبق بأرض العرب مشرك ، ولهذا غزا بعد الفتح تبوك ، وكانوا نصارى ، ولو كان بأرض العرب مشركون لكانوا يلونه ، وكانوا أولى بالغزو من الأبعدين . ومن تأمل السير وأيام الإسلام ، علم أن الأمر كذلك ، فلم تؤخذ منهم الجزية ، لعدم من يؤخذ عنه ، لأنهم ليسوا من أهلها . قالوا : وقد أخذها من المجوس فليسوا بأهل كتاب . ولا يصح أنه كان لهم كتاب ورفع ، وهو حديث لا يثبت مثله ، ولا يصح سنده . ولا فرق بين عبادة النار ، وعبادة الأصنام . بل أهل الأوثان أقرب حالاً من عباد النار . وكان فيهم من التمسك بدين إبراهيم الملم يكن في عباد النار ، بل عباد النار أعداء إبراهيم الخليل . فإذا أخذت منهم الجزية ، فأخذها من

عباد الأصنام أولى . وعلى ذلك تدل سنة رسول الله ﷺ ، كما ثبت عنه في صحيح مسلم ^(١) أنه قال : إذا لقيت عدوك من المشركين ، فادعهم إلى إحدى خلال ثلاث ، فأبتن أجابوك إليها ، فاقبل منهم . وكف عنهم . ثم أمره أن يدعوهم إلى الإسلام أو الجزية أو يقاتلهم . وقال المغيرة لعامل كسرى : أمرنا نبيئنا أن نقاتلكم حتى تعبد الله أو تؤدى الجزية . وقال رسول الله ﷺ لقريش ^(٢) : هل لكم في كلمة تدين لكم بها العرب ، وتؤدى للمجم إليكم بها الجزية ؟ قالوا : ما هي : قال : لا إله إلا الله .

ثم ذكر ابن القيم رحمه الله أن النبي ﷺ ^(٣) صالح أهل نجران على أنى حلة ، النصف في صفر ، والبقية في رجب يؤدونها إلى المسلمين ، وعارية ثلاثين درعاً ، وثلاثين فرساً ، وثلاثين بغيراً ، وثلاثين من كل صنف من أصناف السلاح ، يغزون بها ، والمسلمون ضامنون بها ، حتى يردوها عليهم ، إن كان باليمن كيدة أو غدرة . وعلى ألا يُهدم لهم بيعة ، ولا يخرج لهم قس ، ولا يفتنوا عن دينهم ، ما لم يحدثوا حدثاً ، أو يأكلوا الربا . ولما وجهه ^(٤) ﷺ معاذاً إلى اليمن أمره أن يأخذ من كل محتل ديناراً ، أو قيمته من ثياب . وفي هذا دليل على أن الجزية غير مقدرة الجنس ، ولا القدر ، بل يجوز أن تكون ثياباً وذهباً وحللاً ، وتزيد وتقص بحسب حاجة المسلمين ، واحتمال من تؤخذ منه ، وحاله

(١) أخرجه مسلم في: ٣٢ - كتاب الجهاد، حديث ٣ (طبعنا) عن بريدة بن الحصيب.

(٢) أخرجه الترمذى في: ٤٤ - كتاب التفسير، ٣٨ - سورة هـ، ١ - حدثنا محمود

ابن غيلان .

وأخرجه في المسند بالصفحة رقم ٢٢٧ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحدّث رقم ٢٠٠٨ (طبعة المعارف) . (٣) أخرجه أبو داود في: ١٩ - كتاب الخراج والإمارة والقي، ٣٠ - باب في أخذ الجزية ، حديث ٣٠٤١ . (٤) أخرجه أبو داود في: ٩ - كتاب الزكاة ، ٥ - باب في زكاة السائمة حديث رقم ١٥٧٦ .

في الميسرة ، وما عنده من المال . ولم يفرق رسول الله ﷺ ولا خلفاؤه في الجزية بين العرب والمعجم . بل أخذها رسول الله ﷺ من نصارى العرب ، وأخذها من مجوس^(١) هَجَرَ . وكانت مدينة قاعدة البحرين ، وكان أهلها عرباً ، فإن العرب أمة ليس لها في الأصل كتاب . وكانت كل طائفة تدين بدين من جاورها من الأمم ، فكانت عرب البحرين مجوساً لمجاورتها فارس وتنوخ وبهرا . وبنو تغلب نصارى لمجاورتهم للروم . وكانت قبائل من اليمن يهود ، لمجاورتهم لليهود اليمن . فأجرى رسول الله ﷺ أحكام الجزية ، ولم يعتبر آبائهم ، ولا متى دخلوا في أهل الكتاب ، هل كان دخولهم قبل النسخ والتبديل أو بعده ، ومن أين يعرفون ذلك ، وكيف يَنْضَبِطُ ، وما الذي دل عليه ؟ وقد ثبت في السير والمغازي أن من الأنصار من يهود أبائهم بعد النسخ بشريمة عيسى ، وأراد آبائهم إكراههم على الإسلام ، فأنزل الله تعالى^(٢) : (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) وفي قوله لمعاذ^(٣) : خذ من كل دياراً ، دليل على أنها لا تؤخذ من صبي ولا امرأة .

السابع - قال الإمام أبو يوسف رحمه الله في كتاب (الخراج) :

وليس في شيء من أموالهم ، الرجال منهم والنساء ، زكاة ، إلا ما اختلفوا به في تجارتهم ، فإن عليهم نصف العشر ، ولا يؤخذ من مال حتى يبلغ مائتي درهم ، أو عشرين مثقالاً من الذهب ، أو قيمة ذلك من العروض للتجارة ، ولا يضرب أحد من أهل الذمة في استيوائهم الجزية ، ولا يقاموا في الشمس ولا غيرها ، ولا يجعل عليهم في أبدانهم شيء من المسكارة ، ولكن يرفق بهم ، ويحبسون حتى يؤدوا ما عليهم ؛ ولا يخرجون من الحبس حتى تستوفي منهم الجزية ، ولا يحل للوالي أن بدع أحداً من النصارى واليهود والمجوس والصابئين والسامرة ، إلا أخذ منهم الجزية ، ولا يرخص لأحد منهم في ترك شيء من ذلك ، ولا يحل

(١) أخرجه البخاري في : ٥٨ - كتاب الجزية والموادعة ، ١ - باب الجزية والموادعة مع أهل الحرب ، حديث ١٤٩١ و ١٤٩٢ و ١٤٩٣ . (٢) [٢ / البقرة / ٢٥٦] .

(٣) أخرجه أبو داود في : ٩ - كتاب الزكاة ، ٥ - باب في زكاة السائمة ، حديث ١٥٧٦

أن يدع واحداً ويأخذ من واحد ، ولا يسع ذلك ، لأن دماءهم وأموالهم إنما أحرزت بأداء الجزية ، والجزية بمنزلة مال الخراج .

ثم قال أبو يوسف مخاطباً هارون الرشيد:

وقد ينبغي يا أمير المؤمنين - أيدك الله - أن تتقدم في الرفق بأهل ذمة نبيك وابن عمك محمد ﷺ ، والتفقد لهم حتى لا يُظلموا ولا يؤذوا ، ولا يُكلفوا فوق طاقتهم ، ولا يُؤخذ شيء من أموالهم إلا بحق يجب عليهم ، فقد روى ^(١) عن رسول الله ﷺ أنه قال : من ظلم مهاداً أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه . وكان فيما تكلم به عمر بن الخطاب رضي الله عنه عند وفاته ^(٢) : أوصي الخليفة من بعدى بذمة رسول الله ﷺ أن يوفى لهم بمهدم ، وأن يقاتل من ورائهم ، ولا يكلفوا فوق طاقتهم .

قال : وحدثنا هشام بن عروة عن أبيه عن سميد بن زيد أنه مرّ على قوم قد أقيموا في الشمس في بعض أرض الشام ، فقال : ماشأن هؤلاء ؟ فقيل له أقيموا في الشمس في الجزية ! قال : فكره ذلك ، ودخل على أميرهم وقال : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : من عذب الناس عذبه الله .

قال : وحدثنا هشام بن عروة عن أبيه أن عمر بن الخطاب مرّ بطريق الشام وهو راجع في مسيره من الشام على قوم قد أقيموا في الشمس ، يصبّ على رؤوسهم الزيت ، فقال : ما بال هؤلاء ؟ فقال : عليهم الجزية لم يؤدوها ، فهم يعذبون حتى يؤدوها ! فقال عمر : فما يقولون هم وما يمتدرون به في الجزية ؟ قالوا : يقولون لا نجد ! قال : فدعهم لا تكلفهم ما لا يطيقون . فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : لا تعذبوا الناس ، فإن الذين يعذبون الناس في الدنيا ، يعذبهم الله يوم القيامة ، وأمر بهم نخلي سبيلهم .

(١) أخرجه أبو داود في : ١٩ - كتاب الخراج والنفاء والإمارة ، ٣٣ - باب في تمشير أهل الذمة إذا اختلفوا بالنجارات ، حديث ٣٠٥٢ . (٢) أخرجه البخاري في : ٦٢ - كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ ، ٨ - باب قصة البيعة والاتفاق على عثمان بن عفان رضي الله عنه . حديث ٧٣٧

ثم قال : وحدثني عمير بن نافع عن أبي بكر قال : مرّ عمر بن الخطاب رضى الله عنه بباب قوم وعليه سائل يسأل ، شيخ ضرير البصر ، فضرب عضده من خلفه وقال : من أى أهل الكتاب أنت ؟ فقال : يهودى . قال : فما الجأك إلى ما أرى ؟ قال : أسأل الجزية ، والحاجة والسنة . قال : فأخذ عمر بيده ، وذهب به إلى منزله فوضع له بشىء من المنزل ، ثم أرسل إلى خازن بيت المال فقال : انظر هذا وضرباه ، فواللّٰه ما أنصفناه أن أكلنا شبيبته ، ثم نخذله عند الهرم (إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ) ^(١) ، والفقراء هم المسلمون ، وهذا من المساكين من أهل الكتاب . ووضع عنه الجزية وعن ضربائه . قال : قال أبو بكر : أنا شهدت ذلك من عمر ، ورأيت ذلك الشيخ . انتهى .

الثامن - في الغرض من الجزية ورأفة المسلمين بمن أظلمهم بسيوفهم .

قال الإمام الشيخ محمد عبده مفتى مصر في كتاب (الإسلام والنصرانية) في هذا المعنى ، تحت بحث المقابلة بين الإسلام الحربى ، والمسيحية السلمية ، ما نصه ص ٧٤ :

الإسلام الحربى ، كان يكتفى من الفتح بإدخال الأرض المفتوحة تحت سلطانه ، ثم يترك الناس ، وما كانوا عليه من الدين ، يؤدون ما يجب عليهم في اعتقادهم كما شاء ذلك الاعتقاد ، وإنما يكلفهم بجزية بدفونها ، لتكون عوناً على صيانتهم ، والحفاظة على أمنهم في ديارهم ، وهم في عقائدهم ومعاييدهم وعاداتهم بعد ذلك أحرار ، لا يضايقون في عمل ، ولا يضامون في معاملة . خلفاء المسلمين ، كانوا يوصون قوادهم باحترام العباد الذين انقطعوا عن العامة في الصوامع والأديار لمجرد العبادة ، كما كانوا يوصونهم باحترام دماء النساء والأطفال ؛ وكل من لم يُعِن على القتال . جاءت السنة المتواترة بالنهى عن إيذاء أهل الذمة ، وبقتير ما لهم من الحقوق على المسلمين ، لهم ما لنا ، وعليهم ما علينا ^(٢) ، ومن آذى ذمياً فليس منا . واستمر العمل على ذلك ما استمرت قوة الإسلام . ولست أبالي إذا انحرف بعض المسلمين

(١) [٩ / التوبة / ٦٠] . (٢) لم أفد على هذا الحديث .

عن هذه الأحكام عندما بدأ الضعف في الإسلام وضيق الصدر من طبع الضعيف ، فذلك مما لا يلبس بطبيعته ، ويخلط بطبيعته .

المسيحية السلمية كانت ترى لها حق القيام على كل دين يدخل تحت سلطانها ، ترأب أعمال أهلها ، وتخصصهم دون الناس بضروب من المعاملة لا يحتملها الصبر ، مهما عظم ، حتى إذا تمت لها القدرة على طردهم بعد المعجز عن إخراجهم من دينهم ، وتمييدهم ، أجلبهم عن ديارهم ، وغسلت الديار من آثارهم ، كما حصل ويحصل في كل أرض استولت عليها أمة مسيحية استملاء حقيقة ، لا يمنع غير المسيحي من تعدى المسيحي إلا كثرة العدد ، أو شدة العصد ، كما شاهد التاريخ ، وكما يشهد كاتبوه .

ثم قال : فأنت ترى الإسلام يكتفى من الأمم والطوائف التي يغاب على أرضها ، بشيء من المال ، أقل مما كانوا يؤدونه من قبل تغلبه عليهم ، وبأن يعيشوا في هدوء ، لا يمكنون معه صفو الدولة ، ولا يتخلون بنظام السلطة العامة ، ثم يرخي لهم بعد ذلك عنان الاختيار في شؤونهم الخاصة بهم ، لا رقيب عليهم فيها إلا ضمائرهم . انتهى .

وفي كتاب (أشهر مشاهير الإسلام) في بحث إجلال أهل نجران ما نصه :

إن أساس الدعوة إلى الإسلام التبليغ ، وأنه لا إكراه في الدين ، فمن قبلها كان من المسلمين ، ومن أبي فعلية أن يخضع لسلطانهم ، وأن يعطيهم جزءاً من ماله يستعينون به على حماية ماله وعرضه ونفسه ، وله عليهم حق الوفاء بما عاهدوه عليه ، وأن لا يُفتن عن دينه ، وأن تكون له الذمة والعهد أنى حل ، وحيثما وجد من ممالك الإسلام ، ما دام واثقاً بمهده ، مؤدياً لجزية ، لا يخون المسلمين ، ولا يعالي عليهم عدوهم . وأحسن شاهد على هذا نسوقه إليك في هذا الفصل ، خبر أهل نجران الذين ، وكانوا من الكتابيين ، اتعلم كيف كانت معاملة أهل الذمة ، ومبلغ محافظة الخلفاء على عهدهم معهم ، ما لم يخونوا أو يفندوا .

وتحرير الخبر عنهم أنه كان وقد وفدهم على رسول الله ودعاهم إلى الإسلام ، فأبوا ،

وسألوه الصلح ، وأن يقبل منهم الجزاء ، فصالحهم على شيء معلوم ، يؤدونه كل سنة للمسلمين وكتب لهم بذلك كتاباً جمل لهم فيه ذمة الله وعهده ، وأن لا يفتنوا عن دينهم ، ومراتبهم فيه ، ولا يحشروا ، ولا يمشروا ، وأن يؤمنوا على أنفسهم وملتهم وأرضهم وأموالهم وغائبهم وشاهدتهم وعيبرهم ، وبعتهم وأمثلتهم . لا يغير ما كانوا عليه ، ولا يغير حق من حقوقهم ، ولا يبطأ أرضهم جيش ومن سأل منهم حقاً فيبينهم النصف ، غير ظالمين ولا مظلومين ، ولهم على ذلك جوار الله ، وذمة رسوله أبداً ، حتى يأتي أمر الله ، ما نصحوا وأصلحوا . واشترط عليهم أن لا يأكلوا الربا ، ولا يتعاملوا به .

ولما توفي رسول الله ﷺ واستخلف أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، أقرهم على حالهم ، وكتب لهم كتاباً على نحو كتاب رسول الله ﷺ ، مع أنه كان يتخوفهم ، ويود إجلاءهم ، لما روى ^(١) أن رسول الله ﷺ قال : لا يبقين في جزيرة العرب دينان .

ولما حضرت أبا بكر الوفاة ، أوصى عمر بن الخطاب بإجلائهم لنقضهم العهد بإصابتهم الربا .

فانظر كيف أن النبي ﷺ كان يرى أن لا يجتمع في جزيرة العرب دينان ، لأن العرب أمة حديثة عهد بالإسلام ، قد عانى ﷺ ما عانى في جمع كلمتها ، وتوحيد وجهتها ، فمن الخطر أن يوجد بين ظهرانيها قوم يدينون بغير دينها ، فيفتنون من جاورهم عن الإسلام ، على حداثة عهدهم فيه ، وعدم تمكنهم بمد من أصوله الصحيحة . هذا من وجه ، ومن وجه آخر ، فإن النجرانيين كانوا يتاجرون بالربا ، ولا يخفى ما فيه من الضرر على من جاورهم من أهل

(١) أخرجه الإمام مالك في الموطأ مرسل في : ٤٥ - كتاب الجامع ، الحديث رقم ١٧ و ١٨ ، ١٩ (طبعنا) .

وأخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة رقم ٢٧٥ من الجزء السادس (طبعة الحلبي) عن عائشة مقتصلا .

اليمين ، الذين ينضّب التعاملُ بالربا معينَ ثروتهم ، ويؤذّن بفقرهم ، على غير شعور منهم ، لا سيّما وأن الشريعة الإسلامية قد حرمتها تحريماً باتاً ، ولا يؤمن من أن النجرائين ، باستمرارهم على تعاظم الربا ، يحملون بمض من جاورهم من المسلمين على ارتكاب الإثم بالتعامل معهم بالربا . ومع هذه الأسباب التي تلجئ إلى إكراه النجرائين على الإسلام ، فإن النبي ﷺ لم يكرههم على ذلك ، لأن شريعته لم تأذن بإكراه أهل الكتاب على الإسلام ، لهذا تركهم على دينهم ، بعد أن دعاهم إلى الإسلام بالتى هى أحسن ، فأبوا ، وأعطاهم كتاب العهد المذكور ، إلا أنه اشترط عليهم فيه أن لا يخونوا المسلمين ، ولا يتعاملوا بالربا كما رأيت .

ولما استخلف أبو بكر أكد لهم عهدهم الأول ، مع أنه كان يرى في وجودهم في جزيرة العرب من الخطر ما كان يراه النبي ﷺ ، فلم يسمه في أمرهم إلا ما وسع الرسول ﷺ ، حتى إذا علم أنهم خانوا العهد ، وتعاملوا بالربا ، أمر في حال مرضه عمر بن الخطاب رضى الله عنه بإجلائهم عن جزيرة العرب ، دون أن يُفتنوا في دينهم .

ولما استخلف عمر رضى الله عنه ، كان أول بمت بمته ، بمت أبي عبيد إلى العراق ، وبمت يملى بن أمية إلى اليمن ، وأمره بإجلاء أهل نجران ، وأن يعاملهم بالرأفة ويشتري أموالهم ، ويخبرهم عن أرضهم في أى أرض شاءوا من بلاد الإسلام ، لا أن يعاملهم معاملة القوى الغالب ، للضعيف المغلوب ، كما هو شأن كل دولة من الدول قبل الإسلام وبعده ، حتى الآن ، في معاملة الأمم التي تخالف مذهبها ، وتخضع لقوة سلطانها . فتمرقوا ، فنزل بعضهم الشام ، وبعضهم النجراتية بناحية الكوفة ، وبهم سميت . ولم تقف العناية بهم في إجلائهم ، والمحافظة على ما بيدهم من العهد ، وتمويضهم عما تركوه من المقار والمال عندهذا الحد ، بل كانوا يجدون بعد ذلك من الخلفاء كل رعاية ورفق . من ذلك أنهم شكوا مرة إلى عثمان رضى الله عنه - لما استخلف - ضيق أرضهم ، ومزاحمة الدهاقين لهم ، وطلبوا إليه

تخفيف جزيتهم ، فكتب إلى الوليد بن عقبة بن أبي معيط ، عامله على الكوفة ، كتاباً يوصيه بهم ، ويأمره أن يضع عنهم مائتي حلة من جزيتهم ، لوجه الله ، وعقبى لهم من أرضهم . وروى البلاذري : أنه لما ولي معاوية ، أوزيد بن معاوية ، شكوا إليه تفرقهم ، وموت من مات منهم ، وإسلام من أسلم منهم ، وأحضره ككتاب عثمان بن عفان ، بما حطهم من الخلل ، وقالوا : إنما ازددنا نقصاً وضعفاً . فوضع عنهم مائتي حلة تقمة أربعمئة حلة . فلما ولي الحجاج العراق ، وخرج ابن الأشعث عليه ، أتهمهم والدهاقين بمولاته ، فردّ جزيتهم إلى ما كانت عليه . فلما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة ، شكوا إليه ظلم الحجاج ونقصهم ، فأمر فأحصوا فبلغوا العشر من عدتهم ، فألزمهم مائتي حلة جزية عن رؤوسهم فقط . فلما ولي يوسف بن عمر العراق ، في خلافة الوليد بن يزيد الأموي ، ردّهم إلى ما كانوا عليه ، عصبية للحجاج . فلما انقضت دولة الأمويين واستخلف أبو العباس السفاح ، رفعوا إليه أمرهم ، وما كان من عمر بن عبد العزيز ويوسف بن عمر ، فردّهم إلى مائتي حلة . ولما استخلف هارون الرشيد شكوا إليه تعنت العمال معهم ، فأمر فكتب لهم كتاب بالمائتي حلة ، وبالغ بالرفق بهم ، فأمر أن يعفوا من معاملة العمال ، وأن يكون مؤداهم بيت المال بالحضرة ، كي لا يتمنّهم أحد من العمال .

هذا ما رواه المؤرخون في شأن هؤلاء الكتابيين الذين أجلاهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن جزيرة العرب . وقد رأيت مما مرّ مبلغ عناية عمر رضي الله عنه بهم ، لما لم يرُبدّاً من إجلائهم للأسباب التي مرّ ذكرها . وقد كان من السهل إكراههم على الإسلام ، ودخولهم فيه ، كما دخل أولئك الملايين من مشركي العرب ، وعامة سكان الجزيرة العربية ، طوعاً أو كرهاً . وإنما هو الشرع الإسلامي ، منع من إكراه غير مشركي العرب على الإسلام ، كما منع من نقض العهد ، وخفر الذمة ، إلا بسبب مشروع . لهذا ، لما خان النجرازيون عهدهم بعاملهم بالربا ، وقد عاهدوا رسول الله ﷺ ألا يتعاملوا به في الجزيرة ،

ساغ لأمر المؤمنين إجلالهم إلى غيرها ، بمد أن عوتضهم عن المال والمغار بمثله . وما زال الخلفاء بعده - مباغلةً بالرفق بأهل الكتاب ، وقياماً بواجب السيادة العادلة ، ووفاء بعهد الله والرسول - يعاملون النجرائين بأحسن ما تعامل به عامة الرعية من المسلمين ، ويدفعون عنهم أذى الظلم والإجحاف كما رأيت .

ونتج من هذه القصة ثلاثة أمور :

الأمر الأول - عدم إكراه النجرائين على الإسلام ، مع تعين الخطر من وجودهم في جزيرة العرب ، لحدائثة عهد أهلها بالإسلام . ذلك لأن عدم الإكراه من أصول الشريعة الإسلامية . والجهاد الذي يعظم أمره أعداء المسلمين إنما شرع لحماية الدعوة للإكراه ، ألا جهاد مشركي العرب يومئذ . فقد شرع لإرغامهم على الإسلام ، لأسباب حكيمة لا تخفى على بصير ، أهمها تطهير نفوس تلك الأمة العظيمة من شرور الوثنية ، واستئصال شائقة الجهل والتوحش من جزيرة العرب ، التي كانت وسطاً بين ممالك الشرق والغرب ، من آسيا وأفريقيا وأوروبا ، بل هي نقطة الصلة السياسية والتجارية بين تلك الممالك ، فانتشار أنوار المدنية والدين فيها ، يستلزم انتشارها بطبيعة المجاورة والإشراف على تلك الممالك أيضاً ، وقد كان ذلك كما هو معلوم .

والأمر الثاني - عدم حيد الخلفاء عن أمر الشارع فيما أمر به من الوفاء بالمهود ، وتأكيدهم لعهد النجرائين ، الواحد تلو الآخر ، على ضعف هؤلاء وقاوتهم ، وقوة الخلافة الإسلامية وسلطانها . وإن ذلك لم يكن عن رهبة أو رغبة ، بل عن محض تمسك بالعهد ، وعدل بين الشعوب الخاضعين لسلطة الخلافة ، وسلطان الإسلام ، من كل ملة ودين .

والأمر الثالث - حرص أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه على قاعدة حماية الذي في نفسه وماله ، بتعويضه النجرائين عن أرضهم ومالهم بالمثل من أرض المسامين ومالهم ، لما قضت الضرورة بإجلالهم عن أرضهم ، إلى غيرها من بلاد المسامين : وقد ذكر في سيرة أبي بكر عن عمر رضي الله

عنهما ما فعله من هذا القبيل من أهل عَرَبَسُوسَ من ثغور الروم، وكيف أنه لما أمر بإجلائهم عن أرضهم لخياتهم جوار المسلمين ، ونسكتهم عهد الأمانة والصدق ، أمر بأن يموتوا عن مالهم وعقارهم ونعمهم ضعفين . وما زال الخلفاء في أيام الفتوح العظيمة وما بعدها يحافظون على حق القرار الثابت ، والملك القديم ، للأقوام المغلوبين للمسلمين ، الخاضعين لسلطانهم ، سواء كانوا من المسيحيين أو غيرهم . ولم يؤثر عن أحد منهم أنه طرد قوماً من أرضهم ، أو انتزعها منهم بغير حق ولا عوض . ولا عبرة بما ربما يقع من هذا القبيل على بعض الأفراد من جور بعض العمال الذين غلبت شهواتهم على الفضيلة ، فحادوا عن طريق الشرع ، فإنه قد يصيب أفراد المسلمين من جور هؤلاء أكثر مما يصيب غيرهم ، وليس في هذا ما يقدح في أصول الحكم الإسلامي الذي يأبى الظلم ، ويدعو إلى الرأفة والعدل . هذا شأن الإسلام في المحافظة على حقوق الأمم المغلوبة . وقد رأيت مما تقدم أنه لم يعط للمسلمين من حقوق الغلب التي ينتحلها الغالبون في كل عصر ، إلا ما تدعو إليه الضرورة القصوى ، وتستلزمه سلامة الملك والدين ، لا ما تدعو إليه شهوات الملك ، ورغبات الأمة الغالبة . وقد علم هذا المسلمون وخلفاؤهم، وأن لأهل الذمة مالهم ، وعليهم ما عليهم ، فبالأموال في الرأفة بأهل جوارهم ، والداخلين في ذمتهم من أرباب الملل الأخرى ، فتركوا لهم حرية التملك والدين ، لم ينافزعوهم حقاً من حقوق المواطنة والجوار ، بل كانوا يعتبرونهم جزءاً من الدولة ، وعضواً من أعضاء مجتمعاتهم لا غنى عن مشاركتهم في العمل ، ومشاطرته أسباب السعادة المدنية ، والحياة الوطنية . يؤيد هذا اعتماد الخلفاء الأمويين والعباسيين على أهل الكتاب من اليهود والنصارى في ترتيب دواوين الخراج . وترجمة علوم اليونان ، وتقريب الفابيين منهم في علوم الهندسة والطب ، إليهم . واعتمادهم في شفاء عللهم عليهم . بل بلغ بالمسلمين اعتبارهم لأهل الكتاب عضواً من جسم هيأتهم الاجتماعية ، لا يجوز فصله في حال من الأحوال - أن جيوش القطار ، لما اكتسحت بلاد الإسلام من حدود الصين إلى الشام ،

ووقع في أسرهم من وقع من المسلمين والنصارى ، ثم خضد المسلمون شوكة القتار في الشام ، ودان ملوكهم بالإسلام ، خاطب شيخ الإسلام ابن تيمية رأس العلماء في عصره أمير القتار (قطاوشاء) بإطلاق الأسرى ، فسمح له بالمسلمين ، وأبى أن يسمح له بأهل الذمة ، فقال له شيخ الإسلام : لا بد من انتكاشك جميع من معك من اليهود والنصارى الذين هم أهل ذمتنا ، ولا ندع أسيراً لا من أهل الملة ، ولا من أهل الذمة . فأطلقهم له - انتهى - .
ومنه يعلم شأن الحكم الإسلامى في أهل الذمة ، ومبلغ عناية الخلفاء والعلماء بهم .
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرُ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ، ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ ، يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ ، قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ، أَنَّى يُؤْفَكُونَ)

« وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرُ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ » جملة مبتدأة ، سميت لتقرير ما مر من عدم إيمان أهل الكتابين بالله سبحانه ، وانتظامهم بذلك في سلك المشركين . وقرئ (عزير) بالتنوين على الأصل ، وحذفه لالتقاء الساكنين على غير القياس تخفيفاً . وهو مبتدأ وما بعده خبره ، ولهم أوجه أخرى في إعرابه ، والوجه ما ذكرناه .

وليعلم أن الذى دعا الفريقين إلى مقالبيهما هو الغلو في التعميم . فأما اعتقاد النصارى فهو مشهور معلوم ، تكفل التنزيل الكريم بذكره مرارا ، ودحر شبهه . وأما اليهود في (عزير) فغلاتهم أو جهلتهم يتفهون بهذه الكلمة الشنعاء ، وأما بقيتهم فيعتبرونه في مقام موسى ، ويحترمونه دائما ذكره ، ويعتقدون أن الله تعالى قد أقامه لجمع القوراة المبددة . ولتجديد الملة الموسوية ، وإرجاعها إلى عهدا ، وإصلاح ما فسد من آدابها وعوائدها ، بإلهام ،

فإن نسخة التوراة الأصلية ، وبقية أسفارهم ، فقدت لما أغار أهل بابل ، جند (بخت نصر) على بيت المقدس ، وهدموه ، وسبوا أهله إلى مملكتهم بابل ، وأقاموا هناك سبعين سنة ، ثم لما نبغ فيهم (عزرا) واشتهر ، واستمعطف أحد ملوكهم في سراحهم ، فأطلق له الملك الإجازة ، فعاد من بابل بمن بقي من اليهود إلى بيت المقدس ، وجدد ما اندثر من الشريعة الموسوية .

قال بعض الكتابيين في قاموس له : زعم اليهود أن أتمتهم عقدوا مجمعا في عهد (عزرا) ، وجمعوا الأسفار العبرانية في قانون متعارف عندهم اليوم ، وضموها إليه ما لم يكن فيه من قبل جلاء بابل .

وفي (الذخيرة) من كتبهم ما نصه : أجمع القوم على أن (عزرا) الذي كان خيبريا بآثار وطنه وقدمها ، وماهرا بمعرفة الطقوس اليهودية ، وبارعا بالعلوم المقدسة ، هو أول من قرر هذا القانون ، وأثبت أجزاءه المختلفة ، بعد الأسر البابلي في نحو السنة ٥٤٣ قبل ميلاد المسيح ، ولما تفرقت التوراة آن الجلاء ، قام (عزرا) وجمع ما وجد من النسخ المتناثرة ، وألف منها نسخة صححها ونقحها ما استطاع ، وبذل أسماء الأماكن التي انتسخ ثم استعماؤها ، بأسماء أخرى أشهر في عرفهم ، ونسق الشكل نسقا محكما ، واتفق الجميع على أنه اعتاض في كل الأسفار عن حروف الخط العبراني بحروف كلدانية ، ألف استعملها اليهود مدة أسره الذي استمر سبعين سنة . انتهى .

فلهذا العمل المهم عندهم دعوه (أبنا) . وفيه من الجراءة على المقام الرباني ما فيه . ولوزعوا إرادة المجاز في ذلك ، فلا مناص لهم من حقوق الكفر بهم ، فإنه يجب الاحتياط في تنزيهه تعالى ، حتى بعة اللسان ، عن النطق بما يؤهم نقصا في جانبه ، فيتبرأ من مثل هذا اللفظ مطلقا ومن كل ما شاكاه . هذا وقد قيل إن القائل لذلك بعض من مقدميهم ، وقيل ناس من أهل المدينة في عهد النبي ﷺ ولا دلالة في الآية على واحد منهما بخصوصه ، ونسبة الشيء القبيح إذا صدر من بعض القوم إلى الكل ، مما شاع .

لطيفة :

قرىء (عزير) بالقنوين على الأصل ، لأنه منصرف ، وقرىء بحذفه لاتقاء الساكنين على غير القياس ، لا لأنه أعجمي غير منصرف للملمية والمعجمة ، كما قيل ، لأن ذلك إتمام يصح لو كان على لفظه الأصلي ، وهو (عزراء) أو (عزريا) ، لفظان عبرانيان ، معنى الأول معين ، والثاني الله مساعد . أما وقد تصرف فيه العرب بالتصغير ، فلا . وظاهر أن أغلب الأسماء القديمة ، لانتقالها من أمة إلى أخرى وكثرة تداولها ، تطرق إليها من شوائب التحريف والزيادة والنقصان ، ما غير صيغتها الأصلية بعض التغيير . ولما استعملت العرب من الأسماء العبرانية ونحوها ما أدخلته إلى لغتها ، إما منجوتة من القديمة ، أو محرفة منها ، أصبحت بالاصطلاح من قبيل الأعلام العربية ، إلا ما بقى على وضعه الأول .

وقوله تعالى « ذَلِكْ » إشارة إلى ما صدر عنهم من العظيمتين . وما فيه من معنى البعد ، للدلالة على بعد درجة المشار إليه في الشناعة والفظاعة - قاله أبو السعود - « قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ » قال الزمخشري : فإن قلت : كل قول يقال بالفم ، فما معنى (بِأَفْوَاهِهِمْ) ؟ قلت : فيه وجهان :

أحدهما - أن يراد به أنه قول لا يعضده برهان ، فما هو إلا لفظ يفوهون به ، فارغ من معنى تحته ، كالألفاظ المهملات التي هي أجراس ونغم ، لا تدل على معان . وذلك أن القول الدال على معنى ، لفظه مقول بالفم ، ومعناه مؤثر في القلب . وما لا معنى له ، مقول بالفم لا غير .
والثاني - أن يراد بالقول المذهب ، كقولهم (قول أبي حنيفة) ، يريدون مذهبه ، وما يقول به ، كأنه قيل : ذلك مذهبهم ودينهم بأفواههم ، لا بقلوبهم ، لأنه لا حجة معه ولا شبهة ، حتى يؤثر في القلوب . وذلك أنهم إذا اعترفوا أنه لا صاحبة له ، لم تبقى شبهة في انتقاء الولد . انتهى .

وتمت وجه ثالث شائع في مثله ، وهو التأكيد النسبة هذا القول إليهم ، مع التعجب

من تصرّحهم بتلك المقالة العاسدة . قال بعضهم : القول قد ينسب إلى الأفواه وإلى الألسنة ،
والأول أبلغ .

« يُضَاهِيُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ » أى يضاهي قول الذين كفروا
من قبلهم من الأمم ، فضلوا كما ضل أوثاك . قيل : المراد بـ (الَّذِينَ كَفَرُوا) مشركو مكة ،
القائلون بأن الملائكة بنات الله ، وهذا يتم إن أريد بـ (اليهود والنصارى) فى الآية ،
يهود المدينة ونصارى نجران فى عهده ﷺ ، وهو وجه فى الآية كما تقدم ، فإنهم سبقوا
من أهل مكة بالكفر به عليه الصلاة والسلام . وقيل : المراد بهم قداماؤهم ، يعنى أن من كان
فى زمنه عليه الصلاة والسلام منهم ، يضاهي قول قدامائهم . والمراد عراقتهم فى الكفر ،
أى أنه كفر قديم فيهم غير مستحدث .

قال أبو السعود : وفيه أنه لا تعدد فى القول ، حتى يتأتى التشبيه ، وجعله بين قولى
الفریقین ، مع اتحاد القول ، ليس فيه مزيد مزينة . وقيل : الضمير للنصارى ، أى يضاهي
قواهم (الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ) قول اليهود (عَزَّيْرٌ ... الخ) لأنهم أقدم منهم .

قال أبو السعود : وهو أيضاً كما ترى ، فإنه يستدعى اختصاص الرد والإبطال بقوله
تعالى (ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ) ، بقول النصارى . انتهى .

والمضاهاة المشابهة ، يقال : ضاهيت ، وضاهأت - كما قاله الجوهري - وقراءة العامة
(يضاهون) بهاء مضمومة بعدها واو . وقرأ عاصم بهاء مكسورة بعدها همزة مضمومة ،
وهما بمعنى . من المضاهاة ، وهى المشابهة ، وهما لغتان . وقيل : الياء فرع عن الهمزة ،
كما قالوا : قريت وتوضيت وأخطيت « فَأَنذَرْتُهُمُ اللَّهُ » أى لنهم أو قتلهم ، أو عاداهم أو تعجب
من شناعة قولهم « أَتَيْنَا بُؤُسُكُونًا » أى كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل .
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣١] (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

« اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ » زيادة تقرير لما سلف من كفرهم بالله تعالى ، وفيه وصفهم بنوع آخر من الشرك . والأخبار علماء اليهود جمع (حَبَر) بكسر الحاء وفتحها ، وهو العالم بتجبير الكلام وتحسينه - كذا ذكره أئمة اللغة - قال بعضهم : (الخبر) أعظم الأشراف بين الإسرائيليين ، يكون عندهم وسيلة للتقرب لله ، ومرتبة وراثية في آل هارون ، يكون بكر أشيخ من فيها . انتهى .

و (الرهبان) جمع راهب بمعنى المتعبد الخاشع الزاهد . وأصل الترهّب عند النصارى ، التخلّي عن أشغال الدنيا ، وترك ملاذّها ، والزهد فيها ، والعزلة عن أهلها . وفي الحديث (١) (لا رهبانية في الإسلام) . وقوله تعالى (أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ) قال الرازي : الأكثرون

(١) لم أقف على هذا الحديث بهذا النص . وإنما أخرج الإمام أحمد في المسند بالصفحة ٨٢ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) ضمن حديث طويل عن أبي سعيد الخدري وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام .

وبالصفحة ٢٦٦ من هذا الجزء عن أنس بن مالك « لكل نبي رهبانية ورهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله » .

وبالصفحة ٢٢٦ من الجزء السادس (طبعة الحلبي) عن عائشة « يا عثمان ! إن الرهبانية لم تكتب علينا . . . » .

وجاء في مسند الدارمي في : ١١ - كتاب النكاح ، ٣ - باب النهي عن التبتل ، عن سعد بن أبي وقاص « يا عثمان ! إني لم أؤمر بالرهبانية » :

من المفسرين قالوا : ليس المراد من الأرباب أنهم اعتقدوا فيهم أنهم آلهة العالم ، بل المراد أنهم أطاعوهم في أوامرهم ونواهيهم ، أى لما روى الترمذى ^(١) عن عدى بن حاتم قال : أتيت النبي ﷺ وفي عنق صليب من ذهب ، فقال : يا عدى ! اطرَحْ عنك هذا الوثَنَ . وسمعتَه يقرأ في سورة براءة (اتَّخَذُوا أَخْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ) قال : أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه ، وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه .

وروى الإمام أحمد والترمذى ^(٢) وابن جرير ^(٣) من طرق ، عن عدى بن حاتم رضى الله عنه أنه لما بلغته دعوة رسول الله ﷺ فرَّ إلى الشام ، وكان قد تنصَّر في الجاهلية فأسرت أخوته وجماعة من قومه ، ثم من رسول الله ﷺ ، على أخته ، وأعطاهَا ، فرجعت إلى أخيها ، فرغَّبته في الإسلام ، وفي القدوم على رسول الله ﷺ ، فقدم عدى المدينة ، وكان رئيساً في قومه طيِّ ، وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم ، فتحدث الناس بقدومه ، فدخل على رسول الله ﷺ وفي عنق عدى صليب من فضة ، وهو يقرأ هذه الآية (اتَّخَذُوا أَخْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ) قال : فقلت : إنهم لم يعبدوهم ، فقال بلى : إنهم حرَّموا عليهم الحلال ، وأحلوا لهم الحرام ، فاتبعوهم ، فذلك عبادتهم إياهم . وقال رسول الله ﷺ : يا عدى ! ما تقول ؟ أبضرك أن يقال : الله أكبر ؟ فهل تعلم شيئاً أكبر من الله ؟ ما يضرك أن يقال : لا إله إلا الله ، فهل تعلم إلهاً غير الله ؟ ثم دعاه إلى الإسلام فأسلم وشهد شهادة الحق .

(١) أخرجه الترمذى في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٩ - سورة التوبة ١٠ - حدثنا الحسين بن مرثد السكوفى . (٢) أخرجه الترمذى في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٩ - سورة التوبة ، ١٠ - حدثنا الحسين بن مرثد السكوفى . (٣) تفسير الطبرى بالصفحة ١١٤ من الجزء العاشر (طبعة الحلبي الثانية) .

قال فلقد رأيت وجهه استبشر . ثم قال : إن اليهود مغضوب عليهم ، والنصارى ضالون .

قال ابن كثير : وهكذا قال حذيفة بن اليمان وابن عباس وغيرهما في تفسير هذه الآية ، أنهم اتبعوهم فيما حللوا وحرّموا .

وقال السدي : استنصحو الرجال ، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم . وقد ذكر بعض المفسرين وجهاً في تفسير اتخاذهم أرباباً ، قال : بأن أطاعوهم بالسجود لهم .

قال الشهاب : والأول هو تفسير النبي ﷺ ، فينفى الاختصار عليه ، لأنه لما أتاه عدى ابن حاتم وهو يقرأها قال له : إنا لم نعبدكم ، فقال : ألم تتبعوهم في التحليل والتحريم ؟ فهذه هي العبادة ، والناس يقولون : فلان يعبد فلاناً ، إذا أفرط في طاعته ، فهو استعارة بتشبيه الإطاعة بالعبادة ؛ أو مجاز مرسل بإطلاق العبادة ، وهي طاعة مخصوصة على مطلقها ، والأول أبلغ . انتهى .

قال الرازي : قال الربيع : قلت لأبي العالبة : كيف كانت تلك الربوبية في بني إسرائيل ؟ فقال : إنهم ربما وجدوا في كتاب الله ما يخالف أقوال الأحرار والرهبان ، فكانوا يأخذون بأقوالهم ، وما كانوا يقبلون حكم كتاب الله تعالى .

قال الرازي : قال شيخنا ومولانا خاتمة المحققين والمجاهدين رضي الله عنه : قد شاهدت جماعة من مقلدة الفقهاء ، قرأت عليهم آيات كثيرة في كتاب الله تعالى في بعض مسائل ، وكانت مذاهبهم بخلاف تلك الآيات ، فلم يقبلوا تلك الآيات ولم يلتفتوا إليها ، وبقوا ينظرون إلى كالتعجب ، بمعنى كيف يمكن العمل بظواهر هذه الآيات ، مع أن الرواية عن سلفنا وردت على خلافها ؟ ولو تأملت حق التأمل وجدت هذا الداء سارياً في عروق الأكثرين من أهل المدينة . انتهى .

« وَمَا أَمُرُوا » أى والحال أن أولئك الكفرة ما أمروا فى كتابهم « إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا » أى يطيعوا أمره ، ولا يطيعوا أمر غيره بخلافه ، وقوله « لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ » صفة ثانية لـ (إلهاً) ، أو استئناف مقرر للتوحيد « سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ » أى به فى العبادة والطاعة .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)

« يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَهِهِمْ » أى يخذلوا حجته الدالة على وحدانيته ، وتقدهسه عن الولد ، أو القرآن ، أو نبوة محمد ﷺ « وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ » أى بإعلاء التوحيد ، وإعزاز الإسلام « وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ » أى بدلائل التوحيد ، ذلك . قال أهل المعانى : نور الله استعارة أصلية تصريرية لحجته أو ما بعدها ، لتشبيهه كل منها بالنور فى الظهر . والإطفاء ترشيح ، أو هو استعارة تمثيلية ، شبه حلقهم فى محاولتهم إبطال النبوة بالكذب ، بحال من يطلب إطفاء نور عظيم ، منبث فى الآفاق ، يريد الله أن يزيده بفضحه .

لطائف :

الأولى - قال الشهاب : روى فى كل من المشبه والمشبه به الإفراط والتفريط ، حيث شبه الإبطال بالإطفاء بالنم ، ونسب النور إلى الله . ومن شأن النور المضاف إليه أن يكون عظيماً ، فكيف يطفأ بنفخ النم ، مع ما بين الكفر الذى هو ستر وإزالة للظهور ، والإطفاء من المناسبة .

الثانية - لا يخفى أن قوله تعالى : (إِلَّا أَنْ يُتِمَّ) استثناء مفرغ ، وهو في محل نصب مفعول به ، والاستثناء المفرغ يكون في الفعل النفي لا الموجب ، إلا أن يستقيم المعنى . وهذا صح التفريغ من الموجب وهو (وَيَأْتِي اللَّهُ) لأنه نفي في المعنى ، لأنه وقع في مقابلة (يُرِيدُونَ) وفيه من المبالغة والدلالة على الامتناع ما ليس في نفي الإرادة ، أى لا يريد شيئاً من الأشياء إلا إتمام نوره ، فيندرج في المستثنى منه بقاؤه على ما كان عليه ، فضلاً عن الإطفاء - أفاده أبو السعود - .

وقال الزجاج : المستثنى منه محذوف تقديره (ويكره الله كل شيء إلا إتمام نوره) .
قال الشهاب : فالمعنى على العموم المصحح للتفريغ ، عنده ، فلئلا في توجيه التفريغ هنا مسلحان . والحاصل أنه إن أريد كل شيء يتعلق بنوره بقرينة السياق ، صح إرادة العموم ، ووقع التفريغ في الثابتات ، كما ذهب إليه الزجاج ، إذ مامن عام إلا وقد خصص ، فكل عموم نسبي ، لكنه يكتفى به ، ويسمى عمومياً . ألا ترى أن مثالهم (قرأت إلا يوم كذا) قد قدره كل يوم ، والمراد من أيام عمره ، لا من أيام الدهر . فإن نظر إلى الظاهر في أمثاله كان عاماً ، واستغنى عن النفي ، وإن نظر إلى نفس الأمر ، فهو ليس بعام ، فيؤول بالنفي ، والمعنى فيهما واحد وإنما أول به هنا عند من ذهب إلى تأويله ، لاقتضاء المقابلة له ، إذ مامن إثبات إلا ويمكن تأويله بالنفي ، فيلزمه جريان التفريغ في كل شيء ، وليس كذلك ما صرح به الرضى . ولذا قيل : الاستثناء المفرغ ، وإن اختص بالنفي ، إلا أنه قد يقال مع المعنى بمونة القرائن ، ومناسبة المقامات ، فيجوز بعض الإيجابيات مجرى النفي في صحة التفريغ معها - ذكره الشهاب أيضاً - .

الثالثة - قال أبو السعود : وفي إظهار (النور) في مقام الإظهار مضافاً إلى ضميره عز وجل - زيادة اعتناء بشأنه ، وتشريف له على تشريف ، وإشارة بعلّة الحكم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ)

« هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ » أى القرآن الذى هو هدى للمتقين « وَدِينِ الْحَقِّ » أى التوحيد الثابت الذى لا يزول « لِيُظْهِرَهُ » أى الدين الحق « عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ » أى على سائر الأديان « وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ » أى أن يكون ذلك .

وجواب (لو) فيهما محذوف لدلالة ما قبله عليه ، وجملة (هُوَ الَّذِي) الخ بيان وتقرير لمضمون الجملة قبلها ، لأن المراد من إتمام نوره إظهاره . ولكونه بحسب المال بمعنى ، ذيله بما ذيله به بعينه ، لكنه عبر عن الكافرين بالمشركون تقديراً عن صورة التكرار - كذا في العنابة - .

وفي الصحيح^(١) عن رسول الله ﷺ أنه قال : إن الله زوى لى الأرض ، مشارقها ومغاربها ، وسيبلغ ملك امتى ما زوى لى منها .

وروى الإمام أحمد^(٢) عن مسعود بن قبيصة أو قبيصة بن مسعود يقول : صلى هذا الحى من محارب الصبح ، فلما صلوا قال شاب منهم : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إنه ستفتح لكم مشارق الأرض ومغاربها ، وإن عمالها فى النار ، إلا من اتقى الله وأدى الأمانة .

(١) أخرجه مسلم فى : ٥٢ - كتاب الفتن وأثرها الساعة ، حديث رقم ١٩ (طبعنا) عن ثوبان .

وأخرجه أبو داود فى : ٣٤ - كتاب الفتن والملاحم ، ١ - باب ذكر الفتن ودلائلها ، حديث ٤٢٥٢ .

والإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٢٧٨ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٣٦٦ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .

وأخرج أيضاً^(١) عن تميم الدارى قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ليلفن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله هذا الدين ، يعز عزيراً ، ويذل ذليلاً ، عزاً يعز الله به الإسلام ، وذلاً يذل الله به الكفر .
وكان تميم الدارى يقول : قد عرفت ذلك فى أهل بيتى ، لقد أصاب من أسلم منهم الخير والشرف والعز . ولقد أصاب من كان كافراً منهم الذل والصغار والحزبة .

وأخرج أيضاً^(٢) عن المقداد بن الأسود قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : لا يبق على وجه الأرض بيت مدر ولا وبر إلا دخلته كلمة الإسلام ، يعز عزيراً ، ويذل ذليلاً ، إما يعزهم الله فيجعلهم من أهلها ، وإما يذلهم فيدينون لها .

وأخرج أيضاً^(٣) عن عدى بن حاتم قال : دخلت على رسول الله ﷺ فقال : يا عدى ! أسلم تسلم . فقلت : إني من أهل دين . قال : أنا أعلم بدينك منك . فقلت : أنت أعلم بدينى منى ؟ قال : نعم ، ألسنت من الرّكوسية^(٤) ، وأنت تأكل مرباع^(٥) قومك ؟ قلت : بلى ! قال : فإن هذا لا يحل لك فى دينك . قال : فلم يمد أن قالها ، فتواضعت لها . قال : أما إني أعلم ما الذى يمتك عن الإسلام ، تقول : إنما اتبعه ضعفة الناس ، ومن لا قوة له ، وقد رمته العرب ، أتعرف الحيرة ؟ قلت : لم أرها ، وقد سمعت بها . قال : فوالذى نفسى بيده !

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة ١٠٣ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٤ من الجزء السادس (طبعة الحلبي) .

(٣) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢٥٧ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

(٤) الركوسية بالفتح قوم لهم دين بين النصارى والصابئين . وروى عن ابن الأعرابي أنه قال : هذا من نعت النصارى ولا يعرب . اه قاموس وشرحه . (٥) المرباع : الربع ، كالعشار بمعنى العشر ، ولم يسمع فى غيرها . وكان القوم يغزون بعضهم فى الجاهلية ، فيغنمون ، فيأخذ الرئيس ربع الغنيمة دون أصحابه خالصاً ، وذلك الربع يسمى المرباع . اه قاموس وشرحه .

ليؤمن الله هذا الأمر ، حتى تخرج الظمينة من الحيرة ، حتى تطوف بالبيت من غير جوار أحد ، ولتفتحن كنوز كسرى بن هرمز ، قلت : كسرى بن هرمز ؟ قال : نعم ! كسرى ابن هرمز ، وليبدلن المال حتى لا يقبله أحد .

قال عدى بن حاتم : فهذه الظمينة تخرج من الحيرة ، فتطوف بالبيت من غير جوار أحد ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز ، والذي نفسى بيده ! لتكونن الثالثة ، لأن رسول الله ﷺ قد قالها .

وروى (١) مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى ، فقلت : يا رسول الله ! إن كنت لأظن حين أنزل الله عز وجل (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ . . .) الآية - إن ذلك تام ! قال : إنه سيكون من ذلك ما شاء الله عز وجل ، ثم يبعث الله رجلاً طيباً ، فيتوفى كل من كان في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان فيبقى من لا خير فيه ، فيرجعون إلى دين آبائهم .

قال في (الباب) : معنى الآية ليظهرن دين الإسلام على الأديان كلها ، وهو ألا يعبد الله إلا به . وكذا روى عن أبي هريرة رضى الله عنه أنه قال : هذا وعد من الله تعالى بأنه يجعل الإسلام عالياً على جميع الأديان ، وتعام هذا إنما يحصل عند خروج عيسى . وكذلك قال الضحاك والسدي : لا يبقى أحد إلا دخل في الإسلام . وقال الشافعى : قد أظهر الله دين رسوله ﷺ على الأديان كلها ، بأن أبان لكل من سمعه أنه الحق ، وما خالفه من الأديان باطل ، وأظهره على الشرك دين أهل الكتاب ، ودين الأميين ، فقهر رسول الله ﷺ الأميين حتى دانوا بالإسلام طوعاً وكرهاً ، وقتل أهل الكتاب وسبى حتى دان بعضهم بالإسلام ، وأعطى بعضهم الجزية صاغرين ، وجرى عليهم حكمه . قال : فهذا هو ظهوره على الدين كله . انتهى .

(١) أخرجه مسلم في صحيحه في : ٥٢ - كتاب الفتن وأشراف الساعة ، حديث رقم ٧٢ (طبعنا) .

قلت : ما ذكره الشافعى هو من ظهوره ، والأدق ما تقدم ، من أنه سوف يعتنقه كل فرقة ، فإن ما تذهب إليه طوائف الإصلاح من الملل الأخرى لا يبعد الآن عن الإسلام إلا قليلاً .

ثم بين تعالى حال الأخبار والرهبان في إغوائهم لأراذلهم ، إثر بيان سوء حال الأنباغ فى اتخاذهم لهم أرباباً يطعمونهم فى الأوامر والنواهى ، واتباعهم لهم فيما يأتون وما يذرون ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ » أى بالطريق المنكر من الرشا فى الأحكام والتخفيف والمساعدة فى الشرائع وغير ذلك . و (الأكل) مجاز عن الأخذ ، بعلاقة العلية والمعلولة : لأنه الغرض الأعظم منه . وفيه من التقييد لحالهم ، وتنفير السامعين عنه ما لا يخفى « وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ » أى عن دين الإسلام وحكمه ، واتباع الدلائل ، إلى ما يهرون . أو عن المسلك المقرر فى التوراة والإنجيل ، إلى ما افتروه وحرّفوه .

ثم أشار إلى أن سبب ذلك هو إبتارهم حب المال وكنزه على أمر الله ، وتناسيهم وعيده فى الكنز بقوله سبحانه « وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ » أى يحفظونها حفظ المدفون فى الأرض « وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ » أى الذى هو الزكاة « فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (يَوْمَ يُخَمَّى عَلَيْهِمْ فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَيُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كُنْتُمْ لَا تَفْقَهُونَ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ)

« يَوْمَ يُخَمَّى عَلَيْهِمْ » أى بوقد عليها « فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَيُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كُنْتُمْ لَا تَفْقَهُونَ » أى ويقال لهم ضمناً إلى ما غم فيه ، هذا ما كنتم « لَا تَفْقَهُونَ » أى لتتلدذوا به ، فكان سبب تعذيبها « فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ » أى وباله ، وهو اله وشدته بالسكى .

وفي هذه الآية فوائد :

الأولى : قال بعضهم في قوله تعالى (أَيْمًا كُفُلُونَ) دلالة على تحريم الرشا على الباطل ، وقد ورد^(١) (لعن الله الراشئ والمرتشئ) . وكذا تحريم أخذ العوض على فعل الواجب . وفي جواز الدفع ليتوصل إلى حقه خلاف . رجح الجواز ليتوصل إلى الحق ، كالاستفتاء . قال الحاكم يدخل في تحريم الرشا الأحكام والشهادات والفتاوى وأصول الدين وفروعه ، وكل من حرق شيئاً لغرض الدنيا . انتهى .

الثانية - في الآية - كما قال ابن كثير - تحذير من علماء السوء وعباد الضلال ، كما قال سفيان بن عيينة : من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود ، ومن فسد من عبادنا كان فيه شبه من النصارى . وفي الحديث الصحيح^(٢) (لتركبن سنن من كان قبلكم حدو)

(١) أخرجه الترمذى في : ١٣ - كتاب الأحكام ٩ - باب ما جاء في الراشئ والمرتشئ في الحكم .

(٢) نص الحديث في البخارى في ٦٠ - كتاب الأنبياء ، ٥٠ - باب ما ذكر عن بنى إسرائيل ، حديث ١٦٢٢ .

=

القذّة بالقذّة) قالوا: اليهود والنصارى؟ قال: فن؟ وفي رواية: فارس والروم؟ قال: ومن الناس إلا هؤلاء؟ ثم أنشد لابن المبارك:

وهل أفسد الدين إلا الملو كُ ، وأحبار سوء ورهبانها

الثالثة - قوله تعالى (وَالَّذِينَ) مبتدأ ، والخبر (يَكْنُزُونَ) أو منصوب تقديره : بشر الذين يكنزون . والتعريف في الموصول للمهد . والمهود ، إما الأحبار والرهبان ، وإما المسلمون الكانزون ، لجري ذكر الفريقين ، وإما ما هو أعم . والأول روى عن معاوية ، والثاني عن السدي ، والثالث عن ابن عباس وأبي ذر .

قال الزمخشري : يجوز أن يكون الموصول إشارة إلى الكثير من الأحبار والرهبان ، للدلالة على اجتماع خصلتين مذمومتين فيهم : أخذ البراطيل ، وكنز الأموال والضم بها عن الإتيان في سبيل الله . ويجوز أن يراد المسلمون الكانزون غير المنفقين ويقرن بينهم وبين المرتشين من اليهود والنصارى تغليظاً ، ودلالة على أن من يأخذ منهم السحت ، ومن لا يعطى منكم طيب ماله ، سواء في استحقاق البشارة بالعذاب الأليم . انتهى .

قال في (الأنوار) : ويؤيد الثاني أنه لما نزل كبر على المسلمين ، قد كر عمر رضي الله عنه لرسول الله ﷺ فقال : إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيب بها ما بقى من أموالكم - رواه (١) أبو داود والحاكم وصححه - وقوله ﷺ ما أدى زكاته فليس بكنز - أخرجه الطبراني والبيهقي -

= وفي مسلم في : ٤٧ - كتاب العلم ، حديث رقم ٦ (طبعنا) نصه هكذا : عن أبي سميد الخدرى : أن النبي ﷺ قال « لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع . حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه » ، قلنا : يا رسول الله! اليهود والنصارى؟ قال: «فن»؟ أما الحديث الذي جاء فيه حذو القذة بالقذة فقد أخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة ١٢٥ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) ونصه عن شداد بن أوس : « ليحملن شرار هذه الأمة على سنن الذين خلوا من قبلهم ، أهل الكتاب ، حذو القذة بالقذة » .

(١) أخرجه أبو داود في : ٩ - كتاب الزكاة ، ٣٢ - باب في حقوق المال ، حديث ١٦٦٤

أى ليس بالسكنز المتوعد عليه فى الآية ، فإن الوعيد على السكنز مع عدم الإتفاق فيما أمر الله أن ينفق فيه . وأما قوله ﷺ : من ترك سفراء أو بيضاء كوى بها ونحوه ، فالمراد منها : ما لم يؤد حقتها ، لقوله عليه الصلاة والسلام ، فيما أورده الشيخان : البخارى فى تاريخه ، ومسلم^(٢) فى صحيحه ، عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم : ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدى منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره . انتهى .

وقد اشتهرت محاوراة معاوية لأبى ذر فى هذه الآية .

روى البخارى^(١) عن زيد بن وهب قال : سررت بالربذة ، فإذا بأبى ذر ، فقلت : ما أتلك هذا المنزل ؟ قال : كنت فى الشام ، فاختلفت أنا ومعاوية فى هذه الآية : (وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ . . .) فقال معاوية : نزلت فى أهل الكتاب ؛ فقلت : نزلت فينا وفيهم . فكان بينى وبينه فى ذلك كلام ، فكتب إلى عثمان يشكونى ، فكتب إلى عثمان أن أقدم المدينة فقدمتها ، فكثرت على الناس حتى كأنهم لم يرونى قبل ذلك ، فذكرت ذلك لعثمان ، فقال : إن شئت تمنحيت ، فكنت قريباً . فذاك الذى أنزلنى هذا المنزل ، ولو أمر على عبد حبشى سمعت وأطمت .

ولابن جرير^(٣) فى رواية (بمد قول عثمان له : تمنح قريباً) قلت : والله لن أدع ما كنت أقول .

وروى أبو يعلى أن أبا ذر كان يحدث ويقول : لا يبيتن عند أحدكم دينار ولا درهم ، إلا ما ينفقه فى سبيل الله ، أو يعمده لغيره . فكتب معاوية إلى عثمان : إن كان لك بالشام

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه فى ١٢ : - كتاب الزكاة حديث رقم ٢٤ (طبعنا) .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه فى : ٢٤ - كتاب الزكاة ، ٤ - باب ما أدى زكاته

فليس يكنز ، حديث رقم ٧٤٩ . (٣) انظر تفسير الطبرى بالصفحة رقم ١٢٢ من الجزء العاشر (طبعة الحلبي الثانية) .

حاجة ، فابحث إلى أبي ذر فكتب إليه عثمان أن أقدم على ، فقدم .
 قال ابن كثير : كان من مذهب أبي ذر رضى الله عنه تحريم ادخار ما زاد على نفقة
 العيال ، وكان يفتى بذلك ، ويحثهم عليه ، وبأمرهم به ، ويغلظ في خلافه . فنهاه معاوية
 فلم ينته . فحشى أن يضر بالناس في هذا ، فكتب يشكوه إلى أمير المؤمنين عثمان ، وأن
 يأخذه إليه ، فاستقدمه عثمان إلى المدينة ، ثم أنزله بالربذة ، وبها مات رضى الله عنه في خلافة
 عثمان . وقد اختبره معاوية رضى الله عنه وهو عنده ، هل يوافق عمله قوله ، فبعث إليه بألف
 دينار ، ففرقها من يومه ، ثم بعث إليه الذى أناء بها فقال : إن معاوية إنما بعثنى إلى غيرك
 فأخطأت فهاك الذهب . فقال : ويحك ! إنها خرجت ، ولكن إذا جاء مالى حاسبناك به .
 وقال ^(١) الأحنف بن قيس : قدمت المدينة فبينما أنا في حلقة فيها ملأ من قریش ، إذ
 جاء رجل أخشن الثياب ، أخشن الجسد ، أخشن الوجه ، فقام عليهم فقال : بشر السكاتين
 برصف ^(٢) يحمى عليه في نار جهنم ، ثم يوضع على خلة ندى أحدهم حتى يخرج من نفص ^(٣)
 كتفه ، ويوضع على نفص كتفه حتى يخرج من خلة نديه ، يتزلزل . قال : فوضع القوم
 رؤوسهم ، فآرايت أحدا منهم رجع إليه شيئا . قال : وأدبر واتبعته حتى جالس إلى معاوية
 فقلت : ما رأيت هؤلاء إلا كرهوا ما قلت لهم ، فقال : إن هؤلاء لا يعلمون شيئا ، إنما
 يجمعون الدنيا - رواء مسلم ، وللبخارى نحوه - .

وفي الصحيح ^(٤) أن رسول الله ﷺ قال لأبي ذر : ما يسرنى أن عندى مثل أحد ذهبا ،

(١) أخرجه البخارى في : ٢٤ - كتاب الزكاة ، ٤ - باب ما أدى زكاته فليس بكفر ،

حديث رقم ٧٥٠ .

وأخرجه مسلم في : ١٢ - كتاب الزكاة ، حديث ٣٤ (طبعنا) .

(٢) الرصف : الحجارة المحماة على النار . واحدها رصفة .

(٣) النفص : أعلى الكتف . وقيل : العظم الرقيق الذى على طرفه .

(٤) أخرجه البخارى في : ٤٣ - كتاب الاستقراض وأداء الديون ، ٣ - باب أداء

الديون ، حديث رقم ٦٦٠ .

يمر على ثلاثة أيام ، وعندى منه شيء ، إلا دينار أرصده لدين .

قال ابن كثير : فهذا - والله أعلم - هو الذى حدا أبا ذر على القول بهذا .

أى وما أخرجه الشيخان^(١) أيضاً عنه ، قال : انتهيت إلى النبی ﷺ وهو جالس فى ظل السكبة ، فلما رآنى قال : هم الأخسرون ورب السكبة ! قال : فجلت حتى جلست ، فلم أقتار حتى قت فقلت : يا رسول الله ! فذاك أبى وأمى ، من هم ؟ قال : هم الأكثرون أموالاً ، إلا من قال هكذا وهكذا وهكذا ، من بين يديه ومن خلفه ، وعن يمينه وعن شماله ، وقليل ما هم .

وروى الإمام أحمد^(٢) عن عبد الله بن الصامت رضى الله عنه ، أنه كان مع أبى ذر ، فخرج عطاؤه ومعه جارية ، فجملت تقضى حوائجها ، ففضلت معها سبعة ، فأمرها أن تشتري به فلوساً . قال : قلت : لو ادخرته لحاجة بيوتك ، وللضيف ينزل بك . قال : إن خليلي عهد إلى أن أيتما ذهب أو فضة أو كى عليه ، فهو جمر على صاحبه ، حتى يفرغه فى سبيل الله عز وجل إفراغاً .

قال ابن عبد البر : وردت عن أبى ذر آثار كثيرة ، تدل على أنه كان يذهب إلى أن كل مال مجموع يفضل عن القوت ، وسداد العيش ، فهو كثر بدم فاعله ، وأن آية الوعيد نزلت فى ذلك ، وخالفه جمهور الصحابة ومن بعدهم ، وحملوا الوعيد على ما نعى الزكاة ، وأصبح ما تمسكوا به حديث طالحة وغيره فى قصة الأعرابي^(٣) حيث قال : هل على غيرها ؟ قال : لا ، إلا أن تطوع . انتهى .

- (١) أخرجه البخارى فى : ٨٣ - كتاب الأيمان والنذور ، ٣ - باب كيف كانت يمين النبی ﷺ ، حديث ٧٧٥ . وأخرجه مسلم فى : ١٢ - كتاب الزكاة ، حديث ٣٠ (طبعقنا) .
(٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة ١٧٥ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .
(٣) يشير إلى حديث البخارى الذى رواه عن طلحة بن عبيد الله فى : ٢ - كتاب الأيمان ، ٣٤ - باب الزكاة من الإسلام ، حديث ٤٢ .

وبالجملة فالجمهور على أن الكنز المذموم ما لم تؤدّ زكاته . وقد ترجم للبخاري^(١) في (صحيحه) فقال (باب ما أدى زكاته فليس بكنز) . ويشهد له حديث أبي هريرة^(٢) مرفوعا : إذا أدبت زكاة مالك فقد قضيت ما عليك - حسنه الترمذي وصححه الحاكم - . وعن ابن عمر : كل ما أدبت زكاته ، وإن كان تحت سبع أرضين ، فليس بكنز وكل ما لا تؤدى زكاته فهو كنز ، وإن كان ظاهرا على وجه الأرض - أووده البهيقي مرفوعا ، ثم قال : المشهور وقفه ، كحديث جابر : إذا أدبت زكاة مالك ، فقد أذهبت منك شره . أخرجه الحاكم ، والمرجح وقفه .

هذا وذهب ابن عمر رضي الله عنهما ومن وافقه إلى أن الزكاة نسخت وعيد الكنز .

روى البخاري في (صحيحه)^(٣) أن أعرابيا قال لابن عمر : أخبرني عن قول الله تعالى (وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ ...) الآية - قال ابن عمر : من كنزها فلم يؤد زكاتها ، فويل له . إنما كان هذا قبل أن تنزل الزكاة ، فلما أنزل جعلها الله طهرا للأموال : زاد ابن ماجه^(٤) : ثم قال ابن عمر : ما كنت أبالي لو كان لي مثل أحد ذهباً ، أعلم عدده ، أزكيه وأعمل فيه بطاعة الله تعالى . ورواه أبو داود في كتاب (النسخ والنسوخ) . فهذا يشعر بأن الوعيد على الاكتناز - وهو حبس ما فضل عن الحاجة عن المواساة به - كان في أول الإسلام ، ثم نسخ ذلك بفرض الزكاة ، لما فتح الله الفتوح ، وقدرت نصب الزكاة . ويشعر أيضاً

(١) أخرجه في : ٢٤ - كتاب الزكاة ، ٤ - باب ما أدى زكاته فليس بكنز .

(٢) أخرجه الترمذي في : ٥ - كتاب الزكاة ، ٢ - باب ما جاء إذا أدبت الزكاة فقد

قضيت ما عليك . (٣) أخرجه البخاري في : ٢٤ - كتاب الزكاة ، ٤ - باب ما أدى

زكاته فليس بكنز ، حديث ٧٤٧ . (٤) أخرجه ابن ماجه في : ٨ - كتاب الزكاة ، ٣ -

باب ما أدى زكاته فليس بكنز ، حديث ١٧٨٧ (طبعنا) .

بأن فرض الزكاة كان في السنة التاسعة من الهجرة ، وجزم به ابن الأثير في (تاريخه) : وقواء بعضهم بما وقع في قصة ثعلبة بن حاطب المطولة ، ففيها لما أنزلت آية الصدقة بعث النبي صلى الله عليه وسلم عاملاً فقال : ما هذه إلا جزية أو أخت الجزية . والجزية إنما وجبت في التاسعة .

وأقول : هذا الحديث ضعوفه . والأفوى منه كون هذه السورة التي فيها هذه الآية نزلت في السنة التاسعة كما قدمنا . فإذا نسخت بالزكاة كانت الزكاة في تلك السنة أو بعدها قطعاً .

قال ابن حجر في (الفتح) : والظاهر أن ذلك كان في أول الأمر كما تقدم عن ابن عمر . واستدل له ابن بطال بقوله تعالى (٢) (وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْمَغْفُورَ) أي ما فضل عن الكفاية ، فكان ذلك واجباً في أول الأمر ، ثم نسخ - والله أعلم - .

وفي المسند (٣) من طريق يمل بن شداد بن أوس عن أبيه قال : كان أبوذر يسمع الحديث من رسول الله ﷺ فيه الشدة . ثم يخرج إلى قومه ، ثم يرخص فيه النبي ﷺ فلا يسمع للرخصة ، ويعمل بالأمر الأول .

وما سقناه من مذهب أبي ذر ، هو ما ساقه المفسرون وشراح الحديث . وزعم بعضهم أن الذي حدا أبا ذر لذلك ما رآه من استئثار معاوية بالنفء حيث قال : الذي صح أن الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم كانوا يعتبرون النفء لكافة المسلمين ، يستوى فيه المنافلون وغيرهم ، ولعله باعتبار أن القتال فريضة على كل المسلمين ، فكلمهم داخل تحت ذلك الحكم . قال : والذي يؤيد أنه لكافة المسلمين ، أن أبا ذر رضي الله عنه لما كان بالشام ، والوالى عليها ، من

(١) [٢ / البقرة / ٢١٩] . (٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة رقم ١٢٥

من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

قَبْلَ الْخَلِيفَةِ عُمَانَ ، معاوية رضى الله عنهما ، ورأى من معاوية ما يشعر بحرصه على ادخار المال فى بيت المال ، لصرفه فى وجوه المصالح التى يراها للمسلمين ، وكان أبو ذر مشهوراً بالورع شديد الحرص على حقوق المسلمين ، يقول الحق ولو على نفسه - أخذ يتكلم بهذا الأمر بين الناس واتخذ له حزباً من أهل الشام يساعده على مطالبة معاوية برد المال للمسلمين ، وبيان عدم الرضا بكثرة فى بيت المال ، لأى حال من الأحوال ، إلا لتوزيعه على كافة المسلمين لا اشتراكهم بما آفاه الله عليهم أجمعين . وتابته على قوله جماعة كثيرون ، كانوا يجتمعون لهذا القصد سرّاً وجهراً ، حتى كادت تكون فتنة ، فشكا معاوية إلى الخليفة عثمان رضى الله عنهم أجمعين فنفاه إلى الربرة خوفاً من حدوث ما لا تحمد عقباه . انتهى .

ونقل ما يقرب منه ابن حجر فى (الفتح) حيث قال : والصحيح أن إنكار أبى ذر كان على السلاطين الذين يأخذون المال لأنفسهم ولا ينفقونه فى وجهه .

الرابعة - إنما قيل (وَلَا يَنْفِقُونَهَا) بضمير المؤنث ، مع أن الظاهر التثنية ، إذ المذكور شيان لأن المراد بهما دنانير ودرهم كثيرة ، وذلك لأن الكثير منهما هو الذى يكون كثيراً ، فأتى بضمير الجمع للدلالة على السكثرة ، ولو تثنى احتمل خلافه . وقيل : الضمير عائذ على الكنوز أو الأموال المفرومة من الكلام ، فيكون الحكم عاماً ، ولذا عدل فيه عن الظاهر . وتخصيصهما بالذكر ، لأنهما الأصل الغالب فى الأموال لالتخصيص . وقيل : الضمير للفضة ، واكتفى بها ، لأنها أكثر ، والناس إليها أحوج ، ولأن الذهب يعلم منها بالطريق الأولى ، منع قربها لفظاً .

الخامسة - فى قوله تعالى (فَبَشِّرْهُمْ) تهكم بهم ، كما فى قوله ^(١) :

* نَجِيَّةٌ يَنْجِيهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعٌ *

(١) من شواهد الكتاب (ج ١ ص ٣٦٥) صدره * وخيل قد دلفت لها بخيل * .

قال الشنقرى : البيت لمعرو بن معدى كرب . والشاهد فيه جمل الضرب تحية ، على الاتساع . يقول : إذا تلاقوا فى الحرب جعلوا ، بدلا من تحية بعضهم لبعض ، الضرب الوجيع . ومعنى (دلفت) زحفت .

وقيل : البشارة هي الخبر الذي يتغير له لون البشرة ، لتأثيره في القلب ، سواء كان من الفرح أو من الغم .

السادسة - قيل في تخصيص هذه الأعضاء الثلاثة بالسكى دون غيرها : بأن جمع ذويها وإمسأكتهم كان لطلب الوجاهة بالغنى والتنعم بالمطاعم الشهية ، والملابس البهية ، فلَوَّجَاهَتِهِمْ ورناستهم المعروفة بوجوههم ، كان السكى بجباهاهم . ولا متلاء جنوبهم بالطعام كوا عليها . ولما لبسوه على ظهورهم كويت . وقيل : لأنهم إذا سألهم فقير تبدو منهم آثار الكراهة والمنع ، فتكلم وجوههم ، وتقطب . ثم إذا كرر الطلب أزوروا عنه وتركوه جانباً ، ثم إذا ألح ولَّوْهَ ظُهُورَهُمْ واستقبلوا جهة أخرى ، وهي النهاية في الرد ، والغاية في المنع ، الدال على كراهية الإغطاء والبذل . وهذا دأب مانئ البر والإحسان ، وعادة البخلاء ، فكان ذلك سبباً لسكى هذه الأعضاء . وقيل : لأن هذه الأعضاء أشرف الأعضاء الظاهرة ، إذ هي المشتملة على الأعضاء الرئيسية التي هي الدماغ والقلب والسكبد . أو لأنها أصول الجهات الأربع التي هي مقادير البدن وماخره وجنباه ، فيكون كناية عن جميع البدن .

وقال القاشاني : جمع المال وكثره مع عدم الإتفاق لا يكون إلا لاستحكام رذيلة الشح ، وحب المال . وكل رذيلة لها كية يمدب بها صاحبها في الآخرة ويحزى بها في الدنيا . ولما كانت مادة رسوخ تلك الرذيلة واستحكامها هي ذلك المال ، كان هو الذي يحصى عليه في نار جحيم الطبيعة ، وهاوية الهوى ، فيكوى به . وإنما خصت هذه الأعضاء ، لأن الشح مركز في النفس ، والنفس تغلب القلب من هذه الجهات ، لا من جهة الملو التي هي جهة استيلاء الروح وممر الحقائق والأنوار ، ولا من جهة السفلى التي هي من جهة الطبيعة الجسمانية ، لعدم تمكن الطبيعة من ذلك ، فبقيت سائر الجهات ، فيؤذى بها من الجهات الأربع ويمدب ، كما تراه يعاب بها في الدنيا ، ويحزى من هذه الجهات أيضاً ، إما بأن يواجه بها جهراً فيفضح ، أو يسار بها في جنبه ، أو يغتاب بها من وراء ظهره - انتهى .

السابعة - قال أبو البقاء (يَوْمَ) من قوله تعالى (يَوْمَ يُعْمَىٰ عَلَيْهَا) ظرف على المعنى .
 أى يعذبهم فى ذلك اليوم . وقيل : تقديره عذاب يوم ، وعذاب بدل من الأول ، فلما حذف
 المضاف أقام (اليوم) مقامه . وقيل : التقدير اذكروا ؛ و (عليها) فى موضع رفع لقيامه
 مقام الفاعل . وقيل : القائم مقام الفاعل مضمرة ، أى يحصى الوقود أو الجمر ، و (بها) أى
 بالسكنوز . وقيل : هى بمعنى (فيها) أى فى جهنم . وقيل : (يوم) ظرف المحذوف تقديره :
 يوم يحصى عليها يقال لهم هذا ما كنزتم اه .

ولما بين تعالى فيما تقدم إقدام الأحيار والرهبان على تغيير أحكام الله تعالى إثارةً لحطو ظمهم ،
 أتبعه بما جراً عليه المشركون فى نظيره من تغيير الأشهر التى حرمها الله تعالى بغيرها . وهو
 النسيء الآتى ، وقوفاً مع شهواتهم أيضاً ، فعمى عليهم سمعهم فى تغيير حكم السنة بحسب
 أهوائهم وآرائهم مما أوجب زيادة كفرهم ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ، فَلَا تَظْلِمُوا
 فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ ، وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ،
 وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)

« إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ » أى عددها « عِنْدَ اللَّهِ » أى فى حكمه « اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا »
 وهى القمرية التى عليها يدور فلك الأحكام الشرعية « فِي كِتَابِ اللَّهِ » أى فى اللوح المحفوظ ،
 لو فيها أثبتته وأوجبه من حكمه . وقوله : « يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ » متعلق بما
 فى الجار والمجرور من معنى الاستقرار . أراد بـ (الكتاب) على أنه مصدر ، والمعنى : أن هذا
 أمر ثابت فى نفس الأمر ، منذ خلق الله تعالى الأجرام والحركات والأزمنة . أفاده أبو السعود

« مِنْهَا » أى من تلك الشهور الاثني عشر « أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ » ثلاثة سرَّد : ذو القعدة وذو الحجة والحرم ، وواحد فرد وهو رجب « ذَلِكَ » أى تحريم الأشهر الأربعة المذكورة « الَّذِينَ الْقِيَمُ » أى المستقيم « فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ » أى بهتك حرمتها بالقتال فيها. وقال ابن إسحق : أى لا تجعلوا حرامها حلالاً ، ولا حلالها حراماً ، كما فعل أهل الشرك « وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً » أى جميعاً « وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ » أى بالنصر والإمداد .

ثم بين تعالى ثمرة هذه المقدمة ، وهو تحريم تغيير ما عين تحريمه من الأشهر الحرم ، وإيجاب الحدوبها على ما سبق فى كتابه ، ناعياً على المشركين كفرهم ، بإهمالهم ذلك ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِّئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ ، زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ)

« إِنَّمَا النَّسِيءُ » أى تأخير حرمة شهر إلى شهر آخر . مصدر (نساء) إذا أخره « زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ » لأنه تحليل ما حرمه الله ، وتحريم ما حله ، فهو كفر آخر مضموم إلى كفرهم « يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا » أى بالله عن أحكامه إذ يجمعون بين الحل والحرم فى شهر واحد « يُحِلُّونَهُ عَامًا » أى : يحلون النسئ من الأشهر الحرم سنة ، ويحرمون مكانه شهراً آخر « وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا » أى يتركونه على حرمة القديمة ، ويحافظون عليها سنة أخرى ، إذا لم يتعلق بتغييره غرض من أغراضهم ، والتمبير عن ذلك بالتحريم ، باعتبار إحلالهم له فى العام الماضى ، والجلتان تفسير للضلال ، أو حال .

قال الزمخشري : النسئ تأخير حرمة الشهر إلى شهر آخر ، وذلك أنهم كانوا أصحاب حروب وغارات ، فإذا جاء الشهر الحرام ، وهم محاربون ، شق عليهم ترك المحاربة ، فيحلونه

ويحرمون مكانه شهراً آخر ، حتى رفضوا تخصيص الأشهر الحرم بالتحريم ، فكانوا يحرمون من أشق شهور العام أربعة أشهر ، وذلك قوله تعالى « لِيُؤْطِثُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ » أي ليوافقوا المدة التي هي الأربعة ، ولا يخالفوها ، وقد خالفوا التخصيص الذي هو أحد الواجبين ، وربما زادوا في عدد الشهور ، فيجعلونها ثلاثة عشر ، أو أربعة عشر ، ليتسع لهم الوقت . ولذلك قال عز وعلا (إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا) يعني من غير زيادة زادوها « فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ » بتركهم التخصيص للأشهر بعينها « زَيْنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ » فاعتقدوا قبيحها حسناً « وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ » .

اعلم أن في هاتين الآيتين مسائل :

الأولى - أن الأحكام تعلق بالأشهر العربية ، وهي شهور الأهلة ، دون الشهور الشمسية . قيل : جمل أول الشهور الهلالية الحرم ، حدث في عهد عمر رضي الله عنه ، وكان قبل ذلك يؤرخ بعام القيل . ثم أرخ في صدر الإسلام بربيع الأول . وقد نقل ابن كثير هنا عن السخاوي وجوه تسمية الأشهر بما سميت به ، ونحن نورد ذلك مأثوراً عن أمهات اللغة المعول عليها فنقول :

١ - الحرم : على زنة اسم المفعول ، هو أول الشهور العربية . أدخلوا عليه ألف واللام لمخا للصفة في الأصل ، وجعلوها علماً بهما ، مثل النجم والدران ونحوها ، ولا يجوز دخولها على غيره من الشهور عند قوم ، وعند قوم يجوز على صفر وشوال . وجمع الحرم محرمات . والحرم شهر الله ، سمته العرب بهذا الاسم ، لأنهم كانوا لا يستحلون فيه القتال ، وأضيف إلى الله تعالى إعظماً له ، كما قيل للكعبة (بيت الله) . وقيل : سمي بذلك ، لأنه من الأشهر الحرم . قال ابن سيده : وهذا ليس بقوى .

٢ - صفر : الشهر الذي بعد الحرم . قال بعضهم : إنما سمي لأنهم كانوا يعتارون الطعام فيه من المواضع . وقيل : لإصفار مكة من أهلها إذا سافروا . وروى عن رؤبة أنه قال : سمو الشهر (صفرًا) ، لأنهم كانوا ينزون فيه القبائل ، فيتركون من لقوا صفرًا من المطاع ،

وذلك أن صفراً بعد المحرم ، فقالوا : صفر الناس منا صفراً . قال ثعلب : الناس كلهم يصرفون صفراً إلا أبا عبيدة ، فمنه للمعلمة والتأنيث ، بإرادة الساعة ، يعنى أن الأزمنة كلها ساعات ، وإذا جمعه مع المحرم قالوا : (صفران) ، ومنه قول أبي ذؤيب :

أَقَامَتْ بِهِ كَقَامِ الْحَيِّفِ شَهْرَيَّ مُجَادَى وَشَهْرَيَّ صَفَرٍ

(استشهد به في اللسان في مادة (ص فر) وليس في ديوان المهذلين) .

قال ابن دريد : الصفران من السنة شهران ، سمي أحدهما في الإسلام المحرم ؛ وجمعه أصفار ، مثل سبب وأسباب ، وربما قيل (صفرات) .

٤٣ - الربيع شهران بعد صفر ، سمي بذلك لأيهما خُذاً في هذا الزمن ، فليزهما في غيره قالوا : لا يقال فيهما إلا شهر ربيع الأول وشهر ربيع الآخر ، بزيادة (شهر) وتنوين (ربيع) ، وجعل (الأول) و (الآخر) وصفاً تابعاً في الإعراب ، ويجوز فيه الإضافة ، وهو من باب إضافة الشيء إلى نفسه عند بعضهم ، لاختلاف اللفظين ، نحو حبّ الحصيد^(١) ، وَلَدَارُ الْآخِرَةِ^(٢) ، وحق اليقين^(٣) ، ومسجد الجامع^(٤) . قال بعضهم : إنما التزمت العرب لفظ (شهر) قبل (ربيع) لأن لفظ (ربيع) مشترك بين الشهر والفصل ، فالتزموا لفظ شهر (في الشهر) وحذفوه في (الفصل) للفصل .

قال الأزهري أيضاً : والعرب تذكر الشهور كلها مجردة من لفظ (شهر) إلا شهرى ربيع ورمضان . ويثنى الشهر ويجمع ، فيقال شهر ربيع ، وأشهر ربيع ، وشهور ربيع . ٦٥ - جمادى الأولى والآخرة (كخُبَارَى) الشهران التاليان لشهرى ربيع . وجمادى

(١) [٤٠ / ق / ٩] . (٢) [١٢ / يوسف / ١٠٩] .

(٣) [٥٦ / الواقعة / ٩٥] و [٦٩ / الحاقة / ٥١] .

(٤) أخرجه في المسند بالصفحة ٢٤٧ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) ونصه : هشام

عن محمد قال : دخلت مسجد الجامع ... الخ .

معرفة مؤثقة . قال ابن الأنباري : أسماء الشهور كلها مذكرة ، إلا جماديين ، فهما مؤنسان . تقول مضت جمادى بما فيها ؛ قال الشاعر ^(١) :

إِذَا جُمَادَى مَنَمَتْ قَطَرَهَا زَانَ جِنَانِي عَطَنُ مُضَفِّفٍ

ثم قال : فإن جاء تذكير جمادى في شعر ، فهو ذهاب إلى معنى الشهر . كما قالوا : هذه ألف درهم ، على معنى هذه الدراهم . والجمع على لفظها جماديات ، والأولى والآخرة صفة لها . فالآخرة بمعنى المتأخرة . قالوا : ولا يقال جمادى الأخرى ، لأن الأخرى بمعنى الواحدة فتتناول المتقدمة والمتأخرة ، فيحصل اللبس . فقليل الآخرة لتختص بالتأخرة . وإنما سميت بذلك لجود الماء فيها ، عند تسمية الشهور ، من البرد . قال ^(٢) :

فِي لَيْسَةٍ مِنْ جُمَادَى ذَاتِ أُنْدِيَةٍ لَا يُبْصِرُ السَّكْبُ مِنْ ظُلُمَاتِهَا الطُّنْبُ
لَا يَنْبِجُ السَّكْبُ فِيهَا غَيْرَ وَاحِدَةٍ حَتَّى يَلْفٌ عَلَى خُرْطُومِهِ الدَّنْبُ

٧ - رجب : سمي به لتعظيمهم إياه في الجاهلية عن القتال فيه . يقال : رَجَبَ فلانا ، هابه وعظمه . كرجبه . منصرف وله جموع : أَرَجَابُ وأَرْجَبَةٌ وأَرْجُبُ ورجاب ورجوب وأراجب وأراجيب ورجبانات . وإذا ضموا له شعبان قالوا (رجبان) للتغليب . وفي الحديث ^(٣) : رجب مضر الذي بين جمادى وشعبان . وقوله (بين جمادى وشعبان) تأكيد للنشأن وإيضاح لأنهم كانوا يؤخرونه من شهر إلى شهر ، فيتحول عن موضعه الذي يختص به ، فيبين لهم أنه الشهر الذي بين جمادى وشعبان ، لا ما كانوا يسمونه على حساب النسيء ، وإنما قيل : رجب

(١) استشهد به في اللسان في مادة (ج م د) قال : أراد بـ (العطن) هنا نخيله الراسخة في الماء ، الكثيرة الحمل ، وعطن مفضف : إذاكثر نممُهُ . (٢) فائلهما مرة بن محكان ، الخامسة رقم ٦٧٥ . (٣) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٩ - سورة القوبة ، ٨ - باب قوله : إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ، الحديث رقم ٥٩ عن أبي بكر .

مضر وإضافه إليهم ، لأنهم كانوا أشد تعظيماً له من غيرهم ، وكانهم اختصوا به ، وذكر له بعضهم سبعة عشر اسماً .

٨ - شعبان : جمعه شعبانات وشمايين . من (تشعب) إذا تفرق كانوا يتشعبون فيه في طلب المياه . وقيل في الغارات . وقال ثعلب : قال بعضهم : إنما سمي شعبان لأنه شعب أى ظهر بين شهر رمضان ورجب .

٩ - رمضان : سمي به لأن وضعه وافق الرَّمَضَ (بفتحين) ، وهو شدة الحر ، وجمعه رمضانات وأرمضاء . وعن يونس أنه سمع رماضين ، مثل شمايين . وقيل : هو مشتق من (رمض الصائم يرمض) إذا اشتد حرّ جوفه من شدة العطش ، وهو قول الفراء . قال بعض العلماء : يكره أن يقال جاء رمضان وشبهه ، إذا أريد به الشهر ، وليس معه قرينة تدلّ عليه . وإنما يقال : جاء شهر رمضان ، واستدل بحديث (لا تقولوا رمضان فإن رمضان اسم من أسماء الله تعالى ، واسكن قولوا شهر رمضان) . وهذا الحديث ضعفه البيهقي ، وضعفه ظاهره ، لأنه لم ينقل عن أحد من العلماء أن رمضان من أسماء الله تعالى ، فلا يعمل به . والظاهر جواز من غير كراهة ، كما ذهب إليه البخاري وجماعة من المحققين ، لأنه لم يصح في الكراهة شيء . وقد ثبت في الأحاديث الصحيحة ما يدل على الجواز مطلقاً ، كقوله ^(١) : إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة ، وغلقت أبواب النار وصفدت الشياطين .

وحقق السهيلي أن الحذف (شهر) مقاماً يبين مقام ذكره ، يراعيه البليغ . وحاصله أن في حذفه إشعاراً بالعموم ، وفي ذكره خلاف ذلك ، لأنك إذا قلت شهر

(١) أخرجه البخاري في : ٣٠ - كتاب الصوم ، ٥ - باب هل يقال : رمضان أو

شهر رمضان ، حديث ٩٦٤ .

ومسلم في : ١٣ - كتاب الصيام ، حديث رقم ١ (طبعمتنا) عن أبي هريرة .

وفي البخاري : وسلسلت الشياطين ، وفي مسلم : صفدت .

كذا ، كان ظرفاً وزال العموم من اللفظ ، إذ المعنى في الشهر ، ولذلك قال ﷺ ^(١) (من صام رمضان) ولم يقل (شهر رمضان) ليكون العمل فيه كله . انتهى . فليقتأمل

١٠ - شوال : شهر عيد الفطر ، وأول أشهر الحج ، وجمعه شوالات وشواويل ، وقد تدخله الألف واللام . قال ابن فارس : وزعم ناس أن الشوال سمي بذلك لأنه وافق وقتاً تشول فيه الإبل ، أى ترفع ذنبها للقاح ، وهو قول الفراء . وقال غيره : سمي بتشويل ألبان الإبل ، وهو توليّه وإدباره ، وكذلك حال الإبل في اشتداد الحر ، واقطاع الرطب وكانت العرب تنظير من عقد المناكح فيه وتقول : إن المنكوحة تمنع من ناكحها ، حتى تمنع طروقة الجمل إذا لقحت وشالت بذنبها . فأبطل النبي ﷺ طيرتهم . وقات عائشة رضی الله عنها ^(٢) : تزوجني رسول الله ﷺ في شوال ، وبني بنى في شوال ، وأى نسائه كان أحظى عنده مني ؟

١١ - ذو القعدة : بفتح القاف ، والكسر لنة ، سمي به لأن العرب كانوا يقيمون فيه عن الأسفار والغزو والميرة وطلب الكلاء ، ويحجون في ذى الحجة : والجمع ذوات القعدة ، وذوات القعدات ، والثنية ذواتا القعدة وذواتا القعدتين ، فننوا الاسبين وجموعها ، وهو عزيز ، لأن الكلمتين بمنزلة كلمة واحدة ، ولا تقوالى على كلمة علامتا ثنية ولا جمع .

١٢ - ذو الحجة : الشهر الذى يقع فيه الحج سمي بذلك للحج فيه ، والجمع ذوات الحجة ، ولم يقولوا (ذوو) على واحد ، والفتح فيه أشهر من الكسر ، و (الحجة) بالكسر المرأة الواحدة من الحج ، وهو شاذ لأن القياس في المرة الفتح - انتهى - .

وقد أوردنا هذا ملخصاً عن (المصباح) و (القاموس) و (شرحه) .

المسألة الثانية - قدمنا أن الأشهر الحرم الأربعة ، ثلاثة مَرَدُّ أى متقابلة ، وواحد فرد

(١) أخرجه البخارى في : ٣٠ - كتاب الصوم ، ٦ - باب من صام رمضان إيماناً

واحتساباً ونية ، حديث رقم ٣٣ عن أبي هريرة .

(٢) أخرجه مسلم في : ١٦ - كتاب النكاح ، حديث رقم ٧٣ (طبعنا) .

وكانت العرب لا تستحل فيها القتال ، إلا حَيَّان : خثعم وطَيْيٌ ، فإنهما كانا يستحلان الشهور . وكان الذين ينسأون الشهور أيام الموسم يقولون : حرمنا عليكم القتال في هذه الشهور إلا دماء المحلين ، فكانت العرب تستحل دماءهم خاصة في هذه الشهور . وكان لقوم من غطفان وقيس ، يقال لهم الهباآت ، ثمانية أشهر حرم ، يقال لها (البَسَل) يحرمونها تشدداً وتعمقاً .

الثالثة : قال ابن كثير : إنما كانت الأشهر الحرم أربعة : ثلاثة سرد ، وواحد فرد ، لأجل أداء المناسك - الحج والعمرة - فحرم ، قبل أشهر الحج ، شهر وهو ذو القعدة لأنهم يقعدون فيه عن القتال . وحرم شهر ذي الحجة لأنهم يوقعون فيه الحج ويشتهلون بأداء المناسك . وحرم بـمـده شهر آخر وهو الحرم ليرجعوا فيه إلى أقصى بلادهم آمنين . وحرم رجب في وسط الحول ، لأجل زيارة البيت والاعتماد به ، لمن يقدم إليه من أقصى جزيرة العرب ، فيزوره ثم يعود إلى وطنه فيه آمناً .

الرابعة - قال النووي في (شرح مسلم) : وقد اختلفوا في كيفية عسديتها على قولين حكاهما الإمام أبو جعفر النحاس في كتابه (صناعة الكتاب) قال : ذهب السكوفيون إلى أنه يقال : الحرم ورجب وذو القعدة وذو الحجة قال : والكتاب يميلون إلى هذا القول لياتوا بهن من سنة واحدة . قال : وأهل المدينة يقولون : ذو القعدة وذو الحجة والحرم ورجب . وقوم يسكرون هذا ويقولون : جاؤوا بهن من سنتين . قال أبو جعفر : وهذا غلط بين ، وجعل بالغة ، لأنه قد علم المراد ، وأن المقصود ذكرها ، وأنها في كل سنة ، فكيف يتوهم أنها من سنتين ؟ قال : والأولى والاختيار ما قاله أهل المدينة ، لأن الأخبار قد تظاهرت عن رسول الله ﷺ كما قالوا ، من رواية ابن عمر وأبي هريرة وأبي بكرة رضي الله عنهم ، قال : وهذا أيضاً قول أكثر أهل التأويل .

الخامسة - استنبط بعضهم من قوله تعالى : (فَلَا تَطْلُمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ) أن الإثم

في هذه الأشهر الحرمه أكد وأبلغ في الإثم في غيرها ، كما أن المعاصي في البلد الحرام تضاعف ، لقوله تعالى (١) : (وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُدِقُهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ) وكذلك الشهر الحرام تغلظ فيه الآثام ، ولهذا تغلظ فيه الدية في مذهب الشافعي وطائفة كثيرة من العلماء ، وكذا في حق من قتل في الحرم أو قتل ذا محرم . وقال ابن عباس فيما رواه عنه علي ابن أبي طلحة : أنه تعالى اختص من الأشهر أربعة أشهر جعلهن حراماً ، وعظم حرماهن ، وجعل الذنب فيهن أعظم ، والعمل الصالح والأجر أعظم .

وقال قتادة : إن الظلم في الأشهر الحرم أعظم خطيئة ووزراً من الظلم فيما سواها ، وإن كان الظلم على كل حال عظيماً ، ولكن الله يمتظم من أمره ما يشاء . وقال : إن الله اصطفى صفائاً من خلقه ، اصطفى من الملائكة رسلاً ، ومن الناس رسلاً ، واصطفى من الكلام ذكراً ، واصطفى من الأرض المساجد ، واصطفى من الشهور رمضان والأشهر الحرم ، واصطفى من الأيام يوم الجمعة ، واصطفى من الليالي ليلة القدر . فمظموا ما عظم الله ، فإنما تعظيم الأمور بما عظم الله به عند أهل الفهم ، وأهل العقل - نقله ابن كثير - ثم ذكر أن ابن جرير اختار في قوله تعالى (فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ) ما قاله ابن إسحاق فيما تقدم .

أقول : وهو الظاهر المتبادر .

السادسة - قال المهايغي : إنما كان منها أربعة حرم ليكون ثلث السنة تغليماً للتحليل الذي هو مقتضى سمة الرحمة ، على التحريم الذي هو مقتضى الغضب فجعل أول السنة وآخرها وهو الحرم وذو الحجة . ولما لم يكن له وسط صحيح ، أخذ أول النصف الآخر وهو رجب ، فبقى من الثلث شهر ، فأخذ قبل الآخر وهو ذو القعدة ، ليكون مع آخر السنة المتصلة بأولها وترأ ، وبقى وتربة رجب فتم السنة على التحريم باعتبار أولها وآخرها ، وأوسطها ، مع تذكر وتربة الحق المؤكد للتحريم . انتهى .

(١) [٢٢ / الحج / ٢٥] .

السابعة - استدل جماعة بقوله تعالى^(١) (فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ) على أن تحريم القتال في الأشهر الحرم ثابت محكم لم ينسخ . وكذا بقوله تعالى^(٢) (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحِلُّوا شِمَازَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ) وبقوله تعالى^(٣) (فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ ..) الآية - وذهب آخرون إلى أن تحريم القتال فيها، منسوخ بآية السيف، بمعنى قوله تعالى^(٤) : (وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً) قالوا: ظاهر السياق مشعر بأنه أمر بذلك أمراً عاماً ولو كان محرماً في الشهر الحرام ، لأوشك أن يقيده بانسلاخها ، وبأن رسول الله ﷺ حاصر أهل الطائف في شهر حرام ، وهو ذو القعدة ، كما ثبت في الصحيحين^(٥) أنه خرج إلى هوازن في شوال ، فلما كسرهم واستفاء أموالهم ورجع فلهم ، لجؤوا إلى الطائف ، فعمد إلى الطائف فحاصره أربعين يوماً ، وانصرف ولم يفتقحها ، فثبت أنه حاصر في الشهر الحرام . وأجاب الأولون بأن الأمر بقتل المشركين ومقاتلتهم مقيد بانسلاخ الأشهر الحرم ، كما في قوله تعالى^(٦) : (فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ ...) الآية - فتكون سائر الآيات المتضمنة للأمر بالقتال مقيدة بما ورد في تحريم القتال في الأشهر الحرم ، كما هي مقيدة بتحريم القتال في الحرم ، للأدلة الواردة في تحريم القتال فيه . فقوله تعالى : (وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً ...) الآية - من باب التمهيج والتخصيض ، أى كما يجتمعون لحربكم إذا حاربوكم ، فاجتمعوا كذلك لهم . أو هو إذن للمؤمنين بقتال المشركين في الشهر الحرام ، إذا كانت البداءة منهم ، كما قال تعالى^(٧) : (الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ) وقال تعالى^(٨) : (وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ

(١) [٩ / التوبة / ٣٦] . (٢) [٥ / المائدة / ٢] . (٣) [٩ / التوبة / ٥] .

(٤) [٩ / التوبة / ٣٦] . (٥) أخرجه البخارى في : ٦٤ - كتاب المغازى ،

٥٦ - باب غزوة الطائف في شوال سنة ثمان ، حديث رقم ١٩٢٨ عن عبد الله بن عمر .

وأخرجه مسلم في : ٣٢ - كتاب الجهاد والسير ، حديث ٨٢ (طبعنا) .

(٦) [٩ / التوبة / ٥] . (٧) [٢ / البقرة / ١٩٤] (٨) [٢ / البقرة / ١٩١] .

الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ...) الآية - وهكذا الجواب عن حصار رسول الله ﷺ أهل الطائف ، واستصحابه الحصار إلى أن دخل الشهر الحرام ، فإنه من تقمة قتال هوازن وأحلافها من ثقيف ، فإنهم هم الذين ابتدؤوا القتال ، وجمعوا الرجال ، ودعوا إلى الحرب والنزال ، فمعهذا قصدهم رسول الله ﷺ كما تقدم . فلما تحصنوا بالطائف ، ذهب إليهم لينزلهم من حصونهم ، فقالوا من المسلمين ، وقتلوا جماعة واستمر الحصار بالمخانيق وغيرها قريبا من أربعين يوما ، وكان ابتداءه في شهر حلال ، ودخل الشهر الحرام ، فاستمر فيه أياما ، ثم قفل عنهم ، لأنه يفتقر في الدوام مالا يفتقر في الابتداء ، وهذا أمر مقرر ، وله نظائر كثيرة . فالحرم هو ابتداء القتال في الأشهر الحرام ، لا إتمامه ، وبهذا يحصل الجمع ، ولذا قال ابن جريج : حلف بالله عطاء بن أبي رباح ؛ ما يحل للناس أن يغزوا في الحرم ، ولا في الأشهر الحرم ، وما نسخت إلا أن يقاتلوا فيها .

الثامنة - قال في (الإكليل) في قوله تعالى (إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ ...) الآية - إن الله وضع هذه الأشهر ومماها وربها على ما هي عليه ، وأنزل ذلك على أنبيائه ، فيستدل به لمن قال : إن اللغات توقيفية .

الخامسة - في (الإكليل) أيضا : استدلل بقوله تعالى (وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً) من قال إن الجهاد في عهد رسول الله ﷺ كان فرض عين .

العاشر - قال ابن إسحاق^(١) : كان أول من نسا الشهور على العرب ، فأحل منها ما حرم الله ، وحرم منها ما أحل الله عز وجل (القلمس) وهو حذيفة بن عبد قيس بن عدي بن عامر بن ثعلبة ابن الحارث بن مالك بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان . ثم قام بعده على ذلك ابنه عباد ، ثم ابنه قلع ، ثم أمية بن قلع ، ثم ابنه عوف بن أمية ، ثم ابنه أبو ثامة جنادة بن

(١) سيرة ابن هشام صفحة ٣٠ . (طبعة جوتنجن) و صفحة ٤٥ من الجزء الأول

(طبعة الحلبي) .

عوف ، وكان آخرهم ، وعليه قام الإسلام ، فكانت العرب ، إذا فرغت من حجها ، اجتمعت إليه ، فقام فيهم خطيباً فحرم رجياً ، وذا القعدة ، وذا الحجة . ويجعل (المحرم) عاماً ، ويجعل مكانه (صفر) ويحرمه عاماً ليواطىء عدة ما حرم الله ، فيحل ما حرم الله ، بمعنى ويحرم ما أحل الله . انتهى

و (القَلَمَس) بقاف فلام مفقوحتين ثم ميم مشددة . قال في (القاموس وشرحه) : هو رجل كنانى من نَسَاءِ المشهور على مدة في الجاهلية ، كان يقف عند جرة العقبة ويقول : اللهم إني ناسي المشهور ، وواضعها مواضعها ، ولا أعاب ولا أجاب . اللهم إني قد أحللت أحد الصفرين ، وحرمت صفر المؤخر ، وكذا في الرجيين ، (بمعنى رجياً وشعبان) ثم يقول : انفروا على اسم الله تعالى . قال شاعرهم :

* وفيما ناسي المشهر القَلَمَس *

وقال عمير بن قيس المعروف بِجَذَلِ الطَّعَانِ (١) :

لقد علمت معدّ أن قوى كرامُ الناس أن لهم كراما
ألسنا الناسئين على معدّ شهورَ الحِلِّ نجعلها حراما
فأى الناس فاتونا بوترٍ وأى الناس لم نُملِكْ لِحْجَامَا

وروى (٢) أن أول من سن النسيء عمرو بن لُحَيّ ، والذي صح من حديث أبي هريرة

(١) في سيرة ابن هشام ص ٣٠ و ٣١ (طبعة جوتنجن) و ٤٦ و ٤٧ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) أن لهم كراما : أى آباء كراما وأخلاقا كراما . والوتر : طلب النار . لم نُملِكْ لِحْجَامَا : يريد لم تقدعهم ولم نكفهم كما يقدر الفرس باللجام . تقول : أعلكت الفرس لِحْجَامَه ، إذا رددته عن تنزعه فضغ اللجام كالملك ، من نشاطه .

(٢) أخرجه البخارى في : ٦١ - كتاب المناقب ٩ - باب قصة خزاعة ، حديث ١٦٥٦ و ١٦٥٧ عن أبي هريرة .

وأخرجه مسلم في : ٦١ - كتاب صفة الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، حديث رقم ٥٠ (طبعتنا)

وعائشة : أن عمرو بن لحي أول من سب السوائب ، وقال فيه النبي ﷺ (رأيت عمرو بن لحي يجر قصبة في النار) .

ثم حرض تعالى المؤمنين على قتال الكفرة ، إثر بيان طرف من قبائحهم الموجبة لذلك ، وأشار إلى توجه العتاب والملامة إلى المتخلفين عنه ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْتَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ، أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ، فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْتَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ » أى تذاقتم وتباطأتم . والاستفهام فى (مَا لَكُمْ) فيه معنى الإنكار والتوبيخ . وقوله (إِلَى الْأَرْضِ) متعلق بـ (أَتَأْتَلْتُمْ) على تضمينه معنى الميل والإخلاد ، أى اتذاقتم مائلين إلى الدنيا وشهواتها الفانية عما قليل ، وكرهتم مشاق الغزو ، المستتعبة للراحة الخالدة ، كقوله تعالى ^(١) : (أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ) . أو مائلين إلى الإقامة بأرضكم ودياركم . وكان ذلك فى غزوة تبوك فى سنة عشر بعد رجوعهم من الطائف ، استأنفروا لغزو الروم فى وقت عسرة وقحط وقيط ، وقد أدركت ثمار المدينة وطلبت ظلالتها ، مع بُعد الشقة ، وكثرة المدق ، فشق عليهم .

وقوله تعالى « أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا » أى الحقيرة الفانية « مِنَ الْآخِرَةِ » أى بدل الآخرة ونعيمها الدائم « فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » أظهر فى مقام الإضمار لزيادة التقرير ، أى فما التمتع بلذائدها « فِي الْآخِرَةِ » أى فى جنب الآخرة أى إذا قيسست إليها ، و (فى)

هذه تسمى (فى القياسية) لأن المقيس يوضع بجانب ما يقاس به « إِلَّا قَلِيلٌ » أى مستحققر لا يؤبه له .

روى الإمام أحمد^(١) ومسلم^(٢) عن السيورد قال : قال رسول الله ﷺ : ما الدنيا فى الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إصبعه هذه فى اليم ، فليمنظر به ترجع - وأشار بالسبابة - . ثم تواعد تعالى من لم ينفر إلى الغزو ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

« إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ » أى لنصرة نبيه ، وإقامة دينه « وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا » لأنه الغنى عن العالمين ، أى وإنما تضررون أنفسكم . وقيل : الضمير للرسول ﷺ ، أى ولا تضرروه ، لأن الله وعده النصر ، ووعدُهُ كائن لا محالة . « وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » أى من التعذيب والتبديل ونصرة دينه بغيرهم . وفى هذا التواعد ، على من يتخلف عن الغزو ، من الترهيب الرهيب ما لا يقدر قدره .

تنبيه ٤ :

قال بعضهم : ثمرة الآية لزوم إجابة الرسول عليه الصلاة والسلام إذا دعا إلى الجهاد ، وكذا يأتى مثله فى دعاء الأئمة ، ويأتى مثل الجهاد ، الدعاء إلى سائر الواجبات ، وفى ذلك تأكيد من وجوه :

الأول - ما ذكره من التوبيخ .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٢٢٩ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

(٢) أخرجه مسلم فى ٥١ - كتاب الجدة وصفة نعيمها وأهلها ، حديث رقم ٥٥ (طبعتنا) .

الثاني - قوله تعالى (إِنَّا قَلَّمْتُ إِلَى الْأَرْضِ) وأن الميل إلى المنافع والدعة واليسذات لا يكون رخصة في ذلك .

الثالث - في قوله تعالى (أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا) فهذا زجر .

الرابع - قوله تعالى (فَمَا مَتَاعُ ...) الآية - وهذا تحسيس لرأيهم .

الخامس - ما عقب من الوعيد بقوله (إِلَّا تَنْفَرُوا يُعَذِّبْكُمْ) .

السادس - ما بالغ فيه بقوله (عَذَابًا أَلِيمًا) .

السابع - قوله (وَيَسْتَبْدِلْ ...) الآية .

الثامن - قوله (وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) ففيه تهديد .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيًا إِثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى ، وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

« إِلَّا تَنْصُرُوهُ » أى بالخروج معه إلى تبوك « فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا » يعنى كفار مكة حين مكروا به ، فصاروا سبب خروجه ، فخرج ومعه أبو بكر الصديق رضى الله عنه « ثَانِيًا إِثْنَيْنِ » حال من ضميره عليه الصلاة والسلام . أى أحد اثنين « إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ » بدل من (إِذْ أَخْرَجَهُ) بدل البعض ، إذ المراد به زمان متسع . والغار نقب في أعلى نور ، وهو جبل في الجهة اليمنى من مكة على مسيرة ساعة ، مكثا فيه ثلاثاً ، ليرجع الطالب الذين خرجوا في آثارها ، ثم يسيرا إلى المدينة « إِذْ يَقُولُ » بدل ثان ، أى

رسول الله ﷺ « لِصَاحِبِهِ » أى أبى بكر « لَا تَحْزَنْ » وذلك أن أبابكر رضى الله عنه أشفق من المشركين أن يملوا بمكانهما ، فيخلص إلى الرسول ﷺ أذى ، وطفق يجزع لذلك ، فقال له رسول الله ﷺ (لَا تَحْزَنْ) « إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا » أى بالنصرة والحفظ .

روى الإمام أحمد ^(١) والشيخان ^(٢) عن أبى بكر رضى الله عنه قال : نظرت إلى أقدام المشركين ونحن في الغار ، وهم على رؤوسنا ، فقلت : يا رسول الله ! لو أن أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا تحت قدميه ! فقال : يا أبابكر ! ما ظنك بأتين الله ثالثهما « فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ » أى أَمَنَتَهُ التى تسكن عندها القلوب « عَلَيْهِ » أى على النبي ﷺ « وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا » يعنى الملائكة ، أنزلهم ليحرسوه في الغار ، أو ليعينوه على العدو يوم بدر والأحزاب وحنين ، فتكون الجملة معطوفة على قوله (نَصَرَهُ اللَّهُ) . وقوى أبو السمود الوجه الثانى بأن الأول يأباه وصفهم بعدم رؤية المخاطبين لهم .

قلت : لا إباءة ، لأن هذا وصف لازم لإمداد القوة الغيبية في كل حال ، وفي الثانى تفكيك في الأسلوب لبعد المتعاطفين ، فافهم . والله أعلم .

« وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى » أى المغلوبة القهورة ، و(الكلمة) الشرك ، أو دعوة الكفر ، فهو مجاز عن معتقدهم الذى من شأنهم التكلم به على أنها الشرك ، أو هى بمعنى الكلام مطلقا على أنها دعوة الكفر « وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا » يعنى التوحيد ، أو دعوة الإسلام كما تقدم ، أى التى لا تزال عالية إلى يوم القيامة (وكلمة الله) بالرفع على الابتداء (هِيَ الْعُلْيَا) مبتدأ وخبر . أو تكون (هى) فصلا . وقرئ بالنصب أى : وجعل كلمة الله ، والأول

- (١) أخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة رقم ٤ من الجزء الأول (طبعة الحلبي)
والحديث رقم ١١ (طبعة المعارف) . (٢) أخرجه البخارى في : ٦٥ - كتاب التفسير ،
٩ - سورة التوبة ، ٩ - باب ثَانِيِ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ ، حديث ١٧١٦ .
وأخرجه مسلم في : ٤٤ - كتاب فضائل الصحابة ، حديث رقم ١ (طبعتنا) .

أوجه وأبلغ ، لأن الجملة الاسمية تدل على الدوام والثبوت . وإن الجعل لم يتطرق لها لأنها في نفسها عالية لا يتبدل شأنها ولا يتغير حالها . وفي إضافة (الكلمة) إلى (الله) إعلاء لمكانها ، وتفويده لشأنها « وَاللَّهُ عَزِيزٌ » أى غالب على ما أراد « حَكِيمٌ » فى حكمه وتدييره .

تنبيه :

قال بعض مفسرى الزيدية : استدل على عظيم محل أبى بكر من هذه الآية من وجوه :
 منها : قوله تعالى (إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ) ، وقوله (إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا) ، وقوله :
 (فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ) قيل : على أبى بكر . عن أبى على والأصم . قال أبو على : لأنه الخائف المحتاج إلى الأمن ، وقيل : على الرسول ، عن الزجاج وأبى مسلم . قال جابر الله : وقد قالوا : من أنكر محبة أبى بكر فقد كفر ، لأنه رد كتاب الله تعالى . انتهى .

وقال السيوطى فى (الإكليل) : أخرج ابن أبى حاتم عن أبى بكر رضى الله عنه أنه قال :
 أنا ، والله ! صاحبه . فمن هنا قالت المالكية : من أنكر محبة أبى بكر كفر وقتل ، بخلاف غيره من الصحابة ، لخص القرآن على محبته - انتهى .

وعن ابن عمر ^(١) أن رسول الله ﷺ قال لأبى بكر : أنت صاحبى على الخوض ، وصاحبى فى الغار - أخرجه الترمذى وقال : حديث حسن غريب .

وقد ساق الفخر الرازى اثنى عشر وجهاً من هذه الآية على فضل الصديق رضى الله تعالى عنه ، فأطال وأطاب .

ولما توعد تعالى من لا ينفر مع الرسول لتبوك ، وضرب له من الأمثال ما فيه أعظم مزدجر ، أتبعه بهذا الأمر الجزم ؛ فقال سبحانه :

(١) أخرجه الترمذى فى : ٤٦ - كتاب المناقب ، ١٦ - باب فى مناقب أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، كليهما ، حدثنا يوسف بن يوسف القطان البغدady .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤١] (انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

« انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا » حالان من ضمير المخاطبين ، أى على أى حال كنتم خفافاً في النفور لنشاطكم له ، و ثقلاً عنه ، لمشقة عليكم . أو خفافاً لقلة عيالكُم وأذيالكُم ، و ثقلاً لكثرتها . أو خفافاً من السلاح و ثقلاً منه . أو ركباناً ومشاة . أو شباباً وشيوخاً أو مهازبل وسماناً . واللفظ الكريم يعم ذلك كله . والمراد حال سهولة النفَر وحال صعوبته .

وقد روى عن ثلة من الصحابة أنهم ما كانوا يتخافون عن غزاة قط ، ويستشهدون بهذه الآية .

ولما كانت البعوث إلى الشام ، قرأ أبو طلحة رضى الله عنه سورة براءة حتى أتى على هذه الآية ، فقال ، أرى ربنا استنفرنا شيوخاً وشباباً ، جهزوني يا بنى ! فقال بنوه ؛ يرحمك الله ، قد غزوت مع رسول الله ﷺ حتى مات ، ومع أبى بكر حتى مات ، ومع عمر حتى مات ، فنحن نفرو عنك فقال : ما سمع الله عذر أحد ، ثم خرج إلى الشام فقاتل حتى قتل .

وكان أبو أيوب الأنصارى رضى الله عنه يقرأ هذه الآية ، ويقول : فلا أجدنى إلا خفيفاً أو ثقيلاً ولم يتخلف عن غزاة المسلمين إلا عاماً واحداً .

وقال أبو راشد الحرانى : وافيت المقداد بن الأسود ، فارس رسول الله ﷺ جالساً على تابوت من ثوابيت الصيارفة بحمص ، وقد فصلَ عنها يريد الفزو ، فقلت له : قد أعذر الله إليك ، فقال : أنت عليهما سورة البعوث (انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا) .

وعن حيان بن زيد قال : نفرنا مع صفوان بن عمرو وكان والياً على حمص - فرأيت شيخاً كبيراً همماً ، قد سقط حاجباه على عينيه ، من أهل دمشق ، على راحلته فيمن أغار ،

فأقبلت إليه فقلت : يا عم ! لقد أعذر الله إليك ، قال . فرفع حاجبيه فقال : يا ابن أخي ! استغفرنا الله خوفاً وثقلاً ، ألا إنه من يحبه الله يتقبليه ، ثم يعيده الله فيمقيه . وإنما يتقبل الله من عباده من شكر وصبر وذكر ، ولم يعبد إلا الله عز وجل - روى ذلك كله^(١) ابن جرير - .

فرحم الله تلك الأنفس الزكية ، وحياتها من بواصل ، باعت أرواحها في مرضاة ربها ، وإعلاء كلمته ، وأكرمت نفسها عن الاغترار بزخارف هذه الحياة الدنية .

ثم رغب تعالى في النفقة في سبيله ، وبذل المهرج في مرضاته ، ومرضاه رسوله ، فقال : « وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَالِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ » ما في اسم الإشارة إلى النفي والجهد من معنى البعد ، للإيدان ببعد منزلته في الشرف ، والمراد بكونه خيراً ، أنه خير في نفسه ، أو خير من الدمة ، والتمتع بالأموال .

تنبيه :

قال الحاكم : الجهاد بالمال ضروب : منها إتقافه على نفسه في السير في الجهاد ، ومنها صرف ذلك إلى الآلات التي يستعان بها على الجهاد ، ومنها صرفه إلى من يتوب عنه أو يخرج معه .

وقال بعض مفسري الزيدية : ذكر المؤيد بالله أن من له فضل مال ، وجب عليه أن يدفعه إلى الإمام ، إن دعت إليه حاجة .

وذكر الراضى بالله وجوب دفع ما دعت الحاجة إليه من الأموال في الجهاد ، قليلاً كان أو كثيراً ، ويتمين ذلك بتعيين الإمام . وأما من طريق الحسبة ، فقال الراضى بالله : يجب ذلك إن حصل خلل لا يسده إلا المال ، ويدخل في هذا إلزام الضيفة ، وتنزيل الدور ، وقد قال الراضى بالله : للإمام أن يلزم الرعية على ما يراه من المصلحة .

(١) انظر تفسير الطبري ، الصفحة ١٣٨ و ١٣٩ من الجزء العاشر (طبعة الحلبي الثانية) .

وعن المؤيد بالله : إن الإمام إنزال جيشه دور الرعية إذا لم يتم له الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا بالجند ، واحتاجوا إلى ذلك . كما يجوز دخول الدار المفصولة لإزالة المنكر . وكذا ذكر أبو مضر أنه ينزل في الزائد على حاجة أهل الدور . وأما من ينزل الدار من جيشه بظلم أو فساد ، فإن عُرف ذلك عورض بين مطلب الإمام في دفعه المنكر ، وبين هذا المنكر الواقع من الجند ، أيهما أغلظ . انتهى .

ثم صرف تعالى الخطاب عن المتخلفين ، ووجهه إلى رسول الله ﷺ ، معددا لما صدر عنهم من الهنات قولاً وفعلًا ، مبيناً لدناءة همهم في هذا الخطب ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ، وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)

« لَوْ كَانَ » أى ما تدعومهم إليه « عَرَضًا قَرِيبًا » أى نفعا سهلا المأخذ « وَسَفَرًا قَاصِدًا » أى وسطا « لَاتَّبَعُوكَ » أى لا لأجلك ، بل لموافقة أهوائهم « وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ » بضم الشين ، وقرئ بكسرهما ، أى الفاحية التى ندبوا إليها . وسميت الفاحية التى يقصدها المسافر بذلك ، للمشقة التى تلحقه فى الوصول إليها . وقرئ (بعدت) بكسر العين . قال الشهاب : بعد بيمد كعلم بعلم ، لغة فيه ، لكنه اختص ببعد الموت غالبا . و (لا تبعد) يستعمل فى المصائب للتعجيب والتعسر كقوله (١) :

لَا يُبْعِدُ اللَّهُ إِخْوَانًا لَنَا ذَهَبُوا أَفْنَاهُمْ حَدَّثَانُ الدَّهْرِ وَالْأَبْدُ
« وَسَيَحْلِفُونَ » أى هؤلاء المتخلفون عن غزوة تبوك « بِاللَّهِ » متعلق بـ (سيجحفون) ،

(١) لم يعرف قائله ، الحاشية رقم ٢٩٨ .

أو هو من جملة كلامهم . والقول مراد في الوجهين . أى سيحلفون عند رجوعك من غزوة تيوك ، معقدين بالمعجز ، يقولون بالله «لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ» أى إلى تلك الغزوة . ثم بين تعالى أن هذه الدعوى الكاذبة والحلف لا يفيدانهم ، بقوله سبحانه «يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ» أى بهذا الحلف والمخالفة ودعوى المعجز «وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ» لأنهم كانوا يستطيعون الخروج مع رسول الله ﷺ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَّبِعَنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ) «عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنَتْ لَهُمْ» أى لهؤلاء المنافقين بالتخلف حين اعتلوا بعللهم «حَتَّى يَتَّبِعَنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ» هلا تركتهم لما استأذنوك فلم تأذن لأحد منهم فى القعود ، لتعلم الصادق منهم فى إظهار طاعتك من الكاذب ، فإنهم قد كانوا مصرين على القعود عن الغزو . ولهذا أخبر تعالى أنه لا يستأذنه فى القعود عن الغزو أحد يؤمن بالله ورسوله ، بقوله سبحانه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ)

«لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ» أى لمنع إيمانهم به ، من مخالفته ، مع القدرة «وَالْيَوْمِ الْآخِرِ» لمنع إيمانهم به من ترك تعويض الثواب والحياة الأبدية إذا أمروا «أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ» أى لأنهم يودون الجهاد بها قربة ، فيبذلونها فى سبيله «وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ» أى فيعطيه من الأجر ما يناسب تقواهم . ففيه ثمادة لهم بالانتظام فى زمرة الأنبياء ، وعدة لهم بأجل الثواب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ)

« إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ » أى فى ترك الجهاد بهما « الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ » إذ لا يرجون ثوابه ولا حياته ، وهم المنافقون ، ولذا قال « وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ » أى فيما تدعوهم إليه ، أى رسخ فيها الريب « فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ » أى ليست لهم قدم ثابتة فى شئ . ، فهم قوم حيارى هلكى ، لا إلى هؤلاء ، ولا إلى هؤلاء .

تنبيهات

الأول - اعلم أن فى تصديره تعالى فاتحة الخطاب ببشارة العفو ، دون ما يوم العقاب ، من مراعاة جانبه عليه الصلاة والسلام ، وتمهده بحسن المفاوضة ، ولطف المراجعة - ما لا يخفى على أولى الألباب .

قال سفيان بن عيينة : انظروا إلى هذا اللطف : بدأ بالعفو قبل ذكر العفو . قال مكى . (عفا الله عنك) ، افتتاح كلام مثل (أصلحك الله وأعزك) . وقال الداودى : إنها تسكرمة .

أقول : ويؤيد ذلك قول على بن الجهم^(١) يخاطب المتوكل وقد أمر بنفيه :

عفا الله عنك ألا حرمة نعوذ بعفوك أن أبعد

ألم تر عبداً عدا طوره ومولى عفا ، ورشيداً . هدى

أقلنى ، أقالك من لم يزل يقيق ، ويصرف عنك الردى

وما اشتهر من كون العفو لا يكون إلا عن ذنب - غير صحيح - فالواجب تفسيره فى كل مقام بما يناسبه . .

(١) ديوانه ص ٧٧ و ٧٨ (المطبعة الهاشمية بدمشق) .

قال الشهاب : وهو يستعمل حيث لا ذنب ، كما تقول لمن تعظمه : عفا الله عنك ، ما صنعت في أمري ؟ وفي الحديث ^(١) : عجبت من يوسف وصبره وكرمه ، والله يغفر له . وقال السخاوندی : هو تعلمهم لتعظيمه ﷺ ، ولولا تصدير العفو في الخطاب لما قام بصولة العتاب .

وقال القاضي عياض في (الشفا) : وأما قوله تعالى : (عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ) فأمر لم يتقدم للنبي ﷺ فيه من الله نهي ، فيمدت ممصية . ولا عذره الله عليه ممصية ، بل لم يمهده أهل العلم معاتبة ، وغفلوا من ذهب إلى ذلك .

قال نبطويه : وقد حاشاه الله من ذلك ، بل ما كان مخيراً في أمرين . قالوا : وقد كان له أن يفعل ما يشاء فيما لم ينزل عليه وحى ، وكيف ؟ وقد قال الله تعالى (فَأَذِنُ لِمَنْ شِئْتُ مِنْهُمْ) فلما أذن لهم أعلمه الله بما لم يطلع عليه من سرهم ، أنه لو لم يأذن لهم لتعدوا لنفاقهم ، وأنه لا حرج عليه فيما فعل ، وليس (عفا) هنا بمعنى غفر ، بل كما قال النبي ﷺ ^(٢) : عفا الله لكم عن صدقة الخيل والرقيق . ولم تجب عليهم قط . أى لم يلزمهم ذلك .

ونحوه للقسيري قال : وإنما يقول (العفو لا يكون إلا عن ذنب) من لم يعرف كلام العرب . قال : ومعنى (عَفَا اللَّهُ عَنْكَ) أى لم يلزمك ذنباً . انتهى . وقد عذ ما وقع في الكشف هنا من قبيح سقطاته .

وللعلامة أبي السمود مناقشة معه في ذلك . أوردها لبلوغها الغاية في البلاغة . قال رحمه الله : ولقد أخطأ وأساء الأدب ، وبئسما فعل فيما قال وكتب ، من زعم أن الكلام كناية عن الجناية ، وأن معناه أخطأت ، وبئسما فعلت ، هب أنه كناية ، أليس إثارها على التصريح

(١) لم أف على هذا الحديث . (٢) أخرجه ابن ماجة في : ٨ - كتاب الزكاة ،

٤ - باب زكاة الورق والذهب ، حديث رقم ١٧٩٠ (طبعتنا) عن علي ونصه : إني قد عفوت عنكم عن صدقة الخيل والرقيق ... الخ .

بالجناية للتلطيف في الخطاب ، والتخفيف في العقاب ، وهب أن العفو مستلزم لـكونه من القبيح واستتباع اللأئمة ، بحيث يصحح هذه المرتبة من المشافهة بالسوء ، أو يسوغ إنشاء الاستقباح بكلمة (بئسما) المنبئة عن بلوغ القبيح إلى رتبة يتمجب منها . ولا يخفى أنه لم يكن في خروجهم مصلحة للدين ، أو منفعة للمسلمين ، بل كان فيه فساد وخبال ، حسبما نطق به قوله عز وجل (لَوْ خَرَجُوا...) الخ ، وقد كرهه سبحانه كما يفصح عنه قوله تعالى (وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ...) الآية - نعم . كان الأولى تأخير الإذن حتى يظهر كذبهم آثار ذى أثر^(١) ، ويفتضحوا على رؤوس الأئمه ، ولا يتمكنوا من التمتع بالعيش على الأمن والدعة ، ولا يتسنى لهم الابتهاج فيما بينهم ، بأنهم غروه عليه الصلاة والسلام ، وأرضوه بالأكاذيب . على أنه لم يهنا لهم عيش ، ولا فرّت لهم عين ، إذ لم يكونوا على أمن واطمئنان ، بل كانوا على خوف من ظهور أمرهم وقد كان . انتهى .

قال الخفاجي : وحاول بعضهم توجيه كلام الكشاف بأن مراده أن الأصل فيه ذلك ، فأبدله بالعفو تعظيماً لشأنه ، ولذا قدم العفو على ما يوجب الجناية ، فلا خطأ فيه .

قال رحمه الله : ولو اتق هو والموجه موضع التهم - كان أولى وأحرى . انتهى .
الثاني - استدلل بالآية على أن النبي ﷺ كان يحكم أحياناً بالاجتهاد ، كما بسطه الرازي .
 قال السيوطي في (الإكمال) : واستدل بها من قال : إن اجتهاده قد يخطئ ولكن يذهب عليه بسرعة .

الثالث - قال الرازي : دلت الآية على وجوب الاحتراز عن العجلة ، ووجوب التثبت والتأني ، وترك الاغترار بظواهر الأمور ، والمبالغة في التفحص ، حتى يمكنه أن يعامل كل فريق بما يستحقه من التقريب أو الإبعاد .

الرابع - قال أبو السمود : تغيير الأسلوب بأن عبر عن الفريق الأول بالموصل الذي

(١) أي أول كل شيء - قاموس .

صلته فعل دالّ على الحدث ، وعن الفريق الثانى باسم الفاعل المفيد للدوام - للإيدان بأن ما ظهر من الأولين صدق حادث فى أمر خاص غير مصحح لنظمهم فى سلك الصادقين ، وإن ما صدر من الآخرين ، وإن كان كذباً جاداً متعلقاً بأمر خاص ، لكنه أمر جارى على عادتهم المستمرة ، ناشئ عن رسوخهم فى الكذب . ودقق رحمه الله فى بيان لطائف آخر .
فلتراجع .

الخامس - قيل : نفى الفعل المستقبل الدالّ على الاستمرار فى قوله تعالى (لَا يَسْتَأْذِنُكَ) يفيد نفى الاستمرار . وهذا معنى قول الزمخشريّ : ليس من عادة المؤمنين أن يستأذنوك اهـ . قال التحرير : ولا يبعد حمله على استمرار النفى كما فى أكثر المواضع ، أى عادتهم عدم الاستئذان .

قال الناصر : وهذا الأدب يجب أن يقتضى مطلقاً ، فلا يليق بالمرء أن يستأذن أخاه فى أن يسدى له معروفاً ، ولا بالضيف أن يستأذن ضيفه فى أن يقدم إليه طعاماً . فإن الاستئذان فى أمثال هذه المواطن أمانة التكلف والتكره ، وصلوات الله على خليله وسلامه ، لقد بلغ من كرمه وأدبه مع ضيوفه أنه كان لا يتعاطى شيئاً من أسباب التهيؤ للضيافة بمرأى منهم . فلذلك مدحه الله تعالى على لسان رسوله ﷺ بهذه الخلة الجميلة ، والآداب الجليلة ، فقال تعالى ^(١) (فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِمِجْلٍ سَمِينٍ) أى ذهب على خفاء منهم ، كيلا يشعروا به . والمهم بأمر ضيفه بمرأى منه ، ربما يمدّ كالمستأذن له فى الضيافة ، فهذا من الآداب التى ينهى أن يتمسك بها ذوو المروءة ، وأولو القوة . وأشد من الاستئذان فى الخروج للجهاد ونصرة الدين ، التثاقل عن المبادرة إليه ، بعد الحض عليه والمناداة . وأسوأ أحوال التثاقل ، وقد دعى الناس إلى الفزاة ، أن يكون متمسكاً بشعبة من الفئاق . نعوذ بالله من التمرض لسخطه .

(١) [٥١ / الذاريات / ٢٦] .

ثم بين تعالى جليلة شأن أولئك المنافقين المستأذنين، بأنهم لم يريدوا الخروج للجهاد حقيقة، ولذلك خذلهم ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ)

« وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً » بضم العين وتشديد الدال ، أى قوة من مال وسلاح وزاد ، ونحوها « وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ » أى نهوضهم للخروج « فَثَبَّطَهُمْ » أى فكسلهم وضعف رغبتهم « وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ » أى من النساء والصبيان .

تنبيهات

الأول - دلّ قوله تعالى (لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً) على أن عدة الحرب من السكراع والسلاح وجميع ما يستعان به على العدو ، من جملة الجهاد . فإما صرف في المجاهدين ، صرف في ذلك . وهذا جليّ فيما يتقى به من المدة كالسلاح . فأما ما يحصل به الإرهاب من الرايات والطبول ونحو ذلك ، مما يضعف به قلب العدو ، فهو داخل في الجهاد . وقد قال تعالى في سورة الأنفال (١) : (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ) ويكون ذلك كلباس الحرير حالة الحرب ، وهذا جليّ حيث لا يؤدى إلى السرف .

الثاني - إن الفعل يحسن بالنية ، ويقبح بالنية ، وإن استويا في الصورة . لأن النفير واجب مع نية الفصر ، وقبيح مع إرادة تحصيل القبيح . وذلك لأنه تعالى أخبر أنه كره انبعاثهم لما يحصل منه من إرادة المكر بالمسلمين .

(١) [٨ / الأنفال / ٦٠] .

الثالث - للإمام منع من يتهم بمضرة المسلمين ، أن يخرج للجهاد . فله نفى الجاسوس والمرجف والمخذل . ذكر ذلك كله بعض مفسرى الزيدية .

الرابع - ذكروا أن قوله تعالى : (وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ) تمثيل لإلقاء الله تعالى كراهة الخروج في قلوبهم . يعنى نزل خلق داعية القعود فيهم ، منزلة الأمر ، والقول الطالب ، كقوله تعالى ^(١) : (فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ) أى أماتهم . أو هو تمثيل لوسوسة الشيطان بالأمر بالقعود . أو هو حكاية قول بعضهم لبعض . أو هو إذن الرسول ﷺ لهم بالقعود .

قال الزخشرى : فإن قلت : مامعنى قوله (مَعَ الْقَاعِدِينَ) ؟ قلت : هو ذم لهم وتمجيز ، وإلحاق بالنساء والصبيان والزمنى الذين شأنهم القعود والجثوم فى البيوت ، وهم القاعدون والخالفون والحوالف . ويبينه قوله تعالى (رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ) .

قال الناصر : وهذا من تنبيهاته الحسنة . وتزيده بسطاً فنقول : لو قيل (اقعدوا) مقتصراً عليه ، لم يفد سوى أمرهم بالقعود . وكذلك (كُونُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ) . ولا تحصل هذه الفائدة من إلحاقهم بهؤلاء الأصناف الموصوفين عند الناس بالتخلف والتقاعد ، الموسومين بهذه السمة ، إلا من عبارة الآية . ولأن الله فرعون ، لقد بالغ فى توعيد موسى عليه السلام بقوله (لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ) ^(٢) ولم يقل : لأجعلنك مسجوناً ، لمثل هذه النكبة من البلاغة .

ثم بين تعالى سر كراهته لخروجهم بقوله :

(١) [٢ / البقرة / ٢٤٣] . (٢) [٢٦ / الشعراء / ٢٩] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعِفُوا إِلَّا أَلْسِنَةً يَبْغُونَ كُفْرًا
الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ)

«لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا» أى فساداً وشرّاً «وَلَا أُضْعِفُوا إِلَّا أَلْسِنَةً»
أى ولا تسرعوا السير والمشى بينكم بالفساد .

قال الشهاب : الإيضاع : إسراع سير الإبل . يقال : وضعت الناقة تضع إذا تسرع ،
وأوضعتها أنا . والمراد : الإسراع بالنائم ، لأن الراكب أسرع من الماشى . فقيل : المفعول
مقدّر ، وهو النائم . فشبّه النائم بالركائب في جريانها وانتقالها ، وأثبت لها الإيضاع . ففيه
تخييلية ومكنية . وقيل : إنه استعارة بتمية ، شبه سرعة إفسادهم لذات البين بالتمية ،
بسرعة سير الركائب ، ثم استعير لها الإيضاع ، وهو للإبل . و (خلال) جمع خلل ، وهو
الفرجة ، استعمل ظرفاً بمعنى (بين) .

واعلم أن قوله (وَلَا أُضْعِفُوا) مرسوم في الإمام بالفتن ، لأن الفتنة كانت تكتب
ألفاً قبل الخط العربى . والخط العربى اخترع قريباً من نزول القرآن ، وقد بقى من تلك
الألف أثر في الطباع ، فكتبوا سورة الهمزة ألفاً وفتحها ألفاً أخرى ونحوه ^(١) (أَوْلَاذُ بَعْثُهُ) .
« يَبْغُونَ كُفْرًا الْفِتْنَةَ » أى يطلبون لكم ما تفقنون ، بإيقاع الخلاف فيما بينكم ،
وإلقاء الرعب في قلوبكم ، وإفساد نياتكم « وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ » أى متقادون لقولهم
مستحسنون لحديثهم ، وإن كانوا لا يعلمون حالهم ، لضعف عقولهم ، فيتوهمون منهم النصيح
والإعانة ، وهم يريدون التخذيل والفتنة ، فيؤدى إلى وقوع شرّ بين المؤمنين ، وفساد
كبير .

وقال مجاهد وزيد بن أسلم وابن جرير . أى فيكم عيون يسمعون لهم الأخبار وينقلونها إليهم .

(١) [٢٧ / النمل / ٢١] .

قال ابن كثير : وهذا لا يبق له اختصاص بخروجهم معهم ، بل هذا عام في جميع الأحوال . والمعنى الأول أظهر في المناسبة بالسياق ، وإليه ذهب قتادة وغيره من المفسرين . قال محمد بن إسحاق ^(١) : كان استأذن ، فيما بلغني ، من ذوى الشرف منهم ، عبد الله ابن أبي ابن سلول والجد بن قيس ، وكانوا أشرافاً في قومهم ، فنبطهم الله ، لعلمه بهم أن يخرجوا فيفسدوا عليه جنده . وكان في جنده قوم أهل حبة لهم وطاعة فيها يدعونهم إليه ، لشرفهم فيهم ، فقال : (وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ) انتهى . (وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ) ولا يخفى عليه شئ من أمرهم . وفيه شمول للفريقين : القاعدين والسباعين .
ثم برهن تعالى على ابتغائهم الفتنة في كل مرة بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ)

« لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ » أي طلبوا الشر بتشتيت شملك ، وتفريق صلبك عنك ، من قبل غزوة تبوك ، كما فعل عبد الله بن أبي ابن سلول حين انصرف بأصحابه يوم أُحُدٍ عن المسلمين « وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ » أي دبروا لك الحيل والمكايد ودوروا الآراء في إبطال أمرك . قال الشهاب : المراد من (الأمور) المكايد ، فتقليبها مجاز عن تدبيرها . أو (الآراء) فتقليبها تفتيشها وإجالتها .

« حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ » وهو تأييدك ونصرك وظفرك « وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ » أي علا دينه « وَهُمْ كَارِهُونَ » أي على رغم منهم .

قال ابن كثير : لما قدم النبي ﷺ المدينة رمته العرب عن قوس واحدة ، وحاربه يهود المدينة ومنافقوها . فلما نصره الله يوم بدر ، وأعلى كلمته . قال ابن أبي وأصحابه : هذا أمر

(١) انظر سيرة ابن هشام . الصفحة رقم ٩٢٤ و ٩٢٥ (طبعة جونتجن) والصفحة رقم ١٩٤ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

قد توجه (أى : أقبل) فدخلوا فى الإسلام ظاهراً . ثم كلما أعز الله الإسلام وأهله ، أغاظهم ذلك وساء هم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي ، أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ، وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ)

« وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي » أى فى القعود « وَلَا تَفْتِنِّي » أى لا توقعنى فى الفتنة . روى ^(١) عن مجاهد وابن عباس أنها نزلت فى الجدة بن قيس ، أخى بنى سلمة ، وذلك فيما رواه محمد بن ^(٢) إسحاق ؛ أن النبى ﷺ قال له ذات يوم وهو فى جهازه : هل لك يا جد فى جلال بنى الأصفر ؟ فقال : يا رسول الله ! أو تأذن لى ولا تفتننى ؟ فوالله ! لقد عرف قومى ما رجل أشد عجباً بالنساء منى ، وإنى أخشى ، إن رأيت نساء بنى الأصفر ، ألا أصبر عنهن . فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال : قد أذنت لك !

قال الشهاب : يعنى أنه يخشى العشق لهن ، أو مواقعتهن من غير حل . وبنات الأصفر : الروم ، كبنى الأصفر . وقيل فى وجه التسمية وجوه : منها أنهم مالهكم بعض الحبشة ، فتولد بينهم نساء وأولاد ذهبية الألوان . انتهى .

قال ابن كثير : كان الجدة بن قيس هذا من أشرف بنى سلمة .

وفى الصحيح ^(٣) أن رسول الله ﷺ قال لهم : من سيدكم يا بنى سلمة ؟ قالوا : الجدة بن قيس ؟

(١) انظر تفسير الطبرى ، الصفحة رقم ١٤٨ من الجزء الماشر (طبعة الحلبي الثانية) .
(٢) انظر سيرة ابن هشام الصفحة رقم ٨٩٤ (طبعة جوتنجن) والصفحة رقم ١٥٩ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) . (٣) ليس هذا الحديث فى الصحيح ولا فى السنن . ولكن رواه يعقوب بن سفيان فى (تاريخه) وأبو الشيخ فى (الأمثال) والوليد بن أبان فى كتاب (الجود) . انظر (الإصابة فى تمييز الصحابة) للحافظ ابن حجر العسقلانى رقم ٦٥١ ، ترجمة بشر بن البراء بن معرور ، على خلاف يسير فى اللفظ .

على أنا نبخّله . فقال رسول الله ﷺ : وأى داء أدوا من البخل ؟ ولكن سيّدكم الفقى الجعد الأبيض ، بشر بن البراء بن معرور .

وقوله تعالى : « أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا » قال أبو السعود : أى فى عينها ونفسها . وأكل أفرادها ، الغنى عن الوصف بالكمال ، الحقيقى باختصاص اسم الجنس به ، سقطوا . لا فى شيء مغاير لها ، فضلا عن أن يكون مهرباً ومخلصاً عنها . وذلك بما فعلوا من العزيمة على التخلّف ، والجرأة على الاستئذان بهذه الطريقة الشنيعة ، ومن القعود بالإذن المبنيّ عليه ، وعلى الاعتذارات الكاذبة . وقرئ بإفراد الفعل ، محافظة على لفظ (من) . وفى تصدير الجملة بحرف التنبيه ، مع تقديم الظرف ، إيدان بأنهم وقموا فيها ، وهم يحسبون أنها منجى من الفتنة ، زعماً منهم أن الفتنة إنما هى التخلّف بغير إذن . وفى التعبير عن (الافتنان) بالسقوط فى الفتنة ، تنزّل لها منزلة المهواة المهلكة ، الفصححة عن ترديهم فى درجات الردى أسفل سافلين . انتهى .

« وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ » أى ستمحيط بهم يوم القيامة ، فلا محيد لهم عنها ولا مهرب ، وهذا وعيد لهم على ما فعلوا .
ثم بين تعالى عداوتهم ، زيادة فى تشهير مساوئهم ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ، وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ)

« إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ » أى من فتح وظفر وغنيمة « تَسُؤْهُمْ » أى تورثهم مساءة لفرط عداوتهم « وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ » أى من نوع شدة « يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا » أى بالحزم فى القعود « مِنْ قَبْلُ » أى من قبل إصابة المصيبة ، فيتبجحوا بما صنعوا حامدين

لَأَرَاهُمْ « وَيَتَوَلَّوْا » أى عن مجتمعهم الذى أظهروا فيه الفرح برأيهم « وَهُمْ فَرِحُونَ »
أى برأيهم وبما أصابكم وبما سدلوا .

ثم أرشد تعالى إلى جوابهم ببطلان ما بنوا عليه مسرتهم ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
الْمُؤْمِنُونَ)

« قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا » أى ما أئتمته لمصلحتنا الدينية أو الأخروية ،
فلأوجه لهذا الفرح ، لرضانا بقضائه فى تلك المصيبة ، فلم يسؤنا بالحقيقة . كيف ؟ ولم يكتبها
علينا ليضرنا بها ، إذ « هُوَ مَوْلَانَا » أى يتولى أمورنا ، فإعما كتبها علينا ليوفقنا للصبر عليها ،
والرضا بها ، فيمطينا من الأجر ما هو خير منها « وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ » أى
لأنه لا ناصر ولا متولى لأمرهم غيره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ ، وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ
يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بَأْيَدِنَا ، فَتَرْبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ)
« قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ » أى تنتظرون « بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ » أى العاقبتين اللتين
كل واحدة منهما هى حسنى العواقب ، وهما النصر والشهادة « وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ » أى
إحدى الشوائين من العواقب إما « أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ » أى كما أصاب
من قبلكم من الأمم « أَوْ » بعذاب « بَأْيَدِنَا » وهو القتل على الكفر « فَتَرْبَّصُوا »
أى بنا ما ذكر من عواقبنا « إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ » أى منتظرون ما هو عاقبتكم ،

فلا بد أن يلقى كلنا ما يترتب عليه ، لا يتجاوزة . فلا تشاهدون إلا ما يسرنا ، ولا نشاهد إلا ما يسوؤكم .

وقوله تعالى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ ، إِنْ كُنْتُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ)

« قُلْ أَنْفِقُوا » بمعنى أموالكم في سبيل الله ووجوه البر « طَوْعًا أَوْ كَرْهًا » مصدران وقما موقع الفاعل ، أى طائفتين من قِبَلِ أَنْفُسِكُمْ ، أو كارهين مخافة القتل « لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ » أى ذلك الإلتفاق . ثم بين سبب ذلك بقوله « إِنْ كُنْتُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ » أى عاتين . متهمين .

إطلافت :

قال الزحمرى : فإن قلت : كيف أمرهم بالإلتفاق ثم قال (لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ) ! قلت : هو أمر في معنى الخبر ، كقوله تبارك وتعالى ^(١) « قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْنُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا » . ومعناه : لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ ، أَنْفَقْتُمْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا . ونحوه قوله تعالى ^(٢) (اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ) وقوله ^(٣) * أَسِئْتُ بِنَا أَوْ أَحْسَنُ لَامِلُومَةً * أى لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ، اسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ . ولا تلومك ، أسأت إلينا أم أحسنت .

(١) [١٩ / مريم / ٧٥] . (٢) [٩ / التوبة / ٨٠] .

(٣) قائله كثير عزّة . وعجز البيت * لدينا ولا مقلية إن تقلت * . ومطلع القصيدة : خليلي هذا ربع عزّة فاعقلا قلو صيكم كما ثم ابكيها حيث حلت . انظر الأمالي ج ٢ ص ١٠٧ (طبعة الدار) وقال في اللسان : نقل الشئ : تَبَخَّضَ .

فإن قلت : متى يجوز هذا ؟ قلت : إذا دلّ السلام عليه ، كما جاز عكسه في قولك :
 رحم الله زيداً وغفر له . فإن قلت : لم فعل ذلك ؟ قلت : انككته فيه ، وهي أن كثيراً كأنه
 يقول لمزة : امتحنني لطف محلك عندي ، وقوة محبتي لك ، وعامليني بالإساءة والإحسان ،
 وانظري : هل يتفاوت حالي معك ، مسيئةً كنت أو محسنة ! وفي معناه قول القائل ^(١) :
 أَخُوكَ الَّذِي إِنْ قُتِمَ بِالسَّيْفِ عَامِداً لَتَقْصُرَ بِهِ لَمْ يَسْتَغْشِكَ فِي الْوُدِّ
 وكذلك المعنى : أنفقوا وانظروا ، هل يتقبل منكم ؟ واستغفر لهم أو لا تستغفر لهم ،
 وانظر هل ترى اختلافاً بين حال الاستغفار وتركه ؟

فإن قلت : ما الغرض في نفي التقبل ، أهو ترك رسول الله ﷺ تقبله منهم ، وردده عليهم
 ما يبذلون منه ، أم هو كونه غير مقبول عند الله تعالى ، ذاهباً هباء لا ثواب له ؟ قلت : يحتمل
 الأمرين جميعاً . وقد روى أن الآية من تنمة جواب الجدة بن قيس حيث قال للنبي ﷺ :
 هذا مالي أعيذك به ، فتركني ولا تفتني . والله أعلم .

(١) استشهد به في (الكشاف) وفيه : يستغشك .

قال الشارح : يقول : أخوك الذي إن أسأت إليه أحسن إليك . حتى لو قت تضربه
 بالسيف لا يجذك غمّاً في المودة (وبرواية : لا يستغشك ، من الغش والخيانة) ولو جئت
 تطلب أن تقطع يده ، لبادر إليك فرقاً من الرد عليك .

ومع هذا الوفاء والجهد ، في حفظ أسباب المودة ، يرى أنه مقصر في الود ، وإن فيه .
 وهو من أبيات ثلاثة . وبقاها :

ولو جئت تبني كفه لئببنيها لبادر إشفافاً عليك من الرد
 يرى أنه في الود وإن مقصر على أنه قد زاد فيه من الجهد

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ)

« وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ
الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى » جمع كسلان ، أى متثاقلين ، إذ لا يرجون على فعلها ثواباً ،
ولا يرهبون من تركها عقاباً « وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ » لأنهم يرون الإنفاق
في سبيل الله مغرمًا ، وتركه مغنًا . وفي الحديث ^(١) عن النبي صلى الله عليه وسلم : إن الله تعالى
لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصًا ، واجتنى به وجهه - رواه النسائي عن أبي أمامة .
وقال تعالى ^(٢) (إِنَّمَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ) .

ولما بين تعالى قبائح أفعال المنافقين ، وما لهم في الآخرة من العذاب المهيئ ، وعدم قبول
نفقاتهم ، تأثره ببيان أن ما يظنونونه من منافع الدنيا هو في الحقيقة سبب لعذابهم وبلائهم ،
فيمتجلى تمام الانجلاء أن النفاق مهواة الخسار ، لجليه آفات الدنيا والآخرة ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ)

« فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ » أى لأن ذلك استدراج لهم ، كما قال : « إِنَّمَا
يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » أى بسبب ما يكابدون لجمعها وحفظها من المتاعب ،
وما يرون فيها من الشدائد والمصائب . وقوله (لِيُعَذِّبَهُمْ) قيل : اللام زائدة . وقيل : المفعول

(١) رواه النسائي في : ٢٥ - كتاب الجهاد ، ٢٤ - باب من غزا يلتمس الأجر والدكر .

(٢) [٥٠ / المائدة / ٢٧] .

محذوف ، وهذه تعليمية ، أى يريد إعطاءهم لتعذيبهم « وَنَزَّهَتْ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ »
أى فيموتوا كافرين ، لاهين بالتمتع عن النظر فى العاقبة ، فيكون ذلك استدراجاً لهم .
وأصل (الزهوق) الخروج بصعوبة - أفاده القاضى - .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ) وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ
« وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ » يعنى المنافقين « إِنْهُمْ لَمِنْكُمْ » فى الدِّينِ ليدفعوا ، بدلالة اليمين ،
دلائل النفاق « وَمَا هُمْ مِنْكُمْ » فى ذلك يعنى أنهم كاذبون « وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ »
أى يخافون القتل ، وما يفعل بالمشر كين ، فيتظاهرون بالإسلام تقية ، ويؤيدونه بالإيمان
الفاجرة . ثم أشار إلى سبب الخوف ، وهو اضطرابهم إلى مساكنهم مع ضعفهم ، بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدْخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ)
« لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً » أى حصناً يلتجئون إليه « أَوْ مَغَارَاتٍ » يعنى غير أنافى فى الجبال
يسكن كل واحد منهم غاراً « أَوْ مُدْخَلًا » يعنى موضع دخول يدخلون فيه ، وهو السرب
فى الأرض « لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ » أى لأقبلوا نحوه « وَهُمْ يَجْمَحُونَ » أى يسرعون إسراعاً ،
لا يردم شئ ، كالفرس الجوح ، أى النفور الذى لا يرد له لجام . أى لو وجدوا شيئاً من
هذه الأمكنة التى هى منفور عنها ، مستنكرة ، لأنوه لشدة خوفهم ، وكرهتهم للمسلمين ،
وغمهم بعز الإسلام ، ونصر أهله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا
مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ)

« وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ » أى يعيبك « فِي الصَّدَقَاتِ » أى فى قسمتها . ثم بين فساد

لزمهم ، وأنه لا منشأ له سوى حرصهم على حطام الدنيا بقوله « فَإِنْ أُمِطُوا مِنْهَا » أى قدر ما يريدون « رَضُوا » فجعلوه عدلاً « وَإِنْ لَمْ يُمِطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ » فيجعلونه غير عدل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ)

« وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ » أى كفانا فضله ، وما قسمه لنا « سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ » أى بعد هذا ، حسبنا رجو ونؤمل « إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ » أى فى أن ينعمننا ويحولنا فضله . والجواب محذوف بناء على ظهوره . أى لكان خيراً لهم .

روى الشيخان^(١) عن أبى سعيد الخدرى قال : بينا نحن عند رسول الله ﷺ وهو يقسم فيثأ ، أتاه ذو الخويصرة - رجل من بنى تميم - فقال : يا رسول الله ! اعدل . فقال رسول الله ﷺ : وبلك . من يعدل إذا لم أعدل؟ فقال عمر بن الخطاب : إيذن لى فيه فأضرب عنقه ! فقال رسول الله ﷺ : دعه فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم ، يقرؤون القرآن ، لا يجاوز تراقيهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية .

(١) أخرجه البخارى فى : ٧٨ - كتاب الأدب ، ٩٥ - باب ما جاء فى قول الرجل :

وبلك ، حديث ١٥٨١ .

وأخرجه مسلم فى : ١٢ - كتاب الزكاة ، حديث ١٤٨ (طبعتنا) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ، فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

« إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ، فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ »
لما ذكر تعالى لمزهم في الصدقات تأثره ببيان حقيقة ما فعله رسول الله ﷺ من القسمة ، إذ لم يتجاوز فيها مصارفها المشروعة له ، وهو عين العدل ؛ وذلك أنه تعالى شرع قسمها لهؤلاء ، ولم يكله إلى أحد غيره ، ولم يأخذ صلى الله عليه وسلم منها لنفسه شيئاً ، فقيم الميز لقاسمها ، صلوات الله عليه ؟

روى البخاري^(١) عن معاوية قال : قال رسول الله ﷺ : من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ، وإنما أنا قاسم ، والله يعطي .

وروى أبو داود^(٢) عن زياد بن الحارث رضى الله عنه قال : أتيت النبي ﷺ فبايعته ، فأثنى رجل فقال : أعطني من الصدقة . فقال له : إن الله تعالى لم يرض بحكم نبي ولا غيره في الصدقات ، حتى حكم فيها هو ، فجزأها ثمانية أجزاء ، فإن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك حقك .

فالآية رد لقالة أولئك اللزمة ، وحسم لأطاعهم ، ببيان أنهم بمعزل من الاستحقاق . وإعلام بمن إعطاؤهم عدل ، ومنعهم ظلم .

(١) أخرجه البخاري في : ٣ - كتاب العلم ، ١٣ - باب من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ، حديث ٦٢ . (٢) أخرجه أبو داود في : ٩ - كتاب الزكاة ، ٢٤ - باب من يُعطي من الصدقة ، وحدّثه الغني . الحديث رقم ١٦٣٠ .

والفقراء . جمع فقير ، فمیل ، بمعنى فاعل ، يقال فقر يفرق من باب تمب ، إذا قل ماله .
والمساكين : جمع مسكين ، من (سكن سکونا) ، ذهب حركته ، لسكونه إلى الناس ،
وهو بفتح الميم في لغة بني أسد ، وبكسرهما عند غيرهم . قال ابن السكيت : المسكين : الذي
لا شيء له ، والفقير : الذي له بُلغة من العيش . وكذلك قال يونس ، وجعل الفقير أحسن
حالا من المسكين . قال : وسألت أعرابيا : أفقر أنت ؟ فقال : لا ، والله ! بل مسكين وقال
الأصمعي : المسكين أحسن حالا من الفقير ، وهو الوجه ؛ لأن الله تعالى قال ^(١) : (أَمَّا السَّائِغَةُ
فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ) وكانت تساوى جملة ، وقال ^(٢) في حق الفقراء : (لَا يَسْتَطِيعُونَ
ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ) وقال ابن الأعرابي : المسكين هو
الفقير ، وهو الذي لا شيء له ، فجعلهما سواء . كذا في (المصباح) .

قال البدر القرافي : وإذا اجتمعا افترقا ، كما إذا أوصى للفقراء والمساكين ، فلا بد من
الصرف للنوعين . وإن افترقا اجتمعا ، كما إذا أوصى لأحد النوعين ، جاز الصرف للآخر .
قال الميرزا : ثم ذكر تعالى من يحتاج إليهم المحتاجون إلى الصدقات فقال : (وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهِمْ)
أي الساعين في تحصيلها : القابض والوازن والكيال والكاتب ، يعطون أجورهم منها .
ثم ذكر من يحتاج إليهم الإمام فقال : (وَالْمَوْلُفَّةَ قُلُوبُهُمْ) .

وهم قوم ضعفت نيتهم في الإسلام ، فيحتاج الإمام إلى تأليف قلوبهم بالمطاء ، تقوية
لإسلامهم ، لئلا يسرى ضعفهم إلى غيرهم . أو أشرف يترقب بإعطائهم إسلام
نظرائهم .

ثم ذكر تعالى من يمان بها في دفع الرق بقوله : (وَفِي الرِّقَابِ) .
أي والإعانة في فك الرقاب ، فيعطى المكاتبون منها ما يستعينون به على

(١) [١٨ / الكهف / ٧٩] . (٢) [٢ / البقرة / ٢٧٣] .

أداء نجوم الكفاية ، وإن كانوا كاسبين ، وهو قول الشافعي والليث . أو : وللصرف في عتق الرقاب ، بأن يبتاع منها الرقاب فتمتق . قال ابن عباس والحسن : لا بأس أن تمتق الرقبة من الزكاة ، وهو مذهب مالك وأحمد وإسحاق . ولا يخفى أن (الرقاب) يعم الوجهين . وقد ورد في ثواب الإعتاق وفك الرقبة أحاديث كثيرة .

ثم ذكر تعالى من تفك ذمته في الديون بقوله : « وَالْغَارِمِينَ » .

وهم الذين ركبهم الديون لأنفسهم في غير معصية ، ولم يجدوا وفاء . أو لإصلاح ذات البين ولو أغنياء .

ثم ذكر تعالى الإعانة على الجهاد بقوله « وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ » .

فيصرف على المتطوعة في الجهاد ، ويشتري لهم السكر والسلاح . قال الرازي : لا يوجب قوله (فِي سَبِيلِ اللَّهِ) القصر على الغزاة . ولذا نقل الفقهاء في (تفسيره) عن بعض الفقهاء جواز صرف الصدقات إلى جميع وجوه الخير من تكفين الموتى ، وبناء الحصون ، وعمارة المساجد ، لأن قوله (وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ) عام في الكل . انتهى .

ولذا ذهب الحسن وأحمد وإسحاق إلى أن الحج من (سبيل الله) فيصرف للحجاج منه . قال في (الإقناع) (وشرحه) : والحج من (سبيل الله) نصاً ، روى عن ابن عباس وابن عمر . لما روى أبو داود^(١) : أن رجلاً جعل ناقة في سبيل الله ، فأرادت امرأته الحج ، فقال لها النبي ﷺ : اركبها ، فإن الحج من (سبيل الله) . فيأخذ ، إن كان فقيراً ، من الزكاة ما يؤدى به فرض حج أو عمرة ، أو يستعين به فيه ، وكذا في نافلتهم . لأن كلا من (سبيل الله) انتهى . قال ابن الأثير : (و) (سبيل الله) عام ، يقع على كل عمل خالص سلك به طريق التقرب إلى الله عز وجل ، بأداء الفرائض والنوافل ، وأنواع التطوعات . وإذا أطلق فهو في الغالب واقع على الجهاد ، حتى صار لكثرة الاستعمال كأنه مقصور عليه . انتهى .

وقال في (التاج) : كل سبيل أريد به الله عز وجل ، وهو برّ ، داخل في (سبيل الله) .

(١) أخرجه أبو داود في ١١ - كتاب المناسك ٧٩ - باب العمرة ، حديث رقم ١٩٨٩ ،

عن أم معقل .

ثم ذكر تعالى الإعانة لأبناء الطريق بقوله :

« وَابْنِ السَّبِيلِ » فيعطى المجتاز في بلد ما يستعين به على بلوغه لبلده .

وقوله تعالى « فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ » ناصبه مقدّر ، أى فرض الله ذلك فريضة . وقوله

« وَاللَّهُ عَلِيمٌ » أى بأحوال الناس ومراتب استحقاقهم . وقوله : « حَكِيمٌ » أى لا يفعل

إلا ما تقتضيه الحكمة من الأمور الحسنة التى منها سوق الحقوق إلى مستحقها .

تنبيهات :

الأول - ظاهر الآية يقضى بالقسمة بين الثمانية الأصناف . ويؤيد هذا وجهان :

الأول - ما يقتضيه اللفظ اللغوى ، إن قلنا : الواو للجمع والتشريك .

والثانى - ما رواه أبو داود فى سننه من قوله ﷺ : إن الله لم يرض بحكم نبي ولا غيره

فى الصدقات ، حتى حكم فيها ، فجزأها ثمانية أجزاء ... الحديث .

وقد ذهب ، إلى هذا ، الشافعى وعكرمة والزهرى ، إلا إن استغنى أحدها فتدفع إلى

الآخرين ، بلا خلاف .

وذهبت طوائف إلى جواز الصرف فى صنف واحد ، منهم عمر وابن عباس وحذيفة

وعطاء وابن جبير والحسن ومالك وأبو حنيفة ، والهادى والقاسم وأسباطهما ، وزيد . قال

فى (التهذيب) : وخرجوا عن الظاهر فى دلالة الآية المذكورة والخبر ، بوجوه :

الأول - أن الله تعالى قال فى سورة البقرة ^(١) (وَإِنْ تَخَفُوا هَا وَتَوْتُوا هَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ)

فدل على أن ذكر العدد هنا لبيان جنس من يستحقها . الثانى - الخبر وهو قوله ﷺ ^(٢) لما ذ:

أعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة فى أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وترد فى فقرائهم .

الثالث - حديث سلمة بن صخر . فإنه عليه الصلاة والسلام جعل له صدقة بنى زريق .

الرابع - أنه لم يظهر فى ذلك خلاف من جهة الصحابة فجرى كالجمع عليهم . الخامس - الممارسة

(١) [٢ / البقرة / ٢٧١] . (٢) أخرجه البخارى فى : ٢٤ - كتاب الزكاة ،

١ - باب وجوب الزكاة ، حديث ٧٤٠ عن ابن عباس .

للفظ بالمعنى . فإن المقصود سد الخلة . وقال صاحب (النهاية): وهذا أقرب إلى المعنى ، والأول أقرب إلى اللفظ . ويؤيد أنها مستحقة بالمعنى لا بالاسم ، أنا لو قلنا تستحق بالاسم لزم أن من كان فقيراً غنياً غارماً مسافراً ، أن يستحق سهاماً لهذه الأسباب جميعاً - كذا في تفسير بعض الزيدية - .

وقال الناصر في (الاتصاف) : القول بوجوب صرفها إلى جميع الأصناف ، حتى لا يجوز ترك صنف واحد منها أخذاً من إشعار (اللام) بالتمليك ، كما ذهب إليه الشافعي - لا يسعده السياق ، فإن الآية مصدرة بكلمة المحصر الدالة على قصر جنس الصدقات على الأصناف المعدودة ، وأنها مختصة بهم ، وأن غيرهم لا يستحق فيها نصيباً . كأنه قيل : إنما هي لهم لا لغيرهم ، فهذا هو الغرض الذي سيقته له الآية ، فلا اقتضاء فيها لما سواه . انتهى .

الثاني - قال بعضهم : لفظ (الصدقات) بعمومه يجمع الصدقة الواجبة والنافلة . ثم إن الصدقة الواجبة تتنوع أنواعاً ، منها الزكوات لما هو العشر أو نصف العشر أو ربع العشر ، وزكاة الموائش والفطرة والكفارات ، نحو كفارة اليمين والظهار والصوم ، وكذلك الهدى في الحج ، ومنها ما يؤخذ من أموال الكفار ورؤوسهم ، ولهذا سمي الله الغنائم صدقة في سبب نزول الآية ، وذلك في قسمة غنائم (حنين) ، فإذا كان اللفظ يعم ما ذكر ، فهل تحمل الآية على عمومها في قسمتها على ما ذكر ، أو يخصص البعض ؟

ثم قال : والمعلماء قسموا الصدقات ، وجعلوا مصارفها مختلفة ، والكفارة لم يذكر أنها تصرف في الثمانية المصارف . وقد ورد قوله تعالى ^(١) (فَكْفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ) (فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مَسْكِينًا) ^(٢) ، وفي الحديث : أطعم عن كل يوم مسكيناً ، وورد في الفطرة : أغنهم هذا اليوم . وورد في الغنيمة ^(٣) (وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ ...) الآية - فهل هذه الأدلة مخصصة لمعوم لفظ (الصدقات) ؟ فإن الزكوات مجمع عليها في أن مصرفها الثمانية الأصناف . أم كيف تنزل الآية على القواعد الأصولية ؟ . انتهى كلامه .

(١) [٥/ المائدة / ٨٩] . (٢) [٥٨/ المجادلة / ٤] . (٣) [٨/ الأنفال / ٤١]

ولا يخفى كونها مخصصة لعموم لفظ الصدقات ، لأن الخاص يقضى على العام . على أن المراد قصرها على هذه الأصناف ، فكل ما ذكر لم يخرج عنها ، لشمولها له . والله أعلم .
الثالث - (المؤلفه قلوبهم) حكمهم باق ، لأنه عليه الصلاة والسلام أعطى المؤلفه من المسلمين والمشركون ، فيعطون عند الحاجة . ويحمل ترك عمر وعثمان وعلي إعطاءهم ، على عدم الحاجة إلى إعطائهم في خلافهم ، لالسقوط مهمهم ، فإن الآية من آخر ما نزل . وأعطى أبو بكر عدى بن حاتم والزريقان بن بدر . ومنع وجود الحاجة على ممر الزمان ، واختلاف أحوال النفوس في القوة والضعف - لا يخفى فساد . كذا في (الإقناع) و (شرحه) .

والمؤلفه كما في (الإقناع) هم رؤساء قومهم : من كافر يرجى إسلامه ، أو كف شره ، ومسلم يرجى بمطيته قوة إيمانه ، أو إسلام نظيره ، أو نصحه في الجهاد ، أو في الدفع عن المسلمين ، أو كف شره كالخوارج ونحوهم ، أو قوة على جباية الزكاة ممن لا يمطيها . انتهى .
الرابع - قال في (الإكمال) : استدل بعموم الآية من أجاز الدفع للفقير القادر على الاكتساب . ولذمي ، ولمن تلزمه نفقته ، ولسائر القرابة ، وللزوج ، ولآله عليهم السلام ، حيث حرموا حظهم من الخمس ، ولوالديهم ، ولمن جوز نقلها .

وقال ابن الفرس : يؤخذ من قوله تعالى (وَالْعَامِلِينَ) جواز أخذ الأجرة لكل من اشتغل بشيء من أعمال المسلمين . قال : وقد احتج به أبو عبيد على جواز أخذ القضاة الرزق فقال : قد فرض الله للعاملين على الصدقة ، وجعل لهم منها حقاً بقيامهم فيها وسميهم ، فكذلك القضاة يجوز لهم أخذ الأجرة على عملهم ، وكذا كل من شغل بشيء من أعمال المسلمين .

الخامس - قال الزمخشري : فإن قلت : لم عدل عن اللام إلى (في) في الأربعة الأخيرة ؟ قلت : للإيدان بأنهم أرسخ في استحقاق التصديق عليهم ممن سبق ذكره ، لأن (في) للوعاء ، فنبه على أنهم أحقاء بأن توضع فيهم الصدقات ، ويجعلوا مظنة لها ومصباً . وذلك لما في فك الرقاب من الكتابة أو الرق أو الأسر ، وفي فك الغارمين من الغرم - من التخليص والإتقاذ .

ولجمع الغاىزى الفقير أو المنقطع فى الحج بين الفقر والعبادة ، وكذلك ابن السبيل جامع بين الفقر والغربة عن الأهل والمال . وتكرير (فى) فى قوله تعالى (وَفِى سَبِيلِ اللَّهِ) وابن السبيل فيه فضل ترجيح لهذين ، على الرقاب والغارمين . انتهى .

قال الناصر : وثم سر آخر هو أظهر وأقرب ، وذلك أن الأصناف الأربعة الأوائل ملاك لما عساه يدفع إليهم ، وإنما يأخذونه ملكاً ، فكان دخول اللام لائفاً بهم وأما الأربعة الأواخر فلا يملكون ما يصرف نحوهم ، بل ولا يصرف إليهم ، ولكن فى مصالح تتعلق بهم . فالل الذى يصرف فى الرقاب إنما يتناوله السادة المكاتبون والبائعون ، فليس نصيبهم معصوفاً إلى أيديهم حتى يمتنع عن ذلك بـ (اللام) المشعرة بملكهم لما يصرف نحوهم ، وإنما هم محال لهذا الصرف ، والمصلحة المتعلقة به . وكذلك (الغارمون) إنما يصرف نصيبهم لأرباب ديونهم ، تخليصاً لذمتهم ، لا لهم . وأما (سبيل الله) فواضح فيه ذلك . وأما (ابن السبيل) فكان أنه كان مندرجاً فى سبيل الله ، وإنما أفرد بالذكر تنبيهاً على خصوصيته ، مع أنه مجرد من الحرفين جميعاً ، وعطفه على المجرور (باللام) ممكن ، ولكن على القريب منه أقرب . والله أعلم . ثم قال : وكان جسد أبو المباس أحمد بن فارس الفقيه استنبط من تغاير الحرفين المذكورين وجهاً فى الاستدلال للملك ، رحمه الله ، على أن الغرض بيان المصرف و (اللام) لذلك لام الملك ، فيقول : متعلق الجارّ الواقع خبراً عن الصدقات محذوف ، فيتمتع تقديره ، فإما أن يكون التقدير : إنما الصدقات مصروفة للفقراء ، كقول مالك ، أو مملوكة للفقراء ، كقول الشافعى ، لكن الأول متعين لأنه تقدير يكتب به فى الحرفين جميعاً ، يصح تعلق (اللام) به و (فى) معاً ، فيصح أن نقول : هذا الشيء مصروف فى كذا . وهكذا ، بخلاف تقديره مملوكة ، فإنه إنما يلتزم مع اللام ، وعند الانتهاء إلى (فى) يحتاج إلى تقدير : مصروفة ليلتزم بها . فتقديره من (اللام) عام التعلق ، شامل للصحة ، متعين ، والله الموفق . انتهى .

السادس - قال الرخشري : فإن قلت : فكيف وقعت هذه الآية في تضاعيف ذكر المنافقين ومكايدهم ؟ قلت : دلّ بكون هذه الأصناف مصارف الصدقات خاصة دون غيرهم على أنهم ليسوا منهم حسماً لأطاعهم ، وإشعاراً باستيلاجهم الحرمان ، وأنهم بمداء عنها وعن مصارفها . فالحلم وما لها ، وما سلطهم على التكلم فيها ، ولزق قاسمها صلوات الله عليه وسلامه . انتهى .

وتقدم بيانه أيضا .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦١] (وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ، قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ ، وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

« وَمِنْهُمْ » أي من الذين يحلفون بالله إنهم لنفكم ، من هو أشد من اللائع في الصدقات إذ هم « الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ » أي يسمع كل ما يقال له ويصدقه ، يمتنون إنه ليس بعيد الغور ، بل سريع الاعتراض بكل ما يسمع .

قال أبو السعود : وإنما قالوه لأنه صلوات الله عليه كان لا يواجههم بسوء ما صنعوا ، ويصفح عنهم حملاً وكرماً ، فحملوه على سلامة القلب ، وقالوا ما قالوا .

قال اللغويون : (الأذن) الرجل المستمع القابل لما يقال له . وصفوا به الواحد والجمع ، يقال : رجلٌ أذن ، ورجالٌ أذن ، وامرأةٌ أذن ، فلا يثنى ولا يجمع ، وإنما سموه باسم العضو تهويلاً وتشبيهاً ، فهو مجاز مرسل ، أطلق فيه الجزء على الكل مبالغة بجعل جملته ، بقرط استماعه ، آلة السماع ، كما سمي الجاسوس عيناً لذلك ، ونحوه :

إذا ما بدت ليلى فكلّي آمين وإن حدثوا عنها فكلّي مسامح

وجعله بعضهم من قبيل التشبيه : (بِالْأُذُنِ) في أنه ليس فيه وراء الاستماع تمييز حق عن باطل .

قال الشهاب : وليس بشيء يعتقد به . وقيل إنه على تقدير مضاف ، أى ذو أذن .
قال الشهاب : وهو مُذْهِب لروقه . وقيل : هو صفة مشبهة من (أذن إليه وله)
كفرح : استمتع . قال عمرو بن الأهيم ^(١) :
فلما أن تَسَايَرْنَا قَلِيلًا ———
أَذِنَّا إِلَى الْحَدِيثِ فَهِنَّ صُورُ
ولقعب بن أم صاحب ^(٢) :

إن يسمعوا ربة طاروا بها فرحاً منى ، وما سمعوا من صالحٍ دَفَنُوا
صُمٌّ إِذَا سَمِعُوا خيراً ذَكَرْتُ بِهِ وإن ذُكِرْتُ بِشَرٍّ عِنْدَهُمْ أَذِنُوا
وفي الحديث ^(٣) ما أذن الله لشيءٍ ما أذن لِنَبِيِّ يَتَغْنَى بِالْقُرْآنِ . قال أبو عبيد : يعنى ما
استمع الله لشيءٍ كاستماعه لمن يتلوه ، يجهر به . وقوله عز وجل ^(٤) : (وَأُذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ)
أى استتمت . كذا في (تاج العروس) .

وعلى هذا فالأذن (صفة بمعنى سميع ولا تجوز فيه ، ففيه أربعة أوجه .
وعطف قوله تعالى (وَيَقُولُونَ) عطف تفسير : لأنه نفس الإيذاء .
وقوله تعالى : « قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ » من إضافة الموصوف إلى الصفة للمبالغة ،
كرجل صدق . تريد المبالغة في الجودة والصلاح ، كأنه قيل : نعم هو أذن ، ولكن نعم الأذن
أو إضافته على معنى (فى) أى هو أذن فى الخير والحق ، وفيما يجب سماعه وقبوله ، وليس

(١) استشهد به فى اللسان ، ج ١٣ ص ١٠ (طبعة بيروت) . (٢) استشهد به فى اللسان ،
ج ١٣ ص ١٠ (طبعة بيروت) . (٣) أخرجه البخارى فى ٦٦ - كتاب فضائل
القرآن ، ١٩ - باب من لم يتغن بالقرآن ، حديث رقم ٢٠٨٨ ، عن أبى هريرة .
(٤) [٨٤ / الانشاق / ٥٢] .

بأذن في غير ذلك . ودل عليه قراءة حمزة . (ورحمة) بالجر عطفاً عليه ، أى هو أذن خير لكم
ورحمة لا يسمع غيرها ولا يقبله . ثم فسر كونه أذن خير بقوله : « يُؤْمِنُ بِاللَّهِ » قال
القاشانى : هو بيان لينه ﷺ وقابليته ، لأن الإيمان لا يكون إلا مع سلامة القلب ونظافة
النفس ولينها « وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ » أى يصدق قولهم فى الخيرات ، ويسمع كلامهم فيها
ويقبله ، « وَرَحْمَةً » أى وهو رحمة « لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ » أى يعطف عليهم ، ويرقأ
لهم ، فيمنحهم من العذاب بالتزكية والتعليم ، ويصلح أمر معاشهم ومعادهم ، بالبر والصلة ،
وتعليم الأخلاق من الحلم والشفقة والأمر بالمعروف ، باتباعهم إياه فيها ، ووضع الشرائع
الموجبة لنظام أمرهم فى الدارين ، والتحريض على أبواب البر بالقول والفعل ، إلى غير ذلك .
قاله القاشانى .

وقال غيره : أى هو رحمة للذين أظهروا الإيمان منكم ، معشر المنافقين ، حيث يقبله ،
لا تصديقاً لكم ، بل رفقاً بكم ، وترحمًا عليكم ، ولا يكشف أسراركم ، ولا يفضحكم ،
ولا يفعل بكم ما يفعل بالمشركين ، مراعاة لما رأى تعالى من الحكمة فى الإبقاء عليهم .
قال الشهاب : والمعنى : هو أذن خير يسمع آيات الله ودلائله فيصدقها ويسمع للمؤمنين ،
فيسلم لهم ما يقولون ، ويصدقهم . وهو تمييز بأن المنافقين أذن شر ، يسمعون آيات الله
ولا يثقون بها ، ويسمعون قول المؤمنين ولا يقبلونه ، وأنه ﷺ لا يسمع أقوالهم إلا شفقة
عليهم ، لأنه يقبلها لعدم تمييزه ، كانعموا .

وقال القاشانى فى (تفسيره) : كانوا يؤذونه ، صواب الله عليه ، وفتابونه بسلامة القلب
وسرعة القبول والتصديق لما يسمع ، فصدقهم فى ذلك وسلم وقال : هو كذلك ، ولكن
بالنسبة إلى الخير ، فإن النفس الأبية والعليلة الجافية ، والكثرة القاسية التى تتصلب فى
الأمور ، ولا تقاثر ، غير مستعدة للسكال . إذ السكال الإنسانى لا يكون إلا بالقبول والتأثر .
فكلما كانت النفس ألين عريكة ، وأسلم قلباً ، وأسهل قبولاً ، كانت أقبل للسكال ، وأشد
استعداداً له . وليس هذا اللين هو من باب الضعف والبلاهة الذى يقتضى الانفعال من كل

ما يسمع ، حتى الحال ، والتأثر من كل ما يرد عليه ويره ، حتى الكذب والشور والضلال ، بل هو من باب اللطافة ، وسرعة القبول لما يناسبه من الخير والصدق ، فلذلك قال : (قُلْ أَذُنٌ خَيْرٌ) إذ صفاء الاستعداد ، ولطف النفس ، يوجب قبول ما يناسبه من باب الخيرات ، لا ما ينافية من باب الشرور ، فإن الاستعداد الخيري لا يقبل الشر ، ولا يتأثر به ، ولا ينطبع فيه ، لمناقته إياه ، وبمده عنه . انتهى .

إطاعات :

الأولى - في قوله تعالى (قُلْ أَذُنٌ خَيْرٌ) أبلغ أسلوب في الرد عليهم ، فإنه صدقهم في كونه أذناً ، إلا أنه فسر بما هو مدح له ، وثناء عايمه .

قال الناصر : لا شيء أبلغ من الرد عليهم بهذا الوجه ، لأنه ، في الأول ، إطاع لهم بالموافقة ، ثم كرت على طمعهم بالحسم ، وأعقبهم في تنقصه باليأس منه . ويضاهي هذا ، من مستعملات الفقهاء ، القول بالموجب ، لأن في أوله إطاعاً للخصم بالتسليم ، ثم بقياً للطمع على قرب ، ولا شيء أقطع من الإطاع ثم اليأس يتلوه ويعقبه . والله الموفق .

الثانية - (اللام) في قوله تعالى (لِلْمُؤْمِنِينَ) مزيدة للتفرقة بين الإيمان المشهور ، وهو الاعتراف ، وبين الإيمان بمعنى التسليم والتصديق - قاله أبو السعود تبعاً للقاضي - . قال الشهاب : يعني أن الإيمان بالله بمعنى الاعتراف والتصديق ، يتعدى بالباء ، فلذا قال (بِاللَّهِ) والإيمان للمؤمنين بمعنى جملهم في أمان من التكذيب بتصديقه لهم ، لما علم من خلوصهم ، متعمد بنفسه ، فاللام فيه مزيدة للتقوية .

الثالثة - قال أبو السعود : إسناد الإيمان إليهم بصيغة الفعل ، بمد نسبتهم إلى المؤمنين بصيغة الفاعل المنبثقة عن الرسوخ والاستمرار - للإيدان بأن إيمانهم أمر حادث ما له من قرار . وقوله تعالى : « وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ » أى بما نقل عنهم من قولهم (هُوَ أَذُنٌ) ونحوه « لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » أى بما يجترئون عليه من إيذائه .

قال أبو السعود : وهذا اعتراض مسوق من قِبَلِه عز وجل على نهج الوعيد ، غير داخل تحت الخطاب . وإرادته عليه الصلاة والسلام بعنوان الرسالة مضافاً إلى الاسم الجليل ، لغاية التعظيم والتذنيب على أن أذيقه راجعة إلى جنبه عز وجل ، موجبة لكمال السخط والغضب . انتهى .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنَّ كَانُوا مُؤْمِنِينَ)

« يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنَّ كَانُوا مُؤْمِنِينَ » قال الزمخشري : الخطاب للمسلمين ، وكان المنافقون يشككون بالمطاهن ، أو يتخلفون عن الجهاد ، ثم يأتونهم فيعتذرون إليهم ، ويؤكدون معاذيرهم بالحلف ليمذروهم ، ويرضوا عنهم ، ف قيل لهم : إن كنتم مؤمنين كما تزعمون ، فأحق من أَرْضَيْتُمُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ بالطاعة والوفاء . انتهى .

ولما كان الظاهر بعد العطف بالواو التثنية ، وقد أُفْرِدَ - وَجَّهُهُ :

بأن إرضاء الرسول إرضاء لله تعالى لقوله تعالى^(١) : (مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ) فلتلازمهما جملاً كشيء واحد ، فعاد عليهما الضمير المفرد ، و (أَحَقُّ) ، على هذا ، خبر عنهما من غير تقدير .

أو بأن الضمير عائد إلى الله تعالى ، و (أَحَقُّ) خبره ، لسبقه . والكلام جملتان ، حذف خبر الجملة الثانية ، للدلالة الأولى عليه . أي : والله أحق أن يرضوه ورسوله كذلك .

(١) [٤ / النساء / ٨٠] .

وسببويه جملة للثاني ، لأنه أقرب ، مع السلامة من الفصل بين المبتدأ والخبر كقوله^(١) :
 نَحْنُ بِمَا عِنْدَنَا وَأَنْتَ بِمَا عِنْدَكَ رَاضٍ وَالرَّأْيُ مُخْتَلِفٌ
 أو بأن الضمير لهما بتأويل ما ذكر ، أو كل منهما ، وأنه لم يثن تأديباً أثلاً يجمع بين الله
 وغيره في ضمير ثنائية ، وقد نهى عنه ، على كلام فيه .
 أو بأن الكلام في إيذاء الرسول ﷺ وإرضائه ، فيكون ذكر الله تعظيماً له وتمهيداً .
 فلذا لم يخبر عنه ، وخص الخبر بالرسول . قال الشهاب : وفيه تأمل . انتهى .
 وقد عهد لهم القول بمثله في آيات كثيرة ، وجواب الشرط مقدر يدل عليه ما قبله ، وقراءة
 التاء على الالتفات ، للتوبيخ .
 وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مِنْ يُحَادِدِ اللَّهِ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا ،
 ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ)

« أَلَمْ يَعْلَمُوا » أى أولئك المنافقون . قال أبو السعود : والاستفهام للتوبيخ على
 ما أقدموا عليه من العظيمة ، مع علمهم بسوء عاقبتها . وقرئ بالتاء على الالتفات ، لزيادة
 التقريع والتوبيخ أى ألم يعلموا بما سمعوا من رسول الله ﷺ من فنون القوارع والإنذارات
 « أَنَّهُ مِنْ يُحَادِدِ اللَّهِ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا » أى من يخالف الله ورسوله .
 قال الليث : حادثة أى خالفته ، والمحادة كالمجانبة والمعاداة والمخالفة ، واشتقاقه من (الحد) ،

(١) من أبيات الكتاب (ج ١ ص ٣٨) وقائله قيس بن الخطيم .

قال الشنتمري : استشهد به مقولاً لما جاز من حذف المفعول الذى هو فضلة مستغنى
 عنها ، في قولهم : ضربت وضربني زيد .

بمعنى الجهة والجانب ، كما أن المشاقة من (الشق) بمعناه أيضاً ، فإن كل واحد من المتخالفين والمتعادين في أحدٍ وشقٍّ ، غير ماعليه صاحبه . فمعنى (يُحَادِدِ اللَّهَ) يصير في حدٍّ غير حدٍّ أولياء الله ، بالمخالفة .

وقال أبو مسلم : الحادة مأخوذة من الحديد ، حديد السلاح .

وقوله فعلى « ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ » أى القل والهوان الدائم . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنْزِلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ، قُلِ اسْتَغْزُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ)

« يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنْزِلَ عَلَيْهِمْ » أى في شأنهم ، فإن ما نزل في حقهم ، نازل عليهم « سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ » أى من الأسرار الخفية ، فضلاً عما كانوا يظهرونه فيما بينهم من أقاويل الكفر والنفاق . ومعنى تنبئتها إليهم بما في قلوبهم ، منع أنه معلوم لهم ، وأن المحذور عندهم اطلاع المؤمنين على أسرارهم ، لا اطلاع أنفسهم عليها - أنها تديع ما كانوا يخفونه من أسرارهم ، فتنتشر فيما بين الناس ، فيسمعونها من أفواه الرجال مذاعة ، فكأنها تخبرهم بها . والمراد بالتنبئة المبالغة في كون السورة مشتملة على أسرارهم ، كأنها تعلم من أحوالهم الباطنة ما لا يعلمونه ، فتنبئهم بها ، وتنمى عليهم قبايحهم . وقيل : معنى (يحذر) ليحذر ، وقيل : الضميران الأولان للمؤمنين ، والثالث للمنافقين ، ولا يبالى بآثمة كيمك عند ظهور الأمر بعود المعنى إليه . أى يحذر المنافقون أن تنزل على المؤمنين سورة تخبرهم بما في قلوب المنافقين . أفاده أبو السعود .

فإن قلت : المنافق كافر ، فكيف يحذر نزول الوحي على الرسول ؟ أجيب : بأن القوم ، وإن كانوا كافرين بدين الرسول ، إلا أنهم شاهدوا أنه عليه الصلاة والسلام كان يخبرهم بما يكتمونه ، فلهذه التجربة وقع الحذر والخوف في قلوبهم .

وقال الأصم : إنهم كانوا يعرفون كونه رسولاً صادقاً من عند الله ، إلا أنهم كفروا به حسداً وعناداً . وتعقبه القاضى بأن يبعد ، فى العالم بالله وبرسوله وصحة دينه ، أن يكون محاداً لها . لكن قال الرازى : هو غير بعيد ، لأن الحسد إذا قوى فى القلب ، صار بحيث ينازع فى المحسوسات . انتهى .

وقال أبو مسلم : هذا حذر أظهره المنافقون على وجه الاستهزاء حين رأوا الرسول عليه الصلاة والسلام يذكر كل شىء ، ويدعى أنه عن الوحي ، وكان المنافقون يكذبون بذلك فيما بينهم ، فأخبر الله رسوله بذلك ، وأمره أن يعلمهم أنه يظهر سرهم الذى حذروا ظهوره . ولذلك قال تعالى : « قُلِ اسْتَهِزُّوا » أى بالله وآياته ورسوله ، أو افعلوا الاستهزاء ، وهو أمر تهديد « إِنَّ اللَّهَ يُخْرِجُ مَا تَحْذَرُونَ » أى مظهر بالوحي ما تحذرون خروجه من إزال السورة ، ومن مثالبكم ومخازيكم المستكنة فى قلوبكم الفاضحة لكم ، كقوله تعالى (١) « أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ... إلى قوله : وَلَتَمَرَّ فَنَّهُمْ فى لَحْنِ الْقَوْلِ ... الآية) - ولهذا قال قتادة : كانت تسمى هذه السورة (الفاضحة) فاضحة المنافقين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ، قُلْ أَلَيْسَ بِآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ)

« وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ » أى عن إتيانهم ب تلك القبايح المتضمنة للاستهزاء بما ذكر « لَيَقُولُنَّ » أى فى الاعتذار إنه لم يكن عن القلب حتى يكون نفاقاً وكفراً بل « إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ » أى ندخل هذا الكلام لترويح النفس « وَنَلْعَبُ » أى نمزح « قُلْ أَلَيْسَ بِآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ » أى فى ترويحكم ومزاحكم ، ولم تجدوا لها كلاماً آخر .

(١) [٤٧ / محمد عليه السلام / ٢٩] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ، إِنْ نَعَفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ)

« لَا تَعْتَذِرُوا » أى لا تشتغلوا باعتذاركم الكاذبة ، فاللهى عن الاستغفار به وإدامته إذ أسله وقع « قَدْ كَفَرْتُمْ » أى أظهرتم الكفر بإيذاء الرسول ﷺ والظمن فيه وباستهزائكم بمقالكم « بَعْدَ إِيمَانِكُمْ » أى بعد إظهاركم الإيمان .

تنبيه :

قال فى (الإكمال) : قال الكيا : فيه دلالة على أن اللاب والجاذ فى إظهار كلمة الكفر سواء ، وأن الاستهزاء بآيات الله كفر - انتهى - .

قال الرازى : لأن الاستهزاء يدل على الاستخفاف . والممة الكبرى فى الإيمان تمظيم الله تعالى بأقصى الإمكان ، والجمع بينهما محال .

وقال الإمام ابن حزم فى (الملل) : كل ما فيه كفر بالبارى تعالى ، واسخفاف به ، أو بنبي من أنبيائه ، أو بملك من ملائكته ، أو بآية من آياته عز وجل ، فلا يحل سماعه ، ولا النطق به ، ولا يحل الجلوس حيث يلفظ به . ثم ساق الآية .

وقوله تعالى : « إِنْ نَعَفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ » أى لتوبتهم وإخلاصهم . أو بجنبهم عن الإيذاء والاستهزاء « نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ » أى مصرين على النفاق ، أو مقدمين على الإيذاء والاستهزاء .

تنبيه :

روى فى صفة استهزاء المنافقين روايات عدة :

قال ابن إسحاق^(١) : كان رهط من المنافقين منهم وديعة بن ثابت ، أخو بنى عمرو بن

(١) سيرة ابن هشام بالصفحة رقم ٩٠١ و ٩٠٢ (طبعة جوتفجن) والصفحة رقم ١٦٨

١٦٩ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

عوف، ومنهم رجل من أشجع حليف لبنى سلمة يقال له مُحْشَن بن حَمِير، (ويقال مُحْشِي) يشيرون إلى رسول الله ﷺ وهو منطلق إلى تبوك، فقال بعضهم لبعض: أنحسبون جلاذ بنى الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضا. والله! لكانا بكم غدا مقرنين في الجبال، إرجافا وترهيبا للمؤمنين، فقال مُحْشَن بن حَمِير. والله! لوددت أن أقاضى على أن يُضْرَبَ كل منا مائة جلدة، وأنا ننقلب أن ينزل فينا قرآن، لمقاتلتكم هذه. وقد قال رسول الله ﷺ فيما بلغنى - لعمار بن ياسر: أدرك القوم، فإنهم قد احترقوا، فسلهم عما قالوا، فإن أنكروا، فقل: بلى! قلتم: كذا وكذا. فانطلق إليهم عمار، فقال ذلك لهم، فأتوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه، فقال ودیمة بن ثابت - ورسول الله ﷺ واقف على ناقته - : يا رسول الله! إنما كنا نخوض ونلعب، فأنزل الله عز وجل فيهم (وَأَن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ) وقال مُحْشَن بن حَمِير: يا رسول الله! لقد بى اسمى واسم أبى. وكان الذى عُفِيَ عنه في هذه الآية مُحْشَن، فتسمى عبد الرحمن، وسأل الله تعالى أن يقبله شهيدا لا يعلم بمكانه، فقتل يوم اليمامة، فلم يوجد له أثر. انتهى.

وقال مكرمة: ممن إن شاء الله تعالى عفا عنه يقول: اللهم إني أسمع آية أنا عفى بها، تقشعر منها الجلود، وتوجلُّ منها القلوب. اللهم فاجعل وفائى قتيلا في سبيلك، لا يقول أحد: أنا غسست، أنا كفت، أنا دفقت. قال: فأصيب يوم اليمامة، فما من أحد من المسلمين إلا وقد وُجِدَ، غيره.

ومما روى في استهزائهم أن رجلا من المنافقين قال: ما رأيت مثل قرائنا هؤلاء، أرغب بطونا، ولا أكذب ألسنا، ولا أجبن عند اللقاء. فرفع ذلك إلى رسول الله ﷺ، فجاء إلى النبي صلوات الله عليه وقد ارتحل وركب ناقته، فقال: يا رسول الله! إنما كنا نخوض ونلعب، فقال: أبا الله ورسوله وآياته كفتم تستهزئون... الآية - وهو متعلق بسيف الرسول، وما يلتفت إليه ﷺ.

قال الزجاج : (الطائفة) في اللغة أصلها الجماعة ، لأنها المقدار الذي يمكنها أن تطيف بالشيء ، ثم يجوز أن يسمى الواحد بالطائفة . انتهى .
وإيقاع الجمع على الواحد معروف في كلام العرب .
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ ، يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ، نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ، إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)

« الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ » أي متشابهون في النفاق والبعد عن الإيمان ، كتشابه أباض الشيء الواحد . والمراد الاتحاد في الحقيقة والصفة . فـ (من) اتصالية .

قال الزجاج شري : أريد به نفي أن يكونوا من المؤمنين ، وتكذيبهم في قولهم (ويحلفون بالله أنهم لم ينسوا ما هم منكروهم) ثم وصفهم بما يدل على مضادة حالهم لحال المؤمنين بقوله : « يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ » كالسكر والمعاصي « وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ » كالإيمان والطاعات « وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ » أي بخلا بالمبرات ، والإنفاق في سبيل الله ، فإن قبض اليد كناية عن الشح والبخل ، كما أن بسطها كناية عن الجود ، لأن من يُعطى يمد يده ، بخلاف من يمنع « نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ » أي أغفلوا ذكره وطاعته ، فتركهم من رحمته وفضله .

قال الشهاب : معنى (نَسُوا اللَّهَ) أنهم لا يذكرونه ولا يطيعونه ، لأن الذكر له مستلزم لإطاعته ، فجعل النسيان مجازاً عن الترك ، وهو كناية عن ترك الطاعة ، ونسيان الله مفعول لطفه وفضله عنهم .

قال النحرير : جعل النسيان مجازاً لاستحالة حقيقته عليه تعالى ، وامتناع المؤاخذة على نسيان البشر .

« إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ » أى الكاملون فى الفسق ، الذى هو الترد فى الكفر ، والانسلاخ عن كل خير . وكفى المسلم زاجراً أن يلم بما يكسبه هذا الاسم الفاحش الذى وصف الله به المنافقين حين بالغ فى ذمهم . وإذا كره رسول الله ﷺ للمسلم أن يقول (كسلت) لأن المنافقين وصفوا بالكسل فى قوله ^(١) (كَسَالَى) فما ظنك بالفسق ؟ أفاده الزمخشري .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ، هِيَ حَسْبُهُمْ ، وَلَعَنَّ اللَّهُ ، وَلَعَنَّ اللَّهُ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ)
« وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ، هِيَ حَسْبُهُمْ »
أى عقاباً وجزاء « وَلَعَنَّ اللَّهُ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ » أى لا ينقطع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَكَثُرَ أَمْوَالُ وَأَوْلَادُ فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

« كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ » أى أنتم مثل الذين أو فعلتم مثلهم ، أى ممن أنعم عليهم

(١) [٤ / النساء / ١٤٢] و [٩ / التوبة / ٥٤] .

ثم عذبوا، والاتفات من الغيبة إلى الخطاب للتشديد « كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً » في أنفسهم « وَأَكْثَرُ أَمْوَالًا » أى تفيدهم مزيد قوة ، ومنافع جمة « وَأَوْلَادًا » أى تفيدهم مزيد قوة لا تفوت بفوات المال ، ومنافع أخر « فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَائِقِهِمْ » أى انتفعوا بنصيبهم ، ثم أعطاكم أيها المنافقون أقل مما أعطاهم « فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَائِقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَائِقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا » أى دخلتم فى الباطل ، كنلوض الذى خاضوه ، أو كالفوج الذى خاضوا « أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ » أى لم يستحقوا عليها ثواباً فى الدارين ، أما فى الآخرة فظاهر ، وأما فى الدنيا فما لهم من الدل والهوان وغير ذلك « وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ » أى الذين خسروا الدارين .

روى ابن جريج عن أبى هريرة قال ^(١) : قال رسول الله ﷺ : والذى نفسى بيده ! لتتبعن سنن الذين من قبلكم شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع ، وباعاً بباع ، حتى لو دخلوا جحر ضبٍ لدخلتموه . قالوا : ومن هم يا رسول الله ؟ أهل الكتاب ؟ قال : فن ؟ وفى رواية قال أبو هريرة : اقرؤوا إن شئتم القرآن : كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ . . . الآية . (قال أبو هريرة : الخلاق : الدين) قالوا : يا رسول الله ! كما صنعت فارس والروم ؟ قال : فهل الناس إلا هم ؟ وهذا الحديث له شاهد فى الصحيح - أفاده ابن كثير - .

الطيفة :

قال الزمخشري : فإن قلت : أى فائدة فى قوله (فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَائِقِهِمْ) أو قوله (كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَائِقِهِمْ) ممن منه ، كما أغنى قوله (كَالَّذِي خَاضُوا) عن (١) الحديث أخرجه ابن جرير الطبرى فى التفسير ، بالصفحة رقم ١٧٦ من الجزء العاشر (طبعة الحلبي الثانية) .

وشاهده فى الصحيح ما أخرجه البخارى فى : ٩٦ - كتاب الاعتصام ، ١٤ - باب قول النبي ﷺ « لتتبعن سنن من كان قبلكم » ، الحديث رقم ٢٥٨٩ .

أن يقال : وخاضوا فحضم كالذى خاضوا ؟ قلت : فائدته أن يذم الأولين بالاستمتاع بما أوتوا من حظوظ الدنيا ، ورضاهم بها ، والتهائم بشهواتهم الفانية عن النظر في العاقبة ، وطلب الفلاح في الآخرة ، وأن يحسس أمر الاستمتاع ، ويهجن أمر الرضى به ، ثم يشبه بعد ذلك حال المخاطبين بحالهم ، كما تريد أن تنبه بعض الظلمة على سماجة فعله فقول : أنت مثل فرعون ، كان يقتل بنير جرم ، ويمذب ويعسف ، وأنت تفعل مثل فعله . وأما (وَخُضْتُمْ كَأَذَى خَاضُوا) فمطوف على ما قبله مستند إليه ، مستغن ، باستفاده إليه ، عن تلك المقدمة . ثم وعظ تعالى المنافقين بقوله :

القول في تاويل قوله تعالى :

[٧٠] (أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ ، أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ، فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

« أَلَمْ يَأْتِهِمْ » أى بطريق التواتر « نَبَأُ » أى خبر « الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » وهو إهلاكهم بعد تنعيمهم لكفرهم « قَوْمِ نُوحٍ » أنعم عليهم بنعم ، منها تطويل أعمارهم ، ثم أهلكوا بالطوفان « وَعَادٍ » قوم هود ، أنعم عليهم بنعم منها مزيد قوتهم ، ثم أهلكوا بالريح « وَثَمُودَ » قوم صالح ، أنعم عليهم بنعم ، منها القصور ، ثم أهلكوا بالرجفة « وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ » أهلكوا بالهدم - كذا فى (التنوير) .

وقال المهاجى : أنعم عليهم بنعم منها عظم الملك ثم أهلك ملكهم نمرود بالبعوض الداخل فى أنفه « وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ » قوم شعيب ، أنعم عليهم بنعم ، منها التجارة ، ثم أهلكهم بإفاضة النار عليهم « وَالْمُؤْتَفِكَاتِ » قريات قوم لوط ، ائتفكت بهم ، أى انقلبت بهم ، فصار عاليها سافلها ، وأمطروا حجارة من سجيل .

وقوله تعالى « أَتَقْتُمُ رُسُلَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ » استئناف لبيان نبههم . أن جاءهم بالآيات الدالة على رسالتهم « فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ » أى بإهلاكه إياهم ، لأنه أقام عليهم الحجة ، بإرسال الرسل ، وإزاحة الليل . والفاء لانطف على مقدّر ينسحب عليه الكلام ويستدعيه النظام . أى فكذبوهم فأهلكهم الله تعالى ، فإظلمهم بذلك « وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » أى بالكفر والتكذيب ، وترك شكره تعالى ، وصرفهم نعمه إلى غير ما أعطاهم إياها لأجله ، فاستحقوا ذلك العذاب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧١] (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

« وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ » فى مقابلة قوله فى المنافقين ^(١) (بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ) « يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ » أى فلا يزالون يذكرونه تعالى ، فهو فى مقابلة ما سبق من قوله ^(١) (نَسُوا اللَّهَ) « وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ » بمقابلة قوله ^(١) (وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ) « وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ » أى فى كل أمر ونهى ، وهو بمقابلة وصف المنافقين ، بكمال الفسق والخروج عن الطاعة « أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٢] (وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِينَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ، وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ، ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

« وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » أى من تحت شجرها ومساکنها أنهار الخمر والماء والمسل واللبن « خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِينَ طَيِّبَةً » أى منازل حسنة تستطعبيها النفوس أو يطيب فيها العيش « فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ » أى إقامة وثبات . ويقال (عَدْنٍ) علم لموضع معين فى الجنة ، لأنار فيه ، ولما كان (وَمَسَاكِينَ) معطوفاً على (جَنَّاتٍ) قيل : إن المتعاطفين إما أن يتغايروا بالذات ، فيكونوا وُعدوا بشيئين ، وهما الجنات بمعنى البساتين ومساکين فى الجنة ، فلكل أحد جنة ومسكن . أو الجنات المقصود بها غير عدن ، وهى لعامة المؤمنين ، و(عَدْنٍ) للنبيين عليهم الصلاة والسلام والشهداء والصديقين . وإما أن يتحدوا ذاتاً . ويتغايروا صفة ، فينزل التنائير الثانى منزلة الأول ، ويمطف عليه ، فلكل منهما عام ، ولسكن الأول باعتبار اشتغالها على الأنهار والبساتين ، والثانى باعتبار الدور والمنازل .

قال القاضى : فكأنه وصف الموعود أولاً بأنه من جنس ما هو أبهى الأماكن التى يرفونها لتميل إليه طباعهم ، أول ما يقرع أسماعهم ، ثم وصفه بأنه محفوف بطيب العيش ، ممرى من شوائب السكودرات التى لا تخلو عن شئ منها أما كن الدنيا ، وفيها ما تشتهى الأنفس ، وتلذ الأعين . ثم وصفه بأنه دار إقامة وثبات فى جوار العليين ، لا يمتريهم فيها فناء ولا تغير ، ثم وعدهم بما هو أكبر من ذلك فقال « وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ » إذ عليه يدور فوز كل خير وسعادة ، وبه يفاط نيل كل شرف وسيادة ، ولعل عدم نظمه فى

سلك الوعد مع عزته في نفسه لأنه متحقق في ضمن كل موعود ، ولأنه مستمر في الدارين .
أفاده أبو السمود .

وإشار رضوان الله على ما ذكر ، إشارة إلى إفادة أن قدراً يسيراً منه خير من ذلك .

وقد روى الإمام مالك والشيخان^(١) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة افيقون : لبيك ربنا وسعديك والخير في بديك ، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى يا رب ؟ وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك ؟ فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون : يا رب ، وأي شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضواني ، فلا أسخط عليكم بعده أبداً .

وروى الحاملي والزارع عن جابر ، رفعه : إذا دخل أهل الجنة الجنة ، قال الله عز وجل : هل تشبهون شيئاً فأنزلكم ؟ قالوا : يا ربنا ! ما هو خير مما أعطيتنا ؟ قال : رضواني أكبر .
« ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » أي لا ما بعدة الناس فوزاً من حظوظ الدنيا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ، وَمَأْوَاهُمُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ » قيل : مجاهدة المنافقين بالحجة لا بالسيف . قال في (العناية) ظاهر الآية يقتضي مقاتلة المنافقين ، وهم غير مظهرين للكفر ، ونحن مأمورون بالظاهر ، فلذا فسر الآية السلف بما يدفع ذلك ، بناء على أن الجهاد بذل الجهد في دفع ما لا يرضى ، سواء كان بالقتال أو بغيره ، وهو إن كان حقيقة فظاهر ، وإلا

(١) أخرجه البخاري في : ٨١ - كتاب الرقاق ، ٥١ - باب صفة الجنة والنار : حديث

رقم ٢٤٥٨ .

وأخرجه مسلم في : ٥١ - كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، حديث رقم ٩ (طبعتنا) .

حمل على عموم المجاز، فجهاد الكفار بالسيف ، وجهاد المنافقين بإلزامهم الحجج، وإزالة الشبهة ونحوه . أو بإقامة الحدود عليهم ، إذا صدر منهم موجبها ، كما روى عن الحسن في الآية . وقيل عليه بأن إقامتها واجبة على غيرهم أيضاً ، وأجيب بأنها في زمنه ﷺ أكثر ما صدرت عنهم . انتهى .

قال ابن العربي^(١) : هذه دعوى لا برهان عليها ، وليس العاصي بمنافق ، إنما المنافق بما يكون في قلبه من النفاق كامناً ، لا بما تتلبس به الجوارح ظاهراً ، وأخبار المحدودين يشهد سياقها أنهم لم يكونوا منافقين .

وقال ابن كثير : روى عن علي رضي الله عنه قال : بُعث رسول الله ﷺ بأربعة أسياف ، سيف للمشركين^(٢) : (فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ) ؛ وسيف للكفار أهل الكتاب^(٣) : (قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ...) الآية - ؛ وسيف للمنافقين^(٤) : (جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ) وسيف للبيعة^(٥) : (فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْنِي ...) الآية - وهذا يقتضي أنهم يجاهدون بالسيوف إذا أظهروا النفاق ، وهو اختيار ابن جرير . انتهى . وفي (الإكليل) استدل بالآية من قال بقتل المنافقين . انتهى .

« وَاعْلَظْ عَلَيْهِمْ » أى اشدد على كلا الفريقين بالقول والفعل « وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ » .

(١) أحكام القرآن : ص ٩٦٦ من القسم الثاني ، تحقيق الأستاذ على محمد البجاوى .

(٢) [٩ / التوبة / ٥] . (٣) [٩ / التوبة / ٢٩] .

(٤) [٩ / التوبة / ٧٣] و [٦٦ / التحريم / ٩] . (٥) [٤٩ / الحجرات / ٩] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٤] (يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا ، وَمَا تَقَمُّوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ ، فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ ، وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ)

« يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا » أى فيك شيئاً يسوءك « وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ » قال قتادة^(١) : نزلت في عبدالله بن أبى ، وذلك أنه افتتل رجلان : جهنى وأنصارى ، فعلا الجهنى على الأنصارى ، فقال عبدالله للأَنْصار : ألا تنصرون أخاكما والله ، ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل : (سمن كلبك يأكلك) . وقال : لئن رجعتا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . فسمى بها رجل من المسلمين إلى النبي ﷺ ، فأرسل إليه فسأله ، فجعل يحلف بالله ما قاله ، فأرسل الله فيه هذه الآية .

وروى الأموى في مغازبه عن ابن إسحاق أن الجلاس بن سويد بن الصامت - وكان ممن تخلف من المنافقين - لما سمع ما ينزل فيهم قال : والله لئن كان هذا الرجل صادقاً فيما يقول ، لنحن شر من الحمير ، فسممها عمير بن سعد ، وكان في حجره ، فقال : والله يا جلاس إنك لأحب الناس إلى ، وأحسنهم عندى بلاء ، وأعزم على أن يصله شيء تكرهه ، ولقد قلت مقالة ، فإن ذكرتها لتفضحنى ، ولئن كتمتها تهلكتنى ، ولأحداها أهون على من الأخرى . فشى إلى رسول الله ﷺ ، فذكر له ما قال الجلاس ، فلما بلغ ذلك الجلاس ، أتى رسول الله ﷺ ، خلف بالله ما قالها ، فأرسل الله عز وجل فيه (يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ ...) الآية - فوقه رسول الله ﷺ عليها ، فزعموا أن الجلاس تاب فحسفت توبته ، وزرع فأحسن الزرع .

(١) انظر تفسير ابن جرير الطبري ، الصفحة رقم ١٨٦ من الجزء العاشر (طبعة الحلبي

الثانية) .

وهاتان الروايتان وغيرهما مما روى هنا ، كله مما يفيد تنوع مقالات وكلمات مكفرة لهم مما هو من هذا القبيل ، وإن لم يمكننا تعيين شيء منها في هذه الآية .

وقوله تعالى : « وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا » قال ابن كثير : قيل أُنزِلت في الجلاس بن سويد ، وذلك أنه هم بقتل عمير ابن امرأته ، لما رفع كلمته المتقدمة إلى النبي صلوات الله عليه . وقد ورد أن نفرًا من المنافقين هموا بالفتك بالنبي ﷺ ، وهو في غزوة تبوك ، في بعض تلك الليالي ، في حال السير ، وكانوا بضعة عشر رجلاً . قال الضحاك : ففهم نزلت هذه الآية .

قال الإمام أحمد في مسنده (١) : حدثنا يزيد أخبرنا الوليد بن عبد الله بن جميع عن أبي الطفيل قال : لما أقبل رسول الله ﷺ من غزوة تبوك ، أمر منادياً فنادى أن رسول الله ﷺ أخذ العقبة ، فلا يأخذها أحد . فبينما رسول الله ﷺ يقوده حذيفة ، ويسوق به عمار ، إذ أقبل رهط متلثمون على الرواحل ، غشوا عماراً ، وهو يسوق برسول الله ﷺ ، وأقبل عمار رضى الله عنه يضرب وجوه الرواحل ، فقال رسول الله ﷺ لحذيفة : قُدْ قُدْ . حتى هبط رسول الله ﷺ .

فلما هبط رسول الله ﷺ نزل ، ورجع عمار ! فقال : يا عمار ! هل عرفت القوم ؟ فقال : قد عرفت عامة الرواحل ، والقوم متلثمون . قال : هل تدري ما أرادوا ؟ قال : الله ورسوله أعلم . قال : أرادوا أن ينفروا برسول الله ﷺ فيطرحوه . قال : فسأب عمار رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ فقال : نشدتك بالله ، كم تعلم كان أصحاب العقبة ؟ قال : أربعة عشر رجلاً . فقال : إن كنت فيهم فقد كانوا خمسة عشر . قال : فعدّ رسول الله ﷺ منهم ثلاثة ، قالوا : والله ما سمعنا منادى رسول الله ﷺ ، وما علمنا ما أراد القوم . فقال عمار : أشهد أن الاثنى عشر الباقيين حرب لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد . « وَمَا نَقَمُوا » أى ما أنكروا وما عابوا « إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ » فإنهم كانوا قبل مقدمه ﷺ المدينة في ضئك من العيش ، فأثروا بالغنائم ، وقتل للجلاس

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة رقم ٤٥٣ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .

مولى ، فأمر له النبي ﷺ بدينه فاستغنى . والمعنى أن المنافقين عملوا بضد الواجب ، فجعلوا موضع شكر النبي ﷺ ما هموا به ، ولا ذنب إلا تفضله عليهم ، فهو على حد قولهم : مالى عندك ذنب إلا أنى أحسنت إليك ، وقول ابن قيس الرقيات ^(١) :

مَا نَقِمَ النَّاسُ مِنْ أُمِيَّةٍ إِلَّا أَنَّهُمْ يَحْمُلُونَ إِنْ غَضِبُوا
وقول النابغة ^(٢) :

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُمُوفَهُمْ
يَهِنٌ فَلَوْلَ مِنْ قِرَاعِ الْكُفَّائِبِ
ويقال : نقم من فلان الإحسان (كعلم) إذا جعله مما يؤديه إلى كفر النعمة . كما فى (التاج) - ثم دعاهم تعالى إلى التوبة بقوله : « فَإِنْ يَقُولُوا » أى من الكفر والنفاق « يَكُ خَيْرًا لَهُمْ ، وَإِنْ يَقُولُوا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا » أى بالقتل والهزم والغم « وَالْآخِرَةِ » أى بالدار وغيرها « وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ » أى يشفع لهم فى دفع العذاب « وَلَا نَصِيرٍ » أى يفدعه بقوته .

(١) البيت من شواهد الكشف . ونصه فيه : ما نقموا من بنى أمية إلا ... الخ . قال شارح الشواهد : هو لابن قيس الرقيات . يعنى أنهم جعلوا أحسن الأشياء قبيحا ، وهو الحلم عند الغضب ، وذلك أصل الشرف والسيادة . والبيت من قصيدة مظلما :

عَادِلُهُ مِنْ كَثِيرَةِ الطَّرْبِ فَعَيْنُهُ بِالْدموعِ تَنْسَكِبُ
يَعِدُّ بِهَا عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ (انظر : ص ٤٠ ج ٦) فى : رغبة الآمل من كتاب الكامل .
(٢) من شواهد الكشف . قال شارحه : هو للنابغة الذبياني من قصيدته المشهورة

التي أولها :

كَلِمَتِي لَهُمْ يَا أُمِيَّةُ نَاصِبٍ وَلَيْلٍ أَقَاسِيهِ بَطْلَى الْكُوكَبِ
وفلول السيف كناية عن كمال الشجاعة ، فكونه من العيب محال .

ثم بين تعالى بعض مَنْ نَقِمَ لِإِغْنَاءِ اللَّهِ تَعَالَى إِبَاهَ بِمَا آتَاهُ مِنْ فَضْلِهِ ، مِمَّنْ نَكَثَ فِي عَيْمِهِ ، وَتَوَلَّى عَنْ التَّوْبَةِ ، بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ) « وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ » أى حلف به « لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ » أى بإعطاء كل ذى حق حقه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (فَلَمَّا آتَاهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ) « فَلَمَّا آتَاهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا » أى من العهد « وَهُمْ مُّعْرِضُونَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ)

« فَأَعْقَبَهُمْ » أى فجعل الله عاقبة فعلهم ذلك ، أو فأورثهم البخل « نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ » إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ » أى من التصديق والصلاح « وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ » فى العهد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ) « أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ » أى ما أسروه من النفاق والعزم على إخلاف ما وعدوه وما يتناجون به فيما بينهم من المطاعن فى الدين « وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ » أى ما غاب عن العباد .

تنبيهات :

الأول - قال السيوطي في (لباب النقول) : أخرج الطبراني وابن مردويه وابن أبي حاتم والبيهقي في (الدلائل) بسند ضعيف عن أبي أمامة ؛ أن ثعلبة بن حاطب قال : يا رسول الله ! ادع الله أن يرزقني مالا . قال : ويحك يا ثعلبة ! قايـل تؤدي شكره ، خير من كثير لا تطيقه . قال : والله لئن آتاني الله مالا لأوتين كل ذي حق حقه . فدعاه له ، فاتخذ غنما ، فتمت حتى ضاقت عليه أزقة المدينة ، ففتحن بها ، وكان يشهد الصلاة ، ثم يخرج إليها ، ثم تمت حتى تمتدت عليه مراعى المدينة ، ففتحن بها ، فكان يشهد الجمعة ثم يخرج إليها ، ثم تمت ، ففتحن بها ، فترك الجمعة والجماعات . ثم أنزل الله على رسوله ^(١) (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا) ، فاستعمل على الصدقات رجلين ، وكتب لهما كتابا ، فأتيا ثعلبة ، فأقرآ كتاب رسول الله ﷺ ، فقال : انطلقا إلى الناس ، فإذا فرغتم فروا بي ففعلا ، فقال : ما هذه إلا أخت الجزية ، فانطلقا ، فأنزل الله (وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ ...) إلى قوله (يَكْذِبُونَ) الحديث .

وأخرج ابن جرير ^(٢) وابن مردويه من طريق الموفى عن ابن عباس نحوه ، وفيه أنه جاء بعد إلى النبي ﷺ بصدقته فقال له : إن الله منعمي أن أقبل منك ، فحمل التراب على رأسه . فقال : هذا عملك ، قد أمرتك فلم تطعني ، فقبض رسول الله ﷺ ، فجاء بها إلى أبي بكر رضي الله عنه فلم يقبلها ، وكذا عمر وعثمان ، ثم إنه هلك في أيام عثمان .

قال الشهاب : مجيء ثعلبة وحثوه التراب ، ليس للتوبة من ثقافته ، بل للعار من عدم قبول زكاته مع المسلمين . وقوله صلوات الله عليه : هذا عملك ، أي جزاء عملك ، وهو عدم إعطائه المصدقين ، مع مقاتله الشنعاء .

(١) [٩ / التوبة / ١٠٣] . (٢) انظر تفسير ابن جرير ص ١٨٩ من الجزء العاشر
(طبعة الحلبي الثانية) .

قال الحاكم : إن قيل : كيف لم تقبل صدقته وهو مكلف بالتصدق ؟ أجيب : بأنه يحتمل أن الله تعالى أمر بذلك ، كيلا يجترئ الناس على نقض العهد ، ومخالفة أمر الله تعالى ، وردّ سماع النبي ﷺ ، ويكون لطفاً في ترك البخل والنفاق .

الثاني - قال بعض المفسرين من الزيدية : ثمرة الآية وسبب نزولها أحكام :

منها - أن الوفاء بالوعد واجب ، إذا تعلق العهد بواجب . والعهد إن حمل على اليمين بالله ، فذلك ظاهر ، وإن حمل على النذر ، ففي ذلك تأكيد لما أوجب الله .

ومنها - أن للإمام أن يفعل مثل ذلك لمصلحة ، أي يمتنع من أخذ الواجب إذا حصل له وجه شابه الوجه الذي حصل في قصة ثعلبة . انتهى .

الثالث - قال السيوطي في (الإكمال) : فيها أن إخلاف الوعد والكذب من خصال النفاق ، فيكون الوفاء والصدق من شعب الإيمان . وفيها المعاقبة على الذنب بما هو أشد منه لقوله : (فَأَعْتَبْهُمْ نِفَاقًا) واستدل بها قوم على أن من حلف إن فعل كذا ففعله على كذا ، أنه يلزمه . وآخرون على أن مانع الزكاة يعاقب بترك أخذها منه . كما فعل بمن نزلت الآية فيه . انتهى .

الرابع - قال الرازي : ظاهر الآية يدل على أن نقض العهد ، وخلف الوعد ، يورث النفاق ، فيجب على المسلم أن يبالي في الاحتراز عنه ، فإذا عاهد الله في أمر فليجتهد في الوفاء به . ومذهب الحسن البصري رحمه الله أنه يوجب النفاق لا محالة ، وتمسك فيه بهذه الآية ، وبقوله عليه السلام ^(١) : (ثلاث من كن فيه فهو منافق ، وإن صلى وصام وزعم أنه مؤمن : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان) .

(١) الحديث أخرجه البخاري في : ٢ - كتاب الإيمان ، ٢٤ - باب علامة المنافق ،

حديث رقم ٣١ عن أبي هريرة .

وأخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ١٠٧ - ١١٠ (طبعنا) .

الخامس - دل قوله تعالى : (إِلَى يَوْمٍ يَلْقَوْنَهُ) على أن ذلك المآل مات منافقاً . قال الرازي : وهذا الخبر وقع مخبره مطابقاً له ، فإنه روى أن ثعلبة أتى النبي ﷺ بصدقته فقال : إن الله تعالى منعني أن أقبل صدقتك . وبقي على تلك الحالة . وما قيل أحد من الخلفاء رضي الله عنهم صدقته حتى مات . فكان إخباراً عن غيب ، فكان معجزاً .

السادس - الضمير في (يلقونه) للفظ الجلالة ، والمراد بـ (اليوم) يوم القيامة . وله نظائر كثيرة في التنزيل . وأغرب بعض المفسرين حيث قال : الضمير في (يلقونه) إما لله ، والمراد باليوم وقت الموت ، أو للبخل والمراد يوم القيامة والمضاف محذوف ، وهو الجزاء . انتهى .

واللقاء إذا أضيف إلى الكفار كان لقاءً مناسباً لحالهم من وقوفهم للحساب مع حجبتهم عنه تعالى ، لأنهم ليسوا أهلاً لرؤيته ، تقدس اسمه . وإذا أضيف إلى المؤمنين ، كما في قوله تعالى (١) : (تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ) ، كان لقياً مناسباً لمقامهم من رؤيته تعالى . وذلك لما أفصحته عنه آيات أخر من حال الفريقين ، مما يتنزل مثل ذلك عليها . فن وقف في بعض الآيات على لفظة ، وأخذ يستنبط منها ، ولم يراع من استعملت فيه ، وأطلقت عليه ، كان ذلك جهوداً وتعباً ، لا أخذاً بيد الحق . نقول ذلك ردّاً لقول الجبائي : إن اللقاء في هذه الآية لا يفيد رؤيته تعالى ، للإجماع على أن الكفار لا يرونه تعالى ، فلا يفيد أيضاً في قوله تعالى : (تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ) . وللرازي معه مناقشة من طريق أخرى . وما ذكرناه أمتن . والله أعلم .

السابع - قال الرازي : (السر) ما ينطوي عليه صدورهم ، و (النجوى) ما يفاوض فيه بعضهم بعضاً فيما بينهم ، وهو مأخوذ من النجو ، وهو الكلام الخفي ، كأن المتناجين منعاً إدخال غيرهما معهم ، وتباعداً من غيرهما .

ثم بين تعالى من مساوي المنافقين نوعاً آخر ، وهو لزوم المتصدقين بقوله سبحانه :

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٤٤] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٩] (الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

« الَّذِينَ يَلْمِزُونَ » أى يعيبون « الْمُطَّوِّعِينَ » أى المتبرعين « مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » فى الصَّدَقَاتِ « فَيَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ تَصَدَّقُوا رِيَاءً » وَالَّذِينَ « أى ويلمزون الذين « لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ » أى لا يجدون ما يتصدقون به إلا قليلاً ، وهو مقدار طاقتهم « فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ » أى يهزؤون بهم ، ويقولون إن الله غنى عن صدقاتهم « سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ » أى جازاهم على سخرهم « وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » روى البخارى^(١) فى صحيحه عن أبى مسعود رضى الله عنه قال : لما نزلت آية الصدقة ، كنا نحامل^(٢) فجاء رجل فتصدق بشيء كثير ، فقالوا : مرأى . وجاء رجل فتصدق بصاع ، فقالوا : إن الله اغنى عن صدقة هذا ، فنزلت : (الَّذِينَ يَلْمِزُونَ . . .) الآية - ورواه مسلم^(٣) أيضاً .

وروى الإمام أحمد^(٤) عن أبى السليل عن رجل حدثه عن أبيه أو عمه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : من يتصدق بصدقة أشهد له بها يوم القيامة ؟ فجاء رجل لم أر رجلاً أشد منه سواداً ، ولا أصغر منه ولا أدم ، بناقة لم أر أحسن منها ، فقال : يا رسول الله ، دونك هذه الناقة . قال : فلززه رجل فقال : هذا يتصدق بهذه ، فوالله لهى خير منه ! فسمعها رسول الله ﷺ فقال : كذبت ! بل هو خير منك ومنها (ثلاث مرات) . ثم قال : ويل لأصحابك إلا من قال بالمال هكذا وهكذا ، وجمع بين كفيه عن يمينه وعن شماله .

(١) أخرجه البخارى فى : ٢٤ كتاب الزكاة ، ١٠ - باب اتقوا النار ولو بشق تمرة ، الحديث رقم ٧٥٥ (٢) أى تحمل الحمل على ظهورنا بالأجرة . (٣) أخرجه مسلم فى : ١٢ - كتاب الزكاة ، حديث ٧٢ (طبعنا) . (٤) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٣٤ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .

قال ابن إسحاق^(١) : كان العاقرعون من المؤمنين في الصدقات عبد الرحمن بن عوف ، وعاصم بن عدى أخا بنى عجلان . وذلك أن رسول الله ﷺ رغب في الصدقة ، وحض عليها ، فقام عبد الرحمن بن عوف فتصدق بأربعة آلاف ، وقام عاصم بن هدي وتصدق بمائة وسق من تمر ، فلهزوها وقالوا : ما هذا إلا رياء . وكان الذي تصدق بجهد أبي عقيل ، أخا بنى أنيف ، أتى بصاع من تمر ، فأفرغها في الصدقة فتضاحكوا به ، وقالوا : إن الله لفنى عن صاع أبي عقيل .

وروى الحافظ البزار في مسنده عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تصدقوا فإنى أريد أن أبعث بعثاً . فجاء عبد الرحمن بن عوف فقال : يا رسول الله ! عندي أربعة آلاف ، ألفين أقرضهما لربى ، وألفين لعمالي ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بارك الله لك فيما أعطيت ، وبارك لك فيما أمسكت . وبات رجل من الأنصار فأصاب صاعين من تمر ، فقال : يا رسول الله ! أصبت صاعين من تمر ، صاع أقرضه لربى ، وصاع لعمالي . قال ، فلمزه المنافقون وقالوا : ما أعطى الذى أعطى ابن عوف إلا رياء ، وقالوا ألم يكن الله ورسوله غنيين عن صاع هذا ؟ فأنزل الله الآية . وقوله عليه الصلاة والسلام (أريد أن أبعث بعثاً) أى لغزو الروم ، وذلك في غزوة تبوك .

تنبيهات :

الأول - قال السيوطى في (الإكمال) : في هذه الآية تحريم اللغو والسخرية بالمؤمنين ، انتهى .

الثانى - في (الَّذِينَ يَكْمُرُونَ) وجوه من الإعراب : خبر مبتدأ بقدير (هُمُ الَّذِينَ) أو مفعول أعنى أو أذى الذين ، أو مجرور بدل من ضمير (سِرُّهُمْ) ، وجوز أيضاً أن يكون

(١) انظر سيرة ابن هشام صفحة رقم ٩٢٦ (طبعة جوتنجن) و صفحة ١٩٦ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

مبتدأ خبره (سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ) ، وقيل : (فَيَسْخَرُونَ) ، ودخلت (الغاء) لما في (الَّذِينَ) من الشبه بالشرط . وأما (الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ) . . . الخ فقيـل : معطوف على (الَّذِينَ يَلْمِزُونَ) وقيل : (على المؤمنين) ، والأحسن أنه معطوف على (المطوعين) .
قال في (الفتح) : ويكون من عطف الخاص على العام ، والنسكتة فيه التنويه بالخاص ، لأن السخرية من المقل أشد من المكثـر غالباً .

الثالث - قال في (الفتح) : قراءة الجمهور (الْمُطَوِّعِينَ) بتشديد الطاء والواو . وأصله المتطوعين ، أدغمت التاء في الطاء . انتهى . أى لقرب الخرج . والقطوع التنقل ، وهو الطاعة لله تعالى بما ليس بواجب . و (الجهد) ، قال الليث : هو شيء قليل يعيش به المقل ، وبضم الجيم قرأ الجمهور . وقرأ ابن هرمز وجماعة بالفتح ، فقيـل : هما لغتان بمعنى واحد . وقيل : المفتوح بمعنى المشقة ، والمضموم بمعنى الطاقة . وقيل : المضموم قليل يعاش به ، والمفتوح : العمل . والمختار أنهما بمعنى ، وهو الطاقة وما تبلغه القوة . قال الفراء : الضم لغة أهل الحجاز ، والفتح غيرهم . والجزء والسخرية بمعنى .
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٠] (اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)
« اسْتَغْفِرْ لَهُمْ » أى لهؤلاء المنافقين « أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ » أى فإنهما في حقهما سواء . ثم بين استحالة المغفرة لهم وإن بولغ في الاستغفار بقوله تعالى : « إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ » ، ذَلِكَ أى عدم الغفران لهم « بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ » ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ « أى الخارجين عن حدوده .

تنبيهات :

الأول - جملة قوله تعالى (اسْتَغْفِرْ لَهُمْ) الخ، إنشائية لفظاً، خبرية معنى . والمراد التسوية بين الاستغفار لهم، وتركه، في استحالة المغفرة. وتصويره بصورة الأمر، للمبالغة في بيان استوائهما. كأنه عليه الصلاة والسلام أمر بامتحان الحال ، بأن يستغفر تارة ، ويترك أخرى ، ليظهر له جليلة الأمر ، كما مر في قوله تعالى (١) (قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا) ، وقد وردت بصيغة الخبر في سورة « المنافقون » في قوله تعالى (٢) (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّاْ رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ * سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) .

الثاني - قال الزمخشري : (السبعون) جار مجرى المثل في كلامهم للتكثير . قال على ابن (٣) أبي طالب عليه السلام :

لَأَصْبَحَنَّ الْعَاصِ وَابْنُ الْعَاصِي سَبْعِينَ أَلْفًا عَاقِدِي النُّوَاصِي .

أي فذكرها للمبالغة في حسم مادة الاستغفار لهم ، جريا على أساليب العرب في ذكرها للمبالغة لا للتحديد ، بأن يكون ما زاد عليها بخلافها .

وقال أبو السعود : شاع استعمال السبعة والسبعين والسبعمائة في مطلق التكثير ، لاشتغال السبعة على جملة أقسام العدد ، فكأنها العدد بأسره . وقيل : هي أكل الأعداد ، لجمعها معانيها ، ولأن الستة أول عدد تام ، لتعادل أجزائها الصحيحة ، إذ نصفها ثلاثة ، وثلثها

(١) [٩ / التوبة / ٥٣] . (٢) [٦٣ / المنافقون / ٦٥] .

(٣) استشهد به في الكشف قال شارح الشواهد : أي لأسقين الصبوح . والعاص ، إن روى بالكسر ، فعلى الوصف بالعصيان ، وإن روى بالفتح فكأنه أريد القبيلة ، وهو عمرو بن العاص . (و سبعين) ثانی مفعولی (لأصبحن) . والمراد الفرسان الماقدی نواصی الخيل من عادة العرب أن تسعمل مثل هذا العدد للكثرة ...

اثنان ، وسدسها واحد ، وجلتها ستة ، وهي مع الواحد سبعة ، فكانت كاملة؛ إذ لا مرتبة بعد التمام إلا الكمال . ثم السبعون غاية الكمال ، إذ الأحاد غايتها العشرات . والسبعمائة غاية الغايات - انتهى - .

الثالث - روى البخارى^(١) وغيره أن النبي ﷺ قال لعمر بن الخطاب رضى الله عنه ، لما أراد أن يصدّه عن الصلاة على عبد الله بن أبى : إنما خيّرني الله فقال : (اسْتَغْفِرْ لَهُمْ) الآية وسأزيده على السبعين . فظاهر هذا أن (أو) للتخيير ، وأن السبعين له حدٌّ يخالفه حكم ما وراءه ، وهو من الإشكال بمكان . ولذا قال الزمخشريّ : فإن قلت : كيف خفي على رسول الله ﷺ ، وهو أفصح العرب وأخبرهم بأساليب الكلام وتمثيلاته ؟ والذي يفهم من هذا العدد كثرة الاستغفار ، كيف وقد تلاه بقوله : (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا . . .) الآية - فبين الصارف عن المغفرة لهم ، حتى قال : قد رخص لي ربّي فسأزيد على السبعين . ثم أجاب الزمخشريّ بقوله : قلت لم يخف عليه ذلك ، ولكنه خيل بما قال إظهاراً لغاية رحمته ورافته على من بئس إليه ، كقول إبراهيم عليه السلام^(٢) : (وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) وفي إظهار النبي صلى الله عليه وسلم الرأفة والرحمة لطف لأمته ، ودعاء لهم إلى ترحم بعضهم على بعض . انتهى .

قال الشراح : يعنى أنه أوقع في خيال السامع أنه فهم العدد المخصوص دون الكثير ، فجوّز الإجابة بالزيادة قصداً إلى إظهار الرأفة والرحمة ، كما جعل إبراهيم عليه السلام جزءاً من عصاني أى لم يمتثل أمر ترك عبادة الأصنام ، قوله (فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) دون أن يقول : (شديد العقاب) تخيل أنه يرحمهم ويغفر لهم رأفة بهم ، وحثاً على الاتباع . وفهم المعنى الحقيقي من

(١) أخرجه البخارى في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٩ - سورة التوبة ، ٨ باب قوله : اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً ، حديث ٧٢٢ .
(٢) [١٤ / إبراهيم / ٣٦] .

لفظ اشتهر مجازة ، لا ينافي فصاحته ، ومعرفته باللسان ، فإنه لا خطأ فيه ، ولا بعد ، إذ هو الأصل . ورجحه عنده شغفه بهدايتهم ، ورافته بهم ، واستعطاف من عداهم .

قال الناصر : وقد أنكر القاضي رضى الله عنه حديث الاستغفار ، ولم يصححه ، وتعالى قوم في قبوله ، حتى إنهم اتخذوه عمدة في مفهوم المخالفة ، وبنوه على أنه عليه السلام فهم من تحديد نفى الغفران بالسبعين ، ثبوت الغفران بالزائد عليه ، وذلك سبب إنكار القاضي عليهم . وقيل : لما سوى الله بين الاستغفار وعدمه ، ورتب عليه عدم القبول ، ولم ينه عنه ، فهم أنه خير ومرخص فيه ، وهذا مراده عليه السلام ، لا أنه فهم التخيير من (أو) ، حتى ينافي التسوية بينهما ، المرتب عليهما عدم المغفرة ، وذلك تطبيبا لحاظرهم ، وأنه لم يأل جهدا في الرافة بهم . قال الشهاب : والتحقيق أن المراد التسوية في عدم الفائدة ، وهي لا تنافي التخيير ،

فإن ثبت فهو بطريق الافتضاء ، لوقوعها بين ضدين لا يجوز تركهما ولا فعلهما ، فلا بد من أحدهما . فقد يكون في الإثبات كقوله تعالى ^(١) (سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ) لأنه مأمور بالتبليغ ، وقد يكون في النفي كما هنا ، وفي قوله ^(٢) : (سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ) الآية - فهو محتاج إلى البيان . ولذا قال النبي ﷺ : (إنه رخص لي) ولعله رخص له في ابن أبي الحكمة ، وإن لم يترتب عليه فائدة القبول . انتهى .

وقال الحافظ ابن حجر في (الفتح) : روى عبدالرزاق عن معمر بن قتادة قال : لما نزلت (اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ) قال النبي ﷺ : لأزيدن على السبعين ، فأنزل الله تعالى «سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ» ثم قال : ويحتمل أن تكون الآيتان معا نزلتا في ذلك انتهى . ثم أشار تعالى إلى نوع آخر من مساوى المنافقين وهو جعلهم الفرح مكان الحزن ، والكراهة مكان الرضا . بقوله سبحانه :

(١) [٢ / البقرة / ٦] . (٢) [٦٣ / المنافقون / ٦] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨١] (فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ ، قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ، لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ)

« فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » المخلفون : هم الذين استأذنوا رسول الله ﷺ من المنافقين ، فأذن لهم في التخلف كما قلنا ، أو لأنه خلفهم في المدينة في غزوة تبوك . وإشار (المُخَلَّفُونَ) على (المُتَخَلَّفُونَ) ، لأنه ﷺ منع بعضهم من الخروج ، فقلب على غيرهم . أو المراد من خلفهم كسلهم أو تقاعسهم . أو لأن الشيطان أغراهم بذلك ، وحملهم عليه . وقوله تعالى : (بِمَقْعَدِهِمْ) متعلق بـ (فرح) ، أى بعمودهم عن غزوة تبوك . فـ (مقعد) على هذا مصدر ميمي ، أو هو اسم مكان ، والمراد به المدينة . وقوله (خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ) أى خلفه ، وبعد خروجه ، حيث خرج ولم يخرجوا . فـ (خلاف) ظرف بمعنى خلف وبعد . يقال : فلان أقام خلاف الحى أى بعدهم ، ظعنوا ولم يظمن . ويؤيده قراءة من قرأ (خلف رسول الله) ، فانقصابه على أنه ظرف لـ (مقدمهم) ، إذ لا فائدة لتقييد فرحهم بذلك .

قال الشهاب : واستعمال (خلاف) بمعنى (خلف) لأن جهة الخلف خلاف الأمام ، وجوز أن يكون (الخلاف) بمعنى (المخالفة) ، فهو مصدر (خاف) ، كالقتال . وبعضه قراءة من قرأ (خلف رسول الله) بضم الخاء ، وفي نصبه وجهان :

الأول - أنه مفعول له ، والعامل إما (فرح) أى فرحوا لأجل مخالفته عليه الصلاة والسلام بالعمود . وإما (مقدمهم) أى فرحوا بعمودهم لأجل مخالفته عليه الصلاة والسلام ، فهو علة إما للفرح أو للعمود .

والثاني - أنه حال ، والعامل أحد المذكورين ، أى فرحوا مخالفين له عليه الصلاة والسلام بالقعود ، أو فرحوا بالقعود مخالفين له .

وقوله تعالى : (وَكَرِهُوا) الخ أى لما فى قلوبهم من مرض النفاق .
قال أبو السمود : وإنما أوتر ما عليه النظم الكريم على أن يقال : (وَكَرِهُوا أَنْ يَخْرُجُوا إِلَى الْغَزَا) إيداناً بأن الجهاد فى سبيل الله ، مع كونه من أجل الرغائب ، وأشرف المطالب ، التى يجب أن يتنافس بها المتنافسون ، قد كرهوه ، كما فرحوا بأفجع القبائح الذى هو القعود خلاف رسول الله ﷺ .

قال الزمخشري : فى قوله تعالى (وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ) تعريض بالمؤمنين ، وبتحملهم المشاق العظام لوجه الله تعالى ، وبما فعلوا من بذل أموالهم وأرواحهم فى سبيل الله تعالى ، وإيثارهم ذلك على الدعة والخفض (أى الراحة والتنعم بالمال كل والمشارب) وكره ذلك المنافقون . وكيف لا يكرهونه ؟ وما فيهم ما فى المؤمنين من باعث الإيمان ، وداعى الإيقان .

قال الشهاب : ووجه التعريض ظاهر ، لأن المراد كرهوه ، لا كالمؤمنين الذين أحبوه .
وقوله تعالى : « وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ » أى قالوا لإخوانهم لا تنفروا إلى الجهاد فى الحر ، فإنه لا يستطاع شدته . وذلك أن الخروج فى غزوة تبوك كان فى شدة الحر ، عند طيب الظلال والثمار ، وذلك تثبيتاً لهم على التخلف ، وتواصياً فيما بينهم بالشر والفساد . أو قالوا للمؤمنين تثبيطاً لهم عن الجهاد ، ونهيّاً عن المعروف ، وإظهاراً لبعض العمل الداعية لهم إلى ما فرحوا به من القعود . فقد جمعوا ثلاث خلال من خصال الكفر والضلال : الفرح بالقعود ، وكرهية الجهاد ، ونهى الغير عن ذلك - أفاده أبو السمود - .

وقوله تعالى : « قُلْ » أى ردّاً عليهم وتجهيلاً لهم « نَارُ جَهَنَّمَ » أى التى ستدخلونها

بما فعلتم « أَشَدُّ حَرًّا » أى مما تحذرون من الحرّ الممهود ، وتحذرون الناس منه ، فما لكم لا تحذرونها ، وتعرضون أنفسكم لها ، بإيثار القعود على النفي .

وقوله تعالى : « لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ » اعتراض تذييلي من جهة تعالى ، غير داخل تحت القول المأمور به ، مؤكدا لمضمونه . وجواب (لو) إما مقدر ، أى لو كانوا يفقهون أنها كذلك ، أو كيف هي ؛ أو أن مآلهم إليها - لما فعلوا ما فعلوا ، أو لتأثروا بهذا الإلزام . وإما غير منوى ، على أن (لو) لجرد التثنية المنبئة عن امتناع تحقق مدخولها . أى لو كانوا من أهل الفطنة والفقه ، كما فى قوله تعالى ^(١) « قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَا تُفْنِي الْآيَاتِ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ » كذا فى (أبى السعود) . -

تنبيهان :

الأول - قال الزمخشري : قوله تعالى (قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ . .) الخ ، استجهال لهم ، لأن من تصون من مشقة ساعة ، فوقع بسبب ذلك التصون فى مشقة الأبد ، كان أجهل من كل جاهل . ولبعضهم ^(٢) :

مَسْرَةٌ أَحْقَابٍ تَلْقَيْتَ بَعْدَهَا مساءة يوم ، أُرِيهَا ^(٣) شَبَهُ الصَّابِ
فكيف بأن تلقى مَسْرَةً ساعة ورائها تقضيها مَسَاءَةٌ أَحْقَابٍ

- انتهى - .

(١) [١٠ / يونس / ١٠١] . (٢) استشهد به فى الكشاف .

قال الشارح : قوله (مسرة أحقاب) مبتدأ ، خبره (أُرِيهَا شَبَهُ الصَّابِ) والأحقاب : الأزمان الكثيرة ، واحدها : حُقْب . والأرئى : العسل . والشبه : المثل . والصاب : نبت مر ، وقيل : الحنظل . يقول : مسرة أزمان كثيرة ، ترى بعدها مساءة يوم ، هى فى الحقيقة مثل الصاب مرارة . فكيف بأن تلقى مسرة ساعة وتقع ، بسبب تلك المسرة ، فى مشقة الأبد ؟ (٣) الأرى ما لرق بأسفل القدر والعسل . والصاب : شجر مر (قاموس) .

أى فهم كما قال الآخر :

* كالمستجير من الرمضاء بالنار *

وقال آخر :

عمرك بالحمية أفنيته خوفاً من البارد والحر

وكان أولى لك أن تقى من المعاصى حذر النار

الثانى - روى الإمام مالك^(١) والشيخان عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه

وسلم قال : نار بنى آدم التى يوقدون بها ، جزء من سبعين جزءاً - زاد الإمام أحمد : من نار جهنم .

وروى الشيخان^(٢) عن النعمان بن بشير قال : قال رسول الله ﷺ : إن أهون أهل

النار عذاباً يوم القيامة ، لمن له نملان وشراكان من نار يغلى منهما دماغه كما يغلى المرجل .

لا يرى أن أحداً من أهل النار أشد عذاباً منه ، وإنه أهونهم عذاباً .

ثم أخبر تعالى عن عاجل أمرهم وآجله من الضحك القليل ، والبكاء الطويل ، المؤدى إليه أعمالهم السيئة ، التى من جملتها ما ذكر من الفرح ، بقوله سبحانه .

(١) أخرجه مالك فى الموطأ فى : ٥٧ - كتاب جهنم ، حديث رقم ١ (طبعنا) .

وأخرجه البخارى فى : ٥٩ - كتاب بدء الخلق ، ١٠ - باب صفة النار وأنها مخلوقة ،

حديث رقم ١٥٤٥ .

وأخرجه مسلم فى : ٥١ - كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، حديث رقم ٣٠ (طبعنا) .

(٢) أخرجه البخارى فى : ٨١ - كتاب الرقاق ، ٥١ - باب صفة الجنة والنار ،

حديث ٢٤٦٥ .

وأخرجه مسلم فى : ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ٣٦٣ (طبعنا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءَ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

« فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا » أى ضحكاً قليلاً ، أو زماناً قليلاً ، غاية مدة حياتهم « وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا » أى بكاء ، أو زماناً كثيراً ، بعد الموت ، أبد الآباد « جَزَاءَ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » أى بفرحهم بمخالفة الله ورسوله ، من الكفر والمعاصى العظام .

لطائف :

الأولى - سرّ إخراج حالهم الدنيوى والأخروى على صيغة الأمر ، الدالة على تحتم وقوع الخبر به ، فإن أمر الأمر المطاع مما لا يكاد يتخلف عنه الأمور به . فإن قيل : إنهم ذكروا أنه يمر عن الأمر بالخبر للمبالغة ، لاقتضائه تحقق الأمور به ، فالخبر آكد ، فباله عكس هنا ؟ فالجواب : لامنافة بينهما ، لأن لكل مقام مقالاً ، والنكت لاتزاحم ، فإذا عبر عن الأمر بالخبر ، لإفادة أن الأمور ، لشدة امتثاله ، كأنه وقع منه ذلك ، وتحقق قبل الأمر - كان أبلغ . وإذا عبر عن الخبر بالأمر كأنه لإفادة لزومه ووجوبه ، فكأنه مأمور به - أفاد ذلك مبالغة من حية أخرى .

الثانية - الجمع بين صيغتي الماضى والمستقبل فى قوله : (بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) دلالة على الاستمرار المتجددى ما داموا فى الدنيا .

الثالثة - (جزاء) مفعول له للفعل الثانى . أى ليبكوا جزاء . أو مصدر حذف ناصبه . أى يجزون بما ذكر من البكاء الكثير جزاء .

ولما جلى سبحانه ما جلى من أمرهم ، فرّع عليه قوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا ، إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ)

« فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ » أى ردّك من غزوة تبوك « إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ » أى من المنافقين المتخلفين فى المدينة « فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ » مئلك إلى غزوة أخرى بعد تبوك ، دفعاً للعار السابق « فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا ، إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ » أى نغذلكم الله ، وسقطتم عن نظره ، بل غضب عليكم ، وألزمكم العار « فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ » أى من النساء والصبيان دائماً .

لطائف :

قوله تعالى : (لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا) إخبار فى معنى النهى للمبالغة ، وذكر القتال لأنه المقصود من الخروج . فلو اقتصر على أحدهما كفى إسقاطاً لهم عن مقام الصحبة ، ومقام الجهاد ، أو عن ديوان الغزاة ، وديوان المجاهدين ، وإظهاراً لكرهية صحبتهم ، وعدم الحاجة إلى عدّهم من الجند . أو ذكر الثانى للتأكيّد ، لأنه أصرّح فى المراد ، والأول لمطابقته لسؤاله كقوله :

* أَقُولُ لَهُ أَرْحَلْ لَا تَقِيمَنَّ عِنْدَنَا *

فهو أدل على الكراهة لهم - أفاده الشهاب - .

قال أبو السعود : فكان محو أساميتهم من دفتر المجاهدين ، ولزّهم فى قرن الخالفين ، عقوبة لهم أى عقوبة . ثم قال : وتذكير اسم التفضيل المضاف إلى المؤنث ، هو الأكثر الدائر على الألسنة . فإنك لا تكاد تسمع قائلاً يقول : هى كبرى امرأة ، أو أولى مرة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٤] (وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ، إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ)

« وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا » قال المهايى : لأنها شفاعة ، ولا شفاعة في حقهم « وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ » أى لا تقف عليه للدفن أو الزيارة والدعاء . قال الشهاب : القبر مكان وضع الميت ، ويكون بمعنى الدفن ، وجوز هنا : « إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ » في الحياة في الباطن « وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ » أى خارجون عن الإيمان الظاهر ، الذى كانوا به في حكم المؤمنين .

تنبيهات :

الأول - روى الشيخان^(١) في سبب نزول الآية عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : لما توفى عبد الله بن أبى ، جاء ابنه عبد الله إلى رسول الله ﷺ ، فسأله أن يعطيه قميصه بكفن فيه أباه ، فأعطاه ، ثم سأله أن يصلى عليه ، فقام رسول الله ﷺ ليصلى عليه ، فقام عمر ، فأخذ بثوب رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ! تصلى عليه ، وقد نهاك ربك أن تصلى عليه ، ؟ فقال رسول الله ﷺ : إنما خيرني الله فقال^(٢) : (اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ) وسأزيده على السبعين . قال : إنه منافق . قال : فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله عز وجل آية (وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ) الخ .

(١) أخرجه البخارى في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٩ - سورة التوبة ، ١٣ - باب قوله : وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ، حديث رقم ٦٧٥ .
وأخرجه مسلم في : ٤٤ - كتاب فضائل الصحابة ، حديث رقم ٢٥ (طبعنا) .
(٢) [٩ / التوبة / ٨٠] .

قال الحافظ أبو نعيم : وقع في رواية في قول عمر : (أنصلي عليه وقد نهاك الله عن الصلاة على المنافقين ؟ ولم يبين محل النهي . فوقع بيبانه في رواية أبي ضمرة عن العمري : وهو أن مراده بالصلاة عليهم الاستغفار لهم ، ولفظه (وقد نهاك الله أن تستغفر لهم) انتهى . بمعنى في قوله تعالى ^(١) : (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ) فإنها نزلت في قصة أبي طالب حين قال ﷺ : لا تستغفرون لك ، ما لم أنه عنك . وكانت وفاة أبي طالب بمكة قبل الهجرة اتفاقا ، ووفاة عبد الله بن أبي في ذى القعدة سنة تسع بعد قدوم النبي ﷺ من تبوك . كذا في (فتح الباري) .

ووقع في مسند الإمام أحمد ما تقدم من حديث عمر نفسه . قال عمر : لما توفي عبد الله ابن أبي دُعِيَ له رسول الله صلى الله عليه وسلم للصلاة عليه ، فقام عليه ، فلما وقف عليه يريد الصلاة عليه ، تحولت حتى قت في صدره فقلت : يا رسول الله ! أعلى عدو الله : عبد الله ابن أبي القائل يوم كذا ، كذا وكذا ؟ يمدد أيامه - قال : ورسول الله ﷺ يبتسم ، حتى إذا أكرثت عليه قال : أَخْرُ عني يا عمر . إني خيرت فاخترت . قد قيل لي : (اسْتَغْفِرْ لَهُمْ . . .) الآية - لو أعلم أني لو زدت على السبعين ، غُفِرَ له ، لزدت . قال : ثم صلى عليه ومشى معه وقام على قبره ، حتى فرغ منه . قال : فمجبت من جرأتي على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والله ورسوله أعلم . قال : فوالله ! ما كان إلا يسيرا حتى نزلت هاتان الآيتان : (وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّا تَأْتِيكُمُ الْبَيِّنَاتُ) الآية - فاصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعمه على منافق ، ولا قام على قبره ، حتى قبضه الله عز وجل .

(١) [٩ / التوبة / ١١٣] . (٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة رقم ١٦

من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٩٥ (طبعة المعارف) تحقيق شيخنا المرحوم الشيخ أحمد محمد شاكر .

ورواه البخارى^(١) والترمذى^(٢) أيضا .

وروى الإمام أحمد^(٣) عن جابر قال : لما مات عبد الله بن أبى ، أتى ابنه النبى^ﷺ فقال : يا رسول الله ! إنك إن لم تأتني لم تأتني ، فأتاه النبى^ﷺ ، فوجده قد أدخل في حفرته فقال : أفلا قُبلَ أن تدخلوه ؟ فأخرج من حفرته ، وتفل عليه من ريقه من قرنه إلى قدمه ، وألبسه قميصه^(٤) . ورواه النسائى^(٥) نحوه البخارى والبخارى في مسنده ، وزاد : فأنزل الله الآية . زاد^(٦) ابن إسحاق في المغازى بسنده قال : فما صلى رسول الله^ﷺ على منافق بمده حتى قبضه الله ، ولا قام على قبره .

وقد روى^(٧) الإمام أحمد عن أبى قتادة قال : كان رسول الله^ﷺ إذا دعى إلى جنازة سأل عنها ، فإن أئني عليها خير قام فصلى عليها ، وإن كان غير ذلك ، قال لأهلها : شأنكم بها . ولم يصل عليها .

الثانى - إنما منع ﷺ من الصلاة على أحدهم إذا مات ، لأن صلاة الميت دعاء واستغفار واستشفاع له . والكافر ليس بأهل لذلك .

- (١) أخرجه البخارى في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٩ - سورة التوبة ، ١٢ - باب قوله : « اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً ... » ، حديث رقم ٧٢٢ .
- (٢) أخرجه الترمذى في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٩ - سورة التوبة ، ١٢ - حديثنا
- عبد بن حميد ، و١٣ - حديثنا محمد بن بشار . (٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة رقم ٣٧١ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) . (٤) أخرجه النسائى في : ٢١ - كتاب الجنائز ، ٩٢ - باب إخراج الميت من اللحد بعد أن يوضع فيه . (٥) أخرجه البخارى في : ٢٣ - كتاب الجنائز ، ٢٣ - باب الكفن في القميص الذى يكف ، أو لا يكف ، ومن كفن بغير قميص ، حديث رقم ٦٧٦ . (٦) انظر سيرة ابن هشام صفحة ٩٢٧ (طبعة جوتنجن) وصفحة ١٩٧ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) . (٧) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة رقم ٢٩٩ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .

الثالث - قال: السيوطي في (الإكمال) : في قوله تعالى (وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ...) الآية - تحريم الصلاة على الكافر ، والوقوف على قبره ، وأن دَفَنَهُ جَازٌ : ومفهومه وجوب الصلاة على المسلم ودفنه ، ومشروعية الوقوف على قبره ، والدعاء له ، والاستغفار . انتهى .
قال عثمان رضي الله عنه : كان رسول الله ﷺ إذا فرغ من دفن الميت ، وقف عليه وقال : استغفروا لأخيكم ، واسألوا له التثبيت ، فإنه الآن يُسأل - انفرد بإخراجه أبو داود (١) - .

الرابع - قال الحافظ ابن حجر في (الفتح) : ظاهر الآية أنها نزلت في جميع المنافقين ، لكن ورد ما يدل على أنها نزلت في عدد معين منهم : قال الواقدي : أنبأنا ميمون بن الزهري قال : قال حذيفة : قال لي رسول الله ﷺ : إني مُسِرٌّ إليك سرًّا ، فلا تذكره لأحد . إني نهيت أن أصلي على فلان وفلان ، رهط ذوى عدد من المنافقين . قال ، فلذلك كان عمر إذا أراد أن يصلي على أحد استتبع حذيفة ، فإن مشى معه ، وإلا لم يصل عليه .
ومن طريق أخرى ، عن جبير بن مطعم أنهم اثنا عشر رجلاً . وقال حذيفة مرة : إنه لم يبق منهم غير رجل واحد . ولعل الحكمة في اختصاص المذكورين بذلك ، أن الله علم أنهم يموتون على الكفر ، بخلاف من سواهم ، فإنهم تابوا . انتهى .
ثم بين تعالى أن دوام غضبه عليهم لا ينافي إعطائهم الأموال والأولاد ، بقوله سبحانه :
القول في تاويل قوله تعالى .

[٨٥] (وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ)

« وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ » أى لأنه لم يرد الله الإنعام عليهم بها ، ليدل على

(١) أخرجه أبو داود في : ٢٠ - كقاب الجنائز ، ٦٩ - باب الاستغفار عند القبر للميت ،

رضاء عنهم ، بل الانتقام منهم ، قال : « إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا » أى بالمسقة فى تحصيلها وحفظها والحزن عليها « وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ » أى فيموتون كافرين غافلين عن التدبر فى المواقب . وقد تقدمت الآية فى هذه السورة مع تغاير فى ألفاظها . قال الزمخشري : أعيد قوله (وَلَا تُعْجِبْكَ) ، لأن تجدد النزول له شأن فى تقرير ما نزل له وتأكيده ، وإرادة أن يكون على بال من المخاطب لا ينسأه ، ولا يسهو عنه ، وأن يمتد أن العمل به مهم ، يفتقر إلى فضل عناية به ، لاسيما إذا تراخى ما بين النزولين ، فأشبهه الشيء الذى أهم صاحبه ، فهو يرجع إليه فى أثناء حديثه ، ويتخلص إليه . وإنما أعيد هذا المعنى لقوته فيما يجب أن يحذر منه . انتهى .

وقال الفارسي : ليست للتأكيـد ، لأن تيمك فى قوم ، وهذه فى آخرين . وقد تغاير نطقها ، فهنا : (وَلَا) ، بالواو لمناسبة عطف نهى على نهى قبله فى قوله : (وَلَا تُصَلِّ ...) الخ فناسب الواو . وهناك بالفاء ، لمناسبة التعقيب لقوله قبله : (وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ) أى للإتفاق . فهم معجبون بكثرة الأموال والأولاد ، فنهى عن الإعجاب المتعقب له . وهنا : وأولادهم ، دون (لا) ، لأنه نهى عن الإعجاب بهما مجتمعين ، وهناك بزيادة (لا) ، لأنه نهى كل واحدٍ واحدٍ ، فدل مجموع الآيتين على النهى عن الإعجاب بهما مجتمعين ومنفردين . وهنا (أَنْ يُعَذِّبَهُمْ) وهناك (لِيُعَذِّبَهُمْ) بلام التعليل . وحذف المفعول . أى إنما يريد اختبارهم بالأموال والأولاد وهنا المراد التعذيب ، فقد اختلف متعلق الإرادة فيهما ظاهراً ، وهناك (فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) ، وهنا (فِي الدُّنْيَا) ، تنبيهاً على أن حياتهم كلاً حياة فيها ، وناسب ذكرها بعد الموت ، فكانهم أموات أبداً . انتهى .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٦] (وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ)

[٨٧] (رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ) « وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ » .

« رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ » إنكار و ذم للمتخلفين عن الجهاد ، الناكلين عنه ، مع وجود الطول الذي هو الفضل والسعة ، وإخبار بسوء صنيعهم ، إذ رضوا بالمار والقعود مع الخوالم ، لحفظ البيوت ، وهن النساء . وذلك لإيثارهم حب المال على حب الله ، وأنه بسبب ذلك « طُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ » أى ختم عليها ، ففهم لا يفقهون » ، أى ما فى حب الله والتقرب إليه بالجهاد من الفوز والسعادة ، وما فى التخلف من الشقاء والهلاك .

فوائد

الأولى - قال الزمخشري : يجوز أن يراد السورة بتمامها ، وأن يراد بعضها ، فى قوله : (وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ) كما يقع (القرآن) و (الكتاب) على كله وعلى بعضه . وقيل : هى (براءة) ، لأن فيها الأمر بالإيمان والجهاد . انتهى .

وقيل : المراد كل سورة ذكر فيها الإيمان والجهاد .

قال الشهاب : وهذا أولى وأفيد ، لأن استئذانهم عند نزول آيات براءة علم مما مر . وقد قيل : إن (إذا) تفيد التكرار بقرينة المقام لا بالوضع ، وفيه كلام مبسوط فى محله .

الثانية - إنما خص ذوى الطَّوْلِ ، لأهمهم المذمومون ، وهم من له قدرة مالية ، ويعلم منه البدنية أيضاً بالقياس .

الثالثة - الخوالب : جمع (خالفة) ، وهى المرأة المتخلفة عن أعمال الرجال ، والمراد ذمهم وإلحافهم بالنساء ، كما قال ^(١) :

كُتِبَ الْقَتْلُ وَالْقِتَالُ عَلَيْنَا وَعَلَى الْغَانِيَاتِ جِرُّ الذِّيُولِ
والخالفة تكون بمعنى من لا خير فيه ، والتاء فيه للنقل للاسمية ، فإن أريد ههنا ،
فالمقصود من لا فائدة فيه للجهاد . وجمع على فواعل على الوجهين : أما الأول فظاهر ،
وأما الثانى فلتنائيت لفظه ، لأن (فاعلا) لا يجمع على (فواعل) فى المقلاء المذكور ،
إلا شذوذاً ، كفواكس . أفاده الشهاب .

ثم بين تعالى ما للمؤمنين من الثناء الحسن ، والثوبة الحسنى ضد أولئك ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٨] (لَكِنَّ الرَّسُولَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ،
وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

« لَكِنَّ الرَّسُولَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ » أى فى سبيل
الله ، لغلبة حب الله عليهم ، على حب الأموال والأنفس « وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ » أى
منافع الدارين ، النصر والغنيمة فى الدنيا ، والجنة والكرامة فى المعقبى « وَأُولَئِكَ هُمُ
الْمُفْلِحُونَ » أى الفائزون بالمطلوب .

(١) قائله عمر بن أبى ربيعة . انظر الكامل للمبرد ص ٩٨٦ (طبعة الحلبي) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٩] (أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، ذَلِكَ الْفَوْزُ

الْعَظِيمُ)

« أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ »

أى الذى لا فوز وراءه .

ثم بين تعالى أحوال منافق الأعراب ، إثر بيان منافق أهل المدينة ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٠] (وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ

وَرَسُولَهُ ، سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

« وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ » أى فى ترك الجهاد ، وهم أحياء ممن

حول المدينة . و (الْمُعَذِّرُونَ) فيه قراءتان ، التشديد والتخفيف ، والمشددة لها تفسيران :

أحدهما من (عذّر فى الأمر) إذا قصر فيه وتوانى ولم يجتد ، فحكف العذر ، ففندره

باطل .

والثانى - من (اعتذر) ، وهو محتمل لأن يكون عذره باطلا وحقا . وأصله ، عليهما ،

(معتذرون) نقلت فتحة التاء إلى العين ، وقلبت التاء ذالا ، وأدغمت فيها .

وأما التخفيف فهى من (أعذر) إذا كان له عذر ، وهم صادقون على هذا .

وقوله تعالى : « وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ » أى فى دعوى الإيمان ،

وهم منافقو الأعراب الذين لم يجيئوا ، ولم يعتذروا ، بل قعدوا من قلة المبالاة بالله ورسوله .

ثم أوعدهم تعالى بقوله : « سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » الضمير فى

(مِنْهُمْ) إما للأعراب مطلقا ، فالذين كفروا منافقوهم ، أو أعم ، وإما للمعذرين ، فإن

منهم من اعتذر اكسله ، لا لكفره . وجوز أن يكون المعنى بالذين كفروا منهم ، المصرون على الكفر .

ثم بين تعالى الأعذار التي لا حرج على من قعد معها عن القتال ، فذكر منها ما هو لازم للشخص لا ينفك عنه ، وما هو عارض عن له بسبب مرض شغله عن الخروج في سبيل الله ، أو بسبب أعجزه عن التجهز للحرب ، وبدأ بالأول فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩١] (لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ، مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)
« لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ » وهم العاجزون مع الصحة ، عن المدوة ، وتحمل المشاق ، كالشيخ والصبي والمرأة والنجيف « وَلَا عَلَى الْمَرْضَى » أى العاجزين بأمر عرض لهم ، كالعمى والعرج والزمانة « وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ » أى ولا على الأفوياء والأحناء الفقراء والعاجزين عن الإنفاق في السفر والسلاح « حَرَجٌ » أى إنهم في القعود .
(الحرج) أصل معناه الضيق ، ثم استعمل للذنب ، وهو المراد « إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ » أى أخلصوا الإيمان والعمل الصالح ، فلم يرجفوا ، ولم يثيروا الفتق ، وأوصلوا الخيرات للجاهدين ، وقاموا بمصالح بيوتهم .

وقوله تعالى : « مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ » استئناف مقرر لمضمون ما سبق .
أى ليس عليهم جناح ، ولا إلى معاتبتهم سبيل ، و (مِنْ) مزيدة للتأكيد ، ووضع (الْمُحْسِنِينَ) موضع الضمير ، للدلالة على انتظامهم ، بنصحهم لله ورسوله ، في سلك المحسنين ، أو تعليل لنفي الحرج عنهم ، أى ما على جنس المحسنين من سبيل ، وهم من جملتهم أفاده أبو السمود .

قال الشهاب : (ليس على محسن سبيل) ، كلام جارٍ مجرى التثنية . وهو إما عام ، ويدخل فيه من ذكر ، أو مخصوص بهؤلاء فالإحسان : النصيح لله والرسول ، والإثم المنفى إثم التخلف ، فيكون تأكيده لما قبله بيمينه على أبلغ وجه ، وأطف سبك ، وهو من بليغ الكلام ، لأن معناه لا سبيل لعاتب عليه ، أى لا يمر به العاتب ، ويجوز فى أرضه ، فما أبعد العتاب عنه ! فتفطن للبلاغة القرآنية كما قيل :

سُقِيَا لِأَيِّمَانِنَا أَلَّتِي سَلَفَتْ إِذْ لَا يَمُرُّ الْمَذُولُ فِي بَلَدِي

وقوله تعالى : « وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » تذييل مؤيد لمضون ما ذكر ، مشير إلى أن بهم حاجة إلى المغفرة ، وإن كاف تخلفهم بعدد - أفاده أبو السعود . أى لأن الزم لا يحل من تفرط ما ، فلا يقال إنه نفي عنهم الإثم أولاً ، فما الاحتياج إلى المغفرة المتضمنة للذنب ؟ أفاده الشهاب .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٢] (وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ)

« وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ » عطف على (الْمُحْسِنِينَ) ، أو على (الضُّمَّاء) أى لتعطيلهم ظهراً يركبونه إلى الجهاد معك « قُلْتَ » أى لهم « لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ » أى إلى الجهاد . وقوله تعالى « تَوَلَّوْا » جواب (إِذَا) أى خرجوا من عندك « وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ » أى فى الجلال ، فهؤلاء وإن كانت لهم قدرة على تحمل المشاق ، فما عليهم من سبيل أيضاً .

تنبيهات :

الأول - قال السيوطي في (الإكليل) : في قوله تعالى (لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ . . .) الخ رفع الجهاد عن الضميف والريض ، ومن لا يجد نفقة ولا أهبة للجهاد ولا محملاً . انتهى .
وقال بعض الزيدية : هذه الآية السكريمة قاضية بنفي الحرج ، وهو الإثم ، على ترك الجهاد لهذه الأعذار ، بشرط النصيحة لله ولرسوله ، أي بأن يريد لهم ما يريد لنفسه - عن أبي مسلم - .
الثاني - قال الحاكم : في الآية دلالة على أن النصح في الدين واجب ، وأنه يدخل في ذلك : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والشهادات والأحكام والفتاوى وبيان الأدلة .

الثالث - قال ابن الفرس : يستدل بقوله تعالى (مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ) على أن قاتل البهيمة الصائلة لا يضممها . وقال بعض الزيدية : يدل على أن المستودع والوصي والمئقط لا ضمان عليهم مع عدم التفريط ، وأنه لا يجب عليهم الرد ، بخلاف المستمير .

الرابع - دل قوله تعالى : (وَلَا عَلَى الَّذِينَ . . .) الخ على أن المدام للنفقة ، الطالب للإعانة ، إذا لم تحصل له ، فلا حرج عليه . وفيه إشارة إلى أن المعونة إذا بذت له من الإمام ، لزمه الخروج .

الخامس - دلت الآية على جواز البكاء وإظهار الحزن على فوات الطاعة ، وإن كان معذوراً .

السادس - قوله تعالى : (تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ) أبلغ من (يفيض دمعها) ، لأن العين جمعت كأن كلها دمع فائض . و (من) للبيان . كقولك : أفديك من رجل . ومحل الجار والمجرور النصب على التمييز - أفاده الزمخشري - .

السابع - روى ابن أبي حاتم عن زيد بن ثابت قال : كنت أكتب لرسول الله ﷺ ، فكنت أكتب (براءة) فإني لو اضع القلم على أذني ، إذ أمرنا بالقتال . فجعل رسول الله ﷺ ينظر ما ينزل عليه ، إذ جاء أعمى فقال : كيف بي يا رسول الله وأنا أعمى ؟ فنزلت : (لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ . . .) الآية - .

وروى العوفي عن ابن عباس في هذه الآية ، أن رسول الله ﷺ أمر الناس أن ينعثوا غازين معه ، فجاءته عصابة من أصحابه ، فيهم عبد الله بن مغفل بن مقرن المزني ، فقالوا : يا رسول الله ! احملنا . فقال لهم : والله ! لا أجد ما أحملكم عليه ، فتولوا وهم يبكون ، وعزّ عليهم أن يجلسوا عن الجهاد ، ولا يجدون نفقة ولا محملاً ، فلما رأى الله حرصهم على محبته ومحبة رسوله ، أنزل عذرهم في كتابه ، فقال : (لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ) .
وروى الإمام أحمد^(١) عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : لقد خلفتم بالمدينة رجالاً ، ما قطعتم وادياً ، ولا سلكتم طريقاً ، إلا أشركوكم في الأجر ، حبسهم المرض - ورواه مسلم^(٢) .
ثم رد تعالى الملامة على المستأذنين في القعود وهم أغنياء ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٣] (إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ ، رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

« إِنَّمَا السَّبِيلُ » أي بالعقاب والمقاب . « عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ » أي قادرون على تحصيل الأهبة « رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ » أي من النساء والصبيان وسائر أصفاف العاجزين . أي رضوا بالدناءة والضعفة والانتظام في جملة الخوالم . قال المهايغي : وهذا الرضا ، كما هو سبب العقاب ، فهو أيضاً سبب المقاب ، لأنه لما كان عن قلة مبالاتهم بالله ، غضب الله عليهم « وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » أي ما يترتب عليه من المصائب الدينية والدنيوية ، أو لا يعلمون أمر الله فلا يصدقون .

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة رقم ٣٠٠ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) .

(٢) أخرجه مسلم في : ٣٣ - كتاب الإمارة ، حديث رقم ١٥٩ (طبعنا) .

لطيفة :

قال الشهاب : اعلم أن قولهم (لَا سَبِيلَ عَلَيْهِ) منناه : لا حرج ولا عتاب ، وأنه بمعنى لا عاتب ير عليه ، فضلاً عن العتاب ، وإذا تعدى بـ (إلى) كقوله ^(١) :

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ إِلَىٰ أُمِّ سَلَامٍ سَبِيلٌ ؟ فَأَمَّا الصَّبْرُ عَنْهَا فَلَا صَبْرٌ
فبمعنى الوصول كما قال ^(٢) :

هَلْ مِنْ سَبِيلٍ إِلَىٰ خَيْرٍ فَأَشْرَبَهَا أَمْ مِنْ سَبِيلٍ إِلَىٰ نَصْرِ بْنِ حَبَّاجٍ
ونحوه ، فتنبه لمواطن استعماله ، فإنه من مهمات الفصاحة - انتهى - .

ثم أخبر تعالى عما سيتصدون له عند القبول من تلك الغزوة ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٤] (يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ، قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ
قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ، وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ
إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

« يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ » أى سداً للسبيل عليهم فى التخلف « قُلْ لَا
تَعْتَذِرُوا » أى لظهور كذبكم ، إذ لم ينعمكم فقر ولا مرض ، ولا يفيدكم الاعتذار « لَنْ
تُؤْمِنَ لَكُمْ » أى لن تصدق قولكم . وقوله تعالى : « قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ »

(١) البيت من شواهد الكتاب (ج ١ ص ١٩٣) ونصه فيه :

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ إِلَىٰ أُمِّ مَعْمَرٍ سَبِيلٌ ، فَأَمَّا الصَّبْرُ عَنْهَا فَلَا صَبْرٌ

قال الشنقرى : الشاهد فيه نصب (الصبر) على المفعول له . والتقدير : مهما ذكرت
للصبر ، ومن أجله فلا صبر لى . ولو رفع بالابتداء لكان حسناً (كرواية المؤلف) وكان
يكون التقدير : فأما الصبر عنها فلا صبر لى به . أى لا أحتمله .

(٢) انظر القصة فى ص ١٤٠ من الجزء الخامس من كتاب (رغبة الآمل . من كتاب الكامل)

تعميل لا تغفاه التصديق أى أعلمنا بالوحى من أسراركم ونفاقكم وفسادكم ما بنافى التصديق
« وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ » أى من الرجوع عن الكفر ، أو اثبات عليه ، علما
يتعلق به الجزاء « ثُمَّ تَرَدُّونَ إِلَىٰ عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ » أى للجزاء بما ظهر منكم من
الأعمال ووضع المظهر موضع المضمهر ، لتشديد الوعيد ، وأنه تعالى مطاع على سرهم وعلهم ،
لا يفوت عن علمه شىء من ضمايرهم وأعمالهم ، فيجازيهم على حسب ذلك .

قال فى (النبراس) : المراد بالغيب ما غاب عن العباد ، أو ما لم يعلمه العباد ، أو ما يكون -
وبالشهادة ما علمه العباد أو ما كان « فَيَبْشُرُكُمْ » أى يخبركم « بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ »
أى فى الدنيا . قبل إعلامهم به . وذكره لهم للتوبيخ .

قال أبو السعود : المراد بالفتنة بذلك ، المجازة به . وإشارها عليها ، لمراعاة ما سبق من
قوله تعالى : (قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ ...) الخ . فإن النبأ به الأخبار المتعلقة بأعمالهم . وللايذان بأنهم
ما كانوا عالمين فى الدنيا بحقيقة أعمالهم ، وإنما يعلمونها حينئذ .
ثم أخبر تعالى عما سيؤكدون به معاذيرهم من أيمانهم الفاجرة ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٥] (سَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتَمَرُّوا عَنْهُمْ فَأَعْرَضُوا عَنْهُمْ ، إِنَّهُمْ رِجْسٌ ، وَمَأْوَاهُمُ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

« سَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتَمَرُّوا عَنْهُمْ » أى فلأتوبخوهم ولاتعاتبوهم
« فَأَعْرَضُوا عَنْهُمْ » أى فأعطوهم طاعتهم « إِنَّهُمْ رِجْسٌ » تعميل لترك معاتبتهم ، يعنى
أن المعاتبة لا تنفع فيهم ولا تصلحهم ، وإنما يعاتب الأديم ذو البشرة^(١) . والمؤمن

(١) لسان العرب مجلد ٤ صفحة ٦٠ (طبعة بيروت) .

قال أبو حنيفة : معناه أن يعاد إلى الدباغ . يقول : إنما يعاتب من رُجى ، ومن له
مُسبكة عقل .

يؤبِّخُ على زلة تفرط منه يطهره التوبيخ بالحمل على التوبة والاستغفار . وأما هؤلاء فأرجاس لا سبيل إلى تطهيرهم - أفاده الزمخشري - .

وقال الشهاب : يعني أنهم يتركون ، ويحجب عنهم كما تحجب النجاسة ، وهم طلبوا إعراض الصفح ، فأعطوا إعراض مقت .

وقوله تعالى : « وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ » من تمام التعليل ، فالعلة نجاسة جبلتهم التي لا يمكن تطهيرها ، لسكونهم من أهل النار . فاللوم يفرهم ولا يجديهم . والكلب أنجس ما يكون إذا اغتسل . أو تعليل ثان . يعني وكفَّتهم النار عقاباً وتوبيخاً ، فلا تكفوا عقابهم .
وقوله تعالى : « جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » يجوز أن يكون مصدرأ وأن يكون علة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٦] (يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ ، فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ)

« يَخْلِفُونَ لَكُمْ » بدل مما سبق ، وعدم ذكر المخلوف به لظهوره ، أي يخلفون به تعالى « لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ » أي باعتقاد طهارة ضمايرهم وإخلاصهم « فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ » فيه تبعيد عن الرضا عنهم على أبلغ وجه وآكده ، فإن الرضا عن لا يرضى الله تعالى عنه ، مما لا يكاد يصدر عن المؤمن .

ثم أشار تعالى إلى أن منافق الأعراب أشد رجساً فلا يفتر بحلفهم ، وإن لم يكذبهم الموحى ، فقال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٧] (الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

« الْأَعْرَابُ » وهم أهل البدو « أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا » أي من أهل الحضر ، لجفائهم

وقسوتهم وتوحشهم ، ونشتمهم في بعدٍ من مشاهدة العلماء ، ومعرفة الكتاب والسنة « وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ » أى وأحقّ بجهل حدود الدين ، وما أنزل الله من الشرائع والأحكام « وَاللَّهُ عَلِيمٌ » أى يعلم حال كل أحد من أهل الوبر والمدر « حَكِيمٌ » أى فيما يصيب به مسيئتهم ومحسنهم ، مخطئهم ومصيبهم ، من عقابه وثوابه .

لطائف :

الأولى - قال الشهاب : العرب ، هذا الجيل المعروف مطلقاً ، والأعراب سكان البادية منهم ، فهو أعم . وقيل : العرب سكان المدن والقرى ، والأعراب سكان البادية من العرب ، أو مواليهم ، فهما متباينان ، ويفرق بين جمعه وواحدة بالياء فيهما .

الثانية - ما ذكر في الآية من أجدرية جهل الأعراب من بُمدهم عن سماع الشرائع ، وملابسة أهل الحق ، يشير إلى ذم سكان البادية ، وهو يطابق ما رواه الإمام أحمد ^(١) ، وأصحاب السنن ، عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ قال : من سكن البادية جفا . وتمتعه : ومن اتبع الصيد غفل ، ومن أتى السلطان افتتن . وقوله ﷺ ^(٢) : إن الجفاء والقسوة في الفدادين . قال ثعلب : الفدادون أصحاب الوبر ، لفظ أصواتهم ، وهم أصحاب البادية . ويقال : من صحب الفدادين ، فلا دنيا نال ولا دين . مأخوذ من (الفديد) وهو رفع الصوت أو شدته .

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة رقم ٣٥٧ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٣٣٦٢ (طبعة المعارف) .

وأخرجه أبو داود في : ١٦ - كتاب الأصاحي ، ٢٤ - باب في اتباع الصيد ، حديث رقم ٢٨٥٩ .

وأخرجه الترمذي في : ٣١ - كتاب الفتن ، ٦٩ - باب حدثنا محمد بن بشر .

وأخرجه النسائي في : ٤٢ - كتاب الصيد ، ٢٤ - باب اتباع الصيد .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند ، ص ٢٥٨ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي) .

قال ابن كثير : ولما كانت الغلظة والجفاء في أهل البوادي ، لم يبعث الله منهم رسولاً ، وإنما كانت البعثة من أهل القرى ، كما قال تعالى ^(١) : (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى) . ولما أهدى ذلك الأعرابي تلك الهدية لرسول الله ﷺ ، فردّ عليه أضعافها حتى رضى قال : لقد هممتُ ألا أقبل هدية إلا من قرشي أو ثقيفي أو أنصاري أو دوسي ، لأن هؤلاء كانوا يسكنون المدن : مكة والطائف والمدينة واليمن ، فهم أطفأ أخلاقاً من الأعراب ، لما في طباع الأعراب من الجفاء .

الثالثة - روى الأعمش عن إبراهيم قال : جلس أعرابي إلى زيد بن صوحان وهو يحدث أصحابه ، وكانت يده قد أصيبت يوم (نهاوند) ، فقال الأعرابي : والله ! إن حديثك ليمجبنى وإن يدك لترينني ! فقال زيد : ما يريك من يدي ، إنها الشمال ؟ فقال الأعرابي : والله ! ما أدرى اليمين يقطعون أو الشمال ؟ فقال زيد بن صوحان : صدق الله (الأعراب أشدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَنْ لَا يُمْلِكُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ) . ثم أشار تعالى إلى فريق آخر من منافق الأعراب ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٨] (وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمُ الدَّوَائِرَ ،

عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

« وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا » أى يمسد ما يصرفه في سبيل الله ، ويتصدق به صورة ، غرامة وخسرانا ، لأنه لا ينفق إلا نفاقية من المسلمين ورياء . لا لوجه الله عز وجل ، وابتغاء الثوبة عنده ، والغرامة والمغرم والغرم (بالضم) : ما ينفقه المرء من ماله وليس يلزمه ، ضرراً محضاً وخسرانا . وقال الراغب : الغرم ما ينفق الإنسان في ماله من

(١) [١٢ / يوسف / ١٠٩] .

ضرر لغير جنابة منه « وَتَرَبَّصُ يَكُمُ الدَّوَارُ » أى ينتظر بكم دوائر الدهر - جمع (دائرة) وهى النكبة والمصيبة التى تحيط بالرزق - فتربص الدوائر ، انتظار المصائب ، لينقلب أمر المسلمين ويتبدل ، فيخلصوا مما عدوه منغرمًا « عَلَيْهِمُ دَائِرَةُ السُّوءِ » اعتراض بالدعاء عليهم ، بنحو ما يتربصونه ، أو إخبار عن وقوع ما يتربصون عليهم ..

قال الشهاب : (الدائرة) اسم للنائبة ، وهى بحسب الأصل مصدر ، كالمافية والكاذبة . أو اسم فاعل بمعنى عقبة دائرة . والعقبة أصلها اعتقاب الراكبين وتناوبهما . ويقال : للدهر عَقَبٌ وَنُوبٌ وَدَوَلٌ ، أى مرة لهم ومرة عليهم . و (السوء) يقرأ بضم السين وهو الضرر ، وهو مصدر فى الحقيقة . يقال : سؤته سوءاً ومساءة ومساوية . ويقرأ بفتح السين وهو الفساد والرداءة - قاله أبو البقاء - « وَاللَّهُ سَمِيعٌ » أى لا يقولونه عند الإنفاق مما لا خير فيه « عَلَيْهِمُ » أى بما يضررونه من الأمور الفاسدة التى منها تربصهم الدوائر . وفيه من شدة الوعيد ما لا يخفى .

ثم نوه تعالى بؤمى الأعراب الصادقين ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٩] (وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ ، أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ ، سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ » امتثالاً لأمره ، وترجيحاً لحبه ، وقطعاً لحب ما سواه . و (قُرْبَاتٍ) مفعول ثانٍ لـ (يتَّخِذُ) ، وجمعها باعتبار أنواعها ، أو أفرادها .

قال الشهاب : القربة (بالضم) ما يتقرب به إلى الله ، ونفس التقرب . فعل الثانى

يكون معنى اتخاذها تقرباً باتخاذها سبباً له ، على التجوز في النسبة أو التقدير . (وَعِنْدَ اللَّهِ) صفة (الْقُرْبَاتِ) أو ظرف (يَتَّخِذُ) (وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ) أى سبب دعواته بالرحمة المكملة لقصوره . وكان ﷺ يدعو للمتصدقين بالخير والبركة ، ويستغفر لهم . ومنه قوله (١) ﷺ : اللهم صل على آل أبي أوفى « أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ أَهْمُ » الضمير لما ينفق ، والتأنيث باعتبار الخبر ، والتفخيم . أى قربة عظيمة جامعة لأنواع القربات ، يكملها الله بدعوة الرسول ، ويزيد على مقتضاها بما أشار إليه بقوله : « سَيُؤْتِيهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ رَغِيلاً » أى جنته « إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ » يسترعيب المخل « رَحِيمٌ » يقبل جهد المقل .

قال الزحشرى : قوله تعالى : (أَلَا إِنَّهَا) شهادة من الله للمتصدق بصحة ما اعتقد من كون نفقته قربات وصلوات وتصديقا لرجائه ، على طريق الاستئناف ، مع حرفي التنبية والتحقيق ، المؤذنين بنبات الأمر وتمكنه . وكذلك (سَيُؤْتِيهِمُ اللَّهُ) وما فى (السين) من تحقيق الوعد . وما أدل هذا الكلام على رضا الله تعالى عن المتصدقين ، وأن الصدقة منه بمكان ، إذا خلصت النية من صاحبها ! انتهى .

وفى (الانتصاف) : النكتة فى إشعار (السين) بالتحقيق أن معنى الكلام معها (أفعل كذا ، وإن أبطل الأمر) أى لا بد من فعله . قال الشهاب : وفيه تأمل .
ولما بين تعالى فضيلة مؤمنى الأعراب بما تقدم ، تأثر ببيان من هم فوقهم بمنازل من الفضيلة والكرامة ، بقوله سبحانه :

(١) أخرجه البخارى فى : ٨٠ - كتاب الدعوات ، ٣٢ - باب هل يصلّى على غير النبي

ﷺ ؟ حديث رقم ٨٠٠ .

وأخرجه مسلم فى : ١٢ - كتاب الزكاة ، حديث رقم ١٧٦ (طبعنا) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٠] (وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ
بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

« وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ » أى ممن تقدم بالهجرة والنصرة ،
وقيل : عنى بالفريق الأول من صلى إلى القبلتين ، أو من شهد بدرًا ، أو من أسلم قبل الهجرة
وبالثانى أهل بيعة العقبة الأولى ، وكانوا سبعة نفر ، وأهل العقبة الثانية ، وكانوا سبعمين ،
والذين آمنوا حين قدم عليهم أبو زرارة مصعب بن عمير ، فعلمهم القرآن . واختار الرازى الوجه
الأول . قال : والصحيح عندي أنهم السابقون فى الهجرة وفى النصره ، والذى يدل عليه أنه
ذكر كونهم سابقين ، ولم يبين أنهم سابقون فيماذا ، فبقى اللفظ مجملا ، إلا أنه وصفهم بكونهم
مهاجرين وأنصارا ، فوجب صرف ذلك اللفظ إلى ما به صاروا مهاجرين وأنصارا ، وهو
الهجرة والنصرة ، فوجب أن يكون المراد منه « السابقون الأولون » فى الهجرة والنصرة ، إزالة
للإجمال عن اللفظ . وأيضا فالسابق إلى الهجرة طاعة عظيمة ، من حيث إن الهجرة فعل شاق
على النفس ، ومخالف للطبع ، فمن أقدم عليه أولا ، صار قدوة لغيره فى هذه الطاعة ، وكان
ذلك مقويا . لقلب الرسول عليه الصلاة والسلام ، وسببا لزوال الوحشة عن خاطره . وكذلك
السبق فى النصره ، فإن الرسول عليه الصلاة والسلام لما قدم المدينة ، فلا شك أن الذين سبقوا
إلى النصره والخدمة فازوا بمنصب عظيم .

وقرى (الأنصار) بالرفع ، عطفًا على « السابقون » .

« وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ » أى سلكوا سبيلهم بالإيمان والطاعة « رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُمْ » لأن الهجرة أمر شاق على النفس ، لمفارقة الأهل والعشيرة . والنصرة منقبة شريفة ،

لأنها إعلاء كلمة الله ، ونصر رسوله وأصحابه . والإحسان من أحوال المقربين أو مقاماتهم - قاله المهايى - « وَرَضُوا عَنْهُ » بما وفقهم إليه من الإيمان والإحسان ، وما آتاهم من الثواب والكرامة « وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » وذلك بدل ما تركوا من دورهم وأهلهم ، وبدل ما أعطوه للمهاجرين من أموالهم ، وأفرسهم جنات القرب في قلوبهم ، وإجرائهم أنهار المعارف في قلوبهم وقلوب من اتبعوهم بهذه الهجرة والنصرة والإحسان - قاله المهايى .

وقرأ ابن كثير (مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) كما هو في سائر المواضع .
« خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا » لتخليدهم هذا الدين بإقامة دلائله ، وتأسيس قواعده ، إلى يوم القيامة ، والعمل بمقتضاه ، واختيار الباقي على الفانى « ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » أى الذى لا فوز وراءه .

تنبيهات :

الأول - قال فى (الإكمال) : فى هذه الآية تفضيل السابق إلى الإسلام والهجرة ، وأن السابقين من الصحابة أفضل ممن تلاهم .
الثانى - - قيل : المراد بـ (السابقين الأولين) جميع المهاجرين والأنصار ، فـ (من) بـيانية لتقدمهم على من عداهم . وقيل : بعضهم - وهم قدماء الصحابة - و (من) بـتعميضية . وقد اختار كثيرون الثانى ، واختلفوا فى تعيينهم على ما ذكرناه أولاً . ورأى آخرون الأول . روى عن حميد بن زياد قال : قلت : يوماً لحمد بن كعب القرظى : ألا تخبرنى عن الصحابة فيما كان بينهم ؟ وأردت الفتن - فقال لى : إن الله تعالى قد غفر لجميعهم ، وأوجب لهم الجنة فى كتابه ، محسنهم ومسيئهم . قلت له : وفى أى موضع أوجب لهم الجنة ؟ فقال : سبحان الله ! ألا تقرأ قوله تعالى (وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ) (الآية) فأوجب للجميع الجنة والرضوان ، وشرط على تابيهم أن يقتدوا بهم فى أعمالهم الحسنة والاب يقولوا فيهم إلا حسناً لا سوءاً .

أَيُّ لِقَوْلِهِ تَعَالَى (١) وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ... (الآية .

الثالث - قال الشهاب: تقديم المهاجرين لفضلهم على الأنصار كما ذكر في قصة السقيفة (٢)، ومنه علم فضل أبي بكر رضى الله عنه على من عداه ، لأنه أول من هاجر معه ﷺ وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠١] (وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ ، وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَى النَّفَاقِ لَا يَعْلَمُهُمْ ، نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ)

« وَمِمَّنْ حَوْلَكُم » بمعنى حول بلدكم ، وهى المدينة « مِنْ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَى النَّفَاقِ » أى مروا ومهروا فيه . وقوله عز شأنه « لَا يَعْلَمُهُمْ » دليل لمرانهم عليه ، ومهارتهم فيه ، أى يخفون عليك ، مع علو كعبك فى الفطنة وصدق الفراسة ، لفرط تأنيهم وتصنعهم فى سراعاة التقية ، والتحامى عن مواقع التهم . قال فى (الانتصاف) وكان قوله تعالى (مَرَدُّوا عَلَى النَّفَاقِ) توطئة لتقرير خفاء حالهم عنه ﷺ لما لهم من الخبرة فى النفاق والضاوأة به . انتهى .

وقوله تعالى « نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ » تقرير لما سبق من مهارتهم فى النفاق ، أى لا يعلمهم إلا الله ، ولا يطلع على سرهم غيره ، لما هم عليه من شدة الاهتمام بإبطان الكفر ، وإظهار الإخلاص .

وقوله تعالى « سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ » للمفسرين فى المرتين

(١) [٥٩ / الحشر / ١٠] . (٢) انظر قصة السقيفة فى البخارى فى : ٨٦ - كتاب

الحدود ، ٣١ - باب رجم الحبلى من الزنى إذا أحصنت حديث رقم ١٢١٤

وجوه : إظهار نفاقهم وإحراق مسجد الضرار أو الفضيحة وعذاب القبر . أو أخذ الزكاة ، لما أنهم يمدّونها مغمراً بحقاً ، ونهك الأبدان ، وإتباعها بالطاعات الفارغة عن الثواب .
وقال محمد بن إسحاق^(١) : هو - فيما بلغني عنهم - ما هم فيه من أمر الإسلام ، وما يدخل عليهم من غيظ ذلك على غير حسبة ، ثم عذابهم في القبور إذا صاروا إليها ، ثم العذاب العظيم الذي يُردّون إليه ، عذاب الآخرة ، ويخلدون فيه .

قال أبو السعود : ولعل تكرير عذابهم ، لما فيهم من الكفر المشفوع بالنفاق ، أو النفاق المؤكد بالتمرد فيه . ويجوز أن يكون المراد بالمرتين مجرد التكرير . كما في قوله تعالى^(٢) : (فَارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ) أى كرة بعد أخرى ، لقوله تعالى^(٣) : (أَوْ لَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ ...) الآية .

تنبيه :

لا ينافي قوله تعالى : (لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ) قوله تعالى^(٤) : (وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْهُمْ فَلَمْ تَعْرِفْتَهُمْ بِسِيَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ) ، لأن هذا من باب التوسيم فيهم بصفات يُعرفون بها ، لا أنه يعرف جميع من عنده من أهل النفاق والريب ، على التعمين . وقد كان يعلم أن في بعض من يخالطه من أهل المدينة نفاقاً ، وإن كان يراه صباحاً ومساءً . وشاهد هذا بالصحة ، ما رواه الإمام أحمد^(٥) عن جبير بن مطعم رضى الله عنه قال : قلت : يا رسول الله ! إنهم يزعمون أنه ليس لنا أجر بمكة . فقال : لغائيتكم أجوركم ، ولو كنتم

- (١) انظر سيرة ابن هشام ، الصفحة رقم ٩٢٨ (طبعة جوتنجن) والصفحة ١٩٨ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) وتفسير ابن جرير بالصفحة رقم ١١ من الجزء الحادى عشر (طبعة الحلبي الثانية) . (٢) [٦٧ / الملك / ٣] . (٣) [٩ / التوبة / ١٢٦] .
(٤) [٤٧ / محمد عليه السلام / ٣٠] . (٥) أخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة رقم ٨٢ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

في جحر ثملب . وأصغى إلى رسول الله ﷺ برأسه فقال : إن في أصحابي منافقين ، أى يرجفون ويتكلمون بما لا صحة له .

وروى ابن عساکر عن أبي الدرداء أن رجلاً يقال له حرمة أتى النبي ﷺ ، فقال : الإيما ن هاهنا ، وأشار بيده ، إلى لسانه ، والنفاق هاهنا ، وأشار بيده إلى قلبه ، ولم يذكر الله إلا قليلا . فقال رسول الله ﷺ : اللهم اجعل له لساناً ذا كراً ، وقلباً شاكراً ، وارزقه حبي وحب من يحبني ، وصيّر أمره إلى خير . فقال : يا رسول الله ! إنه كان لي أصحاب من المنافقين ، وكنت رأساً فيهم ، أفلا آتيك بهم ؟ قال : من أنا أنا استغفرنا له ، ومن أصر على دينه ، فالله أولى به ، ولا تحرقن على أحد سترنا - ورواه الحاكم أيضاً - .

وروى عبد الرزاق عن معمر عن قتادة في هذه الآية قال : ما بال أقوام يتكفون علم الناس فلان في الجنة وفلان في النار ، فإذا سألت أحدهم عن نفسه قال : لا أدري ! لعمرى أنت بنصيبك أعلم منك بأحوال الناس ، ولقد تكلفت شيئاً ما تكلفه الأنبياء قبلك ! قال نبي الله نوح عليه السلام ^(١) : (وَمَا عَلَّمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) ، وقال نبي الله ^(٢) شعيب عليه السلام : (بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُفْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ) . وقال تعالى لنبيه ﷺ (لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ) .

لطيفة :

قوله تعالى : (وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ) عطف على (مِمَّنْ حَوَّلَكُمْ) عطف مفرد على مفرد . وقوله تعالى : (مَرَدُّوا عَلَى النِّفَاقِ) إما جملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب ، مسوقة لبيان علوهم في النفاق . إر بيان اتصافهم به ، وإما صفة للمبتدأ المذكور ، فصل بينها وبينه بها عطف على خبره . وإما صفة لمخدوف أقيمت هي مقامه ، وهو مبتدأ خبره (مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ) والجملة عطف على الجملة السابقة . أى ومن أهل المدينة قوم مردوا على النفاق - . أفاده أبو السمود - .

(١) [٢٦ / الشعراء / ١١٢] . (٢) [١١ / هود / ٨٦] .

ولما بين تعالى حال المنافقين المتخلفين عن الغزاة ، رغبة عنها وتكذيباً وشكاً ، بين حال المذنبين الذين تأخروا عن الجهاد كسلاً وميلاً إلى الراحة ، مع إيمانهم وتصديقهم بالحق ، فقال عز شأنه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٢] (وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ » أى أقرروا بها ، وهى تخلفهم عن الغزو ، وإيثار الدعة عليه ، والرضا بسوء جوار المنافقين . أى لم يعتذروا من تخلفهم بالمعاذير الكاذبة ، كغيرهم « خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا » كالندم وما سبق من طاعتهم « وَآخَرَ سَيِّئًا » كالتخلف عن الجهاد « عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ » أى يقبل توبتهم « إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » يتجاوز عن التائب ويتفضل عليه .

تنبيهات :

الأول - أخرج ابن مردويه وابن أبى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس قال : غزا رسول الله ﷺ ، فتخلف أبو لبابة وخمسة معه . ثم إن أبا لبابة ورجلين معه تفكروا وندموا وأيقنوا بالهلاك ، وقالوا : نحن فى الظلال والطمانينة مع النساء ، ورسول الله ﷺ والمؤمنون معه فى الجهاد ! والله ! انوثقن أنفسنا بالسوارى ، فلا نطلقها حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذى يطلقها : ففعلوا ، وبقي ثلاثة نفر لم يوثقوا أنفسهم . فرجع رسول الله ﷺ من غزوته فقال : من هؤلاء الموثقون بالسوارى ؟ فقال رجل : هذا أبو لبابة وأصحاب له تخلفوا ، فماهدوا الله ألا يطلقوا أنفسهم حتى تكون أنت الذى تطلقهم . فقال : لا أطلقهم حتى أؤمر بإطلاقهم ، فانزل الله (وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ) ، فلما نزل أطلقهم وعذرهم ،

وفي الثلاثة الذين لم يوفقوا أنفسهم ، لم يذكروا بشيء ، وهم الذين قال الله فيهم : (وَآخَرُونَ مُّرْجُونَ لِلَّهِ) الآية - فجعل أناس يقولون : هلسكوا ؛ إذ لم ينزل عذرهم ، وآخرون يقولون : عسى الله أن يتوب عليهم ، حتى نزلت ^(١) (وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِقُوا ...) وأخرج ابن جرير ^(٢) من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس نحوه ، وزاد : فجاء أبو لبابة وأصحابه بأموالهم حين أطلقوا ، فقالوا : يا رسول الله ! هذه أموالنا ، فتصدق بها عنا ، واستغفر لنا . فقال : ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئاً ، فأنزل الله : (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً ...) ^(٣) الآية .

وأخرج هذا القدر وحده عن سعيد بن جبير والضحاك وزيد بن أسلم وغيرهم .
وأخرج عبد عن قتادة أنها نزلت في سبعة : أربعة منهم ربطوا أنفسهم بالسوارى ، وهم أبو لبابة ومرداس وأوس بن خدام وثعلبة بن وديعة .

وأخرج أبو الشيخ وابن مفسد في (الصحابة) من طريق الثوري عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر قال : كان ممن تخلف عن رسول الله ﷺ في تبوك ستة : أبو لبابة وأوس بن خدام وثعلبة بن وديعة وكمب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية . فجاء أبو لبابة وأوس وثعلبة ، فربطوا أنفسهم بالسوارى . وجاءوا بأموالهم ، فقالوا : يا رسول الله ! خذ هذا الذي حبسنا عنك . فقال : لا أحلهم حتى يكون قتال ، فنزل القرآن : « وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ ... » الآية - إسناده قوى ، كذا في (اللباب) - .

قال ابن كثير : هذه الآية ، وإن كانت نزلت في أناس معينين ، إلا أنها عامة في كل المذنبين الخاطئين المخطئين . وقد قال مجاهد : إنها نزلت في أبي لبابة لما قال لبني قريظة (إنه الذبح) وأشار بيده إلى حلقه ، ثم نقل ما تقدم .

(١) [٩ / التوبة / ١١٨] . (٢) انظر تفسير ابن جرير بالصفحة رقم ١٢ من الجزء

الحادي عشر (طبعة الحلبي الثانية) . (٣) [٩ / التوبة / ١٠٣] .

الثاني - روى البخاري^(١) في التفسير في هذه الآية ، عن سمرة بن جندب رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ لنا : أنا في الليلة آتيان ، فابتمثاني ، فانتبهت إلى مدينة مبنية ببلين ذهب ، وكن فضة ، فقلقانا رجال ، شطر من خلفهم كأحسن ما أنت راء ، وشطر كأفصح ما أنت راء ، قالوا لهم :

اذهبوا فقموا في ذلك النهر ، فوقعوا فيه ، ثم رجموا إلينا ، قد ذهب ذلك السوء عنهم ، فصاروا في أحسن صورة ، قالوا : هذه جنة عدن ، وهذا منزلك . قالوا : أما القوم الذين كانوا شطر منهم حسن وشطر منهم قبيح ، فإنهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، تجاوز الله عنهم .

الثالث - قال الرّمحشري : فإن قلت : قد جعل كل واحد منهما مخلوطاً ، فما المخلوط به ؟ قلت : كل واحد منهما مخلوط ومخلوط به ، لأن المعنى خلط كل واحد منهما بالآخر ، كقولك : خلطت الماء واللبن ، تريد خلطت كل واحد منهما بصاحبه ، وفيه ما ليس في قولك (خلطت الماء باللبن) ، لأنك جعلت الماء مخلوطاً ، واللبن مخلوطاً به ؟ وإذا قلته بالواو جعلت الماء واللبن مخلوطين ومخلوطاً بهما ، كأنك قلت : خلطت الماء باللبن واللبن بالماء .

وناقشه الناصر في (الانتصاف) فقال : التحقيق في هذا أنك إذا قلت (خلطت الماء باللبن) فالمرح به في هذا الكلام أن الماء مخلوط ، واللبن مخلوط به ، والمطلوب عليه لزوماً ، لا تعريضاً ، كون الماء مخلوطاً به ، واللبن مخلوطاً . وإذا قلت : خلطت الماء واللبن ، فالمرح به جعل كل واحد منهما مخلوطاً . وأما ما خلط به كل واحد منهما ، فغير مصرح به ، بل من اللازم أن كل واحد منهما له مخلوط به ، يحتمل أن يكون قرينه أو غيره . فقول الرّمحشري :

(١) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٩ - سورة التوبة ، ١٥ - باب **وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** ، حديث رقم ٥٠١ .

إن قولك (خلطت الماء واللبن) يفيد ما يفيد مع الباء ، وزيادة - ليس كذلك . فالظاهر في الآية - والله أعلم - أن المدول عن الباء إنما كان لتضمنين الخلط معنى العمل ، كأنه قيل عملوا صالحاً وآخر سيئاً ، ثم انضاف إلى العمل معنى الخلط ، فمعبر عنهما معاً به - انتهى - .

قال التحرير : يريد الزمخشري أن (الواو) كالصرح في خلط كل بالآخر ، بمنزلة ما إذا قلت : (خلطت الماء باللبن) ، و (خلطت اللبن بالماء) ، بخلاف الباء ، فإن مدلولها لفظاً ليس إلا خلط الماء مثلاً باللبن . وأما خلط اللبن بالماء ، فلو ثبت لم يثبت إلا بطريق الالتزام ودلالة العقل - انتهى - .

وهو متجه ولا حاجة للتضمنين المذكور .

ثم قال الزمخشري : ويجوز أن يكون من قولهم (بعت الشاة شاة ودرهما) بمعنى شاة بدرهم ، أى و (الواو) بمعنى الباء ، ونقل ذلك عن سيبويه . وقالوا : إنه استعارة ، لأن (الباء) للإلصاق ، و (الواو) للجمع ، وهما من واحد . وقال ابن الحاجب في قولهم المذكور : أصله شاة بدرهم أى كل شاة بدرهم ، وهو بدل من الشاة ، أى مع درهم ، ثم كثر ، فأبدلوا من (باء المصاحبة) (واو) ، فوجب نصبه وإعرابه بإعراب ما قبله ، كقولهم : كل رجل وضيعة .

قال الشهاب : وهو تكلف ، ولذا قالوا : إنه تفسير معنى ، لا إعراب - انتهى - .

قال الواحدي : العرب تقول : خلطت الماء باللبن ، وخلطت الماء واللبن ، كما تقول : جمعت زيداً وعمراً ، و (الواو) في الآية أحسن من (الباء) ، لأنه أريد معنى الجمع ، لا حقيقة الخلط . ألا ترى أن العمل الصالح لا يختلط بالسّيء كما يختلط الماء باللبن ، لكن قد يجمع بينهما - انتهى - .

وفي الآية نوع من البديع يسمى (الاحتمالك) ، وهو مشهور ، لأن المعنى : خلطوا عملاً صالحاً بسّيئاً وآخر سيئاً بصالح .

الرابع - قال الرازي : هاهنا سؤال ، وهو أن كلمة (عسى) شك ، وهو في حق الله تعالى محال . وجوابه من وجوه :

الأول - قال المفسرون : كلمة (عسى) من الله واجب ، والدليل عليه قوله تعالى : (فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنَّ بِالْفَتْحِ) ، وفَمَلَّ ذلك ، وتحقيق القول فيه أن القرآن نزل على عرف الناس في الكلام . والسلطان العظيم إذا التمس المحتاج منه شيئاً ، فإنه لا يجب إليه إلا على سبيل الترجي مع كلمة (عسى) أو (لعل) تنبيهاً على أنه ليس لأحد أن يلزمني شيئاً ، وأن يكلفني بشيء ، بل كل ما أفعله فإنما أفعله على سبيل التفضل والتعاطول . فذكر كلمة (عسى) ، الفائدة فيه هذا المعنى ، مع أنه يفيد القطع بالإجابة .

الوجه الثاني : أن المقصود بيان أنه يجب أن يكون المكلف على الطمع والإشفاق ، لأنه أبعد من الاتكال والإهمال .

الخامس - قال القاشاني : الاعتراف بالذنب هو إبقاء نور الاستعداد ، ولين الشكيمة ، وعدم رسوخ ملكة الذنب فيه ، لأنه ملك الرجوع والتوبة . ودليل رؤية قبح الذنب التي لا تكون إلا بنور البصيرة ، وانفتاح عين القلب ؛ إذ لو ارتكبت الظلمة ، ورسخت الرذيلة ، ما استقبلته ، ولم يره ذنباً ، بل رآه فعلاً حسناً ، لمناسبته لحاله ، فإذا عرف أنه ذنب . ففيه خير .

ثم أمر تعالى رسوله صلوات الله عليه أن يأخذ من أموالهم التي تقدموا إليه ، أن يتصدق بها عنهم كفارة لذنوبهم ، كما تقدم في الروايات قبل ، بقوله عز وجل :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٣] (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ، إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

« خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ » أي بمضها « صَدَقَةً » قال المصنف : لتصدق توبتهم إذ « تُطَهِّرُهُمْ »

أى عما تلطخوا به من أضرار التخلف . وعن حب المال الذى كان التخلف بسببه « وَتَزَكَّيْهِمْ بِهَا » أى عن سائر الأخلاق الذميمة التى حصلت عن المال . قال الزمخشري : التزكية مبالغة فى التطهير وزيادة فيه ، أو بمعنى الإنماء والبركة فى المال « وَصَلَّ عَلَيْهِمْ » أى واعطف عليهم بالدعاء لهم وَتَرَحَّمْ « إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ » أى تسكن نفوسهم إليها ، وتعاطف نفوسهم بها ، ويثقون بأنه سبحانه قبل توبتهم .

وقال قتادة : (سكن) أى : وقار . وقال ابن عباس : رحمة لهم . وقد روى ^(١) الإمام أحمد عن حذيفة أن النبي ﷺ كان إذا دعا للرجل ، أصابته وأصاب ولده وولد ولده . وفى رواية : إن صلاة النبي ﷺ لتدرك الرجل وولده وولد ولده .
والجملة تعليل للأمر بالصلاة عليهم « وَاللَّهُ سَمِيعٌ » أى يسمع اعترافهم بذنوبهم ودعائهم « عَلَيْهِمْ » أى بما فى ضمائرهم من الندم والغم ، لما فرط منهم .

تنبيهات :

الأول - (تطهرهم) قرئ مجزوماً على أنه جواب الأمر . وأما بالرفع ، فعلى أنه جمل من ضمير المخاطب فى (خذ) . أو صفة لـ (صدقة) والتمام للخطاب أو للصدقة . والمائد على الأول محذوف ثقة بما بعده ، أى : بها . وقرئ تطهرهم - من أطهره بمعنى طهره - ولم يقرأ (تزكيتهم) إلا بإثبات الياء ، وهو خبر لمحذوف ، والجملة حال من الضمير فى الأمر أو فى جوابه . أى : وأنت تزكيتهم بها ، هذا على قراءة (تطهرهم) بالجرم . وأما على قراءة الرفع فـ (تزكيتهم) عطف على (تطهرهم) حالاً أو صفة .

الثانى - قرئ (صلاتك) بالتوحيد ، و (صلواتك) بالجمع ، مراعاة لتمدد المدحوق لهم . وقال الشهاب : جمع (صلاة) لأنها اسم جنس ، والتوحيد لذلك ، أو لأنها مصدر فى الأصل .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٣٨٥ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي).

الثالث - قال الشهاب : السكن : السكون ، وما يسكن إليه من الأهل والوطن ، فإن كان المراد الأول ، فجعلها نفس السكن والاطمئنان مبالغة ، وهو الظاهر . وإن كان الثاني فهو مجاز بتشبيه دعائه ، في الاتجاه إليه بالسكن . انتهى .

قال أبو البقاء : سكن بمعنى مسكون إليها ، فلذلك لم يؤنثه ، وهو مثل القبض بمعنى المقبوض .

الرابع - قيل : المأمور به في الآية الزكاة . و (من) تمييزية ، وكانوا أرادوا التصديق بجميع ما لهم ، فأمره الله أن يأخذ بعضها لتوبتهم ، لأن الزكاة لم تقبل من بعض المنافقين ، فترتبط الآية بما قبلها وقيل : ليست هذه الصدقة المفروضة ، بل هم لما تابوا ، بذلوا جميع ما لهم كفارة للذنوب الصادر منهم ، فأمره الله تعالى بأخذ بعضها وهو الثلث ، وهذا مروى عن الحسن ، وهو المختار عندهم . ونقل الرازي أن أكثر الفقهاء على أن هذه الآية كلام مبتدأ قصد به إيجاب أخذ الزكوات من الأغنياء ، إذ هي حججهم في إيجاب الزكاة ، ثم نظر فيه بأن حملها على ما ذكره يوجب ألا تنظم الآية مع سابقها ولا حقها .

وأقول : لا ريب في ارتباط الآية بما قبلها ، كما أفصحته الرواية السابقة . وخصوصاً سببها لا يمنع عموم لفظها ، كما هو القاعدة في مثل ذلك . ولذا رد الصديق رضي الله عنه على من تأول من بعض العرب هذه الآية ؛ أن دفع الزكاة لا يكون إلا للرسول صلوات الله عليه ، لأنه المأمور بالأخذ ، وبالصلاة على المتصدقين ، فغيره لا يقوم مقامه - وأمر بقتالهم ، فوافقته الصحابة ، وقالوا هم حتى أدوا الزكاة إلى الخليفة ، كما كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ . فاستدل من ذلك على وجوب دفع الزكاة إلى الإمام ، ومثله نائبه . وهؤلاء المتأولون المرتدون غاب عنهم أن الزكاة إنما أوجبها الله تعالى سداً لحاجة المدم ، وتقريباً لسكرة الغارم ، وتحريراً لرقاب المستعبدين ، وتيسيراً لأبناء السبيل ، فاستدل بذلك ضغائن أهل الفاقة ، على من فضلوا عليهم في الرزق ، وأشعر قلوب أولئك محبة هؤلاء ، وساق الرحمة في نفوس

هو لاء على أولئك البائسين . فالإمام لا خصوصية لذاته فيها ، بل لأنه يجتمع ما يرد منها لديه ، فينفقه في سبيلها المذكورة .

الخامس - استدل بقوله تعالى (وَصَلِّ عَلَيْهِمْ) على نذب الدفء المتصدق . قال الشافعي رحمه الله : السنة للإمام ، إذا أخذ الصدقة أن يدعو للمتصدق ، ويقول : آجرك الله فيما أعطيت وجعله طهوراً ، وبارك لك فيما أبقيت . وقال آخرون : يقول : اللهم ! صل على فلان . ويدل عليه ما روى عن عبدالله بن أبي أوفى ، وكان من أصحاب الشجرة قال : كان النبي ﷺ إذا أتاه قوم بصدقة قال : اللهم ! صل عليهم ، فأناه أبي بصدقة فقال : اللهم ! صل على آل أبي أوفى . أخرجاه في الصحيحين ^(١) .

قال ابن كثير : وفي الحديث الآخر أن امرأة قالت : يا رسول الله ! صل على زوجي ، فقال : صلى الله عليك وعلى زوجك .

أقول : وبهذين الحديثين يرد على من زعم أن المراد بـ (صَلِّ عَلَيْهِمْ) الصلاة على الموتي حكاه السيوطي في (الإكليل) .

السادس - دلت الآية ، كالحديثين ، على جواز الصلاة على غير الأنبياء استقبلاً . قال الرازي : روى الكعبي في (تفسيره) أن علياً رضي الله عنه قال لعمر رضي الله عنه وهو مسجى : عليك الصلاة والسلام . ومن الناس من أنكر ذلك .

ونقل عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : لا تنبغي الصلاة من أحد على أحد ، إلا في حق النبي ﷺ . ثم قال الرازي : إن أصحابنا يمنون من ذكر (صلوات الله عليه) ، و (عليه الصلاة والسلام) ، إلا في حق الرسول . والشيمة يذكرونه في علي وأولاده ،

(١) أخرجه البخاري في : ٨٠ - كتاب الدعوات ، ٣٣ - باب هل يصل على غير النبي ﷺ ؟ حديث رقم ٨٠٠ .

وأخرجه مسلم في : ١٢ - كتاب الزكاة ، حديث رقم ١٧٦ (طبعة ثانياً) .

واحتجوا بأن نص القرآن دل على جوازه فيمن يؤدي الزكاة ، فكيف يمنع في حق عليّ والحسن والحسين عليهم رضوان الله ؟ قال : ورأيت بعضهم قال : أليس أن الرجل إذا قال : سلام عليكم ، يقال له : وعليكم السلام ، فدل هذا على أن ذكر هذا اللفظ جائز في حق جمهور المسلمين ، فأولّى آل البيت - انتهى - .

وأقول : إن المنع من ذلك أدبي لا شرعي ، لأنه صار ، في العرف ، دعاء خاصاً به ﷺ ، وشعاراً له ، كالعلم بالغلبة ، فغيره لا يطلق عليه ، إلا تبعية له ، أدباً لفظياً .

السابع - قال الرازي : في سر كون صلاته عليه السلام سكناً لهم : أن روح محمد عليه السلام كانت روحاً قوية مشرقة صافية باهرة ، فإذا دعا لهم وذكركم بالخير ، فاضت آثار من قوته الروحانية على أرواحهم ، فأشرقت بهذا السبب أرواحهم ، وصفت أسرارهم .
القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٤] (أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)

« أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ » هذا تهيج إلى التوبة والصدقة اللذين كل منهما يحطّ الذنوب ويحصنها ويحققها ، وإخبار بأن كل من تاب إليه ، تاب عليه . ومن تصدق ، تقبل منه .

تنبيهات :

الأول - الضمير في (يَعْلَمُوا) الممتوب عليهم . فيكون ذكر قبول توبتهم ، مع أنه تقدم ما يشير إليه ، تحقيقاً لما سبق من قبول توبتهم ، وتطهير الصدقة وتركيتها لهم . وتقريراً لذلك ، وتوطيئاً لقلوبهم ببيان أن المتولى لقبول توبتهم ، وأخذ صدقاتهم هو الله سبحانه ، وإن أسند الأخذ والتطهير والتزكية إليه ، عليه الصلاة والسلام .

قال أبو مسلم: المقصود من الاستفهام التقرير في النفس . ومن عادة العرب ، في إيهام المخاطب وإزالة الشك عنه ، أن يقولوا : أما علمت أن من علمك يجب عليك خدمته ؟ أما علمت أن من أحسن إليك يجب عليك شكره ؟ فبشر تعالى هؤلاء التائبين بقبول توبتهم وصدقاتهم - انتهى - .

وجوز عود الضمير لغيرهم من المنافقين . فالاستفهام توبيخ وتوبيخ لهم على عدم التوبة وترغيب فيها ، وإزالة لما يظنون من عدم قبولها . وقرئ بالتاء . وهو ، على الأول ، الغفات ، وعلى الثاني بتقدير (قل) ، ويجوز أن يكون الضمير للمنافقين والتائبين معاً ، لتمام التخصيص .

الثاني - الضمير أعني (هو) إما للتأكيد ، أو له مع التخصيص . بمعنى أن الله يقبل التوبة لا غيره ، بمعنى أنه يفعل ذلك البتة ، لأن ضمير الفصل يفيد ذلك ، والخبر المضارع من مواقفه . وقيل : معنى التخصيص في (هو) أن ذلك ليس إلى رسول الله ﷺ ، إنما الله سبحانه هو الذي يقبل التوبة ويردها ، فاقصدوها بها ، ووجهوها إليه ، لأن كثرة رجوعهم إليه ، صلوات الله عليه ، مظنة لتوهم ذلك .

الثالث - تعدية القبول بـ (عن) لتضمنه معنى التجاوز ، والعفو عن ذنوبهم التي تابوا عنها : وقيل : (عن) هنا بمعنى (من) كما يقال : أخذت هذا منك وعفك .

الرابع - الأخذ هنا استيعارة للقبول والإثابة ، لأن الكريم والكبير إذا قبل شيئاً عرض عنه . وقد يجعل الإسناد إلى الله مجازاً مرسلًا . وقيل : في نسبة الأخذ إلى الرسول ﷺ في قوله (خُذْ) ثم إلى ذاته تعالى - إشارة إلى أن أخذ الرسول ﷺ ، قائم مقام أخذ الله ، تعظيماً لشأن نبيه ، كقوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يَبَايِعُونَ اللَّهَ) (١) .

الخامس - جملة (وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ » تأكيد لما عطف عليه ، وزيادة تقرير لما يقرره ، مع زيادة معنى ليس فيه . كما أفادته صيغة المبالغة التي تفيد تكرار ذلك منه أى ألم يعلموا أنه المختص بقبول التوبة ، وأن ذلك سنة مستمرة له ، وشأن دائم ؟
لطيفة :

نقل ابن كثير عن الحافظ ابن عساكر عن حوشب قال : غزا الناس في زمن معاوية ، وعليهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، ففلّ رجل من المسلمين مائة دينار رومية . فلما قفل الجيش ندم ، وأتى الأمير ، فأبى أن يقبلها منه ، وقال : قد تفرق الناس ، ولن أقبلها منك حتى تأتى الله بها يوم القيامة ، فجعل الرجل يأتى الصحابة ، فيقولون له مثل ذلك . فلما قدم دمشق ذهب إلى معاوية ليقبلها منه ، فأبى عليه ، فخرج من عنده وهو يبكي ويسترجع ، فرأى بمبدالله ابن الشاعر السكسكى ، فقال له : ما يبكيك ؟ فذكر له أمره ، فقال له : أو مطيعى أنت ؟ فقال : نعم . فقال : اذهب إلى معاوية فقل له : أقبل منى خمسك ، فادفع إليه عشرين ديناراً ، وانظر إلى الثمانين الباقية ، فتصدق بها عن ذلك الجيش ، فإن الله يقبل التوبة عن عباده ، وهو أعلم بأسمائهم ومكانهم ، ففعل الرجل . فقال معاوية : لأن أكون أفتيت بها ، أحب إلى من كل شيء أملكه . أحسن الرجل . انتهى .

في هذه الرواية إثبات ولد لخالد ، وفي ظنى أن صاحب (أسد الغابة) ذكر أنه لم يعقب ، فليحقق .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٥] (وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ، وَسَتُرَدُّونَ

إِلَىٰ عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

« وَقُلِ » أى لأهل التوبة والتركية ، والصلاة ، لا تكتفوا بها بل « اعْمَلُوا » جميع

ما تؤمرون به «فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ» أى فيزيدكم قرباً على قرب «وَرَسُولُهُ» فيزيدكم صلوات «وَالْمُؤْمِنُونَ» فيتبعونكم ، فيحصل لكم أجرهم ، من غير أن ينقص من أجورهم شئ . - هكذا قاله المهايمى - وهو قوى في الارتباط .

وقال أبو مسلم : إن المؤمنين شهداء الله يوم القيامة ، كما قال ^(١) (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ...) الآية - والشهادة لا تصح إلا بعد الرؤية ، فذكر تعالى أن الرسول عليه السلام والمؤمنين يرون أعمالهم ، والمقصود التنبية على أنهم يشهدون يوم القيامة ، عند حضور الأولين والآخرين ، بأنهم أهل الصدق والسداد والعفاف والرشاد .

ونقل عن مجاهد أن الآية وعيد للمخالفين أوامره ، بأن أعمالهم ستعرض عليه تبارك وتعالى وعلى الرسول والمؤمنين .

قال ابن كثير : وهذا كائن لا محالة يوم القيامة ، كما قال تعالى ^(٢) (يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ) . وقال تعالى ^(٣) : (يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ) . وقال تعالى ^(٤) : (وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ) . وقد يظهر الله تعالى ذلك للناس في الدنيا ، كما روى الإمام

أحمد ^(٥) عن أبي سعيد مرفوعاً : لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ، ليس لها باب ولا كوة ، لأخرج الله عمله للناس . كائناً من كان . وروى أن أعمال الأحياء تعرض على الأموات من الأقباء والعشائر في البرزخ - كما في مسند أحمد ^(٦) والطيالسى - .

« وَسْتَرْدُّونَ إِلَى عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ » أى بالموت « فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » أى بالمجازاة عليه .

قال أبو السعود : في وضع الظاهر موضع المضمرة (أى حيث لم يقل : إليه) من تهويل

(١) [٢ / البقرة / ١٤٣] . (٢) [٦٩ / الحاقة / ١٨] .

(٣) [٨٦ / الطارق / ٩] . (٤) [١٠٠ / العاديات / ١٠] .

(٥) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة رقم ٢٨ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي)

(٦) النظر الصفحة ١٦٥ من الجزء الثالث من المسند (طبعة الحلبي) عن أنس .

الأمر ، وترتبة المهابة - ما لا يخفى . ووجه تقديم (الغيب) في الذكر لسمة عالمه ، وزيادة خطره على الشهادة - غنى عن البيان .

وعن ابن عباس : الغيب ما يسرونه من الأعمال ، والشهادة ما يظهرونه . كقوله تعالى (١) : (يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ) ، فالتقدم حينئذ لتحقيق أن نسبة علمه المحيط بالسر والعلن واحدة ، على أبلغ وجه وآكده . أو للإيدان بأن رتبة السر متقدمة على رتبة العلق ، إذ ما من شيء يعلن إلا وهو ، أو مبادئه القريبة ، أو البعيدة ، مضمرة قبل ذلك في القلب . فتعلق علمه تعالى به في حالته الأولى ، متقدم على تعلقه به في حالته الثانية .
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٦] (وَأَخْرُوجُونَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

« وَأَخْرُوجُونَ » يعنى من المتخلفين « مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ » أى مؤخرون أمرهم ، انتظاراً لحكمه تعالى فيهم ، لتردد حالهم بين أمرين « إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ » لتخلفهم عن غزوة تبوك « وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ » يتجاوز عنهم « وَاللَّهُ عَلِيمٌ » أى بأحوالهم « حَكِيمٌ » أى فيما يحكم عليهم .

تنبيهات :

الأول - قرئ في السبعة (مُرْجُونَ) بهمزة مضمومة ، بعدها واو ساكنة . وقرئ (مُرْجُونَ) بدون همزة . كما قرئ (تُرْجَى مِنْ تَشَاءَ) بهما ، وهما لغتان ، يقال : أرجأته وأرجيته ، كأعطيته . ويحتمل أن تكون الياء بدلاً من الهمزة ، كقولهم : قرأت وقريت ،

(١) [٢ / البقرة / ٧٧] و [١١ / هود / ٥] و [١٦ / النحل / ٢٣] .

وتوضأت وتوضيت ، وهو في كلامهم كثير . وعلى كونه لغة أصلية فهو يأتى : وقيل : إنه واوى كذا في (العناية) - .

الثانى - روى عن الحسن أنه عنى بهذه الآية قوم من المنافقين . وكذا قال الأصم : إنهم منافقون أرجأهم الله ، فلم يخبر عنهم ما علمه منهم ، وحذرهم بهذه الآية ، إن لم يتوبوا ، أن ينزل فيهم قرآنا ، فقال : (إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ) .

وعن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وغير واحد : إنهم الثلاثة الذى خلفوا ، أى عن التوبة ، وهم مرارة بن الربيع وكعب بن مالك وهلال بن أمية ، قعدوا في غزوة تبوك في جملة من قعد ، كسلاً وميلاً إلى الدعة وطيب الثمار والظلال ، لا شكاً ونقافاً ، فكانت منهم طائفة ربطوا أنفسهم بالسوارى ، كما فعل أبو لبابة وأصحابه ، وطائفة لم يفعلوا ذلك ، وهم هؤلاء الثلاثة . فنزلت توبة أولئك قبل هؤلاء ، وأرجىء هؤلاء عن التوبة ، حتى نزلت الآية الآتية ، وهى قوله تعالى (١) : (لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ...) إلى قوله : (وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا ...) الآية - .

قال في (العناية) : وإنما اشتد الغضب عليهم مع إخلاصهم ، والجهاد فرض كفاية ، لما قيل إنه كان على الأنصار خاصة فرض عين ، لأنهم بايعوا النبي ﷺ عليه . ألا ترى قول راجزهم في (٢) الخندق :

نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدًا عَلَى الْجِهَادِ مَا يَقِينَا أَبَدًا
وهؤلاء من أجلهم ، فكان تخلفهم كبيرة .

الثالث - (إِمَّا) في الآية ، إما لاشك بالنسبة إلى المخاطب ، أو للإيهام بالنسبة إليه أيضاً ، بمعنى أنه تعالى أبهم على المخاطبين أمرهم . والمعنى : ليسكن أحرهم عندكم بين الرجاء

(١) [٩ / التوبة / ١١٧] . (٢) يشير إلى الحديث الذى أخرجه البخارى في صحيحه

في : ٥٦ - كتاب الجهاد ، ٣٣ - باب التحريض على القتال ، حديث ١٣٥٨ عن أنس .

والخوف . والمراد تفويض ذلك إلى إرادته تعالى ومشيئته ، أو للتفويض ، أى أمرهم دائر بين هذين الأمرين .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٧] (وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)

« وَالَّذِينَ » أى ومن المنافقين الذين « اتَّخَذُوا » أى بنوا « مَسْجِدًا ضِرَارًا » أى مضارة لأهل مسجد قباء « وَكُفْرًا » أى تقوية للكفر الذى يضمرونه وتفريقاً بين المؤمنين « أى الذين كانوا يجتمعون بمسجد قباء اجتماعاً واحداً يؤدون أجل الأعمال ، وهى الصلاة التى يقصدها تقوية الإسلام بجمع قلوب أهله على الخيرات ، ورفع الاختلاف من بينهم « وَإِرْصَادًا » أى إعداداً وترقباً وانتظاراً « لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ » أى كفر بالله ورسوله من قبل ، وهو أبو عامر الراهب الذى ساء رسول الله ﷺ (فاسقاً) . وكانوا أعدوه له ليمضى فيه ، ويظهر على رسول الله ﷺ - كما سنفصله « وَلَيَحْلِفُنَّ » أى بصدق ظهور نواياهم ومقاصدهم السيئة « إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ » أى ما أردنا ، ببناء المسجد ، إلا الحصلة الحسنى ، أو الإرادة الحسنى ، وهى الصلاة ، وذكر الله ، والتوسعة على المصلين « وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ » أى فى حلفهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٨] (لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ، لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ، فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ)

« لَا تَقُمْ فِيهِ » أى لا تصلّ فى مسجد الشقاق « أَبَدًا » أى فى وقت من الأوقات ، لكونه موضع غضب الله ، ولذلك أمر بهدمه وإحراقه كما يأتى . وإطلاق (القائم) على المصلّى والمهجد معروف ، كما فى قولهم : فلان يقوم الليل . وفى الحديث ^(١) (من قام رمضان إيماناً واحتساباً) . « لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى » أى بنيت قواعده على طاعة الله وذكره ، وقصد التحفظ من معاصى الله ، بفعل الصلاة التى تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وهو مسجد قباء « مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ » أى من أيام وجوده « أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ » أى تصلّى « فِيهِ ، فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ » أى المبالغين فى الطهارة الظاهرة والباطنة . ثم أشار إلى فضل مسجد التقوى على مسجد الضرار بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٩] (أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

« أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ » أى مخافة منه « وَرِضْوَانٍ » أى طلب رضوان منه « خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا » أى طرف « جُرُفٍ » بضم الراء

(١) أخرجه البخارى فى : ٢ - كتاب الإيمان ، ٢٧ - باب تطوع قيام رمضان من

الإيمان ، حديث رقم ٣٣ ، عن أبى هريرة .

وسكونها أى مهواة « هَارٍ » أى مشرف على السقوط « فَأَنهَارَ بِهِ » أى سقط معه « فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١١٠] (لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

« لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ » أى لا يزال هدمه سبب شك ونفاق زائد على شكهم ونفاقهم ، لا يزول وَسْمُهُ عن قلوبهم ، ولا يضمحل أثره « إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ » أى قِطْعاً ، وتنفق أجزاء ، فحينئذ يسألون عنه . وأما ما دامت سالمة مجتمعة ، فالريبة باقية فيها متمكنة ، فيجوز أن يكون ذكر التقطيع تصويراً لحال زوال الريبة عنها ، ويجوز أن يراد حقيقة تقطيعها وتزريقها بالموت ، أو بعذاب النار . وقيل : معناه إلا أن يقوبوا توبة تقطع بها قلوبهم ندماً وأسفاً على تفريطهم « وَاللَّهُ عَلِيمٌ » أى بنياتهم « حَكِيمٌ » أى فيما أمر بهدم بنياتهم ، حفظاً للمسلمين عن مقاصدهم الرديئة .

تنبيهات :

الأول - قال الزمخشري : فى مصاحف أهل المدينة والشام (الَّذِينَ اتَّخَذُوا) بغير (واو) ، لأنها قصة على حيالها ، وفى سائرهما بالواو على عطف قصة مسجد الضرار الذى أحدثه المنافقون على سائر قصصهم .

الثانى - سبب نزول هذه الآيات أنه كان بالمدينة ، قبل مقدم رسول الله ﷺ إليها ، رجل من الخزرج يقال له أبو عامر الراهب ، وكان قد تنصر فى الجاهلية ، وقرأ علم أهل الكتاب ، وكان فيه عبادة فى الجاهلية ، وله شرف فى الخزرج كبير . فلما قدم رسول الله ﷺ مهاجراً إلى المدينة ، واجتمع المسلمون عليه ، وصار للإسلام كلمة عالية ، وأظهرهم الله يوم بدر ،

شرق اللعين أبو عامر بريقه ، وبارز بالعداوة ، وظاهر بها ، وخرج فارًّا إلى كفار مكة عائلهم على حرب النبي ﷺ فاجتمعوا بن وافقهم من أحياء العرب ، وقدموا عام (أُحُد) ، فكان من أمر المسلمين ما كان ، وامتحنهم الله عز وجل ، وكانت العاقبة للمتقين . وتقدم أبو عامر في أول المبارزة إلى قومه من الأنصار فخاطبهم واستألمهم إلى نصره وموافقته . فلما عرفوا كلامه قالوا : لا أنعم الله بك عينا ، يا قاسق ، يا عدو الله ! ونالوا منه وسبوه . وكان رسول الله ﷺ قد دعاه إلى الله قبل فراره ، وقرأ عليه من القرآن ، فأبى أن يسلم وتمرد . فدعا عليه رسول الله ﷺ أن يموت بعمداً طريداً فنالته هذه الدعوة . وذلك أنه لما فرغ الناس من (أُحُد) ، ورأى أمر الرسول ﷺ في ارتفاع وظهور ، ذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على رسول الله ، فوعده ومناه ، وأقام عنده ، وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار ، من أهل النفاق والرب يعدم ويمنيهم أنه سيقدم بجيش يقاثل به رسول الله ﷺ ويغلبه ويرده عما هوفيه . وكان أمرهم أن يتخذوا له معقلاً ومرصداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك ، فشرعوا في بناء مسجد بجوار لمسجد قباء ، فبنوه وأحكموه ، وفرغوا منه ، ورسول الله ﷺ يتجهز إلى تبوك . فأنوه فقالوا : يا رسول الله ! إنا قد بنينا مسجداً للذي العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية . وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه . فقال : إني على جناح سفر ، وحال شغل ، ولو قدمنا ، إن شاء الله تعالى ، أتيناكم ، فصلينا لكم فيه . فلما نزل بذي أوان - موضع على سابعة من المدينة - أتاه خبر المسجد ، فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم ومغن بن عدي أو أخاه عامراً ، فقال : انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله ، فاهدماه وحرقاه . فخرجا سريعين ، حتى أتيا بني سالم بن عوف ، وهم رهط مالك بن الدخشم ، فقال مالك لمن : أنظرني حتى أخرج إليك بنار من أهلي ، فدخل أهله ، فأخذ سقفاً من النخل ، فأشعل فيه ناراً ، ثم خرجا يشعثان ، حتى دخلا المسجد ، وفيه أهله ، فحرقاه وهدماه ، وتفرقوا عنه ، ونزل فيهم ما نزل - ذكره ابن كثير ، وأسند أطرافه إلى ابن إسحاق وابن مردويه - .

وروى أن بنى عمرو بن عوف الذين بنوا مسجد قباء أتوا عمر بن الخطاب في خلافته ، فسألوه أن يأذن لمجمع بن جارية أن يؤمهم في مسجدهم فقال : لا ، ونعمة عين ! أليس هو إمام مسجد الضرار ؟ قال مجمع : يا أمير المؤمنين ! لا تمجل عليّ ، فوالله ! لقد صليت فيه وأنا لا أعلم ما أضمروا عليه ، ولو علمت ما صليت معهم فيه ، وكنت غلاماً قارئاً للقرآن ، وكانوا شيوخاً لا يقرؤون ، فصليت بهم ، ولا أحسب إلا أنهم يتقربون إلى الله ، ولم أعلم ما في نفوسهم . فعذر عمر ، فصدقه وأمره بالصلاة في مسجد قباء .

الثالث - ما قدمناه من أن المسجد في الآية هو مسجد قباء ، لأن السياق في معرضه ، وبيان أحقية الصلاة فيه من ذاك ، لأنه أسس على طاعة الله وطاعة رسوله ، وجمع كلمة المؤمنين . ولما في الآية من الإشعار بالحث على تعاهده بالصلاة فيه ، كان رسول الله ﷺ يزوره راكباً ومشياً ، ويصلي فيه ركعتين - كما في الصحيح (١) - .

وقد روى عن عويم بن ساعدة الأنصاري أن النبي ﷺ أتاهم في مسجد قباء فقال : إن الله تعالى قد أحسن عليكم الثناء في الطهور في قصة مسجدكم ، فما هذا الطهور الذي تطهرون به ؟ فقالوا ، يا رسول الله ! ما خرج من أرجل ولا أمراء من الغائط إلا غسل فرجه أو مقعدته بالماء - رواه الإمام أحمد (٢) وأبو داود والطبراني ، واللفظ له - .

وقد روى أن النبي ﷺ سئل عن المسجد الذي أسس على التقوى فقال : هو مسجد - رواه الإمام أحمد (٣) ومسلم .

(١) أخرجه البخاري في : ٢٠ - كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة ، ٤ - باب إتيان مسجد قباء مشياً وراكباً ، حديث رقم ٦٤٧ عن ابن عمر .

وأخرجه مسلم في : ١٥ - كتاب الحج ، حديث رقم ٥١٥ (طبعنا) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة رقم ٤٢٢ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة رقم ٨ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) .

عن أبي سعيد الخدري .

ورواه مسلم في : ١٥ - كتاب الحج ، حديث رقم ٥١٤ (طبعنا) .

قال ابن كثير : ولا منافاة . لأنه إذا كان مسجد قباء قد أسس على التقوى من أول يوم ، فمسجد رسول الله ﷺ بطريق الأولى والأخرى - انتهى - .

ومرجعه إلى أن هذا الوصف ، وإن كان يصدق عليهما - إلا أن الأخرى به بقدر ، هو المسجد النبوي ، أي فالحديث ليس في معرض تعيين ما في الآية ، بل في بيان الأحق بهذا الوصف الآن .

وقال السهروردي : كل منهما مراد ، لأن كلا منهما أسس على التقوى من أول يوم تأسيسه .

والسر في إجابته ﷺ السؤال عن ذلك ، دفع ما توهمه السائل من اختصاص ذلك بمسجد قباء ، والتنبؤ به بجزية هذا عن ذاك .

الرابع - قال السهيلي ، نور الله مرقده : في الآية - يعني قوله تعالى : من أول يوم - من الفقه صحة ما اتفق عليه الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين مع عمر رضي الله عنه حين شاورهم في التاريخ ، فاتفق رأيهم على أن يكون من عام الهجرة ، لأنه الوقت الذي عز فيه الإسلام ، والحين الذي أمّن فيه النبي ﷺ ، وبنيت المساجد ، وعُبد الله كما يحب ، فوافق رأيهم هذا ظاهر التنزيل ، وفهمنا الآن بفعلهم أن قوله تعالى (مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ) أن ذلك اليوم هو أول أيام التاريخ الذي يؤرخ به الآن . فإن كان الصحابة أخذوه من هذه الآية ، فهو الظن بهم ، لأنهم أعلم الناس بتأويل كتاب الله وأفهمهم بما في القرآن من الإشارات . وإن كان ذلك على رأي واجتهاد ، فقد علمه الله وأشار إلى صحته قبل أن يفعل ، إذ لا يعقل قول القائل : فعلته أول يوم إلا بالإضافة إلى عام معلوم ، أو شهر معلوم ، أو تاريخ معلوم . وليس هاهنا إضافة في المعنى إلا إلى هذا التاريخ المعلوم ، لعدم القرائن الدالة على غيره من قرينة لفظ أو حال ، فقدره ، ففيه مقبر لمن أذكر ، وعلم لمن رأى بعين فؤاده واستبصر .

الخامس - (التأسيس) وضع الأساس ، وهو أصل البناء ، وأوله ، وبه إحكامه ، ففي

الآية شبه التقوى والرضوان تشبيهاً مكنياً مضمراً في النفس ، بما يعتمد عليه أصل البناء .
 و (أسس بنيانه) تخييل ، فهو مستعمل في معناه الحقيقي ، أو هو مجاز بناء على جوازه .
 فتأسيس البنيان بمعنى إحكام أمور دينه ، أو تمثيل لحال من أخلص لله وعمل الأعمال الصالحة ،
 بحال من بنى بناءً محكماً مؤسساً يستوطنه ويتحصن به . أو (البنيان) استمارة أصلية ،
 و (التأسيس) ترشيح أو تبعية : و (الشفا) : الحرف والشفير . و (جُرف الوادى) : جانبه
 الذى يتحفر أصله بالماء ، وتجرفه السيول ، فيبقى واهياً . و (الهار) : الهائر ، وهو المتصدع
 الذى أشق على التهدم والسقوط . قيل : هو مقلوب ، وأصله (هاور) أو (هار) . وقيل :
 حذفت عينه اعتباطاً ، فوزنه (قال) . والإعراب على رائه كباب . وقيل : لا قلب فيه
 ولا حذف ، ووزنه فى الأصل (فعل) بكسر الميم ، ككتف ، وهو هَوْرٌ أو هيرٌ ، ومعناه
 ساقط أو مشرف على السقوط . وفاعل (أنهار) إما ضمير البنيان ، وضمير (به) للمؤسس ،
 أى سقط بنيان البانى بما عليه . أو لـ (الشفا) ، وضمير (به) للبنيان . والظاهر فى التقابل
 أن يقال : أم من أسس بنيانه على ضلال وباطل وسيخط من الله ، ولذا قال فى الكشف :
 المعنى : أفنى أسس بنيان دينه على قاعدة محكمة قوية ، وهى الحق ، الذى هو تقوى الله ورضوانه ،
 خير أم من أسسه على قاعدة هى أضعف القواعد وأرخصها ، وأقلها بقاء (وهو الباطل والنفاق)
 الذى مثله مثل شفا جرف هار فى قلة الثبات والاستمسك . وضع (شفا الجرف) فى مقابلة
 (التقوى) ، لأنه جمل مجازاً عما يبنى التقوى . يعنى أنه شبه الباطل بـ (شفا جرف هار)
 فى قلة الثبات ، فاستعير للباطل بقرينة مقابلته للتقوى ، والتقوى حق ، ومُنْأَى الحق هو الباطل .
 وقوله (فأنهار) ترشيح ، وباؤه للتمدية ، أو للمصاحبة . فـ (شفا جرف هار) استمارة
 تصريرية تحقيقية ، والتقابل باعتبار المعنى المجازى المراد منها .

فإن قلت : لماذا غاير بينهما حيث أتى بالأول على طريقة الكناية والتخييل ، وبالثانى
 على طريق الاستمارة والتمثيل ؟

قلت : الضغن في الطريق رعاية لحق البلاغة ، وعدولاً عن الظاهر ، مبالغة في الطرفين .
إذ جعل أوائلك مبنياً على تقوى ورضوان ، هو أعظم من كل ثواب ، وحال هؤلاء على فساد
أشرف بهم على أشد نكال وعذاب . ولو أتى به على مقتضى الظاهر لم يفده ، مما فيه
من التحويل .

وقولنا : (فانهار ترشيح) أوضحه الكشف بقوله : لما جعل الجرف الهائر مجازاً عن
الباطل ، قيل : (فانهار به في نار جهنم) على معنى فطاح به الباطل في نار جهنم ، إلا
أنه رشح المجاز فجئ بلفظ الانهيار الذي هو للجرف ، وليصور أن للباطل كأنه أسس بنياناً
على شفا جرف من أودية جهنم ، فانهار به ذلك الجرف ، فهو في قعرها .

السادس - دلت الآية على أن كل مسجد بنى على ما بنى عليه مسجد الضرار ، أنه لا
حكم له ولا حرمة ، ولا يصح الوقف عليه . وقد حرق الراضى بالله كثيراً من مساجد الباطنية
والشبهة والمجبرة وسبل بعضها . نقله بعض المفسرين .

قال الزمخشري : قيل : كل مسجد بنى مباهاة أو رياء وسمعة أو لقرض ينوي ابتغاء
وجه الله ، أو بمال غير طيب - فهو لاحق بمسجد الضرار . وعن شقيق أنه لم يدرك الصلاة
في مسجد بنى عامر ، فقيل له : مسجد بنى فلان لم يصلوا فيه بعد ، فقال : لأحب أن أصلي
فيه ، فإنه بنى على ضرار ، وكل مسجد بنى على ضرار ، أو رياء وسمعة فإن أصله ينتهي إلى
المسجد الذي بنى ضرارا .

وعن عطاء : لما فتح الله تعالى الأمصار على يد عمر رضى الله عنه ، أمر المسلمين أن يبنوا
المساجد ، وألا يتخذوا في مدينة مسجدين ، يضار أحدهما صاحبه - انتهى - .

وقال الإمام ابن القيم في (زاد المعاد) في فوائد غزوة تبوك :

ومنها تحريق أمكنة العصية التي يعصى الله ورسوله فيها وهدمها ، كما حرق رسول الله
ﷺ مسجد الضرار وأمر بهدمه . وهو مسجد يصلى فيه ، ويدكر اسم الله فيه . لما
كان بناؤه ضراراً وتفرقاً بين المؤمنين ، وماوى للمنافقين . وكل مكان هذا شأنه ، فواجب

على الإمام تعطيله ، إما بهدم أو تحريق ، وإما بتغيير صورته وإخراجه عما وضع له . وإذا كان هذا شأن مسجد الضرار ، فشاهد الشرك التي تدعو سدنتها إلى اتخاذ من فيها أنداداً من دون الله ، أحق بذلك وأوجب . وكذلك محال المعاصي والفسوق ، كالحانات وبيوت الخمارين وأرباب المنكرات . وقد حرق عمر رضي الله عنه قرية بكاملها يباع فيها الخمر ، وحرق حانوت رويشد الثقفي وسماء (فويسقاً) ، وأحرق قصر سعد عليه لما احتجب عن الرعية . وهم^(١) رسول الله ﷺ بتحريق بيوت تاركى حضور الجماعة والجمعة ، وإنما منعه من فيها من النساء والذرية الذين لا تحب عليهم ، كما أخبر هو عن ذلك - انتهى - .

ثم قال ابن القيم : ومنها أن الوقف لا يصح على غير بر ولا قرابة ، كما لم يصح وقف هذا المسجد . وعلى هذا فيهدم المسجد إذا بنى على قبر ، كما ينش الميت إذا دفن في المسجد - نص على ذلك الإمام أحمد وغيره - فلا يجتمع في دين الإسلام مسجد وقبر ، بل أيهما طراً على الآخر منع منه ، وكان الحكم للسابق ، فلو وضعا معاً لم يجز . ولا يصح هذا الوقف ، ولا يجوز ، ولا تصح الصلاة في هذا المسجد ، انتهى رسول الله ﷺ عن ذلك^(٢) ، ولعنه من اتخذ القبر مسجداً ، أو أوقف عليه سراجاً .

قال ابن القيم : فهذا دين الإسلام الذي يمث به رسوله ونبيه ، وغرخته بين الناس كما ترى . انتهى .

السابع - قال بعض المفسرين اليمانيين : في الآية دلالة على فضل المسجد الموصوف بهذه الصفة ، معنى التأسيس على التقوى . وفيها : أن نية القرابة في عمارة المسجد شرط ، لأن

(١) يشير إلى الحديث الذي رواه البخاري في صحيحه في : ١٠ - كتاب الأذان ،

٢٩ - باب وجوب صلاة الجماعة ، حديث رقم ٤٠٨ عن أبي هريرة .

(٢) يشير إلى الحديث الذي أخرجه البخاري في صحيحه في : ٨ - كتاب الصلاة ،

٥٥ - باب حدثنا أبو اليان ، حديث رقم ٢٨٥ و ٢٨٦ عن عائشة وعبد الله بن عباس .

الذية هي التي تميز الأفعال . وفيها : أنه لا يجوز تكثير سواد الكفار - ذكر ذلك الحاكم ، لأنه قال تعالى (لا تقم فيه أبداً) وأراد بـ (القيام) الصلاة .

الثامن - قال ابن كثير : في الآية دليل على استحباب الصلاة في المساجد القديمة المؤسسة من أول بنائها على عبادة الله وحده ، لا شريك له ، وعلى استحباب الصلاة مع الجماعة الصالحين ، والعباد العاملين المحافظين على إسباغ الوضوء ، والنزاهة عن ملابس القاذورات .

وقد روى الإمام أحمد ^(١) أن رسول الله ﷺ صلى بهم الصبح فقرأ الروم فأومأ فلما انصرف قال : إنه يلبس علينا القرآن ، إن أقواماً منكم يصلون معنا لا يحسنون الوضوء ، فنشهد الصلاة معنا فيحسن الوضوء . فدل هذا على أن إكمال الطهارة يسهل القيام في العبادة ، ويمين على إتمامها وإكمالها ، والقيام بمشروعاتها .

التاسع - ذهب أبو العالصة والأعمش إلى أن المراد من الطهارة في الآية ، الطهارة من الذنوب ، والتوبة منها ، والتطهر من الشرك .

قال الرازي : وهذا القول متمين ، لأن التطهر من الذنوب والمعاصي هو المؤثر في القرب من الله تعالى ، واستحقاق ثوابه ومدحه ، ولأنه تعالى وصف أصحاب مسجد الضرار بمضاربة المسلمين ، والكفر بالله ، والتفريق بين المسلمين ، فوجب كون هؤلاء بالصد من صفاتهم ، وما ذاك إلا كونهم مبرئين عن الكفر والمعاصي انتهى .

أقول : لا تسلم دعوى التمتين ، فإن اللفظ يتناول الطهارتين الباطنة والظاهرة : بل الثانية ما رواه أصحاب السنن والإمام أحمد ^(٢) وابن خزيمة في صحيحه أن النبي ﷺ قال لأهل قباء : قد أتني الله عليكم في الطهور ، فإذا تصنمون ؟ فقالوا : نستنجى بالماء .

(١) لم أهتمد إلى هذا الحديث ، فن وقف عليه فليرشدني إليه ، مشكوراً مأجوراً .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة رقم ٦ من الجزء السادس (طبعة الحلبي)

عن محمد بن عبد الله بن سلام .

وروى البرّار عن ابن عباس قال : هذه الآية في أهل قباء ، سألهم رسول الله ﷺ فقالوا : إنا تتبع الحجارة بالماء . فإن صح ذلك كان المراد من الآية . وتكون حثاً على الطهارة المذكورة ، ومدحاً لها . وكون ذويها على الضد من صفات أولئك ، يستفاد من عموم هذا ، ومن قوله تعالى (لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى ...) الآية .

العاشر - قال القاشاني : لما كان عالم الملك تحت قهر عالم الملكوت ، وتسخيره ، لزم أن يكون لنيات النفوس وهيئاتها تأسيير فيما يباشرها من الأعمال ، فكل ما فعل بنية صادقة لله تعالى عن هيئة نورانية ، صحبته بركة ويمن وجمعية وصفاء ، وكل ما فعل بنية فاسدة شيطانية عن هيئة مظلمة ، صحبته تفرقة وكدورة ومحق وشؤم . ألا ترى الكعبة كيف شرفت وعظمت وجعلت مقبرة لكونها مبنية على يدي نبي من أنبياء الله ، بنية صادقة ، ونفس شريفة صافية ، عن كمال إخلاص لله تعالى ؟ ونحن نشاهد أثر ذلك في أعمال الناس ، ونجد أثر الصفاء والجمعية في بعض المواضع والبقاع ، والكدورة والتفرقة في بعضها . وما هو إلا لذلك ، فلهذا قال (لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى ...) الآية - لأن الهيئات الجسمانية مؤثرة في النفوس ، كما أن الهيئات النفسانية مؤثرة في الأجسام ، فإذا كان موضع القيام مبنياً على التقوى وصفاء النفس ، تأثرت النفس باجتماع الهمة ، وصفاء الوقت ، وطيب الحال ، وذوق الوجدان . وإذا كان مبنياً على الرياء والضرار ، تأثرت بالكدورة والتفرقة والقبض . وفيه إشعار بأن زكاء نفس الباني ، وصدق نيته ، مؤثر في البناء . وأن تبرك المكان ، وكونه مبنياً على الخير ، يقتضي أن يكون فيه أهل الخير والصالح ، ممن يناسب حاله حال بانيه ، وأن محبة الله واجبة لأهل الطهارة لقوله (وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١١] (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ ، يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ، وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ، وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ، فَاسْتَبْشِرُوا بِنِعْمَةِ اللَّهِ الَّتِي بَايَعْتُمْ بِهِ ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

« إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ ، يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ، وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِنِعْمَةِ اللَّهِ الَّتِي بَايَعْتُمْ بِهِ ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ »
لما هدى الله تعالى المؤمنين إلى الإيمان ، والأنفس مفتونة بحبة الأموال والأنفس ، استقر لهم لفرط عنايته بهم ، عن مقام حبة الأموال والأنفس ، بالتجارة الربحية ، والمعاملة الرغوبة ، بأن جعل الجنة ثمن أموالهم وأنفسهم ، فمعرض لهم خيرا مما أخذ منهم . فالآية ترغيب في الجهاد ببيان فضيلته ، إثر بيان حال المتخلفين عنه .

قال أبو السمود : ولقد بولغ في ذلك على وجه لا مزيد عليه ، حيث عبر عن قبول الله تعالى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم التي بذلوها في سبيله تعالى ، وإثابته إياهم بمقابلتها الجنة ، بالشراء على طريقة الاستعارة التبعية . ثم جعل المبيع ، الذي هو العمدة والمقصد في المقد ، أنفس المؤمنين وأموالهم . والتمن ، الذي هو الوسيلة في الصفقة ، الجنة . ولم يجعل الأمر على العكس بأن يقال : (إن الله باع الجنة من المؤمنين بأنفسهم وأموالهم) لئلا يدل على أن المقصد في المقد هو الجنة ، وما بذله المؤمنون في مقابلتها من الأنفس والأموال وسيلة إليها ، إيدانا بتعلق كمال العناية بهم وبأموالهم . ثم إنه لم يقل (بالجنة) بل (بأن لهم الجنة) مبالغة في تقرر وصول الثمن إليهم ، واختصاصه بهم . وكأنه قيل : (بالجنة الثابتة لهم ، المختصة بهم) .

وفي (الكشاف) و (النهاية) ولا ترى ترغيباً في الجهاد أحسن ولا أبلغ من هذه الآية ، لأنه أبرزه في صورة عقد عاقده رب العزة ، وئمنه مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . ولم يجعل المعقود عليه كونهم مقتولين فقط ، بل إذا كانوا قاتلين أيضاً لإعلاء كلمته ، ونصر دينه ، وجعله مسجلاً في السكيب السماوية ، وناهيك به من صك . وجعل وعده حقاً ، ولا أحد أوفى من وعده ، فنسيئته أقوى من نقد غيره . وأشار إلى مافيه من الريح والفوز العظيم ، وهو استعارة تمثيلية ، صور جهاد المؤمنين ، وبذل أموالهم وأنفسهم فيه ، وإثابة الله لهم على ذلك الجنة ، بالبيع والشراء ، وأنى بقوله (يقاتلون . . .) الخ بياناً لمكان التسليم وهو المعركة ، وإليه الإشارة بقوله ^(١) عَلَيْهِمُ (الجنة تحت ظلال السيوف) ثم أمضاه بقوله : (وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) . ولما في هذا من البلاغة واللطائف المناسبة للمقام ، لم يلتفتوا إلى جمل (اشترى) وحده استعارة أو مجازاً عن الاستبدال ، وإن ذكره في غير هذا الموضع ، لأن قوله (فَاسْتَبَشِرُوا بِنَيْمِكُمْ) يقتضي أنه شراء وبيع ، وهذا لا يكون إلا بالتمثيل . ومنهم من جوز أن يكون معنى (اشترى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ) بصرفها في العمل الصالح ، (وَأَمْوَالَهُمْ) بالبذل فيها . وجعل قوله (يُقَاتِلُونَ) مستأنفاً لذكر بعض ما شمله الكلام ، اهتماماً به . انتهى .

وقوله تعالى : (وَعَدَّا عَلَيْهِ) مصدر مؤكد لما يدل عليه كون الثمن مؤجلاً . وذكر كونه في التوراة وما عطف عليها ، تأكيد له ، وإخبار بأنه منزل على الرسل في السكيب الكبار . وفيه أن مشروعية الجهاد ومثوبته ثابتة في شرع من قبلنا . وقد بقي في التوراة والإنجيل الموجودين ، على تحريفهما ، ما يشير إلى الجهاد والحث عليه ، نقلها عنهما من رد على الكتابيين الزاعمين أن الجهاد من خصائص الإسلام ، فانظره في الكتب المتداولة في ذلك . ثم وصف تعالى المؤمنين الذين اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بقوله :

(١) أخرجه البخارى في : ٥٦ - كتاب الجهاد ، ٢٢ - باب الجنة تحت بارقة السيوف ، حديث رقم ١٣٤٦ عن عبد الله بن أبي أوفى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٢] (التَّائِبُونَ الْعَامِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ
الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ
وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ)

« التَّائِبُونَ » أى عن المعاصى ، ورفعهم على المدح ، أى هم التائبون ، كما دل عليه قراءة
(التائبين) بالياء إلى قوله و (الحافظين) نصباً على المدح ، أو جرّاً صفة للمؤمنين . وجوز
أن يكون مبتدأ وخبره ما بعده ، أى التائبون من المعاصى حقيقة ، الجامعون لهذه الخصال
« الْعَامِدُونَ » أى الذين عبدوا الله وحده ، وأخلصوا له العبادة ، وحرصوا عليها « الْحَامِدُونَ »
لله على نعمائه ، أو على ما نالهم من السراء والضراء « السَّائِحُونَ » أى الصائمون ، أو
الضاربون فى الأرض تدبراً واعتباراً . وسننبه عليه ، « الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ » أى
المصلّون « الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ » أى
فى تحليله وتحريمه « وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ » الموصوفين بالنعوت المذكورة . ووضع (المؤمنين)
موضع ضميرهم ، للتنبيه على أن ملاك الأمر هو الإيمان ، وأن المؤمن الكامل من كان
كذلك ، وحذف المبشر به للتمظيم ، أو للعلم به ، لقوله فى آية الأحزاب ^(١) : وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ
بِأَنَّهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا .

تنبيهات :

الأول - ما قدمناه من تفسير (السائحين) بالصائمين . قال الزجاج : هو قول أهل التفسير
واللغة جميعاً . ورواه الحاكم مرفوعاً ، وكذا ابن جرير ^(٢) . قال ابن كثير ^(٣) : ووقفه أصح .

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٤٧] . (٢) انظر تفسير الطبرى ، الصفحة رقم ٣٧ من
الجزء الحادى عشر (طبعة الحلبي الثانية) . (٣) انظر تفسير ابن كثير ، الصفحة رقم
٣٩٢ من الجزء الثانى (طبعة عام ١٩٣٧) .

وعن ابن عباس : كل ما ذكر الله في القرآن من السياحة ، فهو الصيام .
وعن الحسن : السائحون الصائمون شهر رمضان .
قال الشهاب : استمرت السياحة للصوم لأنه يعوق عن الشهوات ، كما أن السياحة تمنع عنها في الأكثر .

ونقل الرازي عن أبي مسلم أن السائحين : السائرون في الأرض ، وهو مأخوذ من (السيمح) سيمح الماء الجاري ، والمراد به من خرج مجاهداً مهاجراً . وتقريره أنه تعالى حث المؤمنين في الآية الأولى على الجهاد ، ثم ذكر هذه الآية في بيان صفات المجاهدين ، فينبغي أن يكونوا موصوفين بجميع هذه الصفات . وروى مثله ابن أبي حاتم عن عبد الرحمن أنه قال : هم المهاجرون . وعن عكرمة أنهم المنتقلون لطلب العلم .

قال ابن كثير : جاء ما يدل على أن السياحة الجهاد ، فقد روى ^(١) أبو داود من حديث أبي أمامة أن رجلاً قال : يا رسول الله ! أئذن لي في السياحة . فقال النبي ﷺ : سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله .

أقول : لو أخذ هذا الحديث تفسيراً للآية لالتقى مع كل ما روى عن السلف فيها ، لأن الجهاد في سبيل الله ، كما يطلق على قتال المشركين ، يطلق على كل ما فيه مجاهدة للنفس في عبادته تعالى ، ومنه الهجرة والصوم ، والسفر للتفقه في الدين أو للاعتبار ، بل ذلك هو الجهاد الأكبر . هذا على إرادة التوفيق بين المأثورات . أما لو أريد باللفظ أصل حقيقته اللغوية ، أعني الضرب في الأرض خاصة ، الذي عبر عنه عكرمة بالمنتقلين لطلب العلم ، لكان بمفرده كافياً في المعنى ، مشيراً إلى وصف عظيم ، وهذا ما حدا بأبي مسلم أن يقتصر عليه ، وهو الحق في تأويل الآية .

(١) أخرجه أبو داود في : ١٥ - كتاب الجهاد ٦ - باب النهي عن السياحة ، حديث

وقد رأيت لبعض المحققين مقالة في تأييده ، يجدر بالمحقق أن يقف عليها ، وهالك خلاصتها :
قال : الكتاب الحكيم يأمر الإنسان كثيراً بأن بضحي قسماً من حياته في السياحة والتسيار ،
لأجل اكتشاف الآثار ، والوقوف على أخبار الأمم البائدة ، ليكون ذلك مثال عظة واعتبار ،
يضرب على أدمغة الجامدين بيد من حديد . ولا أريد أن أحشر للقارى تلك الآيات ، فإن
ذلك يؤدي إلى التطويل ، بل أريد أن أجتزئ منها بما يكفل ثبوت الدعوى ، وذلك في قوله
تعالى : (السَّائِحُونَ . . .) في هذه الآية ، ولم يقع لفظ (سائحون) في القرآن الكريم إلا
هذه المرة الفذة . ومع ذلك فقد تغلب عليها أهل التفسير ، ففهم من قال هم الصائمون ، ومنهم
من قال غيره . والصحيح أن (السائحون) معناه السائرون ، مأخوذاً من السيمح وهو الجرى
على وجه الأرض ، والذهاب فيها ، وهذه المادة تشعر بالانتشار . يقال : ساح الماء أى جرى
وانتشر . والسيمح أيضاً الماء الجاري الذاهب بالأرض . ويطلق السائح على معنى يضاد الجامد ،
وهو السائح المسفوح ، لأنه بانمياحه ينتشر في وعائه . وقد عهدنا باللفاظ القرآن أنها يجب
حملها على ظواهرها ، وعلى معانيها الحقيقية ، اللهم ما لم يمنع مانع عقلي ، ولا مانع هنا من
إرادة الحقيقة . وعليه فيجب حمل لفظ (السائحون) على معناه الظاهر الحقيقي ، وهو السائرون
الذاهبون في الديار ، لأجل الوقوف على الآثار ، توصلاً للمظة بها والاعتبار ، ولغير ذلك من
الفوائد التي عرفها التاريخ . وكذلك عهدنا بالمعنى المجازي أنه لا تجوز إرادته إلا عند قيام
القربة على منع المعنى الحقيقي ، في حال أن الأمر هنا بالعكس ، لكثرة القرائن التي
تطالب بإرادة المعنى الحقيقي دون المجازي . وذلك مثل آية (سِيرُوا)^(١) ،

(١) وردت لفظة (سِيرُوا) في الكتاب الكريم في خمسة مواضع . وهاكم بيان

موضع كل منها :

[٦ / الأنعام / ١١] و [٢٧ / النمل / ٦٩] و [٢٩ / المنكحوت / ٢٠] و [٣٠ /

الروم / ٤٢] و [٣٤ / سبأ / ١٨] .

(أَوَلَمْ يَسِيرُوا) ^(١)، (أَفَلَمْ يَسِيرُوا) ^(٢)، (فَسِيرُوا) ^(٣)، (وَأَخْرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ) ^(٤)، (وَمَنْ يَهْجُرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ...) ^(٥) الآية - فهذه الآيات هي قرائن نيرة تؤذن بأن السميع معناه السير . فإنها وإن تسكن من مادة أخرى ، إلا أن معناها يلاق معنى السميع . على أننا لانعدم قرينة على ذلك من نفس المادة، وذلك كآية (فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ) ^(٦) فكلمة (سيروا) هنا تفسر (السَّارِحُونَ) في الآية هذه ، وهم يقولون : خير ما فسرته بالوارد . وبالجملة ، فصرف هذا اللفظ عن ظاهره تكسيل الأمة ، وتدبير على فتور همتها ، وضعف نشاطها ، وحيلولة بينها وبين سعادة الإحاطة بآثار الأمم البائدة ، ورؤية عمران المسكونة ، الأمر الذي هو الآن الضالة المنشودة عند الغربيين ، وفيه ستر لنور الكتاب الذي هو أول مرشد للعالم ألا يأتوا جهدا في السير والسياسة ، وأن ينقب في البلاد أى تنقيب . وسيأتي تقمة لهذا في تفسير آية ^(٧) (سَائِحَاتٍ) في سورة التحريم إن شاء الله تعالى .

قال الرازي : للسياسة أثر عظيم في تكميل النفس ، لأنه يلقاه أنواع من الضر والبؤس ،

(١) وردت (أَوَلَمْ يَسِيرُوا) في الكتاب الكريم في ثلاثة موضع . وهاكم بيان كل

موضع منها :

[٣٠ / الروم / ٩] و [٣٥ / فاطر / ٤٤] و [٤٠ / غافر / ٢١] .

(٢) وردت (أَفَلَمْ يَسِيرُوا) في الكتاب الكريم في أربعة موضع . وهاكم بيان

كل موضع منها :

[١٢ / يوسف / ١٠٩] و [٢٢ / الحج / ٤٦] و [٤٠ / غافر / ٨٢] و [٤٧ / محمد / ١٠] .

(٣) وردت لفظة (فَسِيرُوا) في الكتاب الكريم في موضعين اثنين ، وهاكم بيان موضعهما :

[٣ / آل عمران / ١٣٧] و [١٦ / النحل / ٣٦] .

(٤) [٧٣ / الزمل / ٢٠] . (٥) [٤ / النساء / ١٠٠] .

(٦) [٩ / التوبة / ٢] . (٧) [٦٦ / التحريم / ٥] .

فلا بد له من الصبر عليها ، وقد يلقي أفاضل مختلفين ، فيستفيد من كل ما ليس عند الآخر . وقد يلقي الأكابر من الناس ، فيحقر نفسه في مقابلتهم . وقد يصل إلى المراتب الكثيرة ، فينتفع بها . وقد يشاهد اختلاف أحوال الدنيا بسبب ما خلق الله تعالى في كل طرف من الأحوال الخاصة بهم ، فيقوى معرفته . وبالجملة فالسياحة لها آثار قوية في الدين . انتهى .

وقال بعضهم : لا يميز عنك أيها اللبيب أنه تعالى حث بني الإنسان على السفر في محكم كتابه العزيز ، وندد على من ارتدى منهم رداء الكسل ، وأوقع نفسه في وهدة الخمول ، وتلذذ بالتقاعد عن جَوْبِ البلاد ، وقطع الوهاد ، فقال تعالى ^(١) (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُون لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا) وقال ^(٢) ﷺ : سافروا تصحوا واغزوا تستغنوا .

وقد تسلم كثير من العلماء والحكماء والأدباء على مزايا السفر نظاما ونثرا . ومن أجل فوائده زيادة علمه ، وانتفاع غيره بما يعلمه وما يكتسبه . ومنها ، وهو أعظمها ، رضا ربه ، ومزيد ثوابه بنفعه لعباده ، وأحب ^(٣) عباد الله إلى الله أنفهم لعباده . وكذلك باتعاظه بأحوال الناس ، واعتباره بأمورهم ، وإطلاعه في ساحته على الأسرار المكنونة ، والحكم التي دبر الله بها أمر المخلوقات وأحكم بها صنع الكائنات . فمن وقف على سر الخالق زاد في تعظيمه وتقرب إليه بالطاعة والامتثال لأوامره ونواهيهِ ؛ وليس بخاف ما وقع للأنبياء والمرسلين ، والصحابة والتابعين ، والأولياء والصالحين ، من التنقلات والأسفار ، في القرى والأمصار ، للنظر والاعتبار . هـ .

- (١) [٢٢ / الحج / ٤٦] . (٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة رقم ٣٨٠ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي) عن أبي هريرة . (٣) لم أقف على نص هذا الحديث . وإنما أخرج السيوطي في (الجامع الصغير) قوله : إن أحب عباد الله إلى الله أنفهمهم لعباده . وقال : حم ، في زوائد كغاب الزهد ، عن الحسن البصري ، مرسل .

الثاني - قال القاضي : إنما جعل ذكر الركوع والسجود ، كناية عن الصلاة ، لأن سائر أشكال المصلّي موافق للمادة ، وهو قيامه وقعوده ، والذي يخرج عن المادة في ذلك هو الركوع والسجود ، وبه يتبين الفضل بين المصلّي وغيره . ويمكن أن يقال : القيام أول مراتب التواضع لله تعالى ، والركوع وسطها ، والسجود غايتها . فخص الركوع والسجود بالذكر ؛ لدلالتهما على غاية التواضع والعبودية ، تنبيهها على أن المقصود من الصلاة نهاية الخضوع والتعظيم . ذكره الرازي .

الثالث - ذكروا في سر المطف في موضعين من هذه النعمت وجوها :
فأما الأول : أعنى قوله تعالى (وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ) فقالوا : سر المطف فيه إما الدلالة على أنه بما عطف عليه في حكم خصلة واحدة ، وصفة واحدة ، لأن بينهما تلازما في الذهن والخارج ، لأن الأوامر تتضمن النواهي ومنافاةً بحسب الظاهر ، لأن أحدهما طلب فعل ، والآخر طلب ترك ، فكانا بين كمال الاتصال والانقطاع المقتضى للمطف ، بخلاف ما قبلهما . أو لأنه ، لما عدد صفاتهما ، عطف هذين ليدل على أنهما شيء واحد ، وخصلة واحدة ، والمعدود مجموعهما ، كأنه قيل : الجامعون بين الوصفين . أو المطف لما بينهما من التقابل ، أو لدفع الإيهام ، وهذا معنى قول (المنى) الظاهر أن المطف في هذا الوصف إنما كان من جهة أن الأمر والنهي ، من حيث هما أمر ونهي ، متقابلان بخلاف بقية الصفات . أو لأن الأمر بالمعروف ناه عن المنكر ، وهو ترك المعروف . والناهي عن المنكر آمر بالمعروف . فأشير إلى الاعتداد بكل من الوصفين ، وأنه لا يكفي فيه ما يحصل في ضمن الآخر .

وأما الثاني : أعنى قوله تعالى : (وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ) فقيل : سر المطف فيه الإيذان بأن التعداد قد تم بالسبع ، من حيث أن السبعة هو العدد القائم ، والثامن ابتداء تعداد آخر معطوف عليه ، ولذلك تسمى (واو الثمانية) ونظر فيه بأن الدال على التمام لفظ

(سبعة) لاستعماله في التمسك ، لا ممدوده . والقول بواو التثنية ذكره في قوله تعالى ^(١) :
(سَبْعَةٌ وَتَأْمِنُهُمْ كَأَحَدٍ) وضعفه في (المنى) .

وقيل : سر العطف التذنيه على أن ما قبله مفصل الفضائل ، وهذا مجملها ، لأنه شامل لما قبله وغيره . ومثله يؤتى به معطوفا ، نحو زيد وعمرو وسائر قبيلتهما كرماء ، فلمغايرته لما قبله ، بالإجمال والتفصيل ، والعموم ، والخصوص ، عطف عليه .

وقيل : بقوة الجامع بالتلازم ، لأن من حصل الأوصاف السابقة ، فقد حفظ حدود الله .

وقيل : المراد بحفظ الحدود ظاهره ، وهي إقامة الحد ، كالقصاص على من استحقه .
والصفات الأولى إلى قوله (الآمرون) صفات محمودة للشخص في نفسه ، وهذه له باعتبار غيره ، فلذا تغاير تمييز الصنفين ، فترك العاطف في القسم الأول ، وعطف في الثاني . ولما كان لا بد من اجتماع الأول في شيء واحد ، ترك فيها العطف لشدة الاتصال ، بخلاف هذه ، فإنه يجوز اختلاف فاعلها ومن تعلقت به . وهذا هو الداعي لإعراب (التائبون) مبتدأ موصوفا بما بعده ، و (الآمرون) خبره . فكأنه قيل : السكاملون في أنفسهم السكاملون لأنفسهم .
وقدم الأول لأن المكمل لا يكون مكملا حتى يكون كاملا في نفسه ، وبهذا اتسق النظم أحسن نسق من غير تكلف ، والله أعلم بمراده . كذا في (العناية) و (حواشي المنى) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٣] (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ

قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ)

[١١٤] (وَمَا كَانَ لِمَنْ إِتْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا

تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ، إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ)

« مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ »

(١) [١٨ / الكهف / ٢٢] .

« مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ » .
 « وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ، إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ » لما بين تعالى في أول السورة وما بعدها أن البراءة من المشركين والمنافقين واجبة ، بين سبحانه هنا ما يزيد ذلك تأكيداً . حيث نهى عن الاستغفار لهم بعد تبين شرهم وكفرهم ، لأن ظهوره موجب لقطع الموالاة ، حتى مع الأقرباء ، لأن قرباتهم ، وإن أفادتهم المناسبة بهم والرحمة بهم ، فلا تفيدهم قبول نور الاستغفار (إن^(١) الله لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ) فطلب المغفرة لهم في حكم المخالفة لوعده الله ووعيده . ثم ذكر تعالى أن السبب في استغفار إبراهيم لأبيه ، أنه كان لأجل وعد تقدم منه له ، بقوله^(٢) : (سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي) ، وقوله^(٣) : (لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ) ، وأنه كان قبل أن يتحقق إصراره على الشرك « فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ » ذلك « تَبَرَّأَ مِنْهُ » أى من أبيه بالكلية ، فضلاً عن الاستغفاره . وبين تعالى الحامل لإبراهيم على الاستغفار ، بأنه فرط رحمته وصبره بقوله : « إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ » أى كثير التأوه من فرط الرحمة ، ورقة القلب ، « حَلِيمٌ » أى صبور على ما يمترضه من الإيذاء ، ولذلك حـلم عن أبيه ، مع توعده له بقوله^(٤) : (لَئِنْ لَمْ تَنْتَهَ لَأَرْجُمَنَّكَ) ، واستغفـره بقوله^(٥) : (سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي) وذلك قبل التبين ، فليس لغيره أن يأتسى به في ذلك .

وفي الآية تأكيد لوجوب الاجتناب بعد التبين ، بأنه عليه الصلاة والسلام تبرأ من أبيه بعد التبين ، وهو في كمال ورقة القلب والحلم ، فلا بد أن يكون غيره أكثر منه اجتناباً وتبرؤاً .

(١) [٤ / النساء / ٤٨] . (٢) [١٩ / مريم / ٤٧] . (٣) [٦٠ / المتحفة / ٤] .
 (٤) [١٩ / مريم / ٤٦] . (٥) [١٩ / مريم / ٤٧] .

تنبيهات :

الأول - ساق المفسرون هاهنا روايات عديدة في نزول الآية . ولما رآها بعضهم متنافية ، حاول الجمع بينها بتمدد النزول . ولا تنافي ، لما قدمناه من أن قولهم (نزلت في كذا) قد يراد به أن حكم الآية يشمل ما وقع من كذا بمعنى أن نزولها يتناولها . وقد يراد به (أن كذا كان سبباً لنزولها) وما هنا من الأول . ونظائره كثيرة في التزويل ، وقد نبهنا عليه مراراً ، لا سيما في المقدمة . فاحفظه .

الثاني - قال عطاء بن أبي رباح : ما كنت لأدع الصلاة على أحد من أهل القبلة ، ولو كانت حبشية حبلى من الزنى ، لأنني لم أسمع الله حجب الصلاة إلا عن المشركين ، ثم قرأ الآية . وهذا فقه جيد .

الثالث - قال بعض اليمانيين : استدل بالآية على أن من تأوّه في الصلاة لم تبطل . وهذا يحكى عن أبي جعفر : إذا قال (آه) لم تبطل صلاته ، لأنه تعالى مدح إبراهيم عليه السلام بذلك . ومذهب الأئمة بطلانها ، سواء قال (آه) أو (أوه) ، لأن ذلك من كلام الناس ، ولم يذكر تعالى أن تأوّه إبراهيم كان في الصلاة . انتهى .

الرابع - قال في (العناية) : (أوّه) فقال المبالغة من (التأوّه) وقياس فعله أن يكون ثلاثياً ، لأن أمثلة المبالغة إنما يطرد أخذها منه . وحكى قطرب له فعلاً ثلاثياً وهو (آه بوؤه) كقيام يقوم ، أوها . وأنكر عليه غيره بأنه لا يقال إلا أوّه وتأوّه ، قال ^(١) :
إذا ما قتُ أرحلها بليـل تأوّه آهة الرجل الحزين

(١) قائله المثقّب العبدى ، من مفضليته رقم ٧٦ التي مطلعها :

أفاطمُ قبلَ بَيْنِكَ مَتَمِّينِي ومَتَعِكَ ما سَأَلْتُ كَأَن تَبَيِّنِي

ومعنى (أرحلها) في البيت أى أضع عليها الرخل .

وقد استشهد به في اللسان ، بالصفحة رقم ٤٧٣ من المجلد الثالث عشر (طبعة بيروت) .

والتأوه قول (آم) ونحوه مما يقوله الحزين ، فلذا كنى به عن الحزن ، ورقة القلب . انتهى .
و (أوه) بفتح الواو المشددة ساكنة الهاء ، وأواه ، وأوه بسكون الواو والحركات
الثلاث قال (١) :

فَأَوْهٍ عَلَى زِيَارَةِ أُمِّ عَمْرٍو فَكَيْفَ مَعَ الْعَدَا ، وَمَعَ الْوُشَاةِ ؟
وربما قلبوا الواو ألفاً ، فقالوا : آمٍ مِنْ كَذَا قَالَ (٢) :

آمٍ مِنْ نَيْمِكَ آهًا تَرَكَتْ قَلْبِي مُتَاهَا
و (آه) بكسر الهاء منونة . وحكى أيضاً آها وواها . وفيها لغات أخرى أوصلها (التاج)
إلى اثنتين وعشرين لغة ، وكلها كلمات تقال عند الشكاية والتوجع والتعجز ، مبنيات على
ما لزم آخرها إلا (آها) فانتصابها لإجرائها مجرى المصادر ، كأنه قيل : أناسف تأسفاً .
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٥] (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ ،
إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

« وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ » هذا من
جمة ما تقدم من تأكيد مباينة المشركين ، والبراءة منهم ، وترك الاستغفار لهم ، وذلك
لأنهم حقت عليهم الحكمة ، حيث قامت عليهم الحجة بإبلاغ الرسول إليهم ما يتقون ،
ودلالته بإيham على الصراط السوى ، فضلوأ عنه ، فأضلهم الله ، واستحقوا عقابه .

(١) استشهد به في اللسان بالصفحة رقم ٤٧٢ من المجلد الثالث عشر (طبعة بيروت)
ولم يذكر قائله . (٢) استشهد به في اللسان بالصفحة رقم ٤٧٣ من المجلد الثالث عشر
(طبعة بيروت) ولم يذكر قائله .

وقوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » تلميل لما سبق ، أى أنه تعالى عليم بجميع الأشياء التى من جملتها حاجتهم إلى بيان قبض مالا يستقل العقل بمعرفته ، فبين لهم ذلك ، كما فعل هنا .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٦] (إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، يُخَيِّئُ وَيُمِيتُ ، وَمَا أَلَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ)

« إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، يُخَيِّئُ وَيُمِيتُ ، وَمَا أَلَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ » تقوية لما تقدم من التبرؤ منهم ، وإرشاد للمؤمنين بأن يتجهكوا على ربهم ، ولا يرهبوا من أولئك ، فإنه إذا كان ناصرهم فلا يضرهم كيدهم ، وتنبيه على لزوم امتثال أمره ، والالتقياد لحكمه ، والتوجه إليه وحده ، إذ لا يلقى لهم ولاية ولا نصر إلا منه تعالى .

تنبيه :

وقف كثير من المفسرين بالآية هنا ، أعنى قوله تعالى : (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا .) الآية - على ما روى فى الآية قبلها ؛ من نزولها فى استغفار وقع من المؤمنين للمشركين ، فربطوا هذه الآية بتلك ، على الرواية المذكورة ، ونزلوها على المؤمنين ، فقالوا : (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا) أى ليحكم عليهم باستغفارهم للمشركين بالضلال بعد إذ هداهم بالنبوة والإيمان ، حتى بتقديم إليكم باليهى عنه ، ففتركوا ، فأما إذا لم يبين فلا ضلال ، إلى آخر ما قالوه ...

وما أبعد من تفسير وتأويل والراى ذكره وجهاً ، وأشبهه بما اعتمدنا ، وهو الوجه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٧] (لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ
الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ، إِنَّهُ
بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ)

« لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ
مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ، إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ » اعلم
أن الله تعالى لما بين فيما تقدم مراتب الناس في أيام غزوة تبوك ، مؤمنهم ومنافقهم ، والمنفق
لها طوعاً أو كرهاً ، والمرغب فيها أو عنها ، والمتخلف نفاقاً أو كسلًا ، وأنبا عما لحق كلاً من
الوعد والوعيد ، وميز الصادقين من غيرهم - ختم بفرقة منهم كانوا تخلفوا ميلاً للذعة . وهم
صادقون في إيمانهم ، ثم ندموا فتابوا وأتابوا ، وعلم الله صدق توبتهم ، فقبلها ، ثم أزل
توبتهم في هذه الآية ، وصدرها بقوبته على رسوله ، وكبار صحبه جبراً لقلوبهم ، وتنويعها
لشأنهم بضمهم مع المقطوع بالرضا عنهم وبعثاً المؤمنين على التوبة ، وأنه ما من مؤمن
إلا وهو محتاج إلى التوبة والاستغفار ، حتى النبي والمهاجرين والأنصار ، كل على حسبه ،
وإبانة لفضل التوبة ومقدارها عند الله ، وأنها صفة التوابين الأوابين صفة الأنبياء ، كلوصفهم
بالمصالحين ، ليظهر فضيلة الصلاح . والوصف المدح ، كما يكون لمدح الموصوف ، يكون لمدح
الصفة ، وهذا من لطائف البلاغة ، وهو كما قال حسان رضي الله عنه (١) :

مَا إِنْ مَدَّخْتُ مُحَمَّدًا بِمَقَالَتِي لَكِنْ مَدَّخْتُ مَقَالَتِي بِمُحَمَّدٍ
وفي الآية بيان فضل المهاجرين والأنصار .

(١) هذا البيت ليس في ديوان حسان المطبوع في لندن عام ١٩١٠ ولا في شرح البرقوق

المطبوع في مصر عام ١٩٢٩ .

قال الحاكم : ودلت على فضل عثمان ، لأنه جهز جيش العسرة بمال لم يبلغ غيره مبلغه .
وقد جمع تعالى بين ذكر نبيه وذكرهم ، ووصفهم باتباعه ، فوجب القطع بموالاتهم .
وقوله تعالى : (فِي سَاعَةِ الْمُسْرَةِ) أى فى وقتها والساعة تستعمل فى معنى الزمان
المطلق ، كما تستعمل الغداة والمشيئة واليوم . والعسرة حالهم فى غزوة تبوك . كانوا فى عسرة
من الظَّهْرِ ، يعقب العسرة على بغير واحد ، وفى عسرة من الزاد ، حتى إن الرجلين كانا يشقان
التمر بينهما ، وكان النفر يقدالون التمرة بينهما ، يعصها هذا ، ثم يشرب عليها ، ثم يعصها
الآخر ، ثم يشرب عليها : وفى عسرة من شدة لَهَبَانِ الحرِّ ومن الجُذْبِ . وفى عسرة من
الماء ، حتى بلغ بأحدهم العطش أن نحر بغيره ، فمصر فرفته فشربه ، وجعل ما بقى على كبذه .
وقد حكى القالى فى (أماليه) أن العرب كانوا إذا أرادوا توغل القلوات التى لاماء فيها ،
سقوا الإبل على أنتم أظأها^(١) ثم قطعوا مشافرها ، أو خزموها لثلاث رعى ، فإذا احتاجوا إلى
الماء ، افتظوا كروثها ، فشربوها ثملها ، وهو كثير فى الأشعار . كذا فى (العناية) .
وقتل الرازى عن أبى مسلم أنه يجوز أن يكون المراد بـ (ساعة العسرة) جميع الأحوال
والأوقات الشديدة على الرسول ، وعلى المؤمنين ، فيدخل فيه غزوة الخندق وغيرها . وقد
ذكر تعالى بعضها فى كتابه كقوله سبحانه ^(٢) : (وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ
الْجَنَاحَ جَرًا) . وقوله ^(٣) (وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ . . .)
الآية . والمقصود منه وصف المهاجرين والأنصار بأنهم اتبعوا الرسول عليه الصلاة والسلام
فى الأوقات الشديدة ، والأحوال الصعبة ، وذلك يفيد نهاية المدح والتعظيم . انتهى .

(١) (أظأها) الأظاء مفردا (ظم) وهو حبس الإبل عن الماء إلى غاية الورد .

وفظه وافتظّه : شق عنه الكرش أو عصره منها .

والثملة : البقية تبقى من العاف والشراب فى بطن البعير وغيره . فكل بقية ثملة (لسان

العرب) ولم أعر على موقعها فى (الأمالى) . (٢) [٣٣ / الأحزاب / ١٠] .

(٣) [٣ / آل عمران / ١٥٢] .

أقول : هذا الاحتمال ، وإن كان مما يسمعه اللفظ الكريم ، إلا أنه يبعده عنه سياق الآية وسباقها ، القاصران على غزوة تبوك . ولم يتفق في غيرها عسر في الخروج ، واتباعه عليه السلام ، بل وقع أحياناً في مصاف القتال . وقد اتفق علماء الأثر والسير على تسميتها (غزوة العسرة) ، ومن خرج فيها (جيش العسرة) .

وقوله تعالى : « مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَرِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ » أى عن الحق ، أو الثبات على الاتباع ، للذى نالهم من المشقة والشدة في سفرهم . وفي تكرير التوبة عليهم بقوله تعالى : « ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ » تأكيد ظاهر ، واعتناء بشأنها ، هذا إذا كان الضمير راجعاً إلى من تقدم ذكر التوبة عنهم ، وإن كان الضمير إلى الفريق الثانى ، فلا تكرار .

قال بعضهم : ذكر التوبة أولاً قبل ذكر الذنب ، تفضيلاً منه ، وتطميناً لقلوبهم . ثم ذكر الذنب بعد ذلك ، وأردفه بذكر التوبة مرة أخرى ، تعظيماً لشأنهم ، وليعلموا أنه تعالى قد قبل توبتهم ، وعفا عنهم . ثم أتبعه بقوله : « إِنَّهُ بِهِمْ رَوْفٌ رَحِيمٌ » تأكيداً لذلك . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٨] (وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّى إِذَا ضَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَافَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَلَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)

« وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا » أى تركوا وأخروا عن قبول التوبة فى الحال ، كما قبلت توبة أولئك المتخلفين المتقدم ذكرهم . والثلاثة هم كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية ، وكلهم من الأنصار ، لم يقبل النبوﷺ توبتهم حتى نزل القرآن بقوبتهم . وقوله تعالى : « حَتَّى إِذَا ضَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ » أى مع سمعها ، وهو مثل الحيرة فى أمرهم ، كأنهم لا يجدون فيها مكاناً يقرون فيه ، فلما جزعوا مما هم فيه ، إذ لم يمكنهم

الذهاب لأحد ، لمنع النبي ﷺ من مجالستهم ومجادلتهم . و (إذا) يجوز كونها شرطية جوابها مقدر ، وأن تكون ظرفية غاية لما قبلها « وَصَافَتْ عَلَيْهِمُ أَنْفُسُهُمْ » أى قلوبهم من فرط الوحشة والجفوة والتم ، بحيث لا يسما أنس ولا سرور ، وذلك لأنهم لازموا بيوتهم ، وهجروا نحواً من خمسين ليلة ، وفيه ترقى من ضيق الأرض إلى ضيقهم فى أنفسهم ، وهو فى غاية البلاغة « وَظَنُّوا » أى علموا « أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ » أى لا مفر من غضب الله « إِلَّا إِلَيْهِ » أى إلى استغفاره « ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا » أى ليستقيموا على توبتهم ، ويستمروا عليها ، أو ليمدوا من جملة التائبين . أو المعنى : قبل توبتهم ليتوبوا فى المستقبل ، إذا صدرت منهم هفوة ، ولا يخطوا من كرمه « إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٩] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ » أى فى إيمانهم ومجاهدتهم لله ولرسوله على الطاعة . من قوله تعالى (١) : « رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ » أو هم الثلاثة ، أى كونوا مثلهم فى صدقهم وخلوص نيتهم .

تنبيهات :

الأول - روى الإمام أحمد (٢) والشيخان حديث كعب وصاحبيه مبسوطاً بما يوضح هذه الآية : قال الزهرى : أخبرنى عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه - وكان قائد كعب من بنيه ، حين عمى - قال : سمعت كعباً يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله ﷺ

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٢٣] . (٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ٤٥٦ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) .

وأخرجه البخارى فى : ٦٤ - كتاب المغازى ، ٧٩ - باب حديث كعب بن مالك وقول لله عز وجل : وعلى الثلاثة الذين خلفوا ، حديث رقم ١٣٢٢ .

وأخرجه مسلم فى : ٤٩ - كتاب التوبة ، حديث رقم ٥٣ ، ٥٤ (طبعهما) .

في غزوة تبوك . قال كعب : لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزاة غزاها قط ، إلا في غزاة تبوك ، غير أني كنت تخلفت في غزاة بدر ، ولم يُعَاتَب أحد تخلف عنها ، وإنما خرج رسول الله ﷺ يريد عبر قريش ، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد . ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة ، حين توافقنا على الإسلام ، وما أحب أن لي بهامشهد بدر ، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها وأثمر . وكان من خبري حين تخلفت عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزاة . والله ما جمعت قبلها راحلتين قط ، حتى جمعتهما في تلك الغزاة . وكان رسول الله ﷺ فلما يريد غزوة يفزوها ، إلا ورتي بغيرها ، حتى كانت تلك الغزوة ، فغزاها رسول الله ﷺ في حر شديد ، واستقبل سفراً بعيداً ومفاوز ، واستقبل عدواً كثيراً ، فجئني للمسلمين أمرهم ، ليتأهبوا أهبة عدوهم ، فأخبرهم وجهه الذي يريد ، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير ، لا يحجمهم كتاب حافظ - يريد الديوان - قال كعب : فقل رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفي عليه ، ما لم ينزل فيه وحى من الله عز وجل . وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزاة ، حين طابت الثمار والظلال وأنا إليها أصغر - أي أميل - فتجهز إليها رسول الله ﷺ والؤمنون معه ، فطفقت أعدو لكي أجهز معهم ، فأرجع ولم أقض من جهazy شيئاً ، فأقول لنفسى : أنا قادر على ذلك إذا أردت ، فلم يزل ذلك يتهدى بي حتى استمر بالناس الجدد ، فأصبح رسول الله ﷺ غادياً ، والمسلمون معه ، ولم أقض من جهazy شيئاً ، وقلت : أجهز بعد يوم أو يومين ، ثم ألقه ، فعدوت بعد لأجهز ، فرجعت ولم أقض شيئاً ، فلم يزل ذلك يتهدى بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو ، فهممت أن أرتحل فألحقهم - وليتني فعلت - ثم لم يقدر ذلك لي . فكنت إذا خرجت في الناس ، بعد خروج رسول الله ﷺ ، يحزنني أني لا أرى إلا رجلاً مفوصاً عليه في النفاق ، أو رجلاً ممن عذره الله عز وجل . ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك . فقال (وهو جالس في القوم بتبوك) : ما فعل كعب بن مالك ؟ فقال رجل من بني سلمة : حبسه يا رسول الله بُرداه ، والنظر في عطفه ! فقال معاذ بن جبل : بئسما قلت . والله ! يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً ! فسكت رسول الله ﷺ .

قال كعب بن مالك : فلما بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلاً من تبوك ، حضرنى
بشئ ، وطفقت أتذكر الكذب ، وأقول : بم أخرج من سخامته غداً ؟ وأستمعن على ذلك
بكل ذى رأى من أهلى . فلما قيل إن رسول الله ﷺ قد أظلم قادمًا ، زاح عني الباطل ،
وعرفت أنى لم أجد منه بشيء أبداً ، فأجمعت صدقه . فأصبح رسول الله ﷺ - وكان إذا قدم
من سفر بدأ بالمسجد فصلى ركعتين ثم جلس للناس - فلما فعل ذلك ، جاءه المتخلفون ، فطفقوا
يعتذرون إليه ، ويخلفون له ، وكانوا بضمة وثمانين رجلاً ، فيقبل منهم رسول الله ﷺ
علايتهم ، ويستغفر لهم ، ويكل سرائرهم إلى الله تعالى ، حتى جئت ، فلما سلمت عليه تبسم
تبسم الغضب ، ثم قال لى : تعال ! فجلت أمشى حتى جلست بين يديه ، فقال لى : ما خلفك ؟
ألم تكن قد اشتريت ظهراً ؟ فقلت : يا رسول الله ! إني لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا
لرايت أن أخرج من سخطه بمذر . لقد أعطيتُ جدلاً ، ولسكنى ، والله لقد علمت ، لئن
حدثتك اليوم بحديث كذب ترضى به عني ، ليوشكن الله أن يسخطك على . ولئن حدثتك
بصدق تجد على فيه ، إني لأرجو عقي ذلك من الله عز وجل . والله ما كان لى عذر ، والله !
ما كنت قط أفرغ ولا أيسر منى حين تخلفت عنك . قال : فقال رسول الله ﷺ : أما هذا
فقد صدق ، فقم حتى يقضى الله فيك ! فقممت ، وقام إلى رجال من بنى سلمة ، واتبعوني ، فقالوا
لى : والله ! ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا ، ولقد عجزت ألا تكون اعتذرت إلى
رسول الله ﷺ بما اعتذر به المتخلفون ، فقد كان كافيك من ذنبك استغفار رسول الله صلى
الله عليه وسلم لك .

قال : فوالله ! ما زالوا يؤنبوننى حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي .

قال : ثم قلت لهم : هل لقي مئى هذا أحد ؟ قالوا : نعم لقيه معاك رجلان قالا مثل ما
قلت ، وقيل لهما مثل ما قيل لك . فقلت : فمن هما ؟ قالوا : مرارة بن الربيع الماصرى ، وهلال
ابن أمية الواقفى ، فذكروا لى رجلين صالحين قد شهدا بداراً ، لى فيهما أسوة .

قال : فضيت حين ذكروها لى .

فقال : ونهى رسول الله ﷺ عن كلامنا ، أيها الثلاثة ، من بين من تخلف . فاجتنبنا الناس ، وتغيروا لنا ، حتى تنكرت لى فى نفسى الأرض ، فما هى بالأرض التى كنت أعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة . فأما صاحبى فاستسكانا وقعدا فى بيوتهما يبيكيان ، وأما أنا فكنت أشد القوم وأجلدهم ، فكنت أشهد الصلاة مع المسلمين ، وأطوف بالأسواق ، فلا يكلمنى أحد ، وآتى رسول الله ﷺ وهو فى مجلسه بعد الصلاة ، فأسلم وأقول فى نفسى : أحرّك شفّتيه بردّ السلام علىّ أم لا ؟ ثم أصلى قريباً منه وأسارقه النظر ، فإذا أقبلت على صلاتى نظر إلىّ ، فإذا التفت نحوه أعرض عنى . حتى إذا طال علىّ ذلك من هجر المسلمين ، مشيت حتى تسورت حائط أبى قتادة ، وهو ابن عمى ، وأحب الناس إلىّ ؛ فسلمت عليه ، فوالله ! مارّد علىّ السلام . فقلت له : يا أبا قتادة ! أنشدك الله ، هل تعلم أنى أحب الله ورسوله ؟ قال : فسكت . قال : فعدت له فنشدته فسكت ، فعدت له فنشدته فسكت ، فقال : الله ورسوله أعلم . قال : ففاضت عينائى ، وتوليت حتى تسورت الجدار . فبينما أنا أمشى بسوق المدينة ، إذا أنا بنبطى^(١) من أنباط الشام ، ممن قدم بطعام يبيعه بالمدينة ، يقول : من يدل على كعب ابن مالك ؟ قال : فطلق الناس يشيرون له إلىّ ، حتى جاء فدفع إلىّ كتاباً من ملك غسان ، وكنت كاتباً ، فإذا فيه :

(أما بعد فقد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ، وإن الله لم يملك بدار هوان ولا مضيمة^(٢) ،

فالحق بنا نواسك) .

قال : فقلت - حين قرأته - : وهذا أيضاً من البلاء . قال : فقيممت به التنور فسجرت به . حتى إذا مضت أربعون ليلة من المحسين ، إذا برسول رسول الله ﷺ يأتينى يقول :

(١) النبطى واحد (الأنباط) وهم الفلاحون والزارعون من المعجم والروم .

(٢) المضيمة مفعلة من (الضياع) .

يأمرك رسول الله ﷺ أن تترك امرأتك . قال : فقلت : أظلمتها أم طالعها أمفل ؟ فقال : بل اعترلها ولا تقربها . قال : وأرسل إلى صاحبي بمثل ذلك . قال : فقلت لامرأتي : الحق بأهلك فكوني عندهم حتى يقضى الله في هذا الأمر ما يشاء ! قال : فجاءت امرأة هلال بن أمية ، رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله ! إن هلالاً شيخ ضعيف ، ليس له خادم ، فهل تسكره أن أخدمه ؟ قال : لا ، ولكن لا يقربك ! قالت : وإنه ، والله ! ما به من حركة إلى شيء ، وإنه والله ! ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا .

قال : فقال لي بعض أهلي : لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك ، فقد أذن لامرأة هلال أن تخدمه . قال : فقلت : والله ! لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ وما أدري ما يقول فيها إذا استأذنته ، وأنا رجل شاب . قال : فلبثنا عشر ليال ، فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا .

قال : ثم صليت صلاة الصبح ، صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا ، فبينما أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى منا ، قد ضاقت على نفسي ، وضافت على الأرض بما رحبت ، سمعت صارخاً أوفى على جبل سلع ، يقول بأعلى صوته : أبشر يا كعب بن مالك ! قال : فخررت ساجداً ، وعرفت أن قد جاء الفرج من الله عز وجل بالتوبة عافيتا ، فأذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى الفجر ، فذهب الناس يبشروننا ، وذهب قبيل صاحبي فبشرون ، وركض إلى رجل فرساً ، وسعى ساع من أسلم وأوفى على الجبل ، فكان الصوت أترع من الفرس . فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزع له ثوبي فكسوته إياها يبشراً .

والله ! ما أملك يومئذ غيرها . واستمرت ثوبين فلبستهما ، وانطلقت أوم رسول الله ﷺ وتلقاني الناس فوجاً فوجاً يهتفونني بتوبة الله ، يقولون : ليهنك توبة الله عليك ! حتى دخلت المسجد ، فإذا رسول الله ﷺ جالس في المسجد ، والناس حوله ، فقام إلى طلحة بن عبيد الله يهرول ، حتى صاحفني وهنأني . والله ! ما قام إلى رجل من المهاجرين غيره . قال :

فكان كعب لا ينساها لطاححة : قال كعب . فلما سلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (وهو يبرق وجهه من السرور) : أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك ! قال ، قلت : أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله ؟ قال : لا ، بل من عند الله . قال ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سُرّ استنار وجهه ، حتى كأنه قطعة قمر ، حتى يعرف ذلك منه . فلما جلست بين يديه قلت : يا رسول الله ! إن من توبتي أن أنخلع من مالي ، صدقة إلى الله وإلى رسوله . قال : أمسك عليك بعض مالك ، فهو خير لك . قال ، فقلت : فإني أمسك سهمي الذي بخيبر . وقلت : يا رسول الله ! إنما نجاني الله بالصدق ، وإن من توبتي ألا أحدث إلا صدقاً ما بقيت . قال ، فوالله ! ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله من الصدق في الحديث ، منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ ، أحسن مما أبلاني الله تعالى . والله ! ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يومى هذا ، وإنى لأرجو أن يحفظني الله عز وجل فيما بقى .

قال ، وأزل الله « لَقَدْ تَابَ اللَّهُ . . . » إلى آخر الآيات .

قال كعب : فوالله ! ما أنعم على من نعمة قط ، بعد أن هداني للإسلام ، أعظم في نفسي من صدق رسول الله ﷺ يومئذ ألا أكون كذبتُهُ ، فأهلك كما هلك الذين كذبوه ، فإن الله تعالى قال للذين كذبوه ، حين أنزل الوحي ، شرّ ما قال لأحد . فقال الله تعالى (١) : « سَيَحْلِفُونَ بِاللّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَنُتْرَضُوا عَنْهُمْ ، فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ ، إِنَّهُمْ رِجْسٌ ، وَمَا وَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * يَحْلِفُونَ لَكُمْ لَنُتْرَضُوا عَنْهُمْ ، فَإِنْ تَرَضُوا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ) .

قال : وكذا أيها الثلاثة الذين خلفنا عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خلفوا ، فبايعهم واستغفر لهم ، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه ، فبذلك قال تعالى : (وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا) وليس الذى ذكر مما خلفنا عن الغزو ، وإنما هو تخليفه إيانا ، وإرجأؤه أمرنا عن حلف له ، واعتذر إليه ، فقبل منه .

(١) [٩ / التوبة / ٩٥ و ٩٦] .

وفي رواية : ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عن كلامي ، وكلام صاحبي ، ولم ينه عن كلام أحد من المتخلفين غيرنا ، فاجتنب الناس كلامنا ، فلبثت كذلك حتى طال على الأمر ، فما من شيء أهم إلي من أن أموت ، فلا يصل على النبي ﷺ . أو يموت رسول الله ﷺ فأكون من الناس بتلك المنزلة ، فلا يكلمني أحد منهم ، ولا يصلي علي ، ولا يسلم علي .

قال : وأمر الله عز وجل توبتنا على نبيه صلى الله عليه وسلم حين بقي الثلث الأخير من الليل ، ورسول الله ﷺ عند أم سلمة ، وكانت أم سلمة محسنة في شأن ، معقنية بأمرى . فقال رسول الله ﷺ : يا أم سلمة تيب على كعب بن مالك . قالت : أفلا أرسل إليه فأبشره ؟ قال : إذا يحطمكم الناس فيمنعونكم النوم سائر الليل . حتى إذا صلى رسول الله ﷺ صلاة الفجر ، آذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا - أخرجه البخاري ومسلم .

قال ابن كثير : هذا حديث صحيح ثابت متفق على صحته ، وقد تضمن تفسير الآية بأحسن الوجوه وأبسطها .

الثاني - قال بعض المفسرين : في الآية دليل على الشدة على من فعل الخطيئة ، وعلى قطع ما يلهي عن الطاعة .

الثالث - في الآية دلالة على التحريض على الصدق .

قال القاشاني : في قوله تعالى هنا (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ) أي في جميع الرذائل بالاجتناب عنها ، خاصة رذيلة الكذب . وذلك معنى قوله (وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ) فإن الكذب أسوأ الرذائل وأقبحها ، لكونه يناقض المروءة . وقد قيل : (لا مروءة لكذوب) إذ المراد من الكلام الذي يتميز به الإنسان عن سائر الحيوان إخبار الغير عما لا يعلم ، فإذا كان الخبر غير مطابق ، لم تحصل فائدة النطق ، وحصل منه اعتقاد غير مطابق ، وذلك من خواص الشيطنة فالكاذب شيطان . وكان الكذب أقبح الرذائل ، فالصدق أحسن الفضائل ، وأصل كل حسنة ، ومادة كل خصلة محمودة ، وملاك كل خير وسعادة ، به يحصل كل كمال .

وأصله الصدق في عهد الله تعالى الذي هو نتيجة الوفاء بميثاق الفطرة أو نفسه ، كما قال (١) :
 (رَجُلٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ) في عقد العزيمة ، ووعد الخليقة . كما قال
 في إسماعيل (٢) : (إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ) . وإذا روعي في المواطن كلها ، حتى الخاطر
 والفكر والنية والقول والعمل ، صدقت المفامات والواردات ، والأحوال والمقامات
 والمواهب والمشاهدات ، كأنه أصل شجرة الكمال ، وبذر ثمرة الأحوال . انتهى .
 ولما أوجب تعالى الكون مع الصادقين ، أشار تعالى إلى أن النفر مع رسول الله ﷺ
 واجب كفاية ، فلا يجوز تخلف الجميع ، ولا يلزم النفر للناس كافة ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٠] (مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ
 رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ
 ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ
 الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ،
 إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)

« مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ » أى المتيسر لهم ملازمة رسول الله ﷺ وصحابه
 « وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ » أى عند توجهه إلى الفزو
 « وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ » أى لا يرضوا بأنفسهم عما يصيب نفسه . أى لا يختاروا
 إبقاء أنفسهم على نفسه في الشدائد .

قال الزمخشري : أمروا بأن يصحبوه على البأساء والضراء ، وأن يكابدوا معه الأحوال

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٢٣] . (٢) [١٩ / مريم / ٥٤] .

برغبة ونشاط واعتباط ، وأن يلقوا أنفسهم من الشدائد ما تلقاه نفسه ، علماً بأنها أعز نفس عند الله وأكرمها عليه ، فإذا تعرضت ، مع كرامتها وعزتها ، للخوض في شدة وهول ، وجب على سائر الأنفس أن تنهات فيما تعرضت له ، ولا يكثر لها أصحابها ، ولا يقيموا لها وزناً ، وتسكون أخف شيء عليهم وأهونه ، فضلاً عن أن يربأوا بأنفسهم عن متابعتها ومصاحبتها ، ويضنوا بها على ما سمح بنفسه عليه . وهذا نهى بليغ ، مع تقييد الأمر ، وتوبيخ لهم عليه ، وتهيب لمتابعته بأقفة وحمة . انتهى .

روى أن أبا ذر رضى الله عنه ^(١) ، أبطأ به بيمره ، فحمل متاعه على ظهره ، واتبع أثر رسول الله ﷺ ماشياً ، فقال رسول الله ﷺ لما رأى سواده : كن أبا ذر ! فقال الناس : هو ذاك ! فقال : رحم الله أبا ذر ، يمشى وحده ، ويموت وحده ، ويبعث وحده . وروى أن أبا خيثمة ^(٢) الأنصاري رضى الله عنه ، بلغ بستانه ، وكانت له امرأة حسناء فرشت له في الظل ، وبسطت له الحصير ، وقربت إليه الرطب ، والماء البارد . فنظر فقال : ظل ظليل ، ورطب يانع ، وماء بارد ، وامرأة حسناء ، ورسول الله ﷺ في الضح ^(٣) والريح ، ما هذا بخير ! فقام فراحل ناقته ، وأخذ سيفه ورمحه ، ومرت كالريح . فمد رسول الله ﷺ طرفة إلى الطريق ، فإذا براكب يزهاه السراب ^(٤) ؛ فقال : كن أبا خيثمة ! فكانه ، ففرح به رسول الله ﷺ ، واستغفر له .

قال التميمي في (الروض) : كن أبا ذر ، كن أبا خيثمة ، لفظه لفظ الأمر ، ومعناه كما تقول : اسلم ، أى سلمك الله - انتهى .

- (١) انظر سيرة ابن هشام ، بالصفحة رقم ٩٠١ (طبعة جوتنجن) والصفحة رقم ١٦٧ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) . (٢) انظر سيرة ابن هشام ، بالصفحة رقم ٨٩٧ (طبعة جوتنجن) والصفحة رقم ١٦٣ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) . (٣) الضح : بفتح الضاد المعجمة وتشديد الحاء المهملة : ضوء الشمس وحرها . (٤) أى يرفع شخصه للنظار .

وكذا قال غيره من المتقدمين كالفارسي . وذكره الطبرزي في قول الحريري : كُنْ أبازيد .

وفي شعر ابن هلال :

ومعذر قال الإلهُ لحسنه : كُنْ فتنةً للعالمين فَكَانَهَا

ولم يزيدوا في بيانه على هذا . وهو تركيب بديع غريب . ومعناه سافه الله إلينا ، وجمله إياه ، ليسكون هو القادم علينا . فأقيم فيه الملة مقام الملول في الجملة الدعائية الإنشائية ، على حد قوله في الحديث ^(١) : أبُلِّ ، وأُخْلِقُ . أى عمرك الله ، ومتمك الله بلباسك لتبلى وتخلق . وقولهم : اسلم . أى سلمك الله لتسلم . ثم لما أقيم مقامه أبقى مسنداً إلى فاعله ، وإن كان المطلوب منه هو الله ، وهو قريب من قولهم (لا أرينك هاهنا) أى لا تجلس حتى أراك . وهو تمثيل أو كناية . كذا في (العناية) .

« ذَلِكَ » إشارة إلى ما دل عليه قوله (مَا كَانَ) من النعى عن التخلف أو وجوب المشابهة « بِأَنَّهُمْ » أى بسبب أنهم « لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ » أى شئ من العطش « وَلَا نَصَبٌ » أى تعب من السير لا سيما مع العطش « وَلَا مَخْمَصَةٌ » أى مجاعة تضيقهم عن السير « فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا » أى لا يدوسون مكاناً « يَغِيظُ الْكَفَّارَ » أى الذين هم أعداء الله . وإغصاب المدوق يفيد رضا عدوه « وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً » أى قتلاً أو هزيمة أو أسراً « إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ » أى على إحسانهم . وهو تعليل لـ (كُتِبَ) ، وتنبيه على أن تحمل المشاق إحسان ، لأن القصد به إعلاء كلمة الله تعالى .

(١) الحديث أخرجه البخاري في : ٥٦ - كتاب الجهاد ، ١٨٨ - باب من تكلم بالفارسية والرطانة ، والحديث رقم ١٤٥٥ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢١] (وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً » أى لا يشق مثلها « وَلَا كَبِيرَةً » مثل ما أنفق عثمان رضى الله عنه فى غزوة تبوك ، وهو ألف دينار وثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها « وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا » فى مسيرهم ، وهو كل منفرج ينفذ فيه السيل . اسم فاعل من (ودى) إذا سال ، فهو السيل نفسه ، ثم شاع فى محله ، ثم صار حقيقة فى مطلق الأرض ، وجمعه (أودية) كفاد ، بمجلس ، جمعه (أندية) ، وناج جمعه (أنجية) ولا رابع لها فى كلام العرب « إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ » أى أثبت لهم به عمل صالح « لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » أى ليجزيهم على كل عمل لهم ، كامل أو قاصر ، جزاء أحسن أعمالهم . أى فإذا مالوا بأنفسهم فاتهم ذلك ، وكانت المؤاخذة عليهم أشد .

ولما بين تعالى ، فيما تقدم ، خطر التخلف عن الرسول فى الجهاد ، وشدة الوعيد على المتخلفين التاركين للنفير ، دفع ما يقوم من وجوب النفر على الجميع ، وفيه ما فيه من الحرج ، والإخلال بأمر المماش ، بأن وجوبه كفاى ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٢] (وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ)

« وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً » أى ما صح لهم ذلك ولا استقام ، بحيث تخلو بلدانهم عن الناس « فَلَوْلَا نَفَرَ » أى فحين لم يمكن نفيهم الكافة ، ولم يكن مصلحة ، فهلا نفر « مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ » أى من كل جماعة كثيرة ، جماعة قليلة منهم

يكفونهم الفير « لَيْتَقَفَّهُوا فِي الدِّينِ » أى ليتعلموا أمر الدين من النبي ﷺ « وَلْيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ » أى يعلموهم ويخبروهم ما أمروا به ، وما نهوا عنه « إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ » أى من غزوتهم « لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ » أى فيصلحون أعمالهم .

تنبيهات :

الأول - قال السيوطى فى (الإكمال) : فى الآية أن الجهاد فرض كفاية ، وأن التفقه فى الدين ، ونشر العلم ، وتعليم الجاهلين كذلك . وفيها الرحلة فى طلب العلم . واستدل بها قوم على قبول خبر الواحد ، لأن الطائفة نفر يسير ، بل قال مجاهد : إنها تطلق على الواحد . انتهى .

وقال الجصاص فى (الأحكام) : فى الآية دلالة على لزوم خبر الواحد فى الديانات التى لا تلزم العامة ، ولا تعم الحاجة إليها ، وذلك لأن الطائفة لما كانت مأمورة بالإنذار انتظم فحوى الدلالة عليه من وجهين :

أحدهما - أن الإنذار يقتضى فعل المأمور به ، وإلا لم يكن إنذاراً .

والثانى - أمره إيانا بالحدز عند إنذار الطائفة ، لأن معنى قوله : (لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ) ليحذروا . وذلك يتضمن لزوم العمل بخبر الواحد ، لأن الطائفة تقع على الواحد ، فدلتها ظاهرة . انتهى .

وفى القاموس : أن الطائفة من الشيء القطعة منه ، أو الواحدة ، فصاعداً ، أو إلى الألف ، أو أقلها رجلان ، أو رجل . فيكون بمعنى (النفس الطائفة) .

قال الراغب : إذا أريد بالطائفة الجمع ، فجمع (طائف) وإذا أريد به الواحد ، فيصح أن يكون جمعاً ، وكفى به عن الواحد ، وأن يجعل كـ (راوية) و (علامة) ونحو ذلك .

الثانى - إن قيل : كان الظاهر فى الآية (ليتقوهوا فى الدين وليعلموا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يفتقون) فلم يضع موضع (التعليم) الإنذار ، وموضع (يفتقون) يحذرون ؟

يجاب . بأن ذلك آذن بالعرض منه ، وهو اكتساب خشية الله ، والحدوث من بأسه .
قال الغزالي رحمه الله : كان اسم الفقه في العصر الأول ، اسماً لعلم الآخرة ، ومعرفة دقائق
آفات النفوس ، ومفسدة الأعمال ، والإحاطة بحقارة الدنيا ، وشدة القطع إلى نعيم الآخرة ،
واستيلاء الخوف على القلب . ويدل عليه هذه الآية . كذا في (العناية) .

قال الزمخشري في الآية : وليجعلوا غرضهم ومرمى همهم في التفقه ، إنذار قومهم
وإرشادهم والنصيحة لهم . لا ما ينتجيه الفقهاء من الأغراض الخسيسة ، ويؤمنونه من
المقاصد الركيكة ، من التصدر والترؤس والتبسط في البلاد ، والتشبه بالظلمة في ملاسهم
ومراكبهم ، ومنافسة بعضهم بعضاً ، وفشوق داء الضرائر بينهم ، وانقلاب حاملق أحدهم
إذا لم يجد مدرسة لآخر ، أو شذمة جثوا بين يديه . وتهالكه على أن يكون موطاً
ألقب دون الناس كلهم . فما أبعد هؤلاء من قوله عز وجل^(١) : (لَا يُرِيدُونَ غُلُوبًا
فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا) . انتهى .

الثالث - قال القاشاني في الآية : يجب على كل مستمدم من جماعة ، سلوك طريق طلب
العلم ، إذ لا يمكن لجميعهم . أما ظاهراً فلفوات المصالح ، وأما باطنياً فلمدم الاستعداد . ثم قال :
والتفقه في الدين هو من علوم القلب ، لا من علوم الكسب ، إذ ليس كل من يكتسب العلم
يتفقه ، كما قال^(٢) : (وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ) والأكنة هي الغشاوات
الطبيعية ، والحجب النفسانية فمن أراد التفقه فلينفذ في سبيل الله ، وليسلك طريق التزكية
والتصفية ، حتى يظهر العلم من قلبه على لسانه . فالمراد من التفقه علم راسخ في القلب ،
ضارب بمروقه في النفس ، ظاهر أثره على الجوارح ، بحيث لا يمكن صاحبه ارتكاب
ما يخالف ذلك العلم ، وإلا لم يكن عالماً . ألا ترى كيف سلب الله الفقه عن لم تكن رغبة

(١) [٢٨ / القصص / ٨٣] . (٢) [٦ / الأنعام / ٢٥] و [١٧ / الإسراء / ٤٦] .

الله أغلب عليه من رهبة الناس بقوله ^(١) : (لَا تَنْتُمْ أَشَدَّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ) ، لكون رهبة الله لازمة للعلم ، كما قال ^(٢) : (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) وسلب العلم عمن لم يعمل به في قوله ^(٣) : (هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) ، وإذا تفقهوا ، وظهر علمهم على جوارحهم ، أثر في غيرهم ، وتأثروا منه ، لارتوائهم به ، وترشحهم منه ، كما كان حال رسول الله ﷺ ، فلزم الإنذار الذي هو غايته . انتهى .

ولما أمر تعالى ، في صدر السورة ، بالبراءة من مشركي العرب وقتالهم ، ثم شرح أحوال المنافقين ومخازيهم ، أشار إلى خاتمها بما يطابق فاتحتها بذلك ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٣] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِّنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِّنَ الْكُفَّارِ » أى يقربون منكم ، وهم مشركو جزيرة العرب ، كما قلنا .

وقوله تعالى : « وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً » قالوا إنها كلمة جامعة للجراحة والصبر على القتال ، وشدة العداوة ، والعنف في القتل والأسر . وظاهرها أمر الكفار بأن يجدوا في المؤمنين غلظة ، والمقصود أمر المؤمنين بالانصاف بصفات كالصبر وما معه ، حتى يجدم الكفار متصين بها ، فهي على حد قولهم : لا أرينك همفا . والغلظة هي ضد الرقة ، مثلثة الغين ، وبها قرئ . لکن السبعة ، على الكسر « وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ » أى بالنصرة والمعونة .

(١) [٥٩/الحشر/١٣] . (٢) [٣٥/فاطر/٢٨] . (٣) [٣٩/الزمر/٩] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٤] (وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا ، فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ)

« وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ » أى طائفة من القرآن المعجز المحيط بحملة من الحجج ورفع الشبه « فَمِنْهُمْ » أى من المنافقين « مَّن يَقُولُ » بعضهم لبعض « أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ » أى السورة « إِيمَانًا » إنكاراً واستهزاء بالمؤمنين ، واعتقادهم زيادة الإيمان زيادة العلم الحاصل بالوحى والعمل به « فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا » لأنها أزيد لليقين والثبات ، وأنتج للصدر ، لكثرة الدلائل ، ورفع الشبه « وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ » أى ينزولها وبما فيه من المنافع الدينية والدنيوية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٥] (وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ)

« وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ » أى كفر وسوء عقيدة « فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ » أى كفرأ بها مضموماً إلى الكفر بغيرها « وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ » أى واستحكم ذلك الكفر فيهم ، بسبب الزيادة إلى موتهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٦] (أُولَٰئِكَ يَرْوَنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ)

« أُولَٰئِكَ يَرْوَنَ » أى المنافقين « أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ » أى يبتلون بإظهار مكرهم وخيانتهم ،

أو بنقض عهدهم « فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ » أى من صنيعهم ونقض عهدهم « وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ » أى يمتطون بأنها آيات قاطعة ، وكون الابتلاء بسبب مخالفتها . ثم بين أحوالهم عند نزولها وهم فى محفل تبليغ الوحي ، إثر بيان مقاتلهم ، وهم غائبون عنه بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٧] (وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا ، صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ)

« وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ » قال الزمخشري : يعنى تفاوضوا بالعيون إنكارا للوحي ، وسخرية به ، قائلين : هل يراكم من أحد من المسلمين لننصرف ، فإننا لا نصبر على استماعه ، ويغلبنا الضحك ، فنخاف الاقتضاح بينهم . أو ترامقوا يتشاورون فى تدبير الخروج والانسلال لو اذا . يقولون : هل يراكم من أحد « ثُمَّ انْصَرَفُوا » أى عن محفل الوحي خوفاً من الاقتضاح « صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ » أى عن الإيمان حسب انصرافهم عن حضرته عليه السلام . والجملة إخبارية أو دعائية « بِأَنَّهُمْ » أى بسبب أنهم « قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ » أى لا يتدبرون أمر الله حتى يفقهوا .

تنبيهات :

الأول - دلت الآية المتقدمة على زيادة الإيمان بما ذكر . وسواء قلنا بدخول الأعمال فى مسمى الإيمان ، وهو الحق ، أو لا ، وأنه مجرد التصديق القلبي ، فالزيادة مما يقبلها قطعاً ، والأول بديهي ، والثانى مثله ، إذ ليس إيمان الأنبياء ، عليهم الصلاة والسلام ، والصحابة رضى الله عنهم ، كالإيمان غيرهم وهذا مما لا يُرتاب فيه .

الثانى - ذكر تعالى من مخازى المنافقين نوعين : عدم اعتبارهم بالابتلاء ، وتمسك الكفر

منهم ، وازدياده في وقت يقتضى زيادة الإيمان ، وهو تكرير التزليل . ولما كان القصد بيان إصرارهم على كفرهم ، وعدم نفع العظات فيهم ، ختم مخازيهم بذلك ، لأنه تبيخها . وقدم عليه ما يصيبهم من الابتلاء ، لأن فيه ردعاً عظيماً لو تذكروا . وقد تلطف القاشاني في إيضاح ذلك ، وجود التقرير فيه ، وعبارته :

البلاء قائد من الله تعالى يقود الناس إليه . وقد ورد في الحديث ^(١) : (البلاء سوط من سياط الله تعالى يسوق به عباده إليه) ، فإن كل مرض وفقر وسوء حال يحل بأحد ، يكسر سورة نفسه وقواها ، ويقمع صفاتها وهواها ، فيلين القلب ، ويرز من حجابها ، ويترجع من الركون إلى الدنيا ولذاتها ، وينقبض منها ويشمئز ، فيتوجه إلى الله . وأقل درجاته أنه إذا اطلع على أن لا مفر منه إلا إليه ، ولم يجد مهرباً ومحيصاً من البلاء سواه ، تضرع إليه وتذلل بين يديه ، كما قال ^(٢) : (وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَجٌّ كَاظِمٌ لَدَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) (وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا) ^(٣) وبالجملة بوجوب رقة الحجاب أو ارتفاعه ، فليغفم وقته وليتعمد ، وليتخذ ملجأ يعمد إليها أبداً حتى يستقر التيقظ والتذكر ، وتسهل التوبة والحضور ، فلا يعمدوا الغفلة عند الخلاص فتغلب ، وتغوى النفس عند الأمان ، وينسبل الحجاب أغلظ مما كان ، كما قال ^(٤) : (فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ) (فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ غُضْرَهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضَرٍّ مَسَّهُ) ^(٥) انتهى :

الثالث - قال السيوطي في (الإكمال) : أخذ ابن عباس من قوله (ثم انصرفوا) كراهية أن يقال : انصرفت من الصلاة - أخرجه ابن أبي حاتم - ومرجع هذا إلى أدب لفظي ، باجتناب ما يؤهم ، أو ما يُسمى به على المعصاة .

(١) لم أفق على هذا الحديث . (٢) [٣١ / لقمان ٣٢] .

(٣) [١٠ / يونس / ١٢] . (٤) [٢٩ / المنكيات / ٦٥] .

(٥) [١٠ / يونس / ١٢] .

وقد عقد الإمام ابن القيم في (زاد المعاد) فصلاً في هدى النبي ﷺ في حفظ المنطق ، واختيار الألفاظ ، فليراجع .

ثم بين تعالى ما امتن به على المؤمنين من بركة خاتم النبيين بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٨] (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ)

« لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ » أى رسول عظيم من جنسكم ، ومن نسبكم ، عربى قرشى مثلكم ، كما قال إبراهيم عليه السلام ^(١) : (رَبَّنَا وَإِنَّا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ) . وقال تعالى ^(٢) : (لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ) .

وكلم ^(٣) جعفر بن أبى طالب النجاشى ، والمغيرة بن شعبة رسول كسرى ، فقالا : إن الله بعث فينا رسولا منا ، نعرف نسبه وصفته ومدخله ومخرجه وصدقه وأمانته ... الحديث .

ثم ذكر تعالى ما يتبع المجانسة والمناسبة من النتائج بقوله « عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ » أى شديد عليه شاق ، لكونه بعضاً منكم ، عنيتكم وفاقاؤكم المكروه ، فهو يخاف عليكم سوء العاقبة ، والوقوع في العذاب « حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ » أى على هدايتكم ، كى لا يخرج أحد منكم عن اتباعه ، والاستسعاد بدين الحق الذى جاء به « بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ » إذ يدعوهم لما ينجيهم من العقاب بالتحذير عن الذنوب والمعاصى ، لفرط رأفته « رَّحِيمٌ » إذ يفيض عليهم العلوم والمعارف والوسائل المبررة بالتعليم والترغيب فيها ، برحمته ^(٤) .

(١) [٢ / البقرة / ١٢٩] . (٢) [٣ / آل عمران / ١٦٤] .

(٣) انظر سيرة ابن هشام ، الصفحة رقم ٢١٩ (طبعة جونتجن) والصفحة رقم ٣٥٩

من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٩] (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ، وَهُوَ

رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ)

« فَإِنْ تَوَلَّوْا » أى أعرضوا عن الإيمان بك ، وناصبوك « فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ » أى

فاستعن به ، وفوض إليه ، فهو كافيك وناصرك عليهم .

وقال القاشانى : أى لا حاجة لى بكم ، ولا باستعانتكم ، كما لا حاجة للإنسان إلى المصو

المألوم المتعفن الذى يجب قطعه عقلا . أى الله كافينى فلا مؤثر غيره ، ولا ناصر إلا هو كما

قال : « لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ » أى فوضت أمرى إليه ، وبه وثقت « وَهُوَ رَبُّ

الْعَرْشِ الْعَظِيمِ » أى المحيط بكل شىء ، يأتى منه حكمه وأمره إلى السكل . وتخصيصه

لكونه أعظم المخلوقات ، فيدخل ما دونه ، وقرىء (العظيم) بالرفع ، على أنه صفة الرب

جل وعز .

تم ماعلقناه على سورة التوبة صباح الاثنين فى ٢٤ رجب سنة ١٣٢٢هـ

فى سدة جامع السفانية بدمشق الشام

اللهم يسر لنا بفضلك الإتمام . والحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد وآله أجمعين

إلى يوم الدين .

وبليه الجزء التاسع وفيه تفسير سور : يونس وهود ويوسف والرعد .

